

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب: **الإحسان، ج1**

المؤلف: **عبد السلام ياسين**

الطبعة الثانية: 1439هـ/ 2018م

السحب: **دار لبنان للطباعة والنشر**

رقم الإيداع القانوني: 9789920740005

عبد السلام ياسين



الجزء الأول



الطبعة الثانية : 1439/ 2018

ISBN: 9789920740005

بشامون - الطريق العام - مجمع بشامون الصناعي

هاتف و فاكس : 5813203 - 00961

البريد الإلكتروني: dar@darlubnan.com

الموقع الإلكتروني: www.darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Name: DAR LOUBNAN LIL TIBAA WAL NASHR

ACC: 1578046

BLOM BANK SAL- MAIN BRANCH

RACHID KARAMEH STREET

BEIRUT LEBANON

IBAN: LB61 0014 0000 4002 3041 5780 4614

(CURRENT USD)

SWIFT CODE: BLOMLBBX

الجزء الأول

- مقدمة
- الرجال
- عقبة واقتحام
- الصحبة والجماعة
- الذكر
- الصدق
- البذل

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

اللهم اجعلنا من الفائزين الفوز العظيم فضلا منك ومنة يا ملك يا وهاب.

أما بعد فقد كتبت كتاب «**الإحسان**» منذ سبع سنوات، ونشرت، خلسة من الرقابة الصارمة على المطابع أن تتعامل معنا، الفصل الأول منه تحت عنوان «**الرجال**».

كان بعض الفضلاء ممن يتأسفون على «سوابقي» الصوفية اقترح علي أن أكتب متبرئا من ماضيّ الصوفي. ولعلهم بحسن نية أرادوا أن يمحوا عني وصمة. ولعلهم ظنوها زلة. ولعلهم.

فهأنا أكتب بعد تسع وعشرين سنة مضت منذ وضعت قدمي في الحوزة المباركة يوم احتضنني وليدا تائبا حائرا وأنا في الأربعين من عمري شيخي وقدوتي إلى الله العارف بالله الشريف النسيب سيدي الحاج العباس بن المختار القادري نسبا البوتشيشي شهرة الشاذلي طريقة.

رحمه الله وأجزل له المثوبة بما غذى الوليد بذلك الغذاء الروحي الذي لا يخطر وجوده ببال من يسألني عن مؤلفات شيخي سؤال تبكيت، لأن الرجل العظيم رحمه

الله ما كان معه من مؤهلات القُرّاء المهرة الحاذقين إلا زاد متواضع من حفظ القرآن والتفقه في الدين. عالم الروح وعجائب القلب واختصاص الله عز وجل من شاء من عباده بما شاء من مادة ترياق القلوب أمور ما عندَ المبكتين بها خبر. كان الله لنا ولهم.

وُلدت الميلاد المعتمد في طريق الله على يد محسن من المحسنين، في ظل قلب تزكى لما زكاه الله. شيخ صوفي قال الاصطلاح. ما هو التصوف وما بينه من علاقة وبين الألفاظ القرآنية النبوية مثل: إحسان، تزكية، أولياء، تقرب إلى الله، سابقون، مقربون، محِبون، محبوبون؟ وهل بعد العلم يَرويه العلماء عن العلماء بما قال الله وقال رسول الله من مطلب؟

حاولت في الفصل المنشور منذ سنوات بعنوان «**الرجال**» أن أضع بين يدي العقلاء نماذج من علماء المسلمين وأفذاذهم الذين بحثوا عن عارف بالله يربيهم. وانهالت علي من بعض الناس حملات تؤكد جَهد أيمانها أن مؤلف كتاب «**الإسلام بين الدعوة والدولة**» لا يزال سادرا في غيه، مصرا على ضلاله، ناشرا لبدعته. وكفَّرْ الناس يا من لا يتورع ولا يحب أن ينزل لحظة عن رئاسته ليتعلم. سبحان الله**!** واحد أمضى بحول الله وتوفيقه تسعا وعشرين سنة في رحاب عمل الليل والنهار، وجُهد العقل والجسد والقلب ضال مضل. وواحد قرأ ورقات شتم ولعن وسب وتكفير في الصوفية كلامه حجة**!** سبحان الله**!**

أما بعد فهل ينفع أن نُثير المعارك حول التصوف، أم يجمُل أن نسكت؟ بل السؤال هو: أفينا من يصبر حتى يتعلم أم إن الأمر «أشار فأشار» ونمضي لشأننا على سطوح التسلف المجند يداً واحدة علينا مع «من غلبهم بالسيف حتى سمي أمير المؤمنين»، لا يحل عقيدة متوارثة أنْ نبيت ولا نراه لنا إماما مطاعا. أو نمضي لشأننا ببراح إسلام فكري ثقافي سياسي وما شئت، لكن دعنا، نرجوك، من الصوفية.

منذ عشرين سنة حمل أحد الإخوان كتابَيّ «**الإسلام بين الدعوة والدولة**» و«**الإسلام غدا**» إلى الموسم بمكة المكرمة. في مكة أهدى أخي سيدي أحمد الملاخ نسختين للسيد الجليل أبي الحسن الندوي. فلما انصرف الناس إلى المدينة المنورة

إذا بالشيخ الندوي يبحث عن المغربي ليُحمله إلي رسالة شفوية مؤداها: «جزاك الله خيرا صرحت بما لا نستطيع التصريح به».

كان أستاذ الأجيال ولا يزال وفقه الله يحمل عبئا ثقيلا في جمع شمل المسلمين بالهند. وكانت له صلات بجهات تختنق فيها العقيدة الحنبلية التيمية الوهابية شديدة المراس. لم تمنعه صلاته تلك أن يكتب ببيانه العذب وعلومه الواسعة دفاعا متنوع المظاهر عما سماه القرآن تزكية، وسماه الاصطلاح التاريخي تصوفا، وسماه شيخ الإسلام ابن تيمية فقه سلوك تعقّبه بالنقد بعد اطلاع واسع على دخائل من تسموا صوفية. فيهم أمثال الجنيد والشيخ عبد القادر وأضرابهم من أئمة الدين رحمهم الله، وفيهم أكلة الأفاعي والراقصون والزنادقة والمجانين والسكارى الشطاحون. كل أولئك اجتهد شيخ الإسلام ليميز من بينهم الصالح من الطالح. الصالح والطالح في نظره.

كتب الشيخ أبو الحسن الندوي في «**رجال الفكر والدعوة**» و«**ربانية لا رهبانية**». ولكن العقلانية التيمية الصائلة في الميدان المدججة بالمال وسيل المطبوعات الفاخرة والجامعات تفرخ الدكاترة المجندين المتكلمين حراس العقيدة تترصد البدعة والضلالة والكفر والجهل وفساد العقيدة وراء كل ما ينطق بالتصوف. التصوف جملة واحدة ضلال قبل أي كلام.

وتحسَّرْ أنت وحدك يا من يحمل هم الأمة على ما تسرب إلى جوهر الدين من خلال التصوف الفلسفي الشاطح، وعلى ما تعانيه الدعوة من خواء روحي. هذه النفوس الصاحية إلى الإسلام، وهذا الشباب المتطلع إلى صلاح كيف نهدي إليه والمعمعة حامية بشرى التزكي وترياق الشفاء تحت شعار مقبول مثل «التربية الروحية» دون أن نذكر الكلمة/ الحرب ودون أن نصارح هذه الأجيال الصادقة بأمانة وصدق أن التصوف عمل، وأن العلم بما هو التصوف فرض على كل ناصح لنفسه لا يقعقع له بالشنان زجرا له عما تصفه العقلانية المقتضبة بالبدعة والضلالة والكفر والزندقة كلمةً واحدة.

وليس من شأننا، ولا مما يشغلنا، ولا مما ينبغي أن يشغلنا الدفاع عن خطإ من أخطأ، وتثبيت أقدام من زل، وتذكير الناسي بما نسي.

يا من رخص عليه دينه فأَوْرَى زند الحرب على المسلمين وشنها شعواء على المؤمنين! ويحك! أرثي والله لزهدك في الاطلاع على دينك! شعارك «الكتاب والسنة» وهو شعار المؤمنين. لكنك تفهم وحدَك متلففا في مذهبيتك الكتاب والسنة. وغيرك ضال ومضل. ما أنصفت نفسك إذ استخففت بأجيال العلماء من الأمة الذين دانوا الله قبلك وحققوا ودققوا ونصحوا. ولا أنصفت غيرك إذ اختصرت المسألة في تقابل ضدي بين تصوف كفر وعقيدة سليمة. العقيدة السليمة أنت، وغيرك جهمي معطل فاسق بدعي كافر. ويحك!

هل من سبيل يا أهل السماحة إلى الحديث في هذا الموضوع دون نفثات حسرة وغضب؟

أكثرت في هذا الكتاب من اقتطاف نصوص من أطايب الكلام لأمثال الشيخ عبد القادر والشيخ الرفاعي وشيخ الإسلام ابن القيم رحمهم الله، خرقا للمنهجية الأكاديمية التي تأبى أن تسرد النصوص الطويلة. «لست من قيس ولا قيس مِنِي!». فلذلك أهدي القارئ من عيون البلاغة وأزاهر البيان.

قال المعترض: هذا عبد القادر وأحمد الرفاعي صوفيان مشهوران. فما بال ابن القيم وهو العالم السلفي المجيد؟

قلت: من قرأ تذييل ابن رجب على طبقات الحنابلة اطلع على ما عند سادة المذهب وأئمته رضي الله عنهم من تقوى وربانية وخشية لله تعالى. لا يحبون كلمة «تصوف» لكن سلوك أكابرهم يذكر بسلوك الصالحين في القرون الفاضلة.

ومن قرأ كتب ابن القيم مثل «مدارج السالكين» و«دار الهجرتين» وما فيها من الرقائق وبدائع الوعظ والتذكير والهمسات والزفرات المكتومة ربما أدرك أن في الأمر شيئا مميِّزاً بين العقلانية الصارمة للشيخ ابن تيمية والتلميذ ابن القيم.

وإن في الأمر لأشياء أعرضها في هذا الكتاب حين كتب شيخ الإسلام من سجنه الذي مات فيه رحمه الله ورفع درجته يعيِّر أصحابه بأنه ينقصهم الوجد، ويبشرهم بأن الله تعالى فتح له ما لم يكن بالحسبان.

سبحان الله! عُمْرٌ كامل في مزاولة العقل والنقل ومحاربة الوجد والواجدين، ثم انقلاب آخر رمق!

حارب قبل شيخ الإسلام الصوفية الإمام ابن الجوزي رحمه الله. ووصفهم في «تلبيس إبليس» -وصف ما شاهد وما سمع- بأنهم من «جملة الزهاد وقد ذكرنا تلبيس إبليس على الزهاد إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال وتوسموا بسمات فاحتجنا إلى إفرادهم بالذكر، والتصوف طريق كان ابتداؤها الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من الزهد. ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب فلا بد من كشف تلبيس إبليس عليهم في طريقة القوم».[1] ثم نجد ابن الجوزي في كتابه «صيد الخاطر» يقول: «مجرد العلم بالحلال والحرام ليس له كبير عمل في رقة القلب. وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار السلف الصالحين وأذواق أهل التصوف».

ونجد الحافظ ابن الجوزي ينصح ابنه قائلا: «وعليك بكتاب «منهاج المريدين»، فإنه يعلمك السلوك، فاجعله جليسك ومعلمك، وتَلَمَّحْ كتاب «صيد الخاطر»، فإنك تقع بواقعات تصلح أمر دينك ودنياك».[2]

حنابلة أئمة يرجعون. هذا عير إخوانه في آخر حياته بأنه ينقصهم الوجد بعد أن حارب الوَجد وأهل الوجد عمرا حافلا. والآخر كشف عن تلبيسات إبليس لدى المتزهدة الذين يكثرون من الأكل والرقص والغناء، ثم ينصح أعز الناس عليه وأقربهم إليه، وينصح الأمة بالبحث عما يرقق القلوب ويوقظ القلوب لتذوق حلاوة الإيمان.

ولئن تركها ابن الجوزي رحمه الله إشارة إلى «أذواق أهل التصوف»، وتركها بعده شيخ الإسلام رحمه الله توجيها إلى طلب الوجد، فإننا بعون الله نُطَوِّف في رياض المربين المتزكين الذائقين الواجدين المحبين الوالهين في جلال الله

(1) تلبيس إبليس، ص: 145.

(2) لفتة الكبد في نصيحة الولد، ص: 66.

وجماله، عسى يشيم صادق صابر معنا وصادقة صابرة من عبير النفح الروحي وعطر التزكية الإحسانية.

واذهب أنت يا من تمر على فتاوي ابن تيمية مر الكرام لا تقف عند فصوص الكلام ومفاصل العبرة، تكفر المسلمين وترفع لواء حمله قبلك فطاحلة ثم تخلوا عنه.

أكتب يا أهل السماح هذه المقدمة ليلة السابع والعشرين من رجب سنة 1414هـ تيمنا بالذكرى المباركة للإسراء والمعراج. على سيدنا وحبيبنا محمد رسول الله أزكى الصلاة وأطيب السلام. اللهم اهد قلوبنا لما فيه خيرنا وخير المسلمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سلا، ليلة الاثنين 27 رجب 1414.

الفصل الأول

الـرجـال

- معاني الإحسان
- ألا وإن في الجسد مضغة
- علم التصوف فقه واجتهاد
- علوم القوم ومكانتها من بين العلوم
- المحدثون والصوفية
- الفقهاء تلامذة الصوفية
- بين التشدد والاعتدال
- مراجعة وتوبة

معاني الإحسان

لفظ «الإحسان» يدل على معاني ثلاثة ورد بها القرآن ووردت بها السنة:

1. الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

2. الإحسان إلى الناس، كالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والمسلمين وسائر الخلق أجمعين.

3. إحسان العمل وإتقانه وإصلاحه، سواء العمل العبادي أو العادي أو المعاملاتي.

مجموع هذه الدلالات يعطينا مواصفات المؤمن الصالح في نفسه وخلقه وتعامله مع المجتمع، يعطينا الوصف المرغوب لعلاقات العبد بربه وبالناس وبالأشياء. علاقته بربه تكون إحسانية إن حافظ على ذكره لايفتر عن مراقبته وخشيته ورجائه ودعائه ومناجاته. بهذا الإحسان في عبادة ربه يطيب قلبه وتجمل أخلاقه وتصلح نواياه وأفعاله فيكون للخلق رحمة يعم نفعه العالم الأقرب فالأقرب. ونفعه للمجتمع وللناس كافة لا يتوقف على حسن النية وجمال القصد والإسراع إلى الفعل فقط، بل يتوقف أيضا، وبالمكانة المؤكدة، على خبرته ومهارته وقدرته على إتقان ما هو موكول إليه من أعمال.

يقول رسول الله ﷺ فيما أخرجه البيهقي رحمه الله عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه». ومن حديث مسلم رحمه الله قوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء». في هذين الحديثين نجد المعنى الثالث للإحسان عائدا إلى المعنى الأول، حصول الأول متوقف إلى حد على حصول الثالث. ويعم حب الله تعالى المحسنين، أكملهم نصيبا من حبه تعالى من عبده ذاكرا نافعا للعباد متقنا مجيدا، يعطيه إتقانه الوسائل الضرورية لإرضاء الحاجات الدنيوية

لنفسه وعائلته وأمته، وتؤهله خدمته وإنجازاته الدنيوية للتقرب من الله رب العباد من خلال هذه الإنجازات نفسها.

وردت عبارة ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أو ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في سورة البقرة، وفي سورة آل عمران مرتين، وفي المائدة مرتين. وفي القرآن آيات عديدة تعد أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين، وأن البشرى للمحسنين. حض على الإحسان متكرر، فما هي حقيقة الإحسان تفصيلا؟

بعد أن وضعنا على رأس هذه الفقرة المعاني الثلاثة مرتبة، نستمع إلى بيان ترجمان القرآن رسول رب العالمين لنضع الإحسان في مكانته من الإسلام والإيمان. فإن الإحسان ما هو معنى عائم هكذا، عام الدلالة بعموم المدلول اللغوي، بل الإحسان رتبة في الدين ودرجة في التقوى، لها الأهمية القصوى. الإحسان غاية الغايات ومحط نظر ذوي الهمم العالية من الرجال. لأهمية الإحسان هذه البالغة شاء الله جل شأنه أن يرتب للصحابة رضي الله عنهم ولنا من بعدهم حادثة تلفت النظر وتعلق بالخيال، وتخاطب العقل والوجدان، لكيلا يفهم المسلمون دينهم فهما مسطحا. هذه الحادثة هي نزول جبريل عليه السلام لاستجواب الرسول الكريم وهو بين أصحابه في مجلس تعليمه. رأوا الملك المقرب جميعا وشهدوا الحوار. هذه لوحة خالدة للتعليم الرباني يرويها الشيخان وأبوداود والنسائي رحمهم الله عن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما بصيغة مقتضبة نمسك منها عبارة أن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». في هذه الرواية يقول الحبيب آخر الحديث: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم».

نأخذ الرواية الأتم، ننقلها بتمامها لأهميتها البالغة، أخرجها مسلم وأبوداود والنسائي رحمهم الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق. فلبثت مليا (أي قليلا) ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

نعم يا حبيب الله أنت المعلم نعم المعلم جزاك الله عن هذه الأمة ما هو أهله. لكن رحمته سبحانه بنا، وحرصه على أن نتعلم ديننا كاملا وافيا، لما يعلم من قصور فهمنا وغلبة النسيان علينا واختلاط معالم الأمور في ذاكرتنا، بعثت معلما مساعدا سماويا هو رفيقك ومحاذيك في إسرائك ومعراجك. عليك صلاة الله وسلامه وعلى الملك الكريم.

الإحسان أن نعبد الله كأننا نراه. درجة ثالثة بعد الإسلام والإيمان، فوقهما، بناء عليهما لاتحليقا، لاإيمان بلا إسلام، ولا إحسان بلا إيمان.

الله سبحانه أحسن صبغة وأحسن قيلا. وهو أحسن الخالقين. ومن إحسانه يفيض الخير على من أقرض الله قرضا حسنا، وعلى من أبلى بلاء حسنا. منه إلينا الرزق الحسن والمتاع الحسن في الدنيا والحسنى وزيادة في الآخرة إن نحن أحسنا في هذه الدنيا حسنة، وهاجرنا فيه سبحانه ليبوئنا في الدنيا حسنة. يزيدنا حسنا إن اقترفنا حسنة ويعطينا إن أحسنا الدعاء في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

له الأسماء الحسنى سبحانه. دعانا رسوله المصطفى بالموعظة الحسنة، فإن نحن استجبنا لربنا وصدقنا بالحسنى أعطانا الحسنى في هذه الدار، وجعلنا من المبعدين عن النار مع الذين سبقت لهم منه الحسنى.

أمرنا أن نتبع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، وهو كتابه العظيم وسنة رسوله الكريم، وفي كتابه وسنة رسوله الإحسان إلى الوالدين، والدفع بالتي هي أحسن رفقا بالخلق وملاطفة، وأن نقول للناس حسنا، وأن نجازي بالإحسان إحسانا.

خلقنا سبحانه في أحسن تقويم، ثم ردنا أسفل سافلين في دار الامتحان ليبلونا أينا أحسن عملا، فمن آمنوا وعملوا صالحا كان لهم أجر غير ممنون، وكلما كان إيمانهم أكمل وعملهم أحسن كانوا أقرب إلى نيل كمالهم الأخروي حيث يحشرون إلى دار النعيم في أحسن تقويم. خرجوا من الامتحان صالحين. هنالك في مقعد الصدق يقال لهم ما قيل للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين: ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. ﴿سَلاَمٌ علَى إِلْ يَاسِيَن إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِيَن﴾[2]. ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴾.[3] هنالك يستبشرون ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.[4]

وللمحسنات مثل ذلك، لنساء نبي الله وحبيبه القانتات التائبات العابدات قيل في الكتاب العزيز: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾.[5] ولكل مؤمنة قيل ذلك يا من يسمع كلام الله، ويفهم عن الله، يرجو الله، ويخاف الله، ويحب الله. لا إله إلا الله. والحمد لله.

---

(1) الصافات، 109–110.

(2) الصافات، 130–131.

(3) الزمر، 34.

(4) الذاريات، 16–19.

(5) الأحزاب، 29.

ألا وإن في الجسد مضغة

نريد في هذا الفصل أن نقف عند فقهاء التربية أطباء القلوب، وأن ننظر في هذا الطب العظيم كيف عالج به أهل الإحسان أنفسهم وتلامذتهم. نريد أن نلتمس طريقا لمعرفة كلمة الحق في موضوع خطير، موضوع السلوك إلى الله جل وعلا. كثر حوله النزاع وتضاربت الآراء، واحتدم الخلاف، وحميت المعركة.

كنت كتبت منذ خمسة عشر عاما(*) وأنا يومئذ لا أزال في بداياتي عن صحبتي لشيخ عارف بالله رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عنا خيرا، وأدليت بما كان معي يومئذ من شهادة، واستشهدت بنقول أستأنس بها ببراءة من اكتشف عالما فأخذ يصيح بكل قواه ليجلب انتباه الناس، لا يبالي بمن صدق أو كذب أو شك. تلك النقول ألزمني بها بعض الناس ما لا يلزم، كفرني بعضهم لأني ذكرت فلانا وفلانا فلم أكفر أحدا، واستخرفني آخرون لحديثي عن الغيب والكرامات.

الآن أعود إلى الموضوع لا لأتبرأ من الصوفية كما ألح علي بعضهم، ولا لأتحمل تبعات غيري، لكن لأقول كلمة الحق التي لا تترك لك صديقا، لكن لأتجاوز مرحلة كانت النقول عن الرجال ما دون كتاب الله وسنة رسوله سندا لطفولتي في طريق القوم. الآن وقد شب عمرو عن الطوق بفضل الملك الوهاب أعود لأشهد شهادة الحق أرجو بها وجه الله، أعود لأحدث من يقرأني حديث القلب عن القلب وعن الإحسان وعن محبة الله ورسوله وعن المعرفة وعن الكمال. كل ذلك من خلال عرض هادئ لقضايا التصوف، ومن خلال نصوص لا خلاف حول مؤلفيها، فأنا لا أحب أن أدخل في جدل ولا وقت لدي أضيعه في الدفاع أمام محاكمات لا تنتهي.

لست أدعو إلى التصوف، ولا أحب الِاسم والشكل لأني لا أجدهما في كتاب الله وسنة رسوله بعد أن اخترت جوار القرآن والجلوس عند منبر الحبيب المصطفى ﷺ.

* يقصد رحمه الله كتابه «الإسلام بين الدعوة والدولة» عام 1392هـ الموافق 1972م.

لا، ولا حاجة لي بالمصطلحات المحدثة، فلي غنى عنها بلغة القرآن وبيان إمام أهل الإحسان. لكن الحق الذي مع الصوفية، حق حب الله تعالى وابتغاء وجهه وإرادة الوصول إليه والتماس الطريق لمعرفته وما يكرم به الحنان المنان المصطفين من عباده، حق ثابت في القرآن والسنة، ثابت في حياة من تعرض لنفحات الله وصدق في الله وذكر الله وسار إلى الله. ذاك حق شهد به الرجال تحدثا بنعمة الله عليهم، وأنا أسعد الناس إن كان لشهادتي سامعون واعون هبوا من سبات الغفلة لصرختي هذه الهادئة، وتيقظوا يقظة القلب، وتجافوا عن الحياة الدنيا، وفزعوا إلى من يدلهم على الله حتى يعرفوا الله. أنا أسعد الناس إذاً إن حصل في ميزان حسناتي أفواج من المحسنين كنت لهم صوتا يقول: من هنا الطريق، من هنا البداية.

إنَّ عُرى الإسلام أول ما انتقض منها الحكم، ثم توالى نقض عُرىً أخرى حتى اختل المجتمع الإسلامي، والعقل الإسلامي، والوحدة الإسلامية، والشورى والعدل الإسلاميان. ولئن بقي للأمة وجود البتة، ولئن بقي لها تماسك استعصى على عوامل النقض والتفتيت أن تبلغ مداها، فالفضل لله عز وجل ولكتابه وسنة رسوله ثم لرجال كانوا غياث الخلق مصابيح الهدى. في كل إقليم كان دعاة مربون. كان الواعظ مربيا له نفوذه الروحي على قدر ما معه من خشية الله. كان المدرس مربيا على مقدار ما وصل العلم بالعمل الصالح. كان الجار للجار وإمام المسجد وعائل الأسرة مربين على قدر ما ورثوا بالصحبة والملازمة لمن قبلهم من تقوى الله.

كان النسب القلبي الفطري حياة سارية بالإيمان في أوصال الأمة، وكان أهل النسبة الوثقى أولياء الله تعالى أهل كرامته محطات يشع منها الإيمان الأقرب فالأقرب.

هذا التماسك الموروث بالانتساب القلبي، بالتحاب في الله، والخلة في الله والتواصي بالحق والصبر، هو كان ولا يزال روح الأمة ومناط وجودها وبقائها ومنعتها على الفتن.

في عصرنا توشك هذه العروة القلبية أن تتلاشى. لذلك يكون المطلب الإحساني أسبق المطالب في سلم الأولويات، ويكون طب القلوب أهم علم، وتطبيقه

أهم عمل. جسد الأمة متداع نهب للناهبين. يستطيع المحلل السياسي والخبير الاقتصادي والباحث الاجتماعي أن يشخصوا أعراض الانحلال في جسد الأمة. وينبري أصحاب «الحل الإسلامي» و«البديل الإسلامي» ليقترحوا علاجا «إسلاميا» وفقا لذلك التشخيص، وفي مستواه من المادية والعقلانية، واستجابة له، وتبنيا لما تعرفه المجتمعات البشرية من بواعث ومنازع.

التشخيص النبوي وصف داء الأمة حين تنحل وتصبح غثاء كغثاء السيل، وسماه «وهنا» وهو حب الدنيا وكراهية الموت. العلاج النبوي لهذا الفساد نستنبطه من حديث المصطفى الكريم عن الأجساد تفسد أو تصلح بفساد أو صلاح مضغة فيها تسمى القلب. من حديث رواه الشيخان وغيرهما رحمهم الله عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «... ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

صلاح التيار القلبي الإيماني الساري في أوصال الأمة يكون بصلاح قلوب المؤمنين. وصلاح القلوب يكون بالتربية. وللتربية أصول وقواعد من كتاب الله وسنة رسوله. حفظها وحافظ عليها القوم رضي الله عنهم، واجتهدوا واجتهادهم فرع. ونحن، وإن استدللنا في طفولتنا بالفرع على وجود الأصل واقتبسنا والتمسنا نورا من الفروع، لا نبتغي بالأصل بدلا.

في الأصل نجد أن «أول علم يرفع من الناس الخشوع» هذا جزء من حديث شريف عند الترمذي رحمه الله. ونجد أن «أكثر منافقي أمتي القراء». وهذا حديث عند الإمام أحمد رحمه الله. فالإسلام الثقافي، إسلام العقل والقراءة، والقلوب فارغة من خشية الله، مرض آخر زائد على أمراض الأمة الكثيرة. ونجد في الأصل أن «أخوف ما أخاف عليكم كل منافق عليم اللسان» وهو حديث عند الإمام أحمد، والنفاق يعشش في القلوب إذا خلت من الإيمان أو سبق إليها النفاق فلم يدخلها الإيمان قط. في كتاب الله عز وجل نجد آية: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾.[1]

(1) الحجرات، 14.

عن الإيمان والإحسان نبحث، فنجد أنهما عقد بالقلب يتبعه نطق باللسان وعمل بالجوارح. محصور الإيمان بهذا العقد القلبي. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.[1] ذكر الله وَوَجَلُ القلب والتوكل على الله أعمال قلبية يتفرع عنها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وسائر أركان الإسلام وشعب الإيمان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.[2] إنما في اللغة حرف حصر، فلا إيمان دون عقيدة لا ترتاب وجهاد لاينثني بالمال والنفس، باعثه ابتغاء مرضاة الله، طريقه سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.[3] فكم من ساجد بالجسد مسبح باللسان لم يحصل له الخضوع والخشوع للواحد القهار، فظل مستكبرا في نفسه مستكبرا على بني جنسه. قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾.[4] الحب في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان كما جاء في الحديث. وثاقة هاته العروة من وثاقة الولاء التام لله ولرسوله ولدينه. أفيمكن للأمة والجسد واه غثائي أن تستجمع قواها وتجاهد أعداءها وتعز على المستكبرين إن لم يصلح القلب وتتوثق عرى الإحسان؟

القلب مكمن الداء، فإن صح وسلم فهو مركز الإشعاع، وهو العنصر الحاسم في معادلة وجود الأمة وانبعاثها. ما حديثنا عن مقاصد الشريعة، وعن الطلب والمطالب، وعن العدل والشورى، وعن الأهداف الدنيوية، وعن الغاية الأخروية إلا أحلام طائشة إن لم يشتد قلب الأمة باشتداد قلوب المؤمنين على عزمة إيمانية وإرادة إحسانية تنهد أمامها العقبات وتنفتح أبواب الأرض والسماوات.

---

(1) الأنفال، 2-4.

(2) الحجرات، 15.

(3) السجدة، 15.

(4) المجادلة، 22.

علم التصوف فقه واجتهاد

قصدي في هذه الصفحات أن أدل على الله وعلى الطريق إليه. قصدي أن أستنهض الراقد وأستحث الفاتر وأنادي ذوي الهمم العالية إلى مأدبة الله. ما قصدي أن أعرض علم التصوف عرضا أكاديميا تاريخيا موثقا. وما يغني العلم إذا كان وراءه فضول فكري فقط. حديثي حديث القلب إلى القلوب الحرة. نحتاج في حوارنا إلى استبصار العقل وإلى الاطلاع على أحوال القوم لنقوم ننافسهم ونسابقهم في الخيرات كما أمرنا الله جل شأنه.

يحتد الخصام حول التصوف في زماننا احتدادا شديدا. كل جدران الاحتياط التي أقامها نقاد التصوف السابقون خرقها بعض كتبة العصر يسايرون في غلوهم هذا تلامذة المستشرقين الذين يسعون جهدهم أن يقدموا التصوف على أنه علم دخيل، والصوفية على أنهم تلامذة البراهمة والغنوصيين. ما مثل هؤلاء إلا كمثل من رأى مائدة حافلة حولها ضيف مكرمون ومن حوالي الضيف ذباب يتطاير ويطن، فزعم أن المائدة ما نصبها إلا الذباب وأن الضيف المحلقين ما هم إلا ذباب كبير.

نعم طرأ بعد القرون الفاضلة الثلاثة هجوم الفكر الفلسفي الهيليني وتأثير التأله الفارسي والهندي والصابئي. وطرأ بعد الإمام الغزالي الذي حاول إصلاح ذات البين بين فقهاء الأحكام وفقهاء التربية تسلل الفلسفة الإشراقية وعقائد الحلول والاتحاد الملعونة. لكن موكب النور من كتائب أهل الله ما سار منذ عهد النبوة إلا على هدي أصيل وإن جدت مصطلحات دعت إليها ضرورة التفاهم بين أهل الاختصاص، وجدت هيآت وتكتلات دعت إليها ضرورة التعاون. تماما كما جدت مصطلحات وتكتلات في مدارس التفسير والحديث وعلم أصول الفقه وعلم فروعه وعلم أصول الدين وعلم اللغة وسواها.

لكي يطمئن حوارنا نثق بعلمائنا، فنستمع إلى حكمهم على علم التصوف، ولا نصدق المغرضين الذين يعملون معاول الهدم في سلفنا الصالح يحاربون الإيمان بالغيب وبسمو الروح وكمال الإحسان ويؤلهون العقل والمادة. ولا نصدق مقلدة قاصرين تبنوا عن انطماس في العقل والبصيرة وعن جهل بموضوع الجدال وأوائله وتواليه معارك قديمة.

نستمع أولا إلى فارس الإسلام وشيخه ابن تيمية رحمه الله. نستمع إليه لأمرين: أحدهما أن كثيرا من معاصرينا يعتبرون شهادته هي الكلمة الفصل، فلا نحب أن نفجعهم وهم في مهد الإعجاب غير المشروط بوضع الفارس الجليل في مكان نسبيته. والاعتبار الثاني هو أن شيخ الإسلام رحمه الله من أجلِّ من حارب الإلحاد والفلسفة ومنطقها. فللمرتاحين في المهد نقدم جواز المرور، وللمتعسفين نقدم جبهة إسلامية واحدة، ابن تيمية ابنها وفارسها، خصامها بينها من داخلها، خصامها ظاهرة صحية تبرهن على قدرتها أن تنتقد أخطاءها وتتحاور وتصلح.

قال شيخ الإسلام: «والصواب أنهم (أي الصوفية) مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم في طاعة الله. ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين. وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ. وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب».[1] وقال: «وإنهم في ذلك بمنزلة الفقهاء في الرأي».[2]

وقال تلميذ ابن تيمية الإمام ابن القيم رحمهما الله: «وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولا من وصف حالتهم وعدم الاتصاف بها. بل ما شممنا لها رائحة. ولكن محبة القوم (أي الصوفية والكلمة مصطلح) تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها. وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة (...) ومنها أن هذا العلم (يعني علم التصوف) هو من أشرف علوم العباد، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة».[3]

(1) فتاوي ابن تيمية، ج 11، ص: 18.

(2) نفس المصدر، ج 10، ص: 370.

(3) طريق الهجرتين، ص: 260-261.

حياك الله من رجل! نجد عند الغزالي رحمه الله وهو من أكابر القوم ما يلي: «ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب. ويدلك عليه قوله عز وجل: ﴿لِيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ﴾[1]. وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة».[2]

ونجد عند الفقيه الأصولي الإمام الشاطبي رحمه الله تفصيلا: فالتصوف عنده قسمان: «أحدهما التخلق بكل خلق سني، والتجرد عن كل خلق دني. والثاني أنه الفناء عن نفسه والبقاء بربه. وهما في التحقيق إلى معنى واحد، إلا أن أحدهما يصلح التعبير به عن البداية والآخر يصلح التعبير به عن النهاية (...) فالتصوف بالمعنى الأول لا بدعة في الكلام فيه (...) وهو فقه صحيح. وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة. فلا يقال في مثله بدعة إلا إذا أطلق على فروع الفقه التي لم يلف مثلها في السلف الصالح أنها بدعة، كفروع أبواب السلم ومسائل السهو (...) وأما بالمعنى الثاني فهو على أضرب، أحدها يرجع إلى العوارض الطارئة على السالكين إذا دخل عليهم نور التوحيد الوجداني. فيتكلم فيها بحسب الوقت والحال وما يحتاج فيه في النازلة الخاصة رجوعا إلى الشيخ المربي وما بين له في تحقيق مناطها بفراسته الصادقة في السالك بحسبه وبحسب العارض. فيداويه بما يليق به من الوظائف الشرعية والأذكار الشرعية. (...) فمثل هذا لا بدعة فيه لرجوعه إلى أصل شرعي».[3] ويذكر رحمه الله الضرب الثاني وهو ما يتعلق بالكرامات وهو لا بدعة فيه، وعن الضرب الثالث وهو البحث في عالم الغيب وماهية الملائكة والشياطين وعالم الأرواح وهو بدعة، وعن الضرب الرابع وهو النظر في حقيقة الفناء وهو فقه متعلق بأهواء النفس لا بدعة فيه.

(1) التوبة، 122.

(2) الإحياء، ج 1، ص: 28.

(3) الاعتصام، ج 2، ص: 208.

وعند الإمام السهروردي أحد أعلام القوم رضي الله عنهم نجد ما يلي: «وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى».[1]

يقصد رضي الله عنه العلوم التي تنقدح في القلوب بعد صفائها بالعمل الصالح والذكر والمجاهدة، لا تلك التي تحويها الطروس.

وما كان القوم رضي الله عنهم أهل بطالة يتسلون بمضغ العبارات كما يفعل المتحذلقون، بل كان همهم الله ونيل رضاه. لذلك كانوا أصحاب عمل وجد واجتهاد. ما الفقه الذي أثلوه إلا قواعد مستنبطة، مذكرات وصف السالكون فيها مراحل سفرهم الروحي، تتلقاها الأجيال الصالحة من بعدهم نصيحة وتحديا وضرب موعد هناك في المقامات العالية.

قال الإمام الغزالي رحمه الله في إحيائه: «ومنها (أي علامات علماء الآخرة) أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة. فإن المجاهدة تفضي إلى المشاهدة، ودقائق علوم القلب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب. وأما الكتب والتعليم فلا تفي بذلك».[2] وقال: «ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه، لا على الصحف والكتب، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره».[3]

(1) عوارف العوارف على هامش الإحياء، ج 1، ص: 247.

(2) نفس المصدر، ص: 63.

(3) نفس المصدر، ص: 69.

علوم القوم ومكانتها من بين العلوم

كثيرا ما نسمع في عرض الحديث عن الخواء الروحي الذي يشكو منه الشباب المتطلع لمعرفة دينه نصائح ومتمنيات بتصوف سني أو تصوف سلفي. وكأن نسبة الألفاظ بعضها إلى بعض تعطي القضية وضوحا وسلطة لا يمنحها الاسم المجرد. وسمعت تسجيلا لأحد علمائنا العاملين في حقل الدعوة يحث على «التصوف السني»، فلما سألوه عن السبيل إلى هذا الخير أجاب بأن ذلك يحصل بقراءة الكتب الجيدة مثل إحياء الغزالي. كأن الأمر عملية فكرية ونزهة ثقافية. إن العلم والاطلاع يمكن أن يكونا باعثين على العمل، إذا كان في القلب كوامن واستعداد. أما إذا كان القلب خاليا متضلعا من حب الدنيا لا مكان فيه لحب الله فما تغني القراءة.

إن أول الطريق هبوب القلب من غفلته، فإن كان الاطلاع على علوم القوم يصور لك أحوالهم السنية فينزعج قلبك لما تجده عند المقارنة من تخلفك عن الركب، وتطمئن لما تجده عندهم من اعتصام بالكتاب والسنة، فتشمر للحاق ويتبع العلم العمل، فذاك هـو المطلوب. ويكون لعبارة «التصوف السني» معنى: هو أن تسير في الطريق وأنت على يقين من أنك على سنة المصطفى ﷺ لا في دروب الغواية والتيه. إن كنت تقيد في شرطك التصوف بالسنة فهذا من باب تحصيل الحاصل. أو كنت تنفي بتقييدك «التصوف الفلسفي»، تصوف الحلول والاتحاد الذي ليس من الإسلام ولا من التصوف في شيء، فكأن الذباب الحائم حول المائدة شغل بالك عن المائدة فأعطيته من الاهتمام تحرزا منك أو خوفا مبالغا فيه أكثر مما يستحق. وكثيرا ما تعقم هذه الحيطة الحركة أو تكون ستارا يختبئ وراءه كسل العقل وركود الروح.

إن لمس جناح التوفيق قلبك فتعال لجلسة لطيفة مع أهل المعنى الحريصين على دينهم أكثر من حرصك (وإلى نفسي الخامدة أوجه اللوم)، وفاتوك بالشوق الدائم إلى بلوغ الذُّرى. قال أبو نصر السراج الطوسي رحمه الله في كتابه «اللمع» وهو من

أهم كتب القوم: «وعندي، والله أعلم، أن أولي العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء، هم المعتصمون بكتاب الله تعالى، المجتهدون في متابعة رسول الله ﷺ، المقتدون بالصحابة والتابعين، السالكون سبيل أوليائه المتقين وعباده الصالحين. هم ثلاثة أصناف: أصحاب الحديث، والفقهاء، والصوفية. فهؤلاء هم الأصناف الثلاثة من أولي العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء. وكذلك أنواع العلوم كثيرة، فعلم الدين من ذلك ثلاثة علوم: علم القرآن، وعلم السنن والبيان، وعلم حقائق الإيمان. وهي العلوم المتداولة بين هؤلاء الأصناف الثلاثة. وجملة علوم الدين لا تخرج عن ثلاث: آيات من كتاب الله عز وجل، أو خبر عن رسول الله ﷺ، أو حكمة مستنبطة خطرت على قلب ولي من أولياء الله تعالى».[1]

وذكر علوم الشريعة فقسمها أربعة أقسام، علم الرواية والآثار والأخبار، وعلم الدراية وهو علم الفقه والأحكام، وعلم القياس والنظر والاحتجاج، يقصد علم أصول الدين. قال: «والقسم الرابع هو أعلاها وأشرفها. وهو علم الحقائق والمنازلات، وعلم المعاملة[2] والمجاهدات، والإخلاص في الطاعات، والتوجه إلى الله عز وجل من جميع الجهات، والانقطاع إليه في جميع الأوقات، وصحة القصود والإرادات، وتصفية السرائر من الآفات، والاكتفاء بخالق السماوات، وإماتة النفوس بالمخالفات (يعني مخالفة الهوى)، والصدق في منازلة الأحوال والمقامات، وحسن الأدب بين يدي الله في السر والعلانية في الخطوات، والاكتفاء بأخذ البلغة عند غلبة الفاقات، والإعراض عن الدنيا وترك ما فيها طلبا للرفعة في الدرجات، والوصول إلى الكرامات».[3]

يا أخي الحبيب! يا من يوصي إخوانه بتصوف سني يرتكز على قراءة الكتب، كيف الإعراض عن الدنيا وترك ما فيها لرفع الدرجات؟ خبر هذا في كتب القوم. وفي كتاب الله وسنة رسوله أمر بالجهاد ومقارعة أهل العناد. هم رحمهم الله شربوها

(1) اللمع، ص: 22.

(2) يعني المعاملة مع الله عز وجل.

(3) نفس المصدر، ص: 456.

حلوة في خلواتهم وانقطاعهم في الخانقاهات والزوايا في عصور كان حفظ الدين فيها يقتضي الوحدة بأي ثمن، وكان الثمن السكوت عن الظلمة والهروب من الساحة. فكيف تدعو إلى تقليدهم؟

بالجوهر شرف علمهم لا بالأعراض. الجوهر حب الله وصحبة أهل التربية أهل الله، والصدق في طلب الله، والذكر الدائم لله. والأعراض أذواق يؤتيها الله، وإعراض عن الخلق بكيفيتهم في زماننا لا معنى له ولا يأذن به الله. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

شرف علمهم لاعتماده على الشريعة، بدون هذا الاعتماد يصبح الحديث عن القلب ومعانيه هوسا. علوم الحقيقة نتائج لعلوم الشريعة وتطبيقها، وإلا فهو الجهل والخبط. قال الإمام السيوطي رحمه الله في كتابه «تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية»: «وقد ظهر لي أن نسبة علم الحقيقة إلى علم الشريعة كنسبة علم المعاني والبيان إلى علم النحو. فهو سره ومبني عليه. فمن أراد الخوض في علم الحقيقة من غير أن يعلم الشريعة فهو من الجاهلين ولا يحصل على شيء. كما أن من أراد الخوض في أسرار علم المعاني والبيان من غير أن يحكم النحو فهو يخبط خبط عشواء».[1]

يا أخي يا من يبحث عن حب الله ومعرفته (هذا هو موضوع التصوف) في كتب الأقدمين، أين أنت من كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين. لو كنت كالسيوطي إمام عصره البالغ درجة الاجتهاد الجامع لشتات العلوم وكان بك مثل ما به من لوعة لبحثت عن ولي مرشد يدلك على الله ويربيك على ذكر الله. أم تراك من الذين يستخفون بعقول العقلاء وأعمال العلماء فتتساءل ما هو هذا السيوطي الذي يخرف بتشييد الطريقة الشاذلية؟

هاك كلمات نيرة لشيخ جليل من أكابر القوم، كان يدل الناس على الله وعلى كتاب الله وسنة رسوله، حتى إذا توفاه الله قام من المنتسبين إليه قوم احترفوا أكل الحيات والاقتحام في النار. انحراف خطير جاء من تقليد مقلد المقلد. وقد يأتي من تقليد الكتب البائد مناطها انحراف مثله. قال الإمام أحمد الرفاعي رحمه الله: «لا تقولوا

(1) تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، ص: 21.

كما يقول بعض المتصوفة: نحن أهل الباطن، وهم (أي الفقهاء) أهل الظاهر. هذا الدين الجامع باطنه لب ظاهره، وظاهره ظرف باطنه. لولا الظاهر لما كان الباطن وما صح. القلب لا يقوم بلا جسد. بل لولا الجسد لفسد. والقلب نور الجسد. هذا العلم الذي سماه بعضهم بعلم الباطن هو إصلاح القلب. فالأول (أي علم الظاهر) عمل بالأركان وتصديق بالجنان. إذا انفرد قلبك بحسن نيته، وطهارة طويته، وقتلت وسرقت وزنيت وأكلت الربا وشربت الخمر وتكبرت وأغلظت القول فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك؟ وإن عبدت الله وتعففت وصمت وتواضعت وأبطن قلبك الرياء والفساد، فما الفائدة من عملك؟»[1].

وقال رحمه الله يخاطب العقلاء النجباء: «أي سادة. إن نهاية طريق الصوفية نهاية طريق الفقهاء. ونهاية طريق الفقهاء نهاية طريق الصوفية. وعقبات القطع التي ابتلي بها الفقهاء في الطلب هي العقبات التي ابتلي بها الصوفية في السلوك. والطريقة هي الشريعة، والشريعة هي الطريقة (...) وما أرى الصوفي إذا أنكر حال الفقيه إلا ممكورا، ولا الفقيه إذا أنكر حال الصوفي إلا مبعودا. إلا إذا كان الفقيه آمرا بلسانه لا بلسان الشرع، والصوفي سالكا بنفسه لا بسلوك الشرع، فلا جناح عليهما. والشرط هنا الصوفي الكامل والفقيه العارف».[2]

الشرط في تعادل المعنيين وتكافؤ الفقيه مع الصوفي أن يجمع الصوفي إلى صفائه الروحي علما واسعا بالشريعة ويتفرغ لتربية الرجال، وأن يجمع الفقيه إلى علومه النقلية والعقلية معرفة بالله وعاؤها القلب. بدون هذا الشرط تكون حمولة هذا وذاك وبالا.

---

(1) البرهان المؤيد، ص: 68.

(2) نفس المصدر، ص: 105.

المحدثون والصوفية

والمحدث ما شرطه لكي يكافِئ الصوفي؟ ماذا ذهب السيوطي يفعل عند الشاذلية يشيد طريقتهم ويشيد بها؟ أليس هو العلم البارز في عصره الجامع لشتات العلوم، المشارك المحدث الذي حقق المشروع الضخم أو كاد، مشروع جمع الحديث وتخريجه؟

مازال بين أهل الحديث على مر العصور حوار ووصال منذ العهد الأول مع من تسموا بالصوفية. وما نقرأ عنه من خصام عنيف عند أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو المحدث الناطق عن نفسه وعن طائفة من أهل الحديث الحنابلة، ما كان يستهدف الصوفية الصادقين، بل كان موجها لمن اعتبرهم أهل الحديث المتأخرون أدعياء منحرفين.

في العهود الأولى كان احترام متبادل وتعاون على البر والتقوى. كان من الصوفية من تخرجوا في علم الرواية، وكان من المحدثين من تصوفوا على يد مشايخ متصوفين. لم تكن هناك قطيعة ولا سوء ظن. ومن أئمة الحديث، أولياء الله إن كان لله ولي، من جلس في مجالس القوم ومن آخى مشايخ القوم، مع التسليم والمصافاة.

نقل تاج الدين ابن السبكي رحمه الله في «طبقات الشافعية» عن الحافظ الكبير أبي عبد الله الحاكم قصة الإمام أحمد بن حنبل مع الشيخ الحارث المحاسبي رحمهم الله. قال الحاكم بسنده المتصل إلى إسماعيل بن إسحاق السراج، قال اسماعيل رحمه الله: «قال لي أحمد بن حنبل: بلغني أن الحارث هذا يكثر الكون عندك (يكثر من الحضور في بيتك) فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث لا يراني فأستمع كلامه. فقصدت الحارث وسألته أن يحضر تلك الليلة وأن يحضر أصحابه. فقال: فيهم كثرة، فلا تزدهم على الكسب (الخبز) والتمر، فأتيت أبا عبد الله (ابن حنبل) فأعلمته

فحضر إلى غرفة واجتهد في ورده. وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا. ثم صلوا العتمة (العشاء) ولم يصلوا بعدها. وقعدوا بين يدي الحارث لا ينطقون إلى قريب نصف الليل. ثم ابتدأ رجل منهم فسأل مسألة، فأخذ الحارث في الكلام، وأصحابه يستمعون كأن على رؤوسهم الطير. فمنهم من يبكي، ومنهم من يحن، ومنهم من يزعق وهو في كلامه. فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبد الله، فوجدته قد بكى حتى غشي عليه. فانصرفت إليهم. ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا وذهبوا. فصعدت إلى أبي عبد الله فقال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل. ومع هذا فلا أرى لك صحبتهم. ثم قام فخرج». وفي رواية أخرى أن أحمد قال: «لا أنكر من هذا شيئا». قال ابن السبكي: «قلت: تأمل هذه الحكاية بعين البصيرة واعلم أن أحمد بن حنبل إنما لم ير لهذا الرجل صحبتهم لقصوره عن مقامهم. فإنهم في مقام ضيق لا يسلكه كل أحد، فيخاف على سالكه. وإلا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر. ولكل رأي واجتهاد، حشرنا الله معهم أجمعين في زمرة سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم».[1] وأضيف بضراعة المقصرين الراجين عفوه تعالى: اللهم آمين.

ماذا ذهب شيخ المحدثين يفعل عند البكائين؟ وهل يغشى عليه من وعظهم لو لم يكن أبكى منهم وأخشع؟ له ورده يجتهد فيه كما لهم أوراد. ويزيد عليهم بخدمة العلم.

إن أهل الحديث رضي الله عنهم هم أهل الإحسان بالمعاني المتعددة للكلمة: إحسان في العبادة، وإتقان لصناعتهم الجليلة، وإحسان للخلق كافة بما حفظوا عليهم من هذا الدين. صحبتهم لرسول الله ﷺ صحبة خدمة واتباع ومحبة. خدموه بأبدانهم يرحلون الرحلات الشاقة البعيدة لسماع حديث أو تحقيق كلمة. وخدموه بعقولهم في تصحيح إسناد ونقد رجال وإثبات تاريخ وتقويم متن. وخدموه بقلوبهم غيرة على حديث خير البرية أن يزور أو يحرف. لا جرم يعم فضلهم الأمة ويوصي ابن حنبل

(1) طبقات الشافعية الكبرى، ج2، ص: 39-40.

صاحب الدار، ولعله كان تلميذا له، أن يترك حلق الذكر الخاصة الخاص نفعها ليتفرغ للعلم الذي يعم نفعه كل طائفة وكل مكان وكل جيل.

ما كل من حمل الحديث بمنزلة الإمام أحمد ولا كل من تسمى صوفيا بمعزل عن اللوم. أمثال أحمد الذين تشربوا حب المصطفى ﷺ وتعظيمه وإكبار أمره وأفنوا أعمارهم في خدمته قليل. هم أئمة الهدى. يقول الإمام الشافعي رحمه الله متحدثا عن الجناب الشريف: «فصلى الله على نبينا كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون. وصلى عليه في الأولين والآخرين، أفضل وأكثر وأزكى ما صلى على أحد من خلقه، وزكانا وإياكم بالصلاة عليه أفضل ما زكى أحدا من أمته بصلاته عليه. والسلام عليه ورحمته وبركاته. وجزاه الله عنا أفضل ما جزى مرسلا عن من أرسل إليه. فإنه أنقذنا من الهلكة، وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، دائنين بدينه الذي ارتضى، واصطفى به ملائكته ومن أنعم عليه من خلقه. فلم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطنت، نلنا بها حظا في دين ودنيا، أو دفع بها عنا مكروه فيهما أو في واحد منهما، إلا ومحمد ﷺ سببها، القائد إلى خيرها، والهادي إلى رشدها».(1)

كان حب الله ورسوله رابطة جامعة بين كل طوائف السلف الصالح. وكانت نسبة الإيمان واصلة، ونسبة الإحسان سارية يشيم ومضها بعضهم من بعض ويشتم عبيرها بعضهم من بعض. لما امتحن الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن وأعلن المأمون ومن بعده المعتصم تحيزهما لجانب الفكر الدخيل خنس كثير من الفقهاء والقراء، وتمالأ على الإمام قضاة القصر وبغاته، وبقي هو رضي الله عنه صامدا كالجبل ينافح عن صفاء العقيدة وحرمة القرآن.

قبل ذلك كتب إليه الشافعي، قال الربيع بن سليمان صاحب الإمام الشافعي: «إن الشافعي رضي الله عنه خرج إلى مصر فقال لي: يا ربيع خذ كتابي هذا فامض به وسلمه إلى أبي عبد الله وائتني بالجواب. قال الربيع: فدخلت بغداد ومعي الكتاب. فصادفت أحمد بن حنبل في صلاة الصبح. فلما انفتل من المحراب سلمت إليه الكتاب وقلت: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر. فقال لي أحمد: نظرت فيه؟

(1) الرسالة، ص: 12.

فقلت: لا، فكسر الختم وقرأ، وتغرغرت عيناه. فقلت له إيش فيه أبا عبد الله؟ فقال: يذكر فيه أنه رأى النبي ﷺ في النوم فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله فاقرأ عليه السلام، وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم، فيرفع الله لك علما إلى يوم القيامة. قال الربيع: فقلت له: البشارة يا أبا عبد الله. فخلع أحد قميصيه الذي يلي جلده فأعطانيه. فأخذت الجواب وخرجت إلى مصر. وسلمته إلى الشافعي. فقال: إيش الذي أعطاك؟ فقلت: قميصه. فقال الشافعي: ليس نفجعك به. ولكن بله وارفع إلي الماء لأتبرك به».[1] من لا تتسع حويصلته أن يسمع عن أئمة الدين كيف كانوا يتكاتبون بالرؤى الصادقة وكيف كانوا يعتزون بصلتهم القلبية بالمخدوم الأعظم ﷺ، وكيف كانوا يتبركون بآثار النبي الطاهر وبآثار بعضهم فليبحث عن تاريخ مفلسف منقح مادي «غير غيبي» في تاريخ غير تاريخ المسلمين الموثق بالأسانيد المتصلة.

كان الشافعي رضي الله عنه صاحب قلب ونورانية وفراسة عرف بها أولياء الله وخصوا. سواء منهم من حمل اسم صوفي أو فقيه أو محدث، لا يغير مظهر اللقب من جوهر الملقب. روى نفس الصاحب الربيع بن سليمان قال: «دخلنا على الشافعي رضي الله عنه عند وفاته أنا والبوطي والمزني ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم. قال: فنظر إلينا الشافعي ساعة فأطال. ثم التفت إلينا فقال: أما أنت يا أبا يعقوب فستموت في حديدك، وأما أنت يا مزني فسيكون لك بمصر هيآت وهنات، ولتدركن زمانا تكون أقيس أهل ذلك الزمان. وأما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك. وأما أنت يا ربيع فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب. قم يا أبا يعقوب فتسلم الحلقة (أي حلقة التعليم التي كان يجلس فيها الشافعي). قال الربيع: فكان كما قال».[2]

كانت لوائح الولاية لائحة على الإمام البخاري رحمه الله. كانت له كرامات ودعوات مستجابات. وما له لا يكون من أصحاب الاستجابة والتجلي وهو السابق بالخيرات المجلي، والرب كريم، نواله عظيم. كان رضي الله عنه قواما صواما تاليا لكتاب الله معظما لرسول الله ﷺ محبا له خادما. روى عنه صاحبه الفربري رحمه الله

(1) طبقات الشافعية، ج 1، ص: 205.

(2) نفس المصدر، ص: 238.

أنه كان لا يكتب في صحيحه حديثا إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين. وكذلك كان الإمام مالك رضي الله عنه من قبله، لا يجلس للحديث إلا بعد أن يغتسل ويتطيب. ولا يركب دابة في المدينة على كبر سنه، ويقول: «لا أركب في بلد جسد رسول الله ﷺ فيه مدفون». بذلك نالوا عند الله جل وعلا الدرجات.

قال محمد بن أبي حاتم رحمه الله: سمعت أبا عبد الله (البخاري) يقول: «ما ينبغي للمسلم أن يكون بحالة إذا دعا لم يستجب له». قال: «وسمعته يقول: خرجت إلى آدم بن إياس، فتخلفت عني نفقتي، حتى جعلت أتناول الحشيش ولا أخبر بذلك أحدا. فلما كان اليوم الثالث أتاني آت لم أعرفه، فناولني صرة دنانير وقال: أنفق على نفسك».[1]

كأني بقائل من العقلانيين يستلقي على قفاه ضحكا وسخرية من «الخرافات» التي تمتلئ بها كتب المسلمين. إن من لا يؤمن بمعجزات الأنبياء وكرامة الله عز وجل لأوليائه عن طريق الأسباب أو بخرق العادة لمدخول العقيدة. ولنا عودة للموضوع إن شاء الله. وطائفة يقرأون مثل خبر الدنانير الآتية من الغيب فينصرفون عن عبادة الله المجردة القصد، ويتركون السعي الذي شرعه الله لكسب الرزق، ويعيشون في وهم سابح. هذه الذهنية هي الخرافية بعينها، وهي الخطر المحدق. وقد عاشت طوائف من المسلمين بهذه الذهنية ولا تزال. والناقدون الساخرون من الديـن و«الغيبية» لا يستطيعون أن يميزوا بين الشعوذة والسحر والأحلام وبين الكرامة التي يظهرها المولى عز وجل على يد أفراد كالبخاري وعلى يد جماعات مجاهدة كالصحابة رضي الله عنهم وكالمجاهدين في أفغانستان في زماننا.[2] كان البخاري رحمه الله يقوم في الليل أكثر من عشر مرات ليدون حديثا أو فائدة، لا يترك له الاهتمام بالعلم نوما. والصحابة رضي الله عنهم ومجاهدو أفغانستان لا يألون جهدا في إعداد القوة كما أمر الله، يبارك الله العلي القدير تلك الوسائل على ضآلتها فتأتي بنتائج لا تخطر على البال.

(1) طبقات الشافعية، ج2، ص: 11.

(2) ذلك يوم كان في أفغانستان مجاهدون رحمهم الله. وقبل المجازر القبلية الجاهلية بين الفصائل الأفغانية. ملاحظة بتاريخ محرم 1418.

كان إمام المحدثين البخاري عبقا بعطر الصلاح حيا وميتا. مرض واشتد به المرض فدعا الله ربه قائلا بعد أن فرغ من صلاة الليـل: «اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك». قال الراوي: «فما تم الشهر حتى قبضه الله عز وجل».[1] فلما حضرته الوفاة دعا بدعوات ثم اضطجع فقضى رحمه الله. قال الراوي: «فلما دفناه فاح من تراب قبره رائحة غالية (الغالية نوع من الطيب الفاخر). فدام على ذلك أياما. ثم علت سوار بيض في السماء مستطيلة بحذاء قبره فجعل الناس يختلفون (أي يأتون الجماعة بعد الأخرى) ويتعجبون».[2]

تسمع أخي المؤمن في زماننا هذا أخبارا مستفيضة عن شهداء أفغانستان وما يفوح من أجسادهم المطهرة من عطر، وما يظهر في سمائهم من علامات، فليزدك هذا الخبر عن رجل صالح من القرون الفاضلة يقينا أن ولاية الله لا تنال بالقعود والتأمل، وإنما تنال بالجهاد والمجاهدة فيما يطهر القلب وينفع الناس في الأرض.

كان من أهل الحديث من يبحث عن دليل يسلك به إلى الله، يتخذه شيخا مربيا يلزمه، بعد أن رقت الكثافة الإيمانية الإحسانية التي كانت شائعة سارية في الجو في مجتمع القرون الفاضلة. في تلك القرون كانت الصحبة والاقتباس الروحي عملية فطرية، يجذب القلب الكبير القلوب الظمأى إليه في يسر وصداقة ورحمة. كانت الوشيجة الرابطة بين المحدثين حبهم المشترك لله ورسوله وبحثهم المشترك عن العلم. كان الشافعي يقول لابن حنبل رضي الله عنهما: «أنت أعلم بالحديث مني، فإذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه، شاميا كان أو كوفيا أو بصريا».

كان بين عبد الله بن المبارك وبين الفضيل بن عياض رحمهما الله صداقة وأخوة في الله. فضيل يعده الصوفية منهم، وابن المبارك من مشايخ مشايخ البخاري. قال ابن تيمية شيخ الإسلام: «قال سيد المسلمين في وقته الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. قال: أخلصه وأصوبه. قيل له: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل. وإن كان

(1) شذرات الذهب، ج 2، ص: 135

(2) طبقات الشافعية، ج2، ص: 15.

صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة».[1] شهد ابن المبارك في أخيه الفضيل قال: «ما بقي على ظهر الأرض أفضل من الفضيل بن عياض».[2] وقال الفضيل: «ورب هذا البيت، ما رأت عيناي مثل ابن المبارك».[3] كان ابن المبارك محدثا عالما فارسا عابدا كريما كثير النفقة في سبيل الله، يحج عاما ويغزو عاما. وكان شاعرا. كان أمة وحده. وكان الفضيل زاهدا ذاكرا ورعا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر. كانا نموذجين متكاملين لأهل الخير. ولم تمنع أخوتهما الصادقة وإكبار كل منهما لصاحبه من المصارحة والمناصحة. كتب ابن المبارك إلى أخيه الفضيل هذه الرسالة الشعرية التي تستحق أن نطرق بها في زماننا باب كل ناسك منزو في خلوته، وأن نسمعها كل عالم يخشى الله ويشركه في الخشية الناس فينكص عن ميادين الجهاد مكتفيا بأوراده يتمتمها. قال الفارس العالم:

«يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الكريهة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا عن مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في ... أنف امرىء دخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب»[4]

اتخذ إمام الأئمة في الحديث ابن خزيمة رحمه الله موقفا معظما من أحد صوفية عصره هو أبو علي الثقفي.[5] ولما حج الخطيب البغدادي رحمه الله شرب من ماء

(1) الفتاوي، ج11، ص: 600.
(2) شذرات الذهب، ج 1، ص: 317.
(3) نفس المصدر، ص: 296.
(4) طبقات الشافعية، ج 1، ص: 151.
(5) نفس المصدر، ج 2، ص: 173.

زمزم عملا بقول رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له»، وطلب من الله تعالى ثلاث حاجات: أن يحدث بتاريخ بغداد، وأن يملي بجامع المنصور، وأن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي، وقد استجاب الله دعاءه في الثلاث الحاجات.[1] وبشر الحافي رحمه الله من أكابر الزهاد الصوفية. فلا تعجب من بغية محدث بارز في الدنيا أن يدفن مع مثل بشر رجاء أن يحشر في صفه. وصحب أبو عبد الله الحاكم رحمه الله المحدث الكبير مؤلف «المستدرك» الشيخ الصوفي أبا عمرو بن محمد بن جعفر الخلدي والشيخ أبا عثمان المغربي وجماعة رحمهم الله.[2]

أما الإمام النووي رحمه الله شارح صحيح مسلم وأحد أعلام هذه الأمة، فقد أخذ طريق القوم عن شيخه الشيخ ياسين بن يوسف الزركشي رحمه الله.[3] وصحب شيخا آخر قال عنه: «الفقيه الإمام الحافظ المتقي الضابط الزاهد الورع الذي لم تر عيني في وقتي مثله. كان رحمه الله بارعا في معرفة الحديث وعلومه وتحقيق ألفاظه، لا سيما الصحيحات، ذا عناية باللغة والنحو والفقه ومعارف الصوفية حسن المذاكرة فيها.

وكان عندي من كبار المسلكين في طريق الحقائق، حسن التعليم. صحبته نحو عشر سنين لم أر منه شيئا يكره. وكان من السماحة بمحل عال على قدر وجده، وأما الشفقة على المسلمين ونصيحتهم فقل نظيره فيهما».[4]

تعج كتب الطبقات، سواء منها طبقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، بذكر العلماء العاملين المبرزين في علوم الحديث المشاركين في الفقه المتميزين أيضا في ميدان التصوف. الحنابلة لا يحبون اسم «الصوفي»، فتجدهم يستعملون ألفاظ «الصلاح» و«التقوى» و«الخيرة». وكل كانوا صادقين، رحمهم الله ورحمنا أجمعين. آمين.

(1) طبقات الشافعية، ج 3، ص: 14.
(2) نفس المصدر، ج 3، ص: 65.
(3) نفس المصدر، ج 5، ص: 166.
(4) نفس المصدر، ج 5، ص: 48.

الفقهاء تلامذة الصوفية

وكذلك من أعيان الفقهاء من جميع المذاهب تجد الفقيه بعد استكمال طلبه للعلم أو أثناء الطلب يلتمس وليا مرشدا يصقل قلبه بالإحسان. هذا الإمام السيوطي جامع علوم عصره المتبحر المتفنن الذي نازع معاصريه الزعامة وقارعهم بعناده واعتداده بنفسه يلجأ إلى المشايخ الشاذلية يتخذهم قدوة وأدلة. كتب في «حسن المحاضرة» دعواه، وهو جدير بها رحمه الله: «رزقت التبحر في سبعة علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة. والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم الستة، سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها منها، لم يصل إليه ولا وقف عليه شخص من الأشخاص. فضلا عمن هو دونهم.

وأما علم الحساب فهو أعسر شيء علي وأبعده عن ذهني. وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله. وقد كملت عندي آلات الاجتهاد»[1].

ما بال مثل هذا الرجل المعتز بعلمه، المنفرد في عصره بالاطلاع الواسع، المؤلف المرموق، المقرب إلى «خليفة» عصره المتوكل على الله العباسي، المحسود من طرف فقهاء مصر، خاضوا ضده معارك حامية، يذهب إلى المشايخ أهل الطريق يخضع لهم ويتتلمذ؟ ألم يكفه ما في بطون الكتب من علم غزير؟ عبرة لك يا سيدي يا أخي يا حبيبي يا من ترشد الناس لقراءة كتب الصوفية. «تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية»، هذا عنوان كتاب السيوطي، وهو مطبوع. فابحث عنه علّه يكون آخر ورقات تبحث فيها عن التربية الإحسانية، ولن تجد فيه إلا شهادة رجل صادق خشي كما تخشى أن يكتم شهادته، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ

(1) حسن المحاضرة، ج 1، ص: 153 – 159.

بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[1] تتلمذ خلق لا يكادون يحصون من الفقهاء في كل العصور للمشايخ من رجال الطريق. وتحدثوا عن مشايخهم، وقارنوا بين الفقهاء والصوفية وفاضلوا. استمع معي إلى حكم محدث بارز يقارن ويقوم، محدث تتلمذ للمشايخ الشاذلية كما تتلمذ السيوطي. إنه ابن حجر الهيثمي رحمه الله. قال: «فمستنبطو الفروع هم خيار سلف الأمة وعلماؤهم وعدولهم وأهل الفقه والمعرفة فيهم. فهم قوم غذوا بالتقوى وربوا بالهدى. أفنوا أعمارهم في استنباطها وتحقيقها بعد أن ميزوا صحيح الأحاديث من سقيمها وناسخها من منسوخها. فأصلوا أصولها ومهدوا فروعها. فجزاهم الله عن المسلمين خيرا وأحسن جزاءهم، كما جعلهم ورثة أنبيائه وحفاظ شرعه، ألحقنا الله بهم وجعلنا من تابعيهم بإحسان».[2]

ويكتب عن العارفين الصوفية: «العارفون بالله الذين وفقهم الله لأفضل الأعمال، وحفظهم من سائر المخالفات في كل الأحوال. ثم كشف لهم الغطاء فعبدوه كأنهم يرونه، واشتغلوا بمحبته عما سواه. وأطلعهم على عجائب ملكه، وغرائب حكمه، وقربهم من حضرة قدسه، وأجلسهم على بساط أنسه، وملأ قلوبهم بصفات جماله وجلاله، وجعلها مطالع أنواره، ومعادن أسراره، وخزائن معارفه، وكنوز لطائفه. وأحيى بهم الدين، ونفع بهم المريدين، وأغاث بهم العباد، وأصلح بهم البلاد».[3]

ثم يتحدث عن الفقهاء ليعقد المقارنة فيقول: «علماء الظاهر الذين عرفوا رسوم العلوم الكسبية، وعويصات الوقائع الفعلية والقولية، وغرائب البراهين العقلية والنقلية، حتى حفظوا سياج الشرع من أن يلم به طارق، أو يخرقه مبتدع مارق. فالأولون (أي العارفون) أفضل، وإن كان للآخرين (الفقهاء حماة الشريعة) فضل عظيم، بل ربما كانوا أفضل من حيثية لا مطلقا».[4]

---

(1) البقرة، 140.

(2) الفتاوي الحديثية، ص: 207.

(3) نفس المصدر، ص: 226.

(4) نفس المصدر، ص: 226.

الشهادة القولية الصادرة عن الفحول من علماء الأمة وأئمتها لها وزنها. والعبرة بالشهادة الفعلية أقوى وأبلغ. انقياد الفقهاء للمشايخ المربين، وانصياعهم لأمرهم، وتلقيهم بالتسليم والموافقة لتوجيهاتهم، ثم تعظيمهم لهم ومحبتهم إياهم واعترافهم بفضلهم تقرأ هذا في أثباتهم وفهارسهم، وفي كتب التاريخ والطبقات. فهل هي ظاهرة تدل على صبيانية رجال الإسلام أم هناك مادة نورانية لا تؤخذ من الكتب بل من قلوب أهل الصفاء والوفاء؟

إن من لا حرقة في نفسه إلى معرفة الله لا يبحث، وإن بحث فلمجرد الاطلاع وإرضاء الفضول.

باحث عن الحق صارم ترك لنا بمجموع تاريخه وثروة فكره وثمين مؤلفاته شهادة بليغة كانت لأجيال المسلمين منذ تسعة قرون معينا لا ينضب من الفهم والاقتداء والانتقاد والأخذ والرد أيضا. إنه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه، الجبل الراسخ الذي لا يسع المفكر ولا العالم ولا الفقيه ولا الصوفي ولا السياسي ولا الباحث عن أسرار النفس البشرية ولا المؤرخ للفكر الإسلامي والإنساني أن يمروا به مر الكرام. بعضهم يقرأ نقدا لهذه الفكرة أو تلك النظرة من نظرات الغزالي وفكره فيسد عليه النقد الهدام بأنقاضه منافذ التمييز. إن أخطأ الغزالي في جزئية فالبشر معدن الخطأ. ويكون ماذا إن انتقده فلان أو علان؟ أنت ماذا جنت يداك، ماذا فعلت بحياتك يا من يلهو بقراءة جدل الرجال؟

أبو حامد بحث واستقصى، ثم اضطر آخر الأمر لرجل يعلمه دينه. فماذا قال أبو حامد، وما يفيدني أنا ما شهد به أبو حامد في قضيتي مع ربي؟

كتاب «المنقذ من الضلال» كتاب عظيم الفائدة على صغر حجمه. لخص فيه حجة الإسلام مسيرته وحيرته وأخطاءه وسلوكه. قال: «ثم إني لما فرغت من هذه العلوم (العلوم النقلية والعقلية في عصره قتلها دراسة ونقاشا) أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم لا تتم إلا بعلم وعمل. وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل

إلى تخلية القلب عن غير الله، وتحليته بذكر الله. (...) فلم أزل أفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوما (الأحوال التي كان فيها هي منصبه المرموق مدرسا في «النظامية» أكبر «جامعة» في بغداد وسمعته كفقيه تشد لفتواه الرحال). قال: وأحل العزم يوما، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فتفترسها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! فلم يبق من العمر إلا القليل! وبين يديك السفر الطويل! وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل. فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهروب والفرار. ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حالة عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال. فإذا أعرضت عنها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمن الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة».

ومرض الرجل مرضا شديدا، انعكس الصراع النفسي المحتدم في جوفه على جسمه فأرداه، كذلك الهمم العالية تنوء بحملها الأجسام. ويئس الأطباء فلم يبق ملجأ إلا الله الرؤوف الرحيم. وبرأ أبو حامد من أمراض جسمه ومن تردده، فأوصى لعياله، ثم غادر بغداد متخففا يبحث عن رجل من لحم ودم يدله على الله بعد أن أعياه البحث عن الحق في بطون الكتب، وزحمه هم الآخرة وهم الله.

لقي شيخا مربيا فصحبه وشاوره وائتمر بأمره. ويتحدث عن «المتبوع المقدم» (كأنه ينظر إلى قول موسى للخضر عليهما السلام: هل أتبعك) فيقول: «فمن كان لله كان الله له. حتى إنه في الوقت الذي صدقت فيه رغبتي لسلوك هذه الطريق شاورت متبوعا مقدما من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن. فمنعني وقال: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية، بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال ووطن وعلم وولاية. بل تصير إلى حالة يستوي عندك وجودها وعدمها، ثم تخلو بنفسك في زاوية، تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، مجموع

الهم، مقبلا بذكرك على الله تعالى. وذلك في أول الأمر بأن تواظب باللسان على ذكر الله تعالى، فلا تزال تقول الله الله، مع حضور القلب وإدراكه، إلى أن تنتهي إلى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، لكثرة اعتياده. ثم تصير مواظبا عليه إلى أن ينمحي أثر اللسان، فتصادف نفسك وقلبك مواظبين على الذكر من غير حركة اللسان. ثم تواظب إلى أن لا يبقى في قلبك إلا معنى اللفظ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيآت الكلمة، بل يبقى المعنى المجرد حاضرا في قلبك على اللزوم والدوام».[1]

كيف يقبل العقل أن يمنع مؤمن مؤمنا من قراءة القرآن والمواظبة على التلاوة؟ أم كيف نفهم قَبول حجة الإسلام عالم بغداد توجيها من هذا القبيل؟ أم كيف نعقل بادئ الأمر أن يسأل أمثال أبي حامد هذه المسألة: هل أواظب على التلاوة؟

إن إسلاس القياد لولي مرشد يدلك على الطريق شرط في السلوك. وما كان لولي أن يأمر إلا بحق. وما منعه من المواظبة على التلاوة إلا بغية أن يهيئه بتصفية القلب بالذكر، حين يعم قلبه الإيمان ويعقل قلبه القرآن، لمرحلة تكون فيها المواظبة على التلاوة عبادة كاملة. وهاك الدليل. روى الإمام أحمد رحمه الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إني أقرأ القرآن فلا أجد قلبي يعقل عليه. فقال رسول الله ﷺ: إن قلبك حشي الإيمان، وإن الإيمان يعطى العبد قبل القرآن». ثم إن الذكر بالاسم المفرد أنكره ابن تيمية رحمه الله وأجمع الصوفية إجماعا على أن الذكر به من أعظم الذكر. فلا جدال.

ثم إن العبرة عندنا هنا في انصياع عالم فقيه من أعلام الملة لشيخ «متبوع مقدم»، يطيعه فيما يأمر بلا نقاش. السؤال الدائم: لماذا يضطر الفقهاء الصادقون لصحبة المشايخ؟ والجواب الدائم أنها الولاية التي لا تكسب بالدراسة والاطلاع، بل بنور يقذفه الله جل وعلا في قلوب أصفيائه، فيأتي من شاء الله له خيرا يقتبس من ذلك النور. والنفوس الصغيرة لا تقبل أن تعترف بمزية عليها لأحد، إنما يعترف بفضل أولي الفضل من كان أهلا لفضل الله الذي يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(1) ميزان العمل، ص: 222.

ويمضي أبو حامد يطبق الإرشادات إلى أن فتح الله له كما يفتح الفتاح العليم لأحبابه. كتب رحمه الله في «المنقذ من الضلال»: «ثم دخلت الشام وأقمت بها قريبا من سنتين، لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب بذكر الله تعالى كما حصلته من علم الصوفية. فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي (...) ودمت على ذلك مقدار عشر سنين. وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها. والقدر الذي أذكره ينتفع به».

ويؤدي الرجل بأمانة وصدق وبساطة شهادته أمام الله تعالى ليقرأها من بعده الصادقون. ما كان يبالي أن يعترض معترض أو يسخر ساخر. ما حاول أن يعلل ويفلسف ويعقلن تنازلا عند من يشققون الكلام. بل أفضى بذات قلبه إلينا في كلمات مباشرة ساذجة سذاجة الحق وبساطته. فمن أزرى بعقل كبير مثل عقل أبي حامد، أو اتهم سكرات القلوب المعروفة عند المجانين والمجاذيب، فما عليه إلا أن يتخطى شهادة الرجل ويطوي هذا الكتاب ويرتبه في الرف. وقد انتهى الأمر وما يغني الحديث. والسلام.

يؤدي الغزالي شهادة مجملة لأن ما انكشف له لا يمكن «استقصاؤه وإحصاؤه» فيستمر قائلا: «إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

نعم يا ولي الله، ما وراء نور النبوة نور يستضاء به، ولا فوق النموذج الأول نموذج يعلو. رحم الله زمر الصالحين من الصوفية والمحدثين والعلماء العاملين. أووا إلى الزوايا والمدارس والعزلة والصمت والمجاهدة والسهر والعبادة والذكر. وبقي

عليهم أمر عظيم لم يتخلوا عنه استغناء عنه، إذ لا يعوضه في مراتب الإحسان شيء. بقي عليهم الجهاد في الأرض ليحكم دين الله الأرض. عاشوا، الأحباء، في عهود كان قدر الله فيها على الأمة أن يحكم النظام العاض والجبري. وفي حاضر الأمة ومستقبلها لن نلتفت إن شاء الله إلى ما تحت الصحابة رضي الله عنهم الذين جمعوا أطراف الإحسان وأقطار المجد الدنيوي والأخروي من كل جانب. كانت فاعليتهم في ميادين الجهاد ضمان بقاء الدين واستمراره حتى اعترف الصوفية من ينبوع كان للصحابة رضي الله عنهم فضل تلقيه وصيانته والذود عنه والجِلاد من دونه بالمال والسيف، وفضل نشره وتبليغ دعوته، وفضل قتال الكفر حتى باد الكفر، وفضل نصرة الحق حتى ظهر الحق. أهل الكمال حقا بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذو النورين وعلي الإمام، ثم أهل بدر وبيعة العقبة وبيعة الرضوان وسائر مشاهد الإسلام.

يؤتي الله عز وجل فضله من يشاء كما يشاء. وقد آتى سادتنا الصوفية خيرا كثيرا. لكن أساليب العزلة وتربية الصمت والمجاهدة المنفردة في زماننا نكوص وبيت المقدس محتل، والأمة نهب مقسم، وجودها المعنوي مهدد، ورسالتها منكرة في عقر دارها. لسنا ممن يكيل للغزالي اتهامات كما يفعل فلاسفة الجامعات من بني جلدتنا. قضى الله وما شاء فعل، والتكليف علينا وحده هو المعتبر. تكليف الشرع أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونجاهد في الله حق جهاده حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

مطلب شريف ومطمح منيف أن تحدث نفسك بأن تلحق بالصالحين وتكون من أولياء الله. ثم أن تصارع نوازع النفس والهوى ونزغات الشيطان وتتجرد للعمل وتشمر وتهجر كل ما سوى الله عز وجل. تلك طريق سلكها ذوو الهمم الرفيعة من الرجال أمثال أبي حامد، تعطرت بأنفاسهم الأزمان. لم يكن الدين غريبا في أزمنتهم، بل كانوا ساكنين تحت مطارق الأقدار الإلهية التي حكمت بأن يعيش المسلمون في ظل ملك عاض وجبري إلى أن يرفع الله جل جلاله تلك الحوبة التاريخية. الآن عاد الدين غريبا كما بدأ، فطوبى لغرباء أزمنتنا إن شمروا للالتحاق بركب الأخيار

على متن الجادة الجهادية التي سلكها الصحابة في غربة الإسلام الأولى، حتى نصروا الدين وأقاموا للإسلام دولة وصرحا شامخا. تلك الجادة أوسع وأبعد منالا وأوفر نورانية لأنها جمعت بين الجهاد لتحقيق مطالب الأمة وبين المجاهدة لتحقيق المطلب الإحساني الفردي.

في ظروف الغزالي وحدوده بالزمان والمكان والمطلب تجرد الغزالي لطلب «علم الآخرة» بعد تحصيل علوم الفقه وبعد جدال الفلاسفة ونيل الأوطار الدنيوية. «وتزيا بزي الصالحين، وقصر الأمل، ووقف الأوقات على هداية الخلق ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية والانقياد لكل من يتوسم فيه أو يشم منه رائحة المعرفة أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة».[1]

إعراض عن الدنيا وإقبال على الله عز وجل وانقياد لأهل الخير. «وتفكر في العاقبة وما يجدي وما ينفع في الآخرة. فابتدأ بصحبة الفارمدي، وأخذ منه استفتاح الطريقة، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والإمعان في النوافل واستدامة الأذكار والجد والاجتهاد طلبا للنجاة، إلى أن جاز تلك العقبات».[2]

من عظماء الإسلام كثير لجأوا مثل الغزالي، قبله وبعده، إلى مربين يساعدونهم على جواز العقبات. لا تكاد تحصي الأمثلة للعلماء الذين ارتموا في أحضان العارفين تعج بذكرهم كتب التاريخ وطبقات المذاهب.

من أجلهم سلطان العلماء شيخ الإسلام والمسلمين إمام عصره بلا مدافعة، الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر الذي كان في عصره ملاذ الأمة وحاميها من الحكام الظلمة. إنه عز الدين بن عبد السلام الصائل بعلمه في المجالس، الصائل بشجاعته في الحق، يهجم بكلمة الزجر والتأنيب على دواوين الحكام. مواقفه تشرف كل منتسب للعلم في كل زمان.

(1) طبقات الشافعية، ج 4، ص: 108.

(2) نفس المصدر، ج 4، ص: 109.

كان رحمه الله أعبد الخلق وأتقاهم. حكى عنه ابن دقيق العيد رحمه الله، أحد الأكابر علما وتقى، أنه: «لبس خرقة التصوف من الشيخ شهاب الدين السهروردي وأخذ عنه». وذكر أيضا أنه: «كان يقرأ بين يديه رسالة القشيري فحضره مرة الشيخ أبو العباس المرسي لما قدم من الإسكندرية إلى القاهرة، فقال له الشيخ عز الدين: تكلم عن هذا الفصل. فأخذ المرسي يتكلم والشيخ عز الدين يزحف في الحلقة ويقول: اسمعوا هذا الكلام الذي هو حديث العهد بربه».(1) قال السبكي: «وقد كانت للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوف، وتصانيفه قاضية بذلك».

قال عز الدين سلطان العلماء: «أما تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الشرع فقول الأستاذ (القشيري) وأبي حامد (الغزالي) فيه متفق. ولا يشك عاقل أن العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال وبما يستحيل عليه من العيب والنقصان أفضل من العارفين بالأحكام. بل العارفون بالله أفضل من أهل الفروع والأصول. لأن العلم يشرف بشرف المعلوم وبثمراته. فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم من جهة أن متعلقه أشرف المعلومات وأكملها، ولأن ثماره أفضل الثمرات».(2)

هل كان فطاحلة علمائنا بهاليل مجانين حتى يزحفوا في الحلقة إعجابا بكلام العارفين وهم كانت ترتعد خوفا منهم فرائص الجبارين في الأرض؟ أم أنهم لم يجدوا في كتب الرقائق والوعظ ما يروي الغلة حتى ينقادوا للمشايخ ويتتلمذوا بأدب؟

هذه نصيحة من أحد كبار فقهائنا عسى أن يقرأها من يوصون بـ«التصوف السني» الذي تحتويه بطون الكتب التي تكفي قراءتها والتضلع منها. قال القسطلاني صاحب المؤلفات المشهورة: «وإن كان مرادك أن تصير بقراءتها (أي كتب القوم) صوفيا محققا فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو قرأت من هذه الكتب عدد رمل عالج في مدة عمر نوح لم تصر صوفيا حتى يلج الجمل في سم الخياط. إنما التصوف الدؤوب في الطاعات، وترك المخالفات، وفطم النفس عن المألوفات، وعدم التطلع إلى ما

(1) طبقات الشافعية، ج 5، ص: 83.

(2) تأييد الحقيقة العلية، ص: 23.

في أيدي الناس من الأموال المباحات فضلا عن الشبهات، وترك التوسل بالخلق، والاعتماد على الله في كل الحالات».[1]

يفتي القسطلاني رحمه الله بحرمة قراءة الكتب المشتملة على العبارات الغامضة والشطحات. وينصح بعدم تضييع الوقت في طلب علم القوم، لأن العلم بلا عمل بطالة. وكانت سعادته بلقاء الشيخ شهاب الدين السهروردي، وهو ابن أخ الشيخ أبي النجيب السهروردي الأشهر، لبس منه خرقة التصوف.[2]

وكان تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله شيخا إماما زاهدا محدثا حافظا ورعا فقيها بلغ درجة الاجتهاد المطلق. قال السبكي رحمه الله: «ولم ندرك أحدا من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي ﷺ، وأنه أستاذ زمانه علما ودينا».[3] هذا الإمام الأوحد في قرنه سلك طريق القوم على يد الشيخ الصالح كمال الدين بن عبد الظاهر الهاشمي رحمه الله[4]. وكانت له كرامات كثيرة.[5]

نختم حديثنا عن الفقهاء الصوفية، وقد اقتصرنا على الأشهرين من الشافعية، بذكر التقي السبكي أحد أعلام الأمة الذي كان يدعى بالشافعي الثاني، وناهيك بالتشبيه.

تصدى التقي السبكي رحمه الله، والد مؤلف الطبقات، لمسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وعارضه في اجتهاداته الشاذة عن الإجماع في موضوع زيارة قبر النبي ﷺ وفي قضية الطلاق المعلق وغيرها. كانت اضطرابات ابن تيمية رحمه الله وسجنه وما لحقه ولحق أصحابه من أذى نتيجة لما يسمى «مسائل» ابن تيمية. وهي بضع وستون مسألة في أصول الدين وقضايا الفقه خالف فيها علماء عصره. لم يكن

(1) تأييد الحقيقة العلية، ص: 75.

(2) طبقات الشافعية، ج 5، ص: 18.

(3) نفس المصدر، ج 6، ص: 3.

(4) نفس المصدر، ج 6، ص: 143.

(5) نفس المصدر، ج 6، ص: 4.

الفارس الحنبلي في زمانه وتفرده بآرائه وحِدَّته المرجع المطلق كما هو الشأن في هذه الأزمان التي فتحت فيها أبواب الخزائن لتنشر كتبه من دون كتب خصومه.

يقول الحافظ الذهبي الناقد اللاذع عن شيخه التقي السبكي رحمهما الله في كتابه «المعجم المختصر» كما نقل عنه عبد الوهاب السبكي رحمه الله في الطبقات: «القاضي الإمام العلامة الفقيه المحدث الحافظ فخر العلماء تقي الدين أبو الحسن (...) وكان صادقا ثبتا خيرا دينا متواضعا حسن السمت من أوعية العلم. يدري الفقه ويقرره، وعلم الحديث ويحرره، والأصول ويقررها والعربية ويحققها (...) وقد بقي في زمانه الملحوظ إليه بالتحقيق».[1] شهادة إنصاف.

كان «ملحوظ زمانه» هذا ومحققه كلفا بالصالحين ومعاشرتهم، كثير العبادة والذكر، مستجاب الدعوة، ظاهر الكرامات. «وكان كثير التعظيم للصوفية والمحبة لهم. ويقول: طريق الصوفي إذا صحت هي طريق الرشاد التي كان السلف عليها».[2]

يعظمه الذهبي ويقول: «ما صعد هذا المنبر بعد ابن عبد السلام أعظم منه».[3] قال عبد الوهاب السبكي: «وصح من طرق شتى عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أنه كان لا يعظم أحدا من أهل العصر كتعظيمه له، وأنه كان كثير الثناء على تصنيفه في الرد عليه».[4] رحمهم الله جميعا وإيانا وعفا، إنه العفو الغفور.

---

(1) طبقات الشافعية، ج 6، ص: 150.

(2) نفس المصدر، ج 6، ص: 168.

(3) نفس المصدر، ج 6، ص: 157.

(4) نفس المصدر، ج 6، ص: 168.

بين التشدد والاعتدال

وللتقي السبكي إمام عصره شيخ آخر شاذلي. فمن هم هؤلاء العارفون الذين تخضع لهم هامات رفعها العلم وزانتها التقوى وأحاطتها هالة الاحترام؟ هل كان مشايخ التربية أهلا لذلك التقدير العظيم الذي نالوه من خاصة العلماء وأفذاذهم كما نالوه من العامة؟ هل كانوا من الأخيار الصالحين بدرجة يجمع على الشهادة بها كل ملاحظ، أم هي كتب «المناقب» والمذاهب تحابي وتداهن؟

ينقل الإمام الشوكاني «خاتمة المحققين» عن المؤرخ الناقد الشديد الذهبي ترجمة واحد من مشايخ المدرسة الشاذلية، أحد أساطينها، ما يلي: «كانت له خلال عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل. ورأيت الشيخ تاج الدين الفارقي لما رجع من مصر معظما لوعظه وإشارته. وكان يتكلم بالجامع الأزهر يمزج كلام القوم بآثار عن السلف وفنون من العلم. فكثر أتباعه. وكان عليه سيماء الخير. ويقال إن ثلاثة قصدوا مجلسه فقال أحدهم: لو سلمت من العائلة لتجردت. وقال الآخر: أنا أصلي وأصوم ولا أجد من الصلاح ذرة. فقال الثالث: إن صلاتي ما ترضيني فكيف ترضي ربي. فلما حضروا مجلسه قال في أثناء كلامه: ومن الناس من يقول، فأعاد كلامهم بعينه. ومن جملة من أخذ عنه الشيخ تقي الدين السبكي. وهو صاحب الحكم المشهورة الآن بحكم ابن عطاء الله التي يلهج كثير من متصوفة زماننا بحفظ كلمات منها»[1].

هذا الشيخ الذي أشاد به المحدث الناقد الذهبي ونقل شهادته الشوكاني الفقيه الجامع المجتهد هو السيد أحمد المعروف بابن عطاء الله السكندري تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي رحمهم الله مؤسس الطريقة

(1) البدر الطالع، ج 1، ص: 107 - 108.

الشاذلية. «وكان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه وهو ممن قام على الشيخ تقي الدين ابن تيمية».

كان هذا المربي الكبير مالكي المذهب، تلميذه تقي الدين السبكي شافعي بارز حاز لقب «الشافعي الثاني» من معاصريه، أمامهما الحنبلي الثائر تقي الدين ابن تيمية، خاصماه وجادلاه. فما منع ذلك الخصام شيخ الإسلام الحنبلي من إنصاف خصمه السبكي كما رأينا في الفقرة السابقة. وما منع الذهبي تحزبه الشديد الذي عرف به من إنصاف السبكي وشيخه الشاذلي كما رأينا.

يأتي في زماننا مقلدون امتلأت أردانهم رعونة ونزقا فيتبنون تلك الخصومات ويتشددون ويلعنون فيعيدون إشعال نيران الفتنة بعد أن خمدت، يبعثونها من طي الكتب الراقدة التي كان من حقها أن تخلد إلى الراحة بعد أن أتعب الأمة وأوهاها ما سجلته من صدام تاريخي مؤلم.

إن من أحوج ما نحتاج إليه بسط صفحة من التسامح والرحمة والاعتدال وضبط النفس. كان الصوفية ولا يزالون، أعني الصادقين لا المنتحلين للاسم والسمعة، أصحاب قلوب حشوها المحبة والرفق والرحمة بالخلق كافة. ولئن اصطدم بهم بعض الفقهاء والمحدثين الذين من شأنهم التعامل مع النصوص بدقة العقل القانوني والتعامل مع الناس بميزان الجرح والتعديل الباني الهادم فإن صدق الفريقين يرجع آخر الأمر إلى الإنصاف، والاعتدال، والاعتراف، والرجوع إلى الحق. مثال هذا الاعتدال والمراجعة نفتقده في زماننا، فلا نجد إلا التعنت والتصلب والرفض لكل حوار. لذا نستعرض تاريخ الرجال من سلفنا الصالحين لنستلهم الرفق كفاء لجهود غيرنا ممن ينفخ في رماد الفتنة ليوري الشرار.

كثيرا ما قرأنا عبارات «أخذ عنه» أو «تلقى عنه»، فيا عجبا أي شيء يتلقاه أئمة الدين حماة الشريعة من أساتذتهم الصوفية؟ أفي الأمر أسرار كهنوتية أم أن الأمة أجمعت على ضلال حين اتبعت فقهاء في أغلبهم يتصوفون، واقتدت بصوفية تتلقى عنهم وتأخذ شيئا زائدا عن العلم والفتوى والإرشاد؟ إن في هذا ما يحير من كان

خالي الفؤاد من هم الآخرة وهم الله، ويشل حركته، ويرتد به إلى السلبية والعدمية والشك. ألا يكفي يا فقهاء ما جمعتموه من علوم حتى تلتمسوا من قوم ليس لهم أحيانا سماع ولا رواية ولا أصول مضبوطة محفوظة؟ ماذا تتلقون مما لا تجدونه في كتاب الله وسنة رسوله؟ أثم شيء زاده الصوفية في الدين، أم هو وحي بعد الوحي أم أن الدين الذي أنزل على محمد ﷺ بحاجة إلى من يكمله؟

أسئلة إنكار وجدال تبقى صماء لا تصيخ لجواب في فم الغاضب لنفسه، وقد يوهمه جهله أنه يغضب لله. أما من كان في قلبه حرقة، وكان من ذوي الأفق الواسع، استكشف رحاب العلم وجوانب الاطلاع، فانتهى مثل الغزالي إلى أن علمه المكتسب ما زاده إلا تخبطا في الدنيا وهوسها بعيدا عن علم الآخرة بعيدا عن معرفة ربه، فذاك يطلب العلم لا يمل، ويتعرض كما تعرض موسى عليه السلام لمن يعلمه علما، يتبعه على ذلك ويطيعه ويصبر معه.

أو كمثل مجتهد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الشوكاني رحمه الله الذي يحظى عند السادة السلفية والحنابلة بالقبول التام وتحظى كتبه بالتقدير الكامل. هذا الرجل مثال للاعتدال والإنصاف، نعرض نصوصا له لمن يعرف الحق بالرجال ولا يعرف الرجال بالحق لبعده عن الحق.

الشوكاني أيضا أخذ وتلقى عن شيخ صوفي، هو أيضا تتلمذ وقعد بين يدي مرب ماهر في طب القلوب. أتدري يا أخي ماذا تلقى؟ إنه تلقى دواء كما تلقى غيره ممن قرأت وممن لم تقرأ. فإن كنت مطمئنا إلى إيمانك وسلامة قلبك أكثر من اطمئنان من سردت عليك من الفحول فلا عليك أن ترضى بحالك وأن تقعد فأنت الطاعم الكاسي.

تحدث الشوكاني في كتابه «البدر الطالع» عن شيخه في طريق القوم السيد عبد الوهاب الحسني الموصلي رحمه الله. قال: «وقدم علينا إلى صنعاء في سنة 1234.

وكثر اتصاله بي. وهو جامع بين علم الأديان والأبدان، جيد الفهم فصيح اللسان، حسن العبارة، حسن الإشارة».[1]

قال: «وقد تلقيت منه الذكر على الطريقة النقشبندية».[2]

يعتبر السادة السلفيون من أهل الحديث وغيرهم ممن يقلدون الاتجاه المتشدد عفا الله عنا وعنهم أن الشوكاني واحد منهم، ويحتفلون بكتبه أيما احتفال. والرجل سليم من الغلو الذي وقع فيه الوهابية الذين فسروا ابن تيمية تفسيرهم الخاص. نجد عند الشوكاني فتوى توصي بالاعتدال والكف عن تكفير المسلمين، أبى إلا أن ينظمها أبياتا ليسهل حفظها وتناقلها وسيرها في الآفاق كما كان أسلافنا رضي الله عنهم يفعلون بالمتون المهمة. قال رحمه الله:

نـرد إلـى الكتـاب إذا اختلفنـا ... مقالتنـا وليـس لـذا جحـود
مضـى خيـر القـرون ومـن تلتـه ... ولا قيـل ولا قـال ولـود
لهـم مـن حلـة الإنصـاف حلـي ... ولبـس للهـدى لهـم بـرود
ومـا قالـوا بتكفيـر لقـوم ... لهـم بـدع علـى الإسـلام سـود
ومـا قالـوا بـأن الرفـض كفـر ... وبدعتـه تشـق لـه الجلـود
فكيـف يقـال قـد كفـرت أنـاس ... يـرى لقبورهـم حجـر وعـود
فـإن قالـوا أتـى أمـر صحيـح ... بتسـوية القبـور فـلا جحـود
ولكـن ذاك ذنـب ليـس كفـرا ... ولا فسـقا فهـل في ذا ردود؟
وإلا كان مـن يعصـي بذنـب ... كفـورا، إن ذا قـول شـرود
ولـي في ذا كتـاب قمـت فيـه ... مقامـا ليـس ينكـره الحسـود
وقـد سـارت بـه الركبـان شـرقا ... وغربـا لـم تـرد فيـه ردود[3]

(1) البدر الطالع ، ج 1، ص: 406 – 407.

(2) نفس المصدر، ج 1، ص: 408.

(3) ولاية الله والطريق إليها، ص: 26.

كان الشوكاني إماما مستقلا باجتهاده، يؤلف، كما قرأنا، كتابا في الدعوة للاعتدال، ويشجب المذاهب المتشددة ويقول: «فإن صاحب نجد (سعود) وجميع أتباعه يعملون بما تعلموه من محمد بن عبد الوهاب، وكان حنبليا، ثم طلب الحديث بالمدينة المشرفة. فعاد إلى نجد وصار يعمل باجتهادات جماعة من متأخري الحنابلة كابن تيمية وابن القيم وأضرابهما، وهما من أشد الناس على معتقدات الأموات»[1].

إن كان عند ابن تيمية وابن القيم تشدد فقد كان لتشددهما حدود، لم يبلغ بهما التمسك بالأحوط أن يتجاوزا الصحابة رضي الله عنهم، وهم أكثر الناس ورعا وحيطة في الدين ولم يكن الصحابة رضي الله عنهم يقذفون الناس بما يقذف به المكفرون المقلدون، وحاشاهم. ها هو الإمام علي كرم الله وجهه يخرج عليه الخوارج ويكفرونه في قضية التحكيم، ويهددون وحدة الأمة في زمن الفتنة والانشقاق تهديدا خطيرا. ما أهون بدعة تشييد الأضرحة أمام بدعتهم التي تنشق لها الجلود كما تنشق لبدعة الرفض. ومع ذلك فلم يكفرهم رضي الله عنه بل قال عنهم: «من الكفر فروا». وبعث إليهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ليحاورهم بلطف. وعندما رفعوا شعار المروق وقالوا: «لاحكم إلا لله»، أصدر الخليفة الرابع رضي الله عنه أمره الحكيم ووصيته العادلة قائلا: «كلمة حق أريد بها باطل، لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه». هكذا التمس لهم رضي الله عنه العذر.

وشيخ الإسلام ابن تيمية مهما كانت حدته رجل صادق في اقتفائه أثر السلف الصالح. أحيانا يلج في الخصام ويبين أثناء حمية الجدل فيتلقف المقلدة تلك اللحظة العابرة في تفكير الرجل ليتخذوها سندا لتزمتهم وعنفهم. أما في سائر كتاباته فرجوعه إلى السنة الصحيحة وإلى عمل الصحابة يدله على الاعتدال والتريث والتثبت. قال رحمه الله: «ومازال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل (مسائل الخلاف في العقيدة، فكلامه هذا جاء في نقاشه لخلاف الأشاعرة والحنابلة) ولم يشهد أحد منهم

(1) ولاية الله والطريق إليها، ص: 27.

على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية».[1] وقال: «مع أني دائما ومن جالسني يعلم ذلك مني: إني من أعظم الناس نهيا أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية. إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تارة وفاسقا أخرى وعاصيا أخرى. وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية».[2]

وكما تحدث الشوكاني في منظومته عن الرافضة، وهم الذين يسبون الصحابة قاتلهم الله، فلم ينسبهم للكفر مع أن بدعتهم من أشد البدع سوادا ولؤما، فإن ابن تيمية سبقه إلى موقف الاعتدال منهم، مع أنه في عامة كتبه صب عليهم وابلا من غضبه فعدوه ناصبيا. والنواصب خذلهم الله هم من يكرهون آل البيت عليهم السلام. قال: «فالرافضة لما كانت تسب الصحابة صار العلماء يأمرون بعقوبة من يسب الصحابة».[3]

أكتب هذا والحملة على الشيعة وثورتهم في إيران شعواء ماحقة. تصدر فتاوي مأجورة مأزورة بتكفير الشيعة كافة، لايتقي الله في الأمة من يلفقون الأحكام. إن كان في إيران روافض، والرفض منتشر هناك بالتأكيد، فهم عقول ونفوس مريضة بداء الكراهية الوبيل. غاية القاضي أن يعاقبهم كما كان يفعل العلماء. وذلك لا يتأتى إلا لو كانت الأمة موحدة والقضاء إسلاميا والعزة في الأرض لله ولرسوله وللمؤمنين. وإن كان الثوار الإيرانيون سجنوا علماء السنة واضطهدوا السنيين وهمشوهم فالهيجان الثوري كان ولا يزال في كل زمان ومكان يخيل للثوار أنهم قادرون على تبديل الأرض غير الأرض والسماء غير السماء. والواقع المستعصي على الإرادات الثورية يعطي الاتجاه الثوري العنيف إما حكمة ورجوعا إلى الحلول المعقولة إن وجدت في الواقع المقابل تفهما، وإما انحرافا خطيرا إن خيبت التجربة الثورية الآمال ودفع بها اليأس من تطرف إلى تطرف.

(1) الفتاوي، ج 3، ص: 229.

(2) نفس المصدر، ج 3، ص: 229.

(3) نفس المصدر، ج 3، ص: 409.

حمل إخواننا الشيعة ألمين ممضين منذ قرون، ألم الحزن على فوات الخلافة ممن يعتبرونهم أئمة وارثين شرعيين، قمة الحزن مأساة قتل الحسين رضي الله عنه. ثم ألم الخضوع للحكم الجبري الذي كان الشاه المقبور من أعتى نماذجه. فلما أذن الله بتحرر القطر الإسلامي إيران من داء الحكم الفاسد اشتعل حماس المسلمين في أرجاء الأرض استبشارا. ثم أخذت الأخطاء الجسام تتراكم فانفعل من انفعل، وغضب من غضب، وأفتى من أفتى.

إننا ونحن نتحدث عن سرطان الرفض في معرض البحث عن مواقف التثبت والاعتدال نعالج مرضا واحدا، هو مرض الهيجان العاطفي الذي فتك بوحدة الأمة ولا يزال يفتك. كفروا الشيعة جميعا لأن من بينهم روافض، وكفروا الصوفية جميعا لأن بعض الزنادقة لبسوا الزي وتحلوا باللقب. في الماضي كانت التكفيرات تتناول الأفراد أو الطوائف والكل داخل الوحدة الإسلامية قبل أن تكرس القطرية الفرقة وتحجرها. أما اليوم فوقع التكفير والطرد من حظيرة الإسلام أبلغ أثرا وأعمق وأبشع لأن تكفير قطعة من جسم الأمة الممزقة بغير حق يزيد التمزيق استفحالا. فإذا كانت هذه القطعة من الأمة ثورة هائجة، وكان تصديها، الرائع بكل ميزان، لقوى الاستكبار العالمي يجد صدى سلبيا من علماء السنة، بل وقوفا ضد الثورة الإسلامية، وتكفيرا لقيادتها، فرعونة الفقيه أو الكاتب الذي يملي ويخط آراءه في كرسيه الآمن، يكفر ويلعن ويستبيح الحرم، جريمة نكراء. إن مستقبل الأمة في خطر داه بما تجنيه أيد غير مسؤولة. وإن المرض العضال الذي لا تزال الأقطار السنية تعاني منه، وهو مرض الحكم الجبري الجائر، لا تزيده الفتاوي الطائشة ضد إيران والشيعة إلا ترسيخا. داء إخواننا الشيعة سرطان الرفض في بعض الأفراد وفي بطون الكتب والأخطاء الفادحة التي لا تخلو منها أية ثورة.

فهل يجوز يا قوم أن نحكم بجرة قلم إرضاء للنزوات أو للحكام بفتاوي بئيسة يلتحم بها الرفض الموروث بالأخطاء الثورية التحاما أبديا ليولَد مخلوقٌ بشع وليخلد في ديار السنة حكم الظلمة المارقين؟

مراجعة وتوبة

صاحبنا الإمام الشوكاني نشأ زيديا شيعيا، ثم توسعت مداركه حتى بلغ درجة الاجتهاد. ونجده في كتاب «نيل الأوطار»، وهوشرح لكتاب «منتقى الأخبار» لابن تيمية الجد، يمشي مع التشدد في مسألة التمسح بالأضرحة والحلف بغير الله، ويندد «بالكفر الفظيع والمنكر الشنيع» و«الشرك المبين». ويستعدي العلماء والحكام قائلا: «فيا علماء الدين، ويا ملوك المسلمين، أي رزء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك المبين؟».[1]

هذا الرجل المعتدل الذي قرأنا فتواه المنظومة في الفقرة السابقة الداعية إلى الرفق خاض معارك من جملتها معركته مع الروافض. لنستمع إليه يقص قصتها فهي مليئة بالعبر. قال رحمه الله: «ولما ألفت الرسالة التي سميتها «إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي» ونقلت إجماعهم من ثلاث عشرة طريقة على عدم ذكر الصحابة بسب أو ما يقاربه، وقعت هذه الرسالة بأيدي جماعة من الرافضة الذين بصنعاء المخالفين لمذاهب أهل البيت، فجالوا وصالوا وتعصبوا وتحزبوا وأجابوا بأجوبة ليس فيها إلا محض السباب والمشاتمة (...). وكل من عنده أدنى معرفة يعلم أني لم أذكر فيها إلا مجرد الذب عن أعراض الصحابة الذين هم خير القرون، مقتصرا على نصوص الأئمة من أهل البيت، ليكون ذلك أوقع في نفوس من يكذب عليهم وينسب إلى مذاهبهم ماهم منه برآء. ولكن كان أهل العلم يخافون على أنفسهم ويحمون أعراضهم، فيسكتون عن العامة. وكثير منهم كان يصوبهم مداراة لهم. وهذه الدسيسة هي الموجبة لاضطهاد علماء اليمن وتسلط العامة عليهم وخمول ذكرهم وسقوط مراتبهم، لأنهم يكتمون الحق. فإذا تكلم واحد منهم وثارت عليه

(1) نيل الأوطار، ج 3، ص: 134.

العامة صانعوهم وداهنوهم وأوهموهم أنهم على الصواب. فيتجرأون بهذه الذريعة على وضع مقادير العلماء وهضم شأنهم. ولو تكلموا بالصواب أو نصروا من يتكلم به أو عرفوا العامة إذا سألوهم الحق وزجروهم عن الاشتغال بما ليس من شأنهم لكانوا يدا واحدة على الحق، ولم يستطع العامة ومن يلتحق بهم من جهلة المتفقهة إثارة شيء من الفتن. فإنا لله وإنا إليه راجعون».[1]

حكمة جليلة يضع الشوكاني أصبعنا عليها. حكمة عملية سياسية اجتماعية. وهي سقوط القيادات في قبضة الجماهير بتعبير عصري. في المجتمع الشيعي يعيش الناس إسلامهم على نمط خاص: عاطفة فوارة وذاكرة تتأجج بمآسي الفتنة الكبرى ومقتل الحسين رضي الله عنه. الجماهير تنوح وتحزن وتسب وتلعن، والعلماء يخشون ثورة العامة فيصانعون ويداهنون ويسكتون. تماما كما يصانع علماء السنة الحكام ويداهنون ويسكتون مخافة بطش السلطان.

فإذا نقلنا تحليل الشوكاني، وهو الخبير بالمجتمع الشيعي، إلى عصر الثورة الإيرانية، وحسبنا الفرق بين الزيدية المعتدلين وبين الإمامية الأكثر صلابة ظهرت لنا أبعاد القضية كلها. المسلمون الشيعة في قبضة حركية تولدت من الانكسار التاريخي، وقويت واشتدت وتأزمت حتى انفجرت اليوم في وجه العالم. العامة ثائرة، والقادة لا يملكون الزمام. والمسلمون السنة في قبضة حركية تاريخية السلطان فيها هو المحرك والعامة لا تملك من أمرها شيئا، من ضمن العامة العلماء.

عاش الشوكاني معركة من موقع مريح. كان القاضي العام في اليمن تحوطه رعاية الإمام الحاكم. هدوء حياته كان لا شك عاملا مهما في صياغة شخصية كانت صاخبة متطرفة في شبابها، ثم ترزنت وتثبتت لتعطينا المفتي الرفيق. يتهمه بعضهم بأنه كان تيميا وهابيا، أي مقلدا جامدا. والحقيقة أن الرجل حر في رأيه، حر في بحثه، حر في اجتهاده. ففي مسألة من «مسائل ابن تيمية» وهي مسألة التوسل نراه يسلك مسلكا واسعا لينا. في كتابه «قطر الولي على حديث الولي» يذكر مناقب الإمام البخاري رحمه الله ويثني ويقول: «وجعل الله سبحانه كتابه (كتاب البخاري) هذا أرفع مجاميع

(1) البدر الطالع، ج 1، ص: 233 – 234.

كتب السنة المطهرة وأعلاها وأكرمها عند جميع الطوائف الإسلامية، وأجلها عند كل أهل هذه الملة. وصاروا في جميع الديار إذا دهمهم عدو أو أصيبوا بجدب يفزعون إلى قراءته في المساجد والتوسل إلى الله بالعكوف على قراءته لما جربوه قرنا بعد قرن وعصرا بعد عصر من حصول النصر والظفر على الأعداء بالتوسل به، واستجلاب غيث السماء، واستدفاع كل الشرور بذلك وصار هذا لديهم من أعظم الوسائل إلى الله سبحانه. وهذه مزية عظيمة ومنقبة كبيرة».[1]

توسع ورجوع وتجربة. وكذلك رجع الشوكاني عن تكفير المسلمين وأعلن توبته في صفحة مشرقة نقدمها هدية لكل عاقل لبيب من أهل الإيمان. كان أحدهم استفتاه في جماعة من الصوفية نظما، فأجابه نظما بتكفير الجميع. وأورد القصيدة بتمامها في كتابه البدر الطالع ليشطب عليها ويلغيها ويتوب مما احتوته. قال: «وقد أوضحت في تلك الرسالة (رسالة منه أصحبها فتواه المنظومة) حال كل واحد من هؤلاء، وأوردت نصوص كتبهم، وبينت أقوال العلماء في شأنهم». قال: «وكان تحرير هذا الجواب في عنفوان الشباب. وأنا الآن أتوقف في حال هؤلاء، وأتبرأ من كل ما كان من أقوالهم وأفعالهم مخالفا لهذه الشريعة البيضاء الواضحة التي ليلها كنهارها». هكذا رجع من التورط في التعيين إلى التعميم الأسلم. قال: «ولم يتعبدني الله بتكفير من كان في ظاهر أمره من أهل الإسلام. وهب أن المراد بما في كتبهم وما نقل عنهم من الكلمات المستنكرة المعنى الظاهر والمدلول العربي، وأنه قاض على قائله بالكفر البواح والضلال الصراح، فمن أين لنا أن قائله لم يتب عنه؟ ونحن لو كنا في عصره بل في مصره، بل في منزله الذي يعالج فيه سكرات الموت لم يكن لنا إلى القطع بعدم التوبة سبيل، لأنها تقع من العبد بمجرد عقد القلب ما لم يغرغر بالموت. فكيف وبيننا وبينهم من السنين عدة مئين، (...) وفي ذنوبنا التي أثقلت ظهورنا لقلوبنا أعظم شغلة. وطوبى لمن شغلته عيوبه. ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. فالراحلة التي قد حملت ما لا تكاد تنوء به إذا وضع عليها زيادة عليه انقطع ظهرها وقعدت على الطريق قبل وصول المنزل. وبلا شك إن التوثب على ثلب

(1) ولاية الله والطريق إليها، ص: 519.

أعراض المشكوك في إسلامهم، فضلا عن المقطوع بإسلامهم، جراءة غير محمودة. فربما كذب الظن، وبطل الحديث، وتقشعت سحائب الشكوك، وتجلت ظلمات الظنون، وطاحت الدقائق، وحقت الحقائق. وإن يوما يفر المرء من أبيه، ويشح بما معه من الحسنات على أحبابه وذويه، لحقيق بأن يحافظ فيه على الحسنات، ولا يدعها يوم القيامة نهبا بين قوم قد صاروا تحت أطباق الثرى قبل أن يخرج إلى هذا العالم بدهور. وهو غير محمود على ذلك ولا مأجور. فهذا ما لا يفعله بنفسه العاقل. وأشد من ذلك أن ينثر جراب طاعاته، وينثل كنانة حسناته على أعدائه غير مشكور بل مقهور. وهكذا يفعل عند الحضور للحسنات بين يدي الجبار بالمغتابين والنمامين والهمازين اللمازين، فإنه قد علم بالضرورة الدينية أن مظلمة العرض كمظلمة المال والدم، ومجرد التفاوت في مقدار المظلمة لا يوجب عدم إنصاف ذلك الشيء المتفاوت أو بعضه بكونه مظلمة. فكل واحدة من هذه الثلاث مظلمة لآدمي، وكل مظلمة لآدمي لا تسقط إلا بعفوه. وما لم يعف عنه باق على فاعله حتى يوافي عرصات القيامة».

ثم يقول رحمه الله مخاطبا العقلاء الأشحاء على دينهم، المشفقين من لقاء ربهم، مناشدا عندهم خشية الموقف الرهيب الذي لا ريب فيه: «فقل لي كيف يرجو من ظلم ميتا بثلب عرضه أن يعفو عنه؟ ومن ذاك الذي يعفو في هذا الموقف وهو أحوج ما كان إلى ما يقيه عن النار؟ وإذا التبس عليك هذا فانظر ما تجده من الطباع البشرية في هذه الدار، فإنه لو ألقي الواحد من هذا النوع الإنساني إلى نار من نيران هذه الدنيا وأمكنه أن يتقيها بأبيه أو أمه أو بابنه أو بحبيبه لفعل. فكيف بنار الآخرة التي ليست نار هذه الدنيا بالنسبة إليها شيئا. ومن هذه الحيثية قال بعض من نظر بعين الحقيقة: لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت أبي وأمي، لأنهما أحق بحسناتي التي تؤخذ مني قسرا. وما أحسن هذا الكلام!».

قال رحمه الله: «ولا ريب أن أشد أنواع الغيبة وأضرها وأشرها وأكثرها بلاء وعقابا ما بلغ منها إلى حد التكفير واللعن. فإنه قد صح أن تكفير المؤمن كفر، ولعنه راجع على فاعله، وسبابه فسق. وهذه عقوبة من جهة الله سبحانه. وأما من وقع له

التكفير واللعن والسب فمظلمته باقية على ظهر المكفر واللاعن والساب. فانظر كيف صار المكفر كافرا واللاعن ملعونا والساب فاسقا، ولم يكن ذلك حد عقوبته، بل غريمه ينتظر بعرصات المحشر ليأخذ من حسناته، أو يضع عليه من سيئاته بمقدار تلك المظلمة. ومع ذلك فلا بد من شيء غير ذلك، وهو العقوبة على مخالفة النهي، لأن الله قد نهى في كتابه وعلى لسان رسوله عن الغيبة بجميع أقسامها. ومخالفة النهي فعل محرم، وفاعل المحرم معاقب عليه»[1].

انتهى كلام عالمنا الورع. كتبه بعد أن استجمع عقله وإيمانه، وترك وصيته معلمة على طريق كل باحث عن سبيل النجاة بدينه.

من كان لا يستحضر بيقين أهوال العرض على الله يوم توزن الأعمال بمثقال الذرة فهذا الكلام النير موجه لغيره. ومن كان لا يستطيع أن يعرف الحق فيعرف بالحق الرجال ومقاديرهم ومرتبة قراراتهم ومنعطفات فكرهم وحياتهم فقد بسطنا له طرفا وجيزا من مواقف الرجال ليعتبر، وعساه يهتدي إلى الحق باقتفاء آثار من سبقوه بالإيمان، يفحص تلك الآثار ويقارن ويحكم. ذلك لمن كان فيه استعداد للبحث، وطلب للحق، ووحشة من الجهل، واستنكاف عن الهينة اللينة حياة التقليد والسطحية والرضى بالدنية.

لماذا يخرج أمثال الغزالي عن الجاه العريض، والرياسة العلمية، ويترك الأهل والوطن ليلقى «متبوعا مقدما»؟ لِمَ يزحف سلطان العلماء العز بن عبد السلام أمام المشايخ وهو الذي ترتعد منه فرائص الملوك ويجثو بين يديه الأمراء والكبراء؟ من هو السيوطي الذي يشيد الطريقة الشاذلية ويتتلمذ للصوفية؟

تمر بين عيني القارئ السالي الفارغ الفؤاد راحة من طلب المعالي أمثولات الرجال فلا يتحرك فيه حس المنافسة ولا خشية أن يفوته الأمر الجلل الذي تزاحمت عليه الفحول، وتخاصمت، وتناظرت، وتسابقت.

فهل من همم عالية تسمع، وتهب، وتلتاع؟

(1) البدر الطالع، ج 2، ص: 37 – 39.

الفصل الثاني
عقبة واقتحام

- إسماع الفطرة
- أخذ العلم عن أهله
- فلا اقتحم العقبة !
- الآل والصحابة رضي الله عنهم
- الإسلام والإيمان والإحسان
- التوبة واليقظة
- الإرادة والهمة والعزم
- جناية المصطلحات
- كن حلس بيتك
- عقبة الخلاف والاختلاف
- ابك على نفسك !

إسماع الفطرة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه من قبله ومن بعده.

أستمطر الصلاة والسلام والبركة على خير الخلق وآله وصحبه وإخوانه من قبله ومن بعده. الذين من قبله هم الأنبياء. فما بال الذين من بعده؟

روى الشيخان رحمهما الله وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دَارَ قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقُون ودِدْت أن قد رأينا إِخواننا» قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد». الحديث.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «مِن أَشَدِّ أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي، يَوَد أحدهم لو رآني بأهله وماله».

وأخرج الدارمي رحمه الله أن أبا مُحَيْريز قال: قلت لأبي جمعة رجل من الصحابة: حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ. قال نعم أحدثك حديثا جيدا. تغدّينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله؟ أَحَدٌ خيرٌ منا؟ أسلمنا وجاهدنا معك! قال: «نعم! قوم يكونون من بعدكم، يؤمنون بي ولم يروني». وروى الحديث أيضا رزين رحمه الله.

هذه الأحاديث تثبت أن لرسول الله ﷺ إخوانا من بعده، ليسوا أنبياء لأن النبوة به ختمت، لكن لهم فضلا بما أحبوه بحب الله، ولهم فضل بما آمنوا به ولم يروه، ولهم

فضل بما صبروا على غربة الإسلام، وعلى شدة أعداء الإسلام على أهل الإيمان. روى أبوداود والترمذي وقال حديث حسن غريب عن أبي أمامة الشعباني أن رسول الله ﷺ قال: «فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر. للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم». زاد أبو داود: «قيل: يا رسول الله؟ أجر خمسين رجلا منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين رجلا منكم». الحديث. وللحديث طرق أخرى بعض أسانيدها صحيح.

لمثل هذه المزية التي ترفعُك إلى مصاف الرجال فليعمل العاملون. لهذا استمطرت الصلوات والسلام والبركة على الصحب والإخوان بعد الآل.

وفي كتابي هذا أبدأ كل فقرة بالبسملة فكل كلمة أمر ذو بال، وأَرَصِّع كل فقرة في البداية بدعاء قرآني أو نبوي أو بهما معا، وأوشيها في آخرها بشعر يرقق الشعور. والشعر بعضه حكمة. روى البخاري في كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والحُداء وما يكره منه، أن أبي بن كعب رضي الله عنه أَخْبَرَ أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الشعر لحكمة». والحكمة كما قال البخاري في مكان آخر هي: «الصواب في غير النبوة».

أريد في هذا الكتاب أخي وأختي، والله المستعان، أن أحدثك حديث القلب، حديث الفطرة، في موضوع هو أجل الموضُوعات على الإطلاق، وهو موضوع صلة العبد بربه، وتقرب العبد من ربه، ووصول العبد إلى ربه، وفوز العبد بربه. ويا خسارة من خرج من الدنيا وليس له حظ من الله ولا نصيب ولا علم ولا هدى ولا كتاب منير!

ليس يجسر عاقل أن يخوض فيما ليس له به علم مخافة أن يفتضح عند الناس. فكيف يجسر مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخوض في غمار الحديث عن جوهر الدين ولبه، وهو حب الله ومعرفة الله، وهو غريب عن مصادر المعرفة ومواردها. إنها إذن الفضيحة الكبرى يوم القيامة.

وقد تجرأ كثير من المطالعين في الأوراق على «التأليف» في علم التصوف، وأقحموا في ورقاتهم الكئيبة ما التقطوه من فتات موائد أهل العلم ليلفقوا أحكاما

نهائية بأن التصوف تلبيس إبليس، وعمموا الأحكام وأضرموا نار اللجاج وأثاروا دخان العجاج.

فتعال أحدثك بلسان أهل مكة وهم أدرى بشعابها. قدمت لك في الفصل الأول من هذا الكتاب وقائع موثقة عن لقاء الفقهاء والعلماء والمحدثين بالمشايخ المربين. ووصفت لك من أحوالهم، وسردت لك من أقوالهم وشهاداتهم. وأفضل أن أنزهك في حدائق كتب القوم طيبي الأنفاس تسمع كلامهم مباشرة، بعد أن كنت منذ قريب من عشرين سنة كتَبْتُ، وكنت يومئذ في أول الطريق، شهادة عن «تجربتي الشخصية»*. فثارت علي الشبهات، وأشرعت في وجهي الأسنة. وقيل: طرقي مخرف لا يكفر زيدا وعمرا من الناس! وينقل عن «الكتب الصفراء» حديث خرافة! فاسِد العقيدة إلخ. ولست أبالي حين أقتل مسلما...

أفضل أن أكون مُسَمِّعا لصدى تلك الأصوات التي قلما تجد في عصرنا صدى يرددها، على أنني لست ببغائي المحتد بل أحيى معاني ما أكتب بلحمي ودمي وروحي وعقلي. وفضل الله على آخر هذه الأمة ما قيد بِعصر. ولله الحمد من قبل ومن بعد.

أخي وأختي، إنك تأتي الله يوم القيامة فردا، فتعال اجلس إلي، واصبر عليّ، حتى أخبرك بما لقي به الرجال من أهل الله والنساء ربهم، وماذا غنموا من الدنيا ليوم اللقاء. واسمع، اسمع.

النفس الجديدة التي أبرزها الله عز وجل إلى الوجود عند الميلاد يُشرع أن يُؤذن لها في الأذن اليمنى وأن يقام في اليسرى. ذلك ليكون أول ما تسمعه الفطرة الكامنة عند خروجها للدنيا، التذكير بعهد الله وميثاقه أنه عز وجل ربنا. اللطيفة الدفينة في جسم الوليد تسمع جلال الله عز وجل ووحدانيته، وخبر رسالة محمد ﷺ، ودعوة الصلاة والفلاح، وكبرياء من له الكبرياء سبحانه.

* يقصد رحمه الله ما كتبه في «الإسلام بين الدعوة والدولة» عام 1392هـ الموافق لـ 1972م.

كما شرع تلقين الميت من المؤمنين والمسلمين الكلمة الطيبة وشهادة الحق لتتردد الشهادة في كيان النفس الغاربة عن الدنيا وقت سفرها، عسى أن يُختم لها بالفطرة.

والفطرة إقامة الوجه لله، وَتَستوي الفطرة أو تَعْوَجُّ وتحيد عن الجادة بالتربية. روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» . ثم يقول: «اقرأوا إن شئتم: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾.[1] زاد البخاري: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

والتربية سماع وتشبه وتمثل وتشرب. روى الإمام أحمد رحمه الله أن رسول الله ﷺ كان يلقن صبية بني هاشم إذا أفصحوا قول الله عز وجل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾.[2] سبع مرات. وعند البخاري رحمه الله: «باب الدعاء للصبيان بالبركة».

وكان ﷺ يستقبل بالصبيان عند قدومه من السفر. وملاطفته ﷺ لسبطيه الكريمين ولأمامة ابنة بنته، وحبه لهم، خبر مستفاض. وقد أمرَنا ﷺ أن نأمر الصبيان بالصلاة لسبع سنوات، بل إنه ﷺ بايَع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وهو ابن سبع، مبايعة تبريك وتشريف لا مبايعة تكليف كما قال ابن حجر رحمه الله.

هذه النفوس الطرية لا يتركها الإسلام لهَوَس السؤال «من أنا، ومن أين جئت، وإلى أين، وما معنى وجودي؟». بل تحتضنها الفطرة، وهي إقامة الوجه لله، إذا كان المجتمع مؤمنا بالله، وتصونها من عوامل الشيطنة والفساد. تُلقن النفوس الطرية، تخبر لتسمع، تؤمر لتنفذ، تعرض عليها النماذج الصالحة لتتعلق وتتخلق قبل أن يتشكل العقل المنطقي المتعلق بحواسه السابح في ظلمائه الكونية.

أن تسمع خبر الوحي وتقبله وتتخذه شعارا مباشرا لكيانك النفسي لا يحول بين ذلك الكيان وخبر الوحي حائل من تموجات الأحداث، ولا من عوارض التعليلات

(1) الروم، 30.

(2) الإسراء، 111.

العاجزة عن تجاوز الشكل، تلك هي الطريق الوحيدة للإيمان والإحسان. والإحسان سماع وقَبُول وتربية.

وقد وصف الله عز وجل الكافرين الجاحدين للوحي بأنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.(1) وعقل الحق في لغة القرآن يطلب الانقياد لما سمعته أذن القلب، وشهد به نطق اللسان، واعتبرت صحته العين الباصرة للأكوان. وليس لوجود السمع الحسي، ولا الإبصار ولا النطق المشتركة بين البشر أي اعتبار في مجال الإيمان إذا كانت أذن القلب صماء عن سماع نداء الوحي، وكان اللسان معتقلا عن شهادة الانقياد، والبصر حائرا لا يرى وراء الأكوان صانعا. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.(2)

العقل البشري عاجز عن معرفة الله وعن معرفة الغيب والآخرة. وإن كان هذا العقل عقلا متفلسفا حكيما فغاية مداركه أن يحكم بوجوب وجود ذات خالقة للعالم بحكم حاجة كل صنعة لصانع. أما أن يعرف صفات هذه الذات وأفعالها وأمرها وخلقها المغيب دنيا وأخرى فذلك لا يأتي إلا من قناة السمع والقبول لصوت النبوءة المترجم عن الوحي. ويعبر علماؤنا عن إخبار الوحي بالمعتقدات بعبارة «السمعيات».

بساطة الإيمان الفطري تتمثل في أولي الألباب الذين يذكرون الله ويتفكرون، الذين حكى الله عز وجل قولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾.(3)

ها أنت أيها الأخ الجالس إلي في هذه الصفحات والأخت وصلك فيما وصل صوت خافت عن الآخرة وعن الإيمان، أو تضلعت من الإيمان والحمد لله رب العالمين. فماذا سمعت وقرأت عن التصوف وعن معرفة الله وعن سلوك الطريق إلى الله، وعن شروط هذا السلوك، وعن مشروعيته، ممن اختصموا في هذه القضية

(1) البقرة، 171.

(2) الأعراف، 179.

(3) آل عمران، 193.

العظمى، والخلاف له قعقعة تُصم الآذان، وتُشَوِّشُ على النداء الفطري الأول؟ ما الذي شوش، وما أصل الخلاف وفرعُه ومعْقِده؟ أحدِّثُك عن هذا أيضا إن شاء الله، كما أسْمِعُك شهادات أهلِ مكة الذين هم أدرى بشعابها.

نكتفي هنا بإجمال الأسباب المُصِمَّة المشوشة في ضياع الناس، والتفاتهم عن النبوة وشمولها، وتشتتهم في جزئيات الدين، صرفهم الاشتغال بالجزئيات وبالغير عن السماع الكلي. قال الإمام الغزالي في كتابه الفريد «المنقذ من الضلال»: «الأنبياء أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل وتصرفه أن عرَّفَنا ذلك، وشهِدَ للنبوءة بالتصديق، ولنفسه بالعجز عن درك ما يُدرك بعين النبوَّة. وأخذ بأيدينا وسَلَّمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين».

العقل المخترع الجبار في زماننا لا يُسْلم الناس للنبوة، والخلاف المكفر للصوفية يعتمد عقلانية جافية عن النبوة. والنبوة طب للْقلوب، يا من له قلب يشتاق للحق، ويحِن للحق. يا عميان ويا متحيرون!

قال المحب الصوفي:

نسيمَ الصَّبَا إن زرتَ أرض أحبتي	فخُصَّهُمُ عني بكل سلام
وبلِّغْهمُ أني رهينُ صَبَابَة	وأن غرامي فوق كل غرام
وأني لَيكفيني طروق خيالهمْ	لَو أنَّ جفوني مُتّعت بمنام
وقد صمت عن لذات نفسي كلِّها	ويومُ لقاكم ذَاكَ فِطْرُ صيامي

وقلتُ:

ويومُ لِقَاكُم يا مُنى القلب موعدي	لطرح حجابي وانجلاءِ ظلامي
ركضت جوادي قاصدا ذروة العلا	ودون العلا بحر المهالك طامي
تهافت جهدي لاقتحام لِجاجها	فيا ربِّ أسعفني وخذ بِزِمامي

أخذ العلم عن أهله

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

ورث أهل العلم من علوم النبوة، وورث أهل التقوى من فيض النبوة، لكلٍّ مشْرب وَوِرْدٌ وصَدَرٌ. فمن حسن السمع أن نُلقِيَ الانتباه إلى ما يقوله العلماء. فإن كانت الأمثلة العديدة التي سقتها في الفصل الأول من هذا الكتاب لفقيه وعالم يَنقاد لشيخ مرب، ويسمع ويطيع، ويتتلمذ، لم تكف لإيقافك للعبرة، فاسمع الأصوات الفاصلة.

قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، يوصيك باستثبات الأحوال: «لا يزال الناس صالحين ما أخذوا العلم عن أصحاب رسول الله ﷺ ومن أكابرهم. فإذا أتاهم من أصاغرهم هلكوا». رواه الطبراني رحمه الله بإسناد صحيح.

الأكابر هم أكابر العِلم والتقوى، عظيمو الحظ من الله، والأصاغر أصاغر العلم والتقوى والحظ من الله وإن علا بهم السن وتقدم بهم الزمان. وسيدنا عبد الله بن مسعود من أكابر علماء الصحابة رضي الله عنهم.

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في إحيائه: «وأما الآخرة فلا تنفعُ فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها. وليس ذلك من فنّ الفقيه. وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في الكلام والطب، وكان خارجا عن فنه».[1] وذكر أن حكم الفقيه على صلاة الغافل الذي يحسب معاملاته في السوق أثناء الصلاة بالصحة حكم على ظواهر الأمور. قال: «فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو

(1) إحياء علوم الدين، ج 1، ص: 17.

عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه. ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه». وقال: «فإن تكلم في شيءٍ من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفل». وأخيرا وَضع الإمام الغزالي فقه الفقيه وربانية المربي في مكانهما فقال: «علم الفقه مُجَاوِرٌ لعلم طريق الآخرة لأنه نظر في أعمال الجوارح، ومصدر أعمال الجوارح ومَنشَؤُها صفات القلوب».

ضعفوا حديث «العلماء ورثة الأنبياء»، لكن هناك حديث: «العلماء أمناء الرسل» وإسناده حسن. قال المناوي رحمه الله: «هناك أربعون حديثا تقوي هذا المعنى».

تفرد المحدثون رضي الله عنهم بالنصيب الوافر من أمانة الرسالة وتفرد الفقهاء بالأحكام، وتخصص مشايخ التربية في القلوب وعلاجها وتوجيه سيرها إلى الله. لم يكن في عهد النبوة انصداع في الأمر، فالرسول ﷺ هو المرجع والطبيب والأمير، والوحي ينزل، وتَسليم الصحابة أنفسهم لله ورسوله كان تسليما كاملا. من بعد عهد الصحابة عامت سحابات الفلسفة ودخن الفتنة فغطت على الجلاء الأول، وترجم كل فريق من أمناء الرسالة وورثتها عما عنده من علم، وخاض كل فريق في طائفة العلم التي تخصص فيها إلى درجة الاستغراق.

فمن أدركته العناية الإلهية سمع الكبراء التراجمة بانفِتاحٍ، وشَمَّ طيب النبوة وشَامَ نورها. وأقوى ما وجد الواجدون النسمات النبوية المنعشة عند أطباء القلوب. فيذهب أمثال الغزالي عند «متبوع مقدم» للسماع والتلمذة. وتمنع الآخرين الأنانية عن السماع من أهل «الفن»، أو يمنعهم تحجر على العادة، أو تخشب على ذهنية تجزيئية سطحية حرفية.

كان الغزالي فقيها أصوليا متكلما ذا حظوة في بلاط نظام الملك وزير السلطنة السلجوقية القوية. ما صده جاهه العريض وعلمه عن الخرُوج لسؤال الأكابر والأخذ عنهم.

كبير آخر من الفقهاء الأصوليين يدلي بنصيحته إلينا في اتباع العلماء والأخذ عنهم. هو الإمام الشاطبي رحمه الله ذو العلم الواسع والفهم الجامع والاستنباط الرائع.

لم يكن من أهل «فن» التربية، لكنه كان يسلم للقوم ويعتبر الصادقين كل الاعتبار. أورد الحديث الشريف: «إن الله لا يقبضُ العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء». الحديث. ثم قال: «فإذا كان كذلك فالرجال هم مفاتيحه بلا شك. فإذا تقرر هذا فلا يؤخذ (العلم) إلا ممن تحقق به. وهذا أيضا واضح في نفسه متفق عليه بين العقلاء. إذ من شروطهم في العالم، بأي علم اتفق، أن يكون عارفا بأصوله وما ينبني عليه ذلك العلم».[1] وذكر من شروط العالم المتحقق: «أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم، لأخذه عنهم وملازمته لهم».[2] هذا يقال لمن يقرأون في الصحف والمجلات والكتب الجليلة بلا فهم، لم يربهم الشيوخ ولم يأخذوا إلا عن قال وقيل، ولم يلزموا الأكابر، ففاتتهم الفوائد. بل فاتتهم الدنيا والآخرة لما فاتهم العلم يأخذونه من أهله.

وذكر الإمام الشاطبي فوائد صحبة العلماء وملازمتهم وقال: «فهذا من فوائد الملازمة والانقياد للعلماء والصبر عليهم في مواطن الإشكال حتى لاح البرهان للعيان. وفيه قال سهل بن حنيف يوم صفين: أيها الناس اتهموا رأيكم، فوالله لقد رأيتني يوم أبي جَندل (قصته معروفة في صلح الحديبية لما ظن بعض الصحابة أن شروط الصلح مجحفة بالمسلمين)، ولو أني أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته. وإنما قال ذلك لما عرض لهم فيه (أي في أمر رسول الله ﷺ برد أبي جندل إلى المشركين) من الإشكال. وإنما نزلت سورة الفتح بعدما خالطهم الحزن والكآبة لشدة الإشكال عليهم، والتباس الأمر. ولكنهم سلموا وتركوا رأيهم حتى نزل القرآن فزال الإشكال والالتباس، وصار مثل ذلك أصلا لمن بعدهم (أي الصحابة). فالتزم التابعون في (صحبة) الصحابة سيرتهم مع النبي ﷺ حتى فقهوا ونالوا ذروة الكمال في العلوم الشرعية. وحسبك من صحة هذه القاعدة (أي تلقي جيل عن جيل بالملازمة والصحبة والأخذ والصبر) أنك لا تجد عالما اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك».[3]

(1) الموافقات، ج 1، ص: 53.

(2) نفس المصدر، ص: 54.

(3) نفس المصدر، ج 1، ص: 54 – 55.

ومما ينكره بعض المتلَفّعين في رداء أنانيتهم ويرفضونه أن يكون تسلسل مشيخة في علم القلوب وفن الفطرة وأدب التربية والتزكية المسمى في الاصطلاح تصوفا. ينقصهم صبر أمثال الغزالي وانقياده للأمناء. من الشروط التي وضعها الشاطبي في اعتبار أهلية العالم: «الاقتداء بمن أخذ عنه، والتأدب بآدابه، كما علمت من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ. واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرنٍ».[1] ويذكر كيف يحصل العلم والبركة بحضرة الشيخ: «وقد يحصل بأمر غير معتاد. ولكن بأمر يهبه الله للمتعلم عند مثوله بين يدي المعلم ظاهر الفقر، بادي الحاجة إلى ما يلقى إليه». وهذا ليس ينكر، فقد نبه عليه الحديث الذي جاء أن الصحابة أنكروا أنفسهم عندما مات رسول الله ﷺ.

وذكر رحمه الله أن العلوم تحصل بمشافهة العلماء، «ومفاتيحه بأيدي الرجال، والكتب لا تفيد الطالب منها شيئا دون فتح العلماء».

وذكر رحمه الله أن الإعراض عن الكبراء، والاعتراض عليهم، والأنفة من الانقياد لهم سبب للحرمان والعياذ بالله. قال: «عُهِد بالتجربة أن الاعتراض على الكبراء قاض بامتناع الفائدة، مبعد بين الشيخ والتلميذ، ولاسيما عند الصوفية، فإنه عندهم الداء الأكبر».[2]

ننتقل الآن إلى أحد عظماء الإسلام وكبراء الأمة في عصرنا يدلي بشهادته في الموضوع. قال الإمام حسن البنا رحمه الله: «وظللت معلق القلب بالشيخ (الحصافي) رحمه الله (...) وواظبت على الحضرة في مسجد التوبة في كل ليلة. وسألت عن مقدم الإخوان فعرفت أنه الرجل الصالح التقي الشيخ بسيوني العبد التاجر، فرجوته أن يأذن لي بأخذ العهد عليه ففعل».[3] ثم التقى بشيخ الطريقة الحصافية الشيخ عبد الوهاب، فيقول عنه: «وجزى الله عنا الشيخ عبد الوهاب خير الجزاء، قد أفادتني صحبته أعظم الفائدة».

(1) الموافقات، ج 1، ص: 55.

(2) نفس المصدر، ج 4، ص: 221.

(3) مذكرات الدعوة والداعية، ص: 13 – 14.

وللإمام البنا رحمه الله «رأي في التصوف» نرجع إليه إن شاء الله، فشهادة أمثاله من الكبراء لها الأهمية القصوى.

التقى بالبنا في بداياته صوفي اشتهر في سوريا وكان علَما فيما بعد. هو الشيخ محمد الحامد رحمه الله. وشهد الحامد في البنا شهادة تكشف وجها لدعوة الإمام طالما غطى عليه صيت الإخوان المسلمين الواسع في كل ميدان. هذا الوجه هو الوجه الرباني الصوفي، ويا للمصطلحات! قال الشيخ الحامد: «إني أقولها كلمة حرة، ولا بأس بروايتها عني. أقول: إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين في مجموع الصفات التي تحلى بها وخفقت أعلامها على رأسه الشريف. لا أنكر إرشاد المرشدين، وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وتدبير المدبرين، وحُنكة السائسين. لا أنكر هذا كله عليهم، من سابقين ولاحقين، لكن هذا التجمع لهذه المتفرقات من الكمالات قلما ظفر به أحد كالإمام الشهيد رحمه الله».[1]

في زماننا قل من يجسر على ذكر الصوفية والصحبة والذكر والمعرفة والكرامات والانقياد للمشايخ. إلا أن يكون الدكتور عبد الله عزام الذي يكتب عن كرامات أولياء الله المجاهدين في أفغانستان، أو يكون الفارس المعلم الشيخ عبد الحميد كشك كثر الله من أمثاله، أو الشيخ عبد الله علوان في كتبه رحمه الله.

من القلة، بل أبرزهم، الشيخ الأستاذ أبو الحسن النّدْوي، هذا الحكيم من بين الحكماء يعالج موضوع التربية والتزكية وهو في وضع حَرِج من جراء نشاطاته الواسعة ومخالطته لطوائف منهم الحرْفيون الذين لا يسمعون إلا من جهة واحدة، و«فن» واحد، وتعصب واحد. فهو لا يستعمل لفظ تصوف لكن يقول: «تزكية».

كتب الشيخ الندوي عن فن التصوف في تاريخ المسلمين يقول: «قيض الله للمسلمين في كل عصر وجيل من ينفون عن هذا الدين «تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»، ويدعون إلى التزكية الخالصة من شوائب العجمية

(1) العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، ص: 33.

والفلسفة، وإلى «الإحسان» و«فقه الباطن» من غير تحريف وانتحال وتأويل. ويُجدّدون هذا الطب النبوي لكل عصر. وينفخون في الأمة روحا جديدة من الإيمان والإحسان، ويجددون صلة القلوب بالله، والأجسام بالأرواح، والمجتمع بالأخلاق، والعلماء بالربانية. ويوجِدون في الجمهور قُوة مقاومة الشهوات، وفتنة المال والولد، وزينة الحياة الدنيا، وفي الخواص قوة مقاومة صلات الملوك وسياطهم، ووعدهم ووعيدهم، والجرأة على الجهر بكلمة حق عند سلطان جائر، والاحتساب على الملوك والأمراء، والاستهانة بالمظاهر والزخارف، والقناعة باليسير. فيستطيع أحدهم أن يقول -وقد طلب إليه أن يقبل يد ملك بلاده ليرضى عنه-: يا مسكين! والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده! يا قوم أنتم في واد وأنا في واد![1]».[2]

ومن الراسخين في العلم من أكابر الدعاة الشيخ الدكتور سعيد رمضان البوطي نفع الله به ينصح لهذه الأجيال الإسلامية الصاحية المباركة.[3] يقول في مقال عنوانه: «موقف ابن تيمية من ابن عربي»: «صفوة القول: غياب التصوف هو المسؤول عن جل مشكلاتنا اليوم. بل هو المسؤول أيضا عن البدع والانحرافات التي تسللت إلى جوهر التصوف وحقيقته. فلو أن النفوس زُكيت وتطهرت من أهوائها ورعونتها وعصبيتها -وهذا هو لب التصوف ومعناه- لما تحول التصوف عند أرباب هذه النفوس إلى مطية لشهرة، أو حرفة لمال، أو إطار لأبهة، أو خندق لمحاربة العلم والانضباط بقيوده وأحكامه. لو زكيت النفوس، كما أمر الله في محكم تبيانه، لما مزق المسلمون أنفسهم فئات وجماعات، ثم انهالت كل جماعة على الأخرى توسعها انتقاصا وشتما وتكفيرا في كثير من الأحيان (...). والشباب المسلم الذي يتكاثر بفضل الله في كل بقعة من أرضه الواسعة يظل يسأل، تحت إلحاح فطرته الإسلامية الظامئة: كيف السبيل إلى أن أَسْمُوَ على نَفْسي وأهوائها في هذه الأَزْمنة العصيبة

(1) قالها سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام (ت660هـ).

(2) ربانية لا رهبانية، ص: 16 - 17.

(3) أما موقفه المُصانِع للطاغوت النصيري فينبغي أن يُفْهم في الإطار التاريخي لمواقف علمائنا إزاء الطواغيت المتسلطين، يدرؤون فتنة أعظم بفتنة أقل ضررا.

وسط هذه المغريات المتأججة؟(...). نعم إنكم لتعلمون أيّها السادة أن الشباب المسلم الظامئ يظل يَسْأل هذه الأسئلة، ولا من مجيب، لأن الذين عليهم أن يجيبوا منهمكون في ملاحقة البدع والسعي للقضاء عليها. (...). إننا لا نعدو الحقيقة عندما نقول: إن حل مشكلات مجتمعاتنا الإسلامية اليوم إنما يكمن في غياب هذه التربية الوجدانية التي هي العمود الفقري في جوهر الإسلام».[1]

شباب يسأل ولا من مجيب، وصمت مطبق -كان- و«إرهاب فكري». وقد خرق هذا الصمت واحد من أبرز الدعاة، هو الشيخ سعيد حوى غفر الله لنا وله، فقد شن حملة تكفيرية شعواء على المسلمين الشيعة. وتوفي بعدُ رحمه الله وتجاوز عنا وعنه.

يمثل الشيخ سعيد أسعده الله معلمة بارزة في فكر الإخوان المسلمين، ويمثل رجوعه إلى علم التصوف في كتاباته الأخيرة تحولا نوعيا في هذا التفكير. أخبره شيخه محمد الحامد رحمه الله أن الإمام البنا كان يدرس حكم ابن عطاء الله، وهي من نفائس الكلام، لقلة من أخِصّائه. وعكف الشيخ سعيد على التأليف، فأنشأَ في علم التصوف كُتبا يدرك أهل الفن والذوق أنها فقه تبركي بمعزل عن معاني السلوك والوصول والمعرفة. والرجل صادق في دعوته لالتزام وظيفة البنا، والمحافظة على الذكر رجاء «إحياء الربانية». ويقترح ترتيبا «لجمعية الربانيين» حتى تخرج الربانية من «عفويتها» ويستفيد منها الجيل الإسلامي الحاضِر الذي يصفه، وهو أعرف الناس به، بالخواء الروحي.

ليست الربانية اجتهادا وتحصيلا وشهادات وإجازات، بل هي وهب إلهي وعطاء ومنة. وكيْف تعرف العارفين بالله إن لم تكن واحدا منهم؟

قال الصوفي المشتاق:

أحــن بأطــراف النهــار صبابــة — وفي الليل يدعوني الهوى فأجيب
وأيامنــا تفنــى وشــوقي زائــد — كأن زمــان الشــوق ليــس يغيــب

(1) مجلة «منار الإسلام»، رمضان 1408، ص: 103 وما بعدها.

وقال الصوفي المفتت الكبد:

بزمزم بالأركان بالحِجْرِ بالصفا بِمَشْعَره بالركن بالبركات
بحجاج بيت الله من كل جانب بحَصْب حَجيج الله بالجمرات
أجِرْني من الإعراض والصَّد والجفا فلي كبد تنْفَتُّ بالحسرات

وقلت غفر الله لي وأجارني:

ولي كَبِدٌ تَنْفَتُّ بالحسرات تَحِنُّ لذاك الربع بالجَمراتِ
ويُلهبني شوقي لأَعْتَسِفَ الفلا وأركب مَتْنَ البحر في الغَمَراتِ
تَصَرَّم عمري والطريق طويلةٌ فيا ربِّ أدرِكْني أقل عَثراتي

فلا اقتحم العقبة!

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴾. اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، ومن العجز والكسل، ومن الجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال.

لا يملك الوليد أن يُصم سمعه الغامض الفطري عن سماع كلمة التوحيد والبشارة بالنبوة والرسالة وذكر جلال الله. لكن الكبير المستغْنيَ بقُوّته وعلمه لا يتواضع ولا يستسلم ولا يجلس أمام من يسمعه كلام الله وحديث الآخرة بذلك الاستعداد للتلقي وتلك الفاقة التي تحدث عنها الشاطبي.

عقبات تحول دون الإنسان ودون الكيْنونة مع المؤمنين كينونة الصحبة والتلمذة والتعاون والالتحام والجهاد.

قال الله عز وجل يهيب بالإنسان لاقتحام العقبة، وهو نداء للفطرة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾.[1] اللهم أجرنا من النار.

عقبات تثبط الإنسان عن اقتحام العقبة الإيمانية، وعقبات أوْعر تعوقه عن الارتقاء في الإحسان. عقبات من تعلق نفسه بالدنيا، بالمال، بالجاه الذي يصرفه عن المرحمة، بالأنانية التي تجعله يستكبر عن الدخول في حصن الجماعة يسمع

(1) البلد.

النصيحة، غافلا عن ربه، عن مخلوقيته، يحسب أن أحدا لا يراه، ناسيا أن الذي برأه وجعل له لسانا وشفتين ديَّان.

شيطنة النفس، وشيطنة الوسواس الخناس من الجنة والناس، وفتنة الدنيا، تشكل مجتمِعةً عقبة في أنفس البشر وفي آفاق الكون. وطب القلوب يعالج الأنفس لِينزع منها بالتربية، أي بالصحبة والذكر والملازمة والعبادة، تلك الحظوظ الدنيئة، ويرفعها ويرقيها في سلم الإحسان.

راغَ السادة الصوفية الطيبو الأنفاس عن الفتنة الآفاقية بالخروج عن المجتمع والزهد في الدنيا ليتجنبوا عويصات الطريق. وهم بذلك نزلوا عن مستوى الصحابة الذين خاضوا الجهاد على كل الجبهات، فاستحقوا بذلك أعلى الدرجات.

في هذا الكتاب لست أدعو الأجيال المقبلة للتصوف! وإن كانت التربية الصوفية هي التي احتفظت بجوهر الأمر كله، بل أدعو إلى اقتحام العقبة التي انحدر منها الصوفيَّة الكرام عن ذلك الأفق العالي الجِهادي الذي تحرك في ذُراهُ الصحابة المجاهدون، نالوا بالجهاد المزدوج، الجهاد الآفاقي والأنفسي درجة الكمال. وجمعوا إلى نورانية القلوب المتطهرة حمل الأمانة الرسالية إلى العالم. وبذلك لحقوا بمقعد الصدق.

ليكن هذا واضحا. وليكن واضحا أن الحديث عن تجاوز الصوفية دون الاقتباس من نورهم والإسْرَاج من مشكاتهم المطهرة إنما هو ضرب من الخيَال. فهم كانوا ولا يزالون، الصادقين منهم والكُمّل، المتحلين بزينة القلوب، المرتفقين من الزاد النبوي.

تحدث الأكابر الصوفية رضي الله عنهم عن العقبات التي تقتحم في طريق السالك، وذكروا شروط الاقتحام. لم يتعرضوا لشيء من سلوك الصحابة الجهادي لغياب أسباب الجهاد وشروطه ووقته في حيواتهم المكرمة.

قال الإمام أبو حامد رحمه الله: «إنما سلوكه (أي المريد) بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا. وبعض تلك

العقبات أعظم من بعض. والترتيب في قطعها أن يشْتغل بالأسهل فالأسهل».[1] وذكر المجاهدة النفسية اللازمة وهي: «مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبة على نفس المريد»، حتى لا يبقى في قلبه علاقة تشغله. وعندئذ ينصرف إلى الذكر وملازمة الأوراد والعبادة حتى يتجرد قلبه من كل العلائق، ويستولي عليه حب الله تعالى «حتى يكون في صورة العاشق المستهتر». كل ذلك تحت نظر الشيخ وتوجيهه.

ونقرأ عند كبير آخر من أكابر الإسلام، وهو عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء ومفخرتهم، وصفا للعقبات وتخطيها، ينظر إلى العقبات وما وراءها نظرة لا تكاد تختلف عن نظرة أبي حامد وإن كان يفصل بينهما قرن ونصف. قال رحمه الله: «إنك لا تصل إلى منازل القربات حتى تقطع ست عقبات: فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية، فطم النفس عن المألوفات العادية، فطم القلب عن الرعونات البشرية، فطم السر عن الكدورات الطبيعية، فطم الروح عن التجارب الحسية، فطم العقل عن الخيالات الوهمية. فتشرف من العقبة الأولى على علم ينابيع الحكم القلبية، وتطلع من العقبة الثانية على أسرار العلوم الدينية، ويلوح لك في العقبة الثالثة أعلام المناجاة الملكوتية، ويلمع لك في العقبة الرابعة أنوار أعلام المنازلات القربية، ويطلع لك في العقبة الخامسة أقمار المشاهدات الحبية، وتهبط من العقبة السادسة على رياض الحضرة القدسية».

قال: «فهُناك تغيب بما تشاهد من اللطائف الأنسية، عن الكثائف الحِسية. فإذا أرادك الله لخصوصية الاصطفائية سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ، وبالذوق شوقا، وبالقرب طلبا، وبالسكوت قلقا».[2]

لا إله إلا الله، كم لوحوا لك بلطيف العبارات وجميل الإشارات كي لا يكون لك لَبث مع غير الله لكن رقدة الغفلات واللذات الفانيات تُبرم أمر العاجز وتنقض، لا إرادة له، نفسه حرباء تتلون بظواهر الكون وبواطنه، وعقله عقال، ووهمه زمام، فأنى له الفطام!

(1) الإحياء، ج 3، ص: 66.

(2) بين الشريعة والحقيقة، ص: 8.

نتخطى قرنا آخر من الزمان فنجلس إلى كبير آخر من أكابرنا هو شيخ الإسلام ابن القيم. قال في العقبات يحذر السالك من عدوه اللدود الشيطان المكلف به: «فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها. العقبة الأولى عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه (...)، العقبة الثانية وهي عقبة البدعة (...)، العقبة الثالثة وهي عقبة الكبائر (...)، العقبة الرابعة وهي عقبة الصغائر (...)، العقبة الخامسة وهي عقبة المباحات (...)، العقبة السادسة وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطَّاعات».

ولم يذكر رحمه الله العقبة السابعة. قال بعد الحديث عن العقبة السادسة: «وأيْن أصحاب هذه العقبة فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم (الشيطان) في العقبات الأُوَل، (...) ولا يقطع هذه إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه».[1]

هذا سلوك جوارحي يركز على الأعمال، ومحاربة البدع والشيطان، ويحذر من دنس العقيدة. والعقبات في سير الغزالي تتلخص في حب الدنيا و«الالتفات إليها»، الاقتحام قلبي أولا ثم جوارحي بعد ذلك. ونلاحظ غياب الشيخ وتوجيهه في السير الجوارحي عند ابن القيم رحمه الله. ولنا معه ومع شيخه شَيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله وقفات طويلة في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

إن الفطَامات الستة التي وصفها الإمام عز الدين كفٌّ وتكميم وضبط، ما في عبارة «فطم» ما يوحي بفاعلية آفاقية. والعجيب أن هذا الرجل الفذ الذي كان في عصره النجم الثاقب، تلقي صلابته في الحق وفاعليته في المجتمع الرعب في قلوب الملوك، يصف السلوك الصوفي وصفا سالبا فرديا نفسيا، كأن الفصل الذي حدث بين الساحة العامة والخلوة التعبدية أصبح ضربة لازِبٍ، وكأن الكف والفطم عملية لا تتأتى بدون عزلة واعتزال.

(1) مدارج السالكين، ج 1، ص: 222.

في مستقبل الإسلام نحتاج لِقران «الفطم» الفردي الأنفسي السلوكي بالفاعلية الجهادية، ليكون السلوك الإحساني عملا مصيريا رائده الفردي عبادة الله كأننا نراه، ورائده الجماعي إتقان الأعمال الجماعية لتحقيق إسلام العدل في الأرض وعمارتها والخلافة فيها. ومن أهم العقبات في طريق الإحسانَين ترويض العقل ليكون مستسلما لله عز وجل وللنبوة، ويكون في نفس الحركة فاعلا في الكون السببي.

إن الغزو الفكري الجاهلي فكك العقل المسلم تفكيكا، وركبه تركيبة وثنية، وفصله عن الوحي. وإن إعادة تركيبه في أحضان الوحي والنبوة والربانية شرط أساسي في قدرة الأمة على الجهاد. وحدات العلوم الكونية التي يتفوق علينا فيها الجاهليون وحدات مبعثرة، مجردة عن المعنى، متناقضة أحيانا، إلحادية، منكرة للنبوة، تفسر الحياة والتاريخ والنظام الكوني تفسيرا عبثيا، لا خَبَرَ عندها بسنة الله في الإنسان والتاريخ.

بداية التركيب العقلي للمسلمين البداية الصحيحة ينطلق من صلة العقل بالقلب لنكون من أولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا ويتفكرون تفكُّر الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره. هذا الذكر وهذا الإيمان مركز ومحور لكل أنشطة العقل وجزئيات العلوم، يلتزم العقل توجيه الوحي، ويبقى العقل خادما لأوامر القلب المفعم بحب الله، القائم بحق الله، الفاعل بإرادة قوية لا تتنكر لقدر الله، ولا تحيد عن مقتضى سنة الله.

يجب أن نصل شرايين العقل بواردات القلب ليتمكن العقل المسلم من كل أنواع القدرة العلمية والتكنولوجية والخبرة التنظيمية في كل المجالات دون أن يتنازل عن استقامته الفطرية.

إنَّ الذي يحدث عند كثيرين من الكتبة عن الإسلام هو استعمال اللغة العقلانية الثقافية، من خلال عباراتهم البعيدة عن القرآن وبيان القرآن. لا ترشُح من أقلامهم إلا أفكار سطحية مادية اصطبغت على أصلها «الحضاري الثقافي العقلاني» بصبغة إسلامية شفافة. إنه تلوث وتحد أمام الربانية لتعيد العقل المسلم إلى نصابه، ليتأصل

هذا العقل في القرآن والنبوة والربانية، ثم ينصرف إلى مهماته بمنهاج قُرْآني يستقطب العلوم ويستكمل القوة، لا تستقطبه العقلانية فيصبح خادما في حانوت «الحضارة» يقترح البدائل، وهم عن الآخرة هم غافلون. عقبات!

قال الصوفي المفعم الفؤاد بحب الله ورسوله، المقرح القلب شوقا:

أُقَلِّلُ ما بي فيك وهْوَ كثير   وأزجُر دمعي فيك وهو غزير
وعندي دموع لو بكَيْت ببعضها   لفاضَت بحور بعدهن بحور
قبور الورى تحت التراب وللهوى   رجال لهم تحت الثياب قبور
سأبكي بأجفان عليك قريحةٍ   وأرنو بألحاظ إليك تشير

وقلت غفر الله لي وَلوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب:

وَأرنو بألحاظ إليك مشوقَةَ   أُحدِّقُ في الآفاق أين أسيرُ؟
فَيَرْتَدُّ طرفي حاسرا متحسراً   وَيَنْقَضُّ صَرْح العزم وهْوَ كَسيرُ
تراءى لنا هول الطريق مهدِّدا   فيا رب أيِّدنا فأنت مُجيرُ

الآل والصحابة رضي الله عنهم

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَقُل رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾. أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما أخاف وأحذر.

عقبات النفس والشيطان والدنيا والعقل، وفطم النفس عن الشهوات، واقتحام العقبات، هل كان للصحابة رضي الله عنهم علم بكل هذا؟ أم هل كانت مهماتهم الجهادية وبساطتهم وقربهم من الفطرة تسمح بالتفريع العلمي والتفصيل؟ أم كل هذا بدعة وحرام وكفر؟

قال أحد أكابر الأمة وفرسانها المبرزين شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديثه عن التقليد وفيما يجوز: «لا ريب أن كثيرا من الناس يحتاج إلى تقليد العلماء في الأمور العارضة التي لا يستقل هو بمعرفتها. ومن سالكي طريق الإرادة والعبادة والتصوف من يجعل شيخهُ كذلك. بل قد يجعله كالمعصوم، ولا يتلقى سلوكه إلا عنه. ولا يتلقى عن الرسول سلوكه، مع أن تلقي السلوك عن الرسول أسهل من تلقي الفروع المتنازع عليها. فإن السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق. وهذا كله مبين في الكتاب والسنة. فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه».

قال رحمه الله: «ولهذا كان جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول. لا يحتاجون في ذلك إلى فقهاء الصحابة. ولم يحصل بين الصحابة نزاع في ذلك كما تنازعوا في بعض مسائل الفقه. (...) كثير من أهل

العبادة أعرض عن طلب العلم النبوي الذي يعرف به طريق الله ورسوله، فاحتاج لذلك إلى تقليد شيخ. وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد، كلها منصوصة في الكتاب والسنة. وإنما اختلف أهل الكلام لما أعرضوا عن الكتاب والسنة. فلما دخلوا في البدع وقع الاختلاف. وهكذا طريق العبادة، عامة ما يقع فيه من الاختلاف إنما هو بسبب الإعراض عن الطريق المشروع. (...) والصحابة (...) لم يتنازعوا في العقائد ولا في الطريق إلى الله التي يعبر بها الرجل من أولياء الله الأبرار المقربين».[1]

حصل من كلام شيخ الإسلام أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعرفون السلوك إلى الله في الطريق التي يصير بها الرجل وليا من أولياء الله الأبرار المقربين، وأنهم ما تنازعوا في ذلك، وأنهم تلقوها من رسول الله ﷺ بلاغا قرآنيا وبيانا سنيا. ولم يتعرض شيخ الإسلام رحمه الله إلى عقدة الأمر كله في السلوك، ألا وهو الرابطة القلبية، رابطة المحبة والتفاني في الولاء لشخص الرسول الكريم على الله. لنا إن شاء الله رجوع لموضوع المحبة، وما سموا صحابة إلا لصحبتهم رسول الله ﷺ، وما فضلوا الأمة إلا بها، ولا نالوا الدرجات العلى. وليست الصحبة تطبيقا مجردا للنصوص وامتثالا جافا عسكريا للأوامر، إنما هي محبة تثبت وترسخ وتنمو وتتجذر في القلوب بالملازمة والمخالطة والمعايشة والتلمذة حتى يملك حب المصحوب على الصاحب كيانه كله.

وحصل من كلام شيخ الإسلام أن تقليد المشايخ في الإرادة والسلوك ذلك التقليدَ الغاليَ يحجب عن السالك بيان الكتاب والسنة، ويحول بينه وبين النبوة. هنا تكمن قوة ابن تيمية رحمه الله. تكمن في دفاعه عن النبوة وإبراز خصائص عصره المتأخر الذي ساد فيه التقليد كل فروع العلم، حيث تجمد الفقهاء، وتخبط المتكلمون، وابتدع المتصوفة. فكر ابن تيمية في عصره لم يلق ولا معشارَ ما يلقاه في عصرنا من إقبَال. في عصره الغارق في التقليد كان صوتـًا غريبا، أما في عصرنا، ومنذ قرنين وَنيف،

(1) الفتاوي، ج 19، ص: 272 – 274.

فمذهبه في التعلق المباشر بالنصوص، لا يقبل أن يحجب الناس عنها حاجب، يجد صدًى متزايدا.

شهد معاصرو ابن تيمية أنه لم يكن له شيخ في السلوك، ونسبوا صلابته وخشونته في الخصام إلى أنه لم يتأدب بشيخ عارف. وفي النص الذي أمامنا ما يؤيد هذه الشهادة، فالسلوك عنده تلق للبلاغ والبيان، ولا شيء غير هذا. ومن صحبوا المشايخ العارفين بالله أئمة التربية يعلمون بالممارسة أن الشيخ المربي حقا هو قبل كل شيء «من ينهض بك حاله»، أي الذي ترفعك محبته وصحبته رفعا قلبيا، تَسْتَفُّ روحانيته روحانيتك ولو لم يتكلم، وتحتضنها، وترقيها، وتهذبها، وتبث فيها حب الله وحب رسوله، ذلك الحب الذي يسود القلوب المنورة، قلوب العلماء بالله الغارقين في حضرة الله.

صحبة الصحابة لرسول الله ﷺ رفعتهم، حاله استَفَّهُم ونوَّرهم قبل مقاله.

فإذا نزلت القضية إلى رُسوم وطقوس وتَعاليم قولية أصبح التصوف تَقليدا باردا، والتقليد حاجزا سميكا، والحجز بدعة وضلالة. وكل ذلك انتقده ابن تيمية انتقادا شديدا.

امتاز الصحابة رضي الله عنهم بتعلقهم الشديد بشخص الرسول ﷺ. لم يكن عندهم ولا عند كل تقي أوّاهٍ من هذه الأمة مجرد مبلغ أدى رسالته ومضى، بل كان رسول الله. كان الشخص الذي اصطفاه الله. القرآن رسالته والبيان بيانه. تسمو بهم المحبة العميقة للشخص المكرم عند الله، ويسمو بهم القرآن، ويرفعهم البيان إلى ذُرى الإحسان. السلوك القلبي منجذب بمغناطيسية الروح الشريفة، والعقل يتغذى بالآيات البينات، والجوارح تنضبط بأوامر الشارع الحاضر بين ظهراني البشر. عزفوا عن الدنيا ومغرياتها الدنيئة لما اتصلت هممهم الطالبة الراغبة بتلك الهمة السماوية، وأحبوا ذلك الجناب العالي فارتقوا عن السفساف، وحنّوا إلى الله، واشتاقوا للقاه، واتّقدت في قلوبهم محبة الله. حرصهم على مرضاة من أرسل الرسول هو الذي حل عَقد نفوسهم حتى تَروضوا على الطاعة، وزكت منهم الأخلاق، واسترخصوا نفوسهم وأموالهم في جنب الله. حبهم للرسول الكريم الذي أسمع فطرتهم وأيقظ

إرادتهم هو المحرك لا مجرد الاتباع لزعيم آمرٍ ناه. في أحضان النبوة تربوا، ومنها رشفوا واسْتَقَوا حتى تفجرت في قلوبهم ينابيع الإيمان وكانوا أبر الناس قلوبا وأعمقهم علما. بالحب تربى الصحابة لا بالخضوع لسلطة حاكمة.

رَفَعوا خُبَيْباً رضي الله عنه على الخَشبة في مكة ليقتلوه، فسألوه: أتحب أن محمدا مكانك؟ قال: «لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه».

وتَرَّس عليه ﷺ أبو طلحة يوم أحد بظهره، يعرض ظهره للنبال كي لا تنال الشخص الكريم. وامتص مالك الخدري رضي الله عنه جرح رسول الله ﷺ يوم أحد لينقيه. ورفض أن يَمُجَّهُ، بل ابتلعه محبة وتفَانيا. كانوا يتقاتلون على بصاقه من منهم يتبرك به. كانت مهابته في قلوبهم قاضية، مهابة الحب والإجلال لا مهابة الخوف، يجلسون إليه كأنما على رؤوسهم الطير.

قال عروة بن مسعود لقومه ثقيف لما رجع من الحديبية ورأى الصحابة حول رسول الله ﷺ: «أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى وقيصر والنجاشي. والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا. والله إنْ تنخم نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فَدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيما له».

جاء الأمر القرآني بتعظيم رسول الله ﷺ، وتوقيره، وتعزيره، والأدب البالغ في حضرته. وأُمر الصحابة أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي، وأن لا يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، وأن لا ينادوه نداء بعضهم لبعض. وأعلمهم القرآن أن الذين يبايعون رسول الله إنما يبايعون الله، وأن يد الله فوق أيدي المبايعين. فاجتمعت للصحابة عوامل التبجيل والإجلال والمحبة أمراً مُوحى به من السماء، وانبعاثا متوثبا من القلوب. لولا هذا الانبعاث لما تُلُقّيَ الأمر السماوي ولا البيان النبوي بالتقديس.

التقليد البارد للمشايخ أصحاب المقال قد يكون له مبرر إن كان المقلد جاهلا عاجزا عن فهم النصوص، وكان الشيخ عالما قادرا على الاجتهاد في مرتبة ما من

مراتب الاجتهاد، وكان موضوع التقليد فروع الشريعة. أما تقليد القوالين في السلوك، أولئك الذين تنحصر بضاعتهم في عبارات محفوظة وتقاليد ورسوم فمَتْلَفَة ومَهْلَكة.

وهنالك الاقتداء بالأكابر، والسماع من الأكابر، والأخذ عن الأكابر. الأكابر قنوات موصلة يجذبك مغناطيسهم إلى حب الله ورسوله ولا يحجبك. وإن كنا نلح كثيرا في هذا الكتاب وغيره على الجلوس في تربيتنا وسلوكنا وجهادنا وفقهنا إزاء القرآن، عند أقدام المنبر النبوي، فإننا نقصد تربية واجتهادا وجهادا مقدمته اللازمة أن نَخرِق كل سقف يحول بيننا وبين النبوة. ويكون الخرق للسقوف تطفلا وافتياتا وبهتانا إن لم نستمد من القنوات القلبية والعلمية الموصلة، ونَنفُذْ منها، ونصعَد على طريقها إلى ذلك الجوار القدسي. وليس إلى ذلك سبيل إلا بالاقتداء السليم.

وبالاقتداء أمر رسول الله ﷺ الأجيال من أمته. روى الترمذي وابن عدي رحمهما الله عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر. واهتدوا بهدي عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد». وابن أم عبد هو ابن مسعود الذي قرأنا نصيحته في فقرة سابقة يوصينا بالأخذ عن الأكابر لا عن الأصاغر. وكل قوّال لا ينهض بك حاله ولا يدلك على الله مقاله صغير.

قال أحد أكابر الأمة الشيخ الجليل أحمد الرفاعي في تفسير حديث الاقتداء: «أمر عليه الصلاة والسلام بتصحيح القدوة بالشيخين العظيمين، سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنهما، وبالتحقق بالاهتداء بهدي عمار رضي الله عنه، فإنه مات على حب الصهر العظيم، الصنو الكريم، سيدنا علي رضي الله عنه. وأكد لزوم التمسك بالعهد، كما كان محافظا عليه ابن أم عبد رضي الله عنه. وفي هذه حكمة الجمع بَيْن حب الصحب والآل، سر يدركه العارفون الموفقون. وقد جعل صحة المتابعة له باتباع الشيخين رضي الله عنهما. وجمع بين النكتتين بلزوم التمسك بالعهد. ومتى اقتدى العبد اهتدى، ومتى اهتدى تمسك بعهد الله، وهناك وقد عرف. وهل المعرفة بالله إلا هذا؟ فإن من اهتدى بهدي محمد ﷺ، واقتدى به، وتمسك بعهده، أقبل على الله، وأعرض عن غيره».[1]

(1) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص: 102.

وما كان رسول الله ﷺ وهو الرؤوف الرحيم بنا الأمين على رسالة الله أن يدلنا على الاقتداء والاهتداء والعهد لو كان في التمسك بذلك ما يحجبنا عن الله ورسوله. ونرى إن شاء الله في الفصل المقبل كيف تسلسل الاقتداء والاهتداء والعهد من الصحابة جيلا بعد جيل.

نقرأ في كلمة الشيخ الرفاعي رحمه الله نكتة بالغة الأهمية، وهي اقتران الوصية بالصحابة مع الوصية بالآل. وهي نكتة ينتبه إليها الموفقون كما قال. إن الصدام التاريخيّ فرّق بين شقي الأمة: سنة وجماعة في جهة، وهم جسم الأمة وكلها، وشيعة وهم عضو منها، يحاول بعض أهل الغِرّة تكفيرهم ونبذهم وكأنهم دخيل على الأمة.

عند الشيعة ميراث بخسٌ لئيم من الاستهانة بالصحابة رضي الله عنهم. وهذا بؤس وحرمان والعياذ بالله. والقائل بذلك يكذب الله الذي شهد للصحابة في قرآنه الكريم بالأفضلية والسابقية، ويكذب رسوله ﷺ الذي بلغ وربى وأوصى بالاقتداء والاهتداء والعهد.

غالى الشيعة، بعضهم وفيهم العقلاء، في حب آل البيت وتعظيمهم حتى تجاوزوا القدر الذي يكون به الاهتداء. ويسكت طوائف من أهل السنة سكوتا مريبا عن مكانة آل البيت وعن الوصية النبوية بهم. وبذلك تعظم الفجوة بين شقي الأمة، وتبتعد الشقة، وتنشأ القطيعة. وإلى هذه النكتة نبه الشيخ الجليل رفع الله مقامه.

روى الإمامان أحمد ومسلم رحمهما الله عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أما بعد ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم ثَقَلين. أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، من استمسك وأخذ به كان على الهدى، ومن أخطأه ضل. فخذوا بكتاب الله تعالى، واستمسكوا به. وأهل بيتِي! أذكركم الله في أهل بيتي! أذكركم الله في أهل بيتي».

إذا كانت نِسْبة أحد من هذه الأمة إلى أحد تشرف، فهي نسبة المسلمين جميعا إلى الله ورسوله. زاد أهل البيت بالنسب الطيني لنزولهم من سلالته الطاهرة ﷺ التي تأذن الله عز وجل في كتابه العزيز أنه يريد أن يذهب عنهم الرجسَ ويطهرهم تطهيرا.

وأمرُ الله لا يرد، وإرادته المعلنة لا تتعطل. وأهل البيت أمان للأمة، تشرف الأمة إن عظمتهم وذكرت الله فيهم كما ذُكِّرَتْ.

اِدّعاءُ العصمة لأحد دون النبوة تجاوز لكل الحدود، وفتح لترعة لا تسد، يدخل منها على الدين كل باطل.

وما دون العصمة مكانة يحتلها رجال جامعون بين النسب الطيني إلى ذلك الجناب المطهر وبين النسب الديني. أولئك هم كمل العارفين، غالبا ما تجد أئمة التربية من آل البيت.

مجموع الآل والصحب هم أولياء الله حقا. قال واحد من أكابر الأمة، من أفذاذ علمائها في هذه القرون المتأخرة، الإمام الشوكاني: «اعلم أن الصحابة، لاسيما أكابرهم الجامعين بين الجهاد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والعلم بما جاء به، وأسعدهم الله سبحانه من مشاهدة النبوة وصحبة رسول الله ﷺ في السراء والضراء، وبذلهم أنفسهم وأموالهم في الجهاد في سبيل الله سبحانه، حتى صاروا خير القرون بالأحاديث الصحيحة. فهم خيرة الخيرة (...) فتقَرّر من هذا أن الصحابة رضي الله عنهم خير العالم بأسره، من أوله إلى آخره، لا يفضلهم أحد إلا الأنبياء والملائكة (...). فإذا لم يكونوا رَأْسَ الأولياء، وصفوة الأتقياء، فليس لله أولياء، ولا أتقياء، ولا بررة، ولا أصفياء».(1)

وذهب الشوكاني رضي الله عنه يقمع الروافض المستخفين بالصحابة الهدامين للدين، يصف حماقتهم، وطعنهم القميء الخبيث لمقام القدوة والاهتداء والعهد والأسوة، ويصف شيطنتهم. لكنه لا يكفر. منعه من تكفير هؤلاء المرتكبين لأشنع الجرائم في حق صفوة الله من خلقِه بعد الأنبياء، الوالغين في أعراض خير البرايا بعد الأنبياء، ما قرأناه من تَصونه وحذره في الفصل الأول من هذا الكتاب. وهو غفر الله له كان في صباه وشبابه من «المكفراتية» كما شهد على نفسه وتاب.

نضع أصبعنا في نص الشوكاني على ميزة الصحابة عن سائر الأجيال، ميزة الجهاد بالمال والنفس بين يدي رسول الله ﷺ، والإسلام في بدايته، والإسلام يواجه

(1) كتاب «ولاية الله»، ص: 276.

الجاهلية. أما من جاء بعد الصحابة ووجد الأمر ممهدا، والإسلام ضاربا أطنابه في الأرض، فقد فاتته فرصة الجهاد، كما فاتته صحبة الرسول، إلا أن يُجدد في غربة الدين الثانية جهادا واجتهادا.

أما في زماننا هذا وما بعده فالاقتداء بالمشايخ العارفين بالله ينبغي أن يتجاوز بنا همومنا الفردية لنحمل هموم الأمة، وهموم الإنسانية، حاملين الرسالة، مجاهدين في وجه الفتنة الداخلية والجاهلية المحيطة، كما جاهد الأولون. هم الأصحاب ونحن الإخوان. جسومنا هنا الآن، وقلوبنا وعقولنا يجب أن ترتفع إلى هناك، بإزاء القرآن، وعند قدم المنبر الشريف، وتأسياً مباشرا بأهل الاقتداء والاهتداء والعهد.

قال الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

أتانا رسول الله يتلو كتابه ... كما لاح مشهودٌ من الفجر طالع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقلت رحمني الله كما رحمهم:

سمعنا نداء الحق والحق ذائع ... فأيقظنا قول: استقيموا وسارعوا
أتانا رسول الله بالأمر صادعاً ... أن اقتحموا حِصن العدو وصارعوا
فما بلغ الغاياتِ إلا مجاهد ... إلى قمة الإحسان بالعزم طالعُ

الإسلام والإيمان والإحسان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة.

من المواضيع التي طال الجدال فيها بين المسلمين منذ القديم مدلول الإيمان والإسلام وما بين اللفظين من عموم وخصوص. وأفرد بالتأليف في الموضوع جهابذة العلماء مثل ابن تيمية في كتابه «الإيمان» فلينظر هناك تفاصيل النقاش من كان راغبا.

اهتمامنا هنا بغياب أفق التقدم، وغياب معنى اقتحام العقبة، والترقي في معارجها عند الجيل الصاحي إلى إسلامه. يكون الداعي نفسه والقائد للجماعة خاليا من فهم المسألة، خليا من التحلي بخصال الإيمان، لا شمة لديه من الشوق إلى الإحسان وهو عبادة الله كأنك تراه.

من الأئمة الذين جزموا بأن مدلول «إسلام» و«إيمان» متغايران الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله. وأعطى البخاري المدلولين مكانهما حيث اعتبر أن الدين الذي رضيه الله لعباده ولا يقبل ممن ارتضى غيره دينا هو مجموع الإسلام والإيمان والإحسان.

قال البخاري رحمه الله في كتاب «الإيمان»: «باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، وبيان النبي ﷺ له. ثم قال (أي النبي ﷺ): «جاء جبريل يعلمكم دينكم». فجعل ذلك كله دينا».

نورد هنا رواية البخاري لحديث جبريل، وهي أقصر من رواية مسلم وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن عمر بن الخطاب، وهي رواية مشهورة. روى البخاري عن

أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزا يومـًا للناس، فأتاه رجل فقال: «ما الإيمان؟»قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث». قال: «ما الإسلام؟» قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتيَ الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». قال: «ما الإحسان؟» قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكُن تَراه فإنه يراك». قال: «متى الساعة؟» قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها، وإذا تطاول رعاة الإبل البُهْم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله». ثم تلا النبي ﷺ: «إن الله عنده علم الساعة» الآية. ثم أدْبَرَ، فقال: رُدوه، فلم يروا شيئا. فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم». قال أبو عبد الله (وهو البخاري): «جعل ذلك كله من الإيمان».

مذهب البخاري رحمه الله أن الإسلام والإيمان شيء واحد. لكن مجمل القرآن والحديث يرد الإسلام إلى الأعمال الظاهرة التي يمكن أن يؤديها المنافق والأعرابي الذي لما يدخل الإيمان في قلبه، بينما يقتضي التحلي بشعب الإيمان، قولا وعقيدة وعملا، أن يكون القلب محط الأمانة، منه تنبعث النية والصدق والإخلاص والإرادة والعزم التي بدونها تكون الأعمال الظاهرة لغوا وعملا لا يقبله الله. لأن الله تعالى إنما يتقبل من المتقين، و«التقوى ها هنا» كما جاء في الحديث الصحيح، ويشير النبي ﷺ إلى صدره الشريف.

أخرج الإمام أحمد عن أنس أن النبي ﷺ قال: «الإسلام علانية والإيمان في القلب».

القلب لله عز وجل، هو وحده يحاسب العبد على النية. أما العلانية فهي الشأن العام، والوجه الذي ينظر إليه المسلمون من الإنسان ليحكموا عليه بالإسلام أو عدمه تبعـًا لسلوكه الظاهر. علاج القلوب وتربيتها وتلقينها بمخاطبة الفطرة وبالصحبة من شأن الربانيين. والفقهاء الخبيرون بالأحكام الفرعية يحصون الأعمال الظاهرة، لا شأن لهم بالقلوب وطبها، بل لا خبر عندهم إن لم يأتوا الرباني الوارث كما رأينا فطاحلهم يفعلون في الفصل الأول من هذا الكتاب. ومن الفقهاء الأصوليين

المتكلمين المدرسين الذين دخلوا من علانية الإسلام إلى بواطن الإيمان، وعرجوا من ثم إلى ذرى الإحسان الإمام الغزالي. قال في إحيائه: «منتهى نظر الفقيه (...) أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة، (...) أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه، وفيما يفسد، وفي شروطه. وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان. وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه، لعزل رسول الله ﷺ أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال (لأسامة في القصة المشهورة حين قتل رجلا نطق في الحرب بالشهادتين): «هلا شققت على قلبه؟»[1] (...) بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف مع العلم أن السيف لم يكشف له عن نيته، ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة. ولكنه مشير على صاحب السيف. فإن السيف ممتد إلى رقبته (أي إلى رقبة الذي ينظر الفقيه في أمره)، واليد ممتدة إلى ماله، وهذه الكلمة باللسان (الشهادتان) تعصم رقبته وماله مادام له رقبة ومال، وذلك في الدنيا. قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم[2]».[3]

بلغة العصر: الفقيه شأنه خدمة الدولة (أرباب السيوف والسلطنة) في ترتيب المحاكم وفصل القضايا، لا شأن له بالتّربية. وهذا تقسيم للوظائف تمليه الضرورة في غد الإسلام، غد الخلافة الثانية، فتكون الدعوة منكبة على تربية الإيمان في القلوب لا تبتلعها الدولة.

على أن دولة القرآن إن لم تَنْبَنِ على قاعدة إيمانية عميقة متجسدة في «جند الله» الربانيين، جماعة أو جماعات متعاونة متشاورة، فإن الشريعة المفروضة قانونا من أعلى لن تجد قلوبا تتأصل عليها ولا ذِمَماً ترسو فيها. وقد شهد الصحابة رضي الله عنهم أنهم أوتوا الإيمان قبل القرآن. قال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما: «تَعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا». وجاء في مسند الإمام أحمد من حديث لعبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «وإن الإيمان يُعطى العبدَ قبل القرآن».

(1) الحديث رواه مسلم عن أسامة بن زيد نفسه.

(2) الحديث متفق عليه.

(3) ج 1، ص: 16 – 17.

إذا كان الإيمان لا تعطيه تلاوة القرآن فأحرى أن لا تعطيه قراءة الكتب البشرية. الإيمان والدين يسريان من قلب الداعي والمصحوب وسلوكه إلى قلب الصاحب وسلوكه.

عنون البخاري بابه الثاني في «كتاب الإيمان» هكذا: «باب دعاؤكم إيمانكم» وفسر العلماء تبويبه بتفسير ابن عباس الذي قال في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾،[1] قال: يقول: إيمانكم. قال الحافظ ابن حجر: «وقال غَيره (أي غير ابن عباس): «الدعاء هنا (أي في الآية الكريمة) مصدر مضاف إلى المفعول، والمراد دعاء الرسل الخلق إلى الإيمان. ليس لكم عند الله عذر إلا أن يدعوكم الرسول فيؤمن من آمن ويكفر من كَفَرَ».

وبناء على هذا التفسير واستنادا إلى الحديث الصحيح: «الرجل على دين خليله» أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم رحمهم الله عن أبي هريرة رضي الله عنه بسند صحيح، نقول: دعاؤكم إيمانكم يمكن أن تفهمنا أن مقدار إيمان المدعو ودرجته وعمقه تقاس بوجود الداعي وبدرجة إيمانه على قدر ما اقتبس منه المدعو سماعا فطريا، وصحبة عملية، وملازمة وأخذا. وقد سبق أن شرحنا أن أخذ الدين عن الأكابر هو المنطلق الصحيح.

الإيمان أمانة، والأمانة الإيمانية كنز ومعين في قلوب الأمناء، والعلماء هم أمناء الرسل كما جاء في الحديث. والقرآن أمانة تكليف عظيمة، ونور وهداية وبيان. نرى القلوب الخَرِبَةَ تقرأ القرآن باللسان العربي المبين لكن القلوب عجماء صماء لا أثر فيها لأمانة الإيمان، فهي أعجز عن تحمل أمانة القرآن. أوتي الأحباب الصحابة الإيمان قبل القرآن فكانوا رجالا. ولا يَنقَطع نسل تلك الرجولة إلى يوم القيامة، ولنتذكر شوق الرسول الكريم ﷺ إلى رؤية إخوانه من بعده.

من حديث رواه الشيخان والترمذي رحمهم الله عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأمانة قد نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من الكتاب وعلموا من السنة».

(1) الفرقان، 77.

ويقول رب العزة والجلال في محكم كتابه: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾.[1]

عقيدتنا أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقُصُ كما جاء بذلك الوحي. أهم ما يزيده سماع القرآن. فإذا لم يؤت العبد الإيمان قبل القرآن، ولم يكن في القلوب أصل إيماني سابق فكيف تتصور الزيادة؟

إن وُجد أصل إيماني في القلوب، وهذا الأصل لا إمكان لاكتسابه إلا بالتربية وهي إيقاظ الفطرة وتقويمها، يفعل الأبوان في ذلك والمصحوب والجماعة الفعل الأول بعد هداية الله تعالى وشرحه صدر من شاء للإسلام، فإن بالإمكان تقوية ذلك الأصل وتزكيته وترقيته في معارج العقبة الإحسانية إلى أن يبلغ العبد المرتبة التي سبقت له بها الحسنى عند الله عز وجل.

الكتاب الحادي والثمانون عند البخاري هو: «كتاب الرقاق». وفي دواوين السنة حيز هام متخصص لرواية أحاديث ترقيق القلوب. بوب البخاري المرققات في ثلاث وخمسين بابا، نذكر بعضها: «باب الصحة والفراغ ولا عيش إلا عيش الآخرة، باب مثل الدنيا والآخرة، باب قول النبي ﷺ «كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، باب في الأمل وطُوله، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها». والباقي على هذا المنْوال، فرغ المحدث الكبير من سرد أحكام الشرع الدنيوية، فهو في كتاب الرقاق يذكر بالآخرة. وطريق الإحسان هي طريق الآخرة، علم الإحسان هو علم عاقبة المرء وعلم الآخرة.

القلوب المؤمنة تلين إلى ذكر الله عند تلاوة القرآن، وتقشعر الجلود والأبشار المؤمنة خشوعا لله وتعظيما لمقام النبوة. إنها رِقة تكتسب بالتأصيل التربوي لا بالتفريع الفقهي. على أن التفريع الفقهي والرعاية الورعة الخائفة الوجلة لحرمة الشرع وأمره ونهيه اهتمام أساسي للمحسنين. ومن رام الصعود إلى مراتب الإحسان

(1) الزمر، 23.

دون أن يُحكم إسلامه الظاهر، وإيمانه الباطن خلقا وطاعة، وأدبا مع الله والناس، وأداء للحقوق، كان كمن يبني على غير أساس، وسقط على أم رَأسه.

المؤمن المحسن قريب من القرآن ومن الحديث، يشعر بذلك قلبه، ويطمئن إليه عقله، ويلين له جِلده، وتُطاوع جوارحه. روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي أَسَيد أو حميد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قَريب فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه بعيد منكم، فأنا أبعدكم منه». يا له من حس قلبي تستمد منه الأشعار والأبشار!

قال القلب الطيار شوقـًا، الحساس ذوقا:

يـا بَـرْد الجَـوَى على كبـدي ... وزَيْـنَ هـذا السقـامِ في جسـدي
وحسـنَ هـذي الدمـوع يَنْبطُـهـا ... أُوَارُ شـوق مِـن معـدن الكَبِـدِ
زِدْ كبـدِي يـا مُذِيبَهـا حَـرقـا ... إن صحـتُ ممـا أُكِـنُّ: واكَبـدي!

وقال آخر:

إذا أنـا واصلـتُ الصَّبـا عـاد بردُهـا ... ومن حر أنْفاســي علـيَّ لهيـب
وقَـد أكثَـرَتْ فـيَّ الأطـباء قولهـم ... ومـــالِيَ إلا أن أراك طبيـب
يسـالم قلـبي الحُـبَّ فهـو حليفـه ... وبين جفـوني والرقـاد حـروب

وقلت رحمني الله والمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات:

زِدْ كبـدي يا مذيبهـا حـرقـًا ... وزِدْ ضَنَى مهجَتي وزد كمَـدي
أَتيـه في البيـد لا دليـل إلـى ... حي المعالي تيها بلا رشد
كم عقبـات تحـولُ دونَ مدىً ... يـدركـه الأوليـاء بالجَـلَـدِ

التوبة واليقظة

بسم الله الرحمن الرحيم.
﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.
اللهم اجعلني أُعظم شكرك.

نعيش في خضم الحضارة الاستهلاكية تابعين مجرورين، تَسْحبنا من البطن لأنها تنتج الغذاء ولا ننتج، وتسحبنا من الرأس، ومن الأسفل، بأسبابها القوية. نلبس ما يلبسون، ونفكر كما يفكرون، ونريد ما يُريدون، طوعا وكرها. والأبوان اللذان أنيط بهما حفظ الفطرة غثاء مع الغثاء، يجري السيل بالجميع جريا إلى الهاوية، ومنادي الإيمان هناك، امتزج عنده الوعي السياسي واليقظة السِّياسيّة بداعي الإيمان، فدعوته لاقتحام عقبة المواجهة، وللجهاد مباشرة. ويسأل الشباب ولا من مجيب عن أسباب الخواء الروحي وضعف الإيمان لأن الذين ينتظر منهم أن يجيبوا عن الأسئلة الحائرة منهمكون في مطاردة البدع وتكفير المسلمين. يختلقون البدع جَهلا أو ضِيقَ عَطَنٍ، فيُنازلون خيالات صنعوها ليوهموا أنفسهم والناس أنهم حماة الدين.

وصية الله تعالى للإنسان إن لم يجد الأب الحكيم، ولم ينشأ في المحضن الفطري السليم، أن يتبع سبيل من أناب إلى الله. والإنابة درجة من درجات التوبة. قال تعالى عن عبده لُقمان الذي آتاه الحكمة: **﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**.[1] ثم جاء القرآن بالوصية الإلهية جملة اعتراضية بين وصايا لقمان لابنه، قال الله تعالى: **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي**

(1) لقمان، 13.

عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.[1]

إن غابت السلسلة الفطرية، سلسلة الأبوين، فاتبع خُطى «من» أناب. ابحث عن هذا «المن» لعل أنامِلَ روحانيته تمتد إلى قلبك بلمسات المحبة ونسمات الشوق إلى ربك والحنين إليه. ولعل التوبة واليقظة الروحية، وهي أعمال قلبية، تُؤصِّلُ لكَ دينا أوسع أفقا وأعلى مرتقى من مجرد «الالتزام» الذي لا يبدأ بك سلوك الطريق إلى الله، لأن سُلَّم الإسلام فالإيمان فالإحسان مفهوم غريب عن الوقت.

«أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطِنَة من العلوم والأعمال، وإن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده: «الإسلام علانية والإيمان في القلب»[2].

إفراط في الحديث عن «ثقافة الإسلام» و«حضارة الإسلام» و«البديل الإسلامي». وتفريط مخل في التربية. يا إنسان!

أول خطى التربية التوبة ثم اليقظة. كانت التوبة في عصور الفتنة بعد الخلافة الراشدة الأولى عبارة عن التوبة من الذنب والمعصية، والتائب في مأمن وعافية، لا هم له إلا صراعهُ الداخلي ووخز ضميره ومعاملته مع الله، يُؤَرِّقُه هم الآخرة. في عهد النبوة والخلافة الراشدة كانت التوبة من الشرك والمعاصي هَمّاً مزدوجا، لأن الجهاد وواجبه وضروراته وحضور الموت واحتماله في كل خروج في سبيل الله تُكَوِّن ظروفا يلتحم فيها مصير الفرد بمصير الجماعة، ويتميز فيها المنافقون من الصادقين. في زماننا صحوة إسلامية يغلب فيها الهم الاجتماعي الجماعي السياسي على الهم الفردي الأخروي، ويأتي مصطلح «الالتزام» الغريب عن القرآن ليمحو المعالم. فلا تمييز يرجى.

الذي يبحث عنه علماء الدعوة أمثال الشيخ سعيد رمضان البوطي والشيخ سعيد حوى هو القنطرة الواصلة بين ذلك العهد الأول المتمايز وهذه النهضة

---

(1) لقمان، 14 – 15.

(2) قاله ابن تيمية في الفتاوي، ج 10، ص: 15.

العارمة الشديدة الاضطراب الفكري والغبش التربوي. «الأولياء قناطر الخلق، يعبر الموفقون عليهم إلى الله تعالى. هم العاملون المخلصون الخالصون»[1]. «القوم أرشدونا، دلونا على الطريق، كشفوا لنا حجاب الإغلاق عن خزائن الكتاب والسنة، عرفونا حكمة الأدب مع الله ورسوله. هم القوم لا يشقى جليسهم. من آمن بالله وعرف شأن رسوله أحبهم واتبعهم».[2]

باتباع المنيبين فقط يمكن أن تحمل الهم المزدوج حملا متوازنا. باتباع المنيبين فقط يمكن أن نرجع إلى الله، ونبُلَّ غُلة النّفس، ونكف عن زرع الأماني والتواني، ذلك الزرع الذي لا يُحصد منه إلا التلف واللهف.

في قلب العبد ثلاثة أنماط من المعاطب، يكون مجموعها مرض النفاق. تكون التوبة ذات الدلالة الأعم أدعى إلى السير الحثيث صعودا في عقبة الإيمان والإحسان إن تطهر العبد بماء التوبة يستفيضه من المنيبين، ورشف من ذلك الماء رشفات تذيقه حلاوة الإيمان، فيستزيد ويستزيد حتى تنفر نفسه من المعصية، وحتى يكون الاستغفار واليقظة التامة في كل صغيرة وكبيرة من أعماله رفيقين دائمين.

روى الشيخان رحمهما الله وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث -زاد مسلم: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، ثم اتفقت رواية الشيخين- إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر». وروى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار».

ثلاث بثلاث. أولئك يبدل الله سيآتهم حسنات.

توبة من شرك أو نفاق على خطى حكيم منيب سائر إلى الله محب لله محبوب ليست كتوبة من معصية خوفا من عقوبة الآخرة. أن تحب عبدا لا تحبه إلا لله، وأن تتبعه وتتخذ قلبه المنور قنطرة لقلبك، حركة لا تقف بك عند الدوران في العقد

(1) الشيخ أحمد الرفاعي في «البرهان المؤيد»، ص: 71.

(2) نفس المصدر، ص: 41.

والنكث، ما عاهدت الله عليه بالأمس تنقضه اليوم. حركة مع «من أناب» إلى الله تسير بك، تضع قدمك على أول الطريق. قال سلطان العلماء: «التوبة صفة المؤمنين (...) والإنابة صفة الأولياء، قال الله تعالى: «وجاء بقلب منيب»، وأما الأوبة فهي صفة الأنبياء والمرسلين». حتى قال: «فشتان بين التائب من الزلات، وبين التائب من الغفلات، وبين التائب من رؤية الحسنات».(1)

القلب المنيب وما فيه من حب لله وإخلاص له هو أصل الدين بشرط أن تُقيم الأعمال الظاهرة على قانون الشرع، «فإن حركات الظاهر توجب بركات الباطن» ومن ملأ قلبه حب الله والإخلاص له، وبرئ من النفاق والشقاق، كان وليا لله، لا يتعامل مع الله عز وجل إلا على أساس أنه مذنب مقصر مهما كان عمله. يتوب إلى الله لما يعرف من أن الله جلت عظمته يحب التوابين ويحب المتطهرين. قال رسول الله ﷺ: «توبوا إلى ربكم، فوالله إني لأتوب إلى ربي في كل يوم مائة مرة !». رواه مسلم رحمه الله)، ولما يعلم أن الله عزت قدرته ووسعت رحمته يفرح بعبده التائب. تَسبق في حساب العبد المنيب الرابطة الوثقى رابطة حب الله والفرح بالله توقعات الثواب وخوف العقاب. يكون حياؤه من الله وخوفه من الله وولاؤه الخالص لله وذكره الدائم لله الباعث والوازع. وتراه في جزئيات الأمر والنهي ودقيقات الشرع أورع الناس وأحرص الناس على خير.

اقرأ معي هذه الصفحة النيرة كتبها قَلْبٌ نَيِّر: «السر الأعظم الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهدتهُ قلوب خواص العباد، فازدادت به معرفة بربها ومحبة له، وطمأنينة وشوقا إليه، ولَهَجا بذكره، وشهودا لبره ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافا على حقيقة الإلهية. وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَلّه أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلة بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأَيِس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيِس من راحلته. فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة

(1) بين الحقيقة والشريعة، ص: 59.

عنده. فأخذ بِخِطَامِها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك! أخطأ من شدة الفرح». هذا لفظ مسلم.[1]

وقال كبيرنا المستنير القلب، الجميل العبارة: «اعلم أن العبد، قبل وصول الداعي إليه، في نوم الغفلة. قلبه نائم وطرفه يقظان. فصاح به الناصح، وأسمعه داعي النجاح، وأذن به مؤذن الرحمن: حي على الفلاح. فأول مراتب هذا النائم اليقظة والانتباه من النوم. (...) وصاحب «المنازل» (يعني شيخ الإسلام الهروي) يقول: (اليقظة) هي القومة لله المذكورة في قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ**﴾.[2]

قال: «القومة لله هي اليقظة من سِنة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة. وهي أول ما يسْتنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه. وهي على ثلاثة أشياء: لَحْظُ القلب إلى النعمة، على اليأس من عدها، والوقوف على حدها، والتفرغ إلى معرفة المِنّة بها، والعلم بالتقصير فيها».[3]

رحم الله شيخ الإسلام الهروي وغيره من المنيبين مشايخ الصوفية. كانت مسالكهم في الخلوات، وقومتهم القلبية إلى الله، ودعوتهم النفوس النائمة إلى الانتباه واليقظة، انكبابا على النفس وانكفافا عن الدنيا. وابتلينا في هذا العصر، بل شُرِّفْنا ولله المنة والنعمة، بأن نلحظ الشكر الواجب بقومة جهادية لإقامة الخلافة الثانية الموعودة التي تتجلى طلائعها في هذا الشاهد الزكي المسمى «صحوة إسلامية»، وفي النصر المبين للمجاهدين في أفغانستان.[4] لله الفضل والإفضال، وإليه ترجع الأمور.

كان للصحبة شروط أيام سلوك المجاهدة في الخلوة، كان المشايخ يصرفون الوارد المريد ليتطهر قبل أن يجلس إليهم. في زماننا، والحمد لله وله المنة، تُباغت الرحمة الإلهية قلوب هذا الشباب فإذا هي تطير محلقة بأجنحة الصدق. إن وجدت صادقين.

(1) ابن القيم في «مدارج السالكين» ج 1، ص: 209.

(2) سبأ، 46.

(3) ابن القيم في «مدارج السالكين» ج 1، ص: 141-140.

(4) يا لَلْحسرةِ على ما فعلته الفتنةُ بأقوام مسهم عذاب من الرحمن فأصبح منهم أولياءُ للشيطان! نعوذ بالله من الحَوْرِ بعد الكور.

جاء رجل إلى عارف بالله في الزمان القديم يطلب الصحبة. فقال له العارف: «إن مثلي معك كرجل وقع في القاذورات، فذهب إلى العطار وقال: أين الطيب؟ فقال العطار: اذهب اشتر الأشنان (صابون ذلك الزمان)، واغسل نفسك ولباسك، ثم تعال فتطيبْ! قال العارف للمريد: «وكذلك أنت، لطخْت نفسك بأنجاس الذنوب، فخذ أشنان الحسرة، وطين الندامة، وماء التوبة والإنابة، وطهر ظواهرك في إجّانة (قصعة يغسلون فيها) الخوف والرجاء، من أنجاس الجرم والجفاء. ثم اذهب إلى حمام الزهد والتقى، واغسل نفسك بماء الصدق والصفاء. ثم ائتني حتى أطيبك بعطر معرفتي!».[1]

لست أدري ما أجاب المريد. ويكون جواب مريد عصرنا عن مثل هذه الشروط: «يا سيدي! لو كنت أعلم ما هو صابون الحسرة على ما فات، وما هو طين الندامة، وما هو ماء التوبة، وما معنى الندامة، وما ظواهر الإسلام وبواطن الإيمان، وما محاسن الخوف والرجاء، ومساوىء القطيعة مع الله والجفاء، وأين حمام الزهد والتقى يغتسل فيه مثلي لما جئتك!».

قال التائب الراجي الندمان المناجي:

ولما قسَا قلبي وضاقت مذاهبي   جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظَمني ذنبي فلَمّا قرنته   بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزَل   تجود وتعفو منة وتكرما

وقلت عفا الله عني وتاب علي ومنّ وأحسن:

وَلما قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي   وأظلم أفْقي والصديق تجهَّما
وقفت إلهي تائبا متندما   ببابك أرجو أن أغاثَ وأرْحَما
وتُفتَحَ في وجهي السدود فأرتقي   وأصعد في حضن العناية سلَّما

(1) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص: 66.

الإرادة والهمة والعزم

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي. وكل ذلك عندي. اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني. أنت المقدم وأنت المؤخّر، وأنت على كل شيء قدير.

النداء العُلْوي يُهيب بك يا إنسان باقتحام العقبة، ويستفهمك سائلا لتتيقظ إلى أن هنالك عقبة تقتحم، وأن لاقتحامها شروطا. ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾[1] استفهام وحض واستنهاض.

ثم ينوع الله الرحمن بخلقه، الفارح بتوبة عباده، الخطاب لتقوم الإرادات الباردة، وتعزم على طلبه سبحانه الهمم الراكدة. فمِنْ أساليب إثارتك يا إنسان وتعليمك وتنبيهك أن تُعرَض عليك مراتب الإرادات. قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.[2] وقال عز من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.[3]

وأنت ترى أصلحك الله أن الله جلت حكمته لا يبخس أهل الدنيا أعمالهم في الدنيا. وما تفوق العالم المصنع المتعلم المنظم من حولنا إلا نتيجة توفية الله عز وجل لكل قوم أعمالهم وَفق ما يريدون.

(1) البلد، 11 – 12.

(2) الشورى، 20.

(3) هود، 15 – 16.

فما السبيل إلى أن تقترن إرادتنا لله والآخرة بالإرادة الجهادية القائمة أسبابها على العمل الدنيوي التصنيعي التكنولوجي التنظيمي؟ مهما نَحِدْ عن تربية القرآن وأحضان النبوة نَزِغْ عن الطريق.

إن الله اللطيف الخبير أدّب نبيه ﷺ فأحسن تأديبه، فكان من أهم ما أدّبه به لنتعلم نحن الأمة الربانية المرحومة أن قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾.[1] يريدون وجهه، لا إله إلا الله!

اقترِحَ عليك الاقتحام، وعُينت لك الرفقة مع المريدين الذاكرين غير الغافلين، أرباب القلوب العاكفين بباب الله بالغداة والعشي. فأين إرادتك من الإرادات؟ وأين همتك من الهمم؟ إن كانت لا تحركنا الإهابة القرآنية فلعل ملاحظة أقراننا في الإنسانية والإسلام، السابقين الراقين في مرافع الإحسان، توقد فينا حمية المنافسة.

قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في تفصيل الإرادات والهمم: «لذّة كل أحد على حسب قدْره وهمته وشرف نفسه. فأشرف الناس نفسا، وأعلاهم همة، وأرفعهم قدرا، من لذّته في معرفة الله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه. فلذته في إقْباله عليه، وعكوف همته عليه. ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، حتى تنتهي إلى من لذته في أخس الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعال والأشغَال».[2]

وصنف الإمام الغزالي رحمه الله إرادات الناس وتعلُّقَها بالمطلوبات والمحبوبات، من لعب الأطفال، يرى الأطفال أن اللعب أعظم اللذات، إلى لذة البطن والفرج عند الكبير، إلى لذة العلم في عمر النضج، إلى لذة الرئاسة لمن نَالَهَا بالسيف أو القلم. ويشير الغزّالي من طَرْف خَفِيٍّ إلى قصته حين زهد في الرئاسة وخرج يبحث عن الدليل إلى الله فسخر منه الساخرون. قال: «وكما أن الصبي يضحك على من يترك

(1) الكهف، 28.

(2) الفوائد، ص: 150.

اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرئاسة، فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرئاسة ويشتغل عنها بمعرفة الله تعالى. والعارفون يقولون: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾».[1]

من الإرادات من زادُها العَوَز، ومن الهمم مَن طبعها الخَوَرُ. كان لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه نفس تواقة عالية. قال لمولاه مزاحم، وقد تعجب مزاحم من زهد مولاه الذي كان في شبابه متوسعا في المعايش فلما ولي أمر المسلمين ضرب لمن بعده مثلا خالدا: «ويحك يا مزاحم! لا يكثرن عليك شيء صنعته لله، فإن لي نفسا توّاقة، لم تَتُقْ إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ماهو أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ما بعدها منزلة. وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة».

هذا التوقان المجيد إلى الجنة حُداءٌ تترنم به النفوس الطيبة. وهناك التوقان الأعظم، الشوق إلى رب الجنة والنار، والسعي إليه والعجلة إليه على أجنحة الهمم الطيارة. ما تحدث ابن عبد العزيز عن هذه المرتبة، وكانوا في القرون الثلاثة الفاضلة كتومين لمواجيدهم وأشواقهم. ولله همم أولياء الله الذين حَدَوْنا وتحدّونا بالإخبار عن إراداتهم الشامخة ومطالبهم السامية. جزاهم الله عنا أفضل الجزاء، فسروا لنا بمثالهم وقصة حياتهم معاني القرآن حين ينادي «سابقوا»، «سارعوا»، ومعاني «من تقرب إلي شبرا تقربت إليه باعا» الوارد في الحديث القدسي. همم صوارم!

قال الإمام الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله: «ليست الهمة أن يقف الرجل عند حجابه، بل الهمة أن يَفْتِق شراع الحجاب، ويتدلى إلى الرحاب. صوارم الهمم تفعل ما لا يمر بالأوهام. حُجب الغيوب لا تشق إلا بسهام القلوب»[2]. وعلى قدر همتك تُعطى. فأي شيء طلبت في عمرك يا إنسان! أما سمعت نداء ربك الكريم ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟[3] وليس الطلب بالتمني، لكن بالتشمير والهجرة إلى الله بعد التوبة والإنابة مع المنيبين.

---

(1) هود، 38 – 39.

(2) البرهان المؤيد، ص: 48.

(3) غافر، 60.

لعلكِ يا نفسي الراكدة الهامدة القاعدة تجدين مُنيبا يقرع سمعك بقوارع اللوم كما كان يقرَع الأئمة السابقون. قال كبير من كبراء الأمة، أسمِّعُكِ كلامه بعد ثمانية قرون ونصف عسى وعسى: «يا غلام! على قدر همتك تعطى! اِبْعَدْ عما سوى الحق عز وجل بقلبك حتى تقرب منه. مُتْ عنك وعن الخلق وقد رفعت الحجب بينك وبين ربك عز وجل. قال (الغلام): كيف أموت؟ (الجواب:) مت عن متابعة نفسك وهواك وطبعك وعاداتك، وعن متابعة الخلق وأسبابهم. وآيس منهم، واترك الشرك بهم وكل شيء سوى الحق عز وجل. اجعل أعمالك كلها لوجه الحق عز وجل (...) فإذا فعلت هذا فقد مُت عنك وحييت به».(1)

«ولله الهمم ما أعجب شأنها، وأشد تفاوتها! فهمة متعلقة بمن فوق العرش. وهمة حائمة حول الأنتان والحُشّ. العامة تقول: قيمة كل امرىء ما يحسنه. والخاصة تقول: قيمة المرء ما يطلبه. وخاصة الخاصة تقول: همة المرء إلى مطلوبه».(2)

«فلله همة قطعت جميع الأكوان! وسارت فما ألْقَتْ عصا السير إلا بين يدي الرحمن، تبارك وتعالى. فسجدت بين يديه سجدة الشكر على الوصول إليه»(3).

من أصحاب الحسرة والثبور من لا يجد من إرادتهِ رفْدا لهبُوطها، ولا من همته جهدا لسقوطها. ومن الرجال من تَبْلُغُ إرادته توترها ومدها، وتناهض نفسه في ميدان المنافسة قِرْنَها ونِدّها، وتقتحم همته الأكوان خارقة عقبتها وسدها. اخرق السدود بينك وبين المولى، عسى أنواره لك تجَلّى.

قال الإمام الغزالي: «السد بين المريد وبين الحق أربعة: المال والجاه والتقليد والمعصية (...). فينْبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة (...). فإذا قدم هذه الشروط الأربعة (وهي خرق سدود المال والجاه والتقليد والمعصية)، وتجرد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحا للصلاة.

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني في «الفتح الرباني»، ص: 110.
(2) ابن القيم في «مدارج السالكين»، ج 3، ص: 147.
(3) نفس المصدر، ص: 98.

فيحتاج إلى إمام يقتدي به. فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل. فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة».[1]

من قال إن سبيل الدين غامض؟ أنت يا حجة الإسلام، يا من كانت تشد إليه الرحال للفتوى وتتزاحم حوله الرجال للاستفادة والتلمذة؟ ثم خرجت تطلب إماما بعدما أعياك نطح السدود والتماس الأشنان لتغسل بها ذات نفسك من أدْران الهوى والدنيا!

لقد كلفتنا جسيما أن نُبَيِّن لمن لا يريد أن يسمع كيف يكون سبيل الدين غامضا ورسول الله ﷺ علم أصحابه وبين، وما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا أوضحها وجلاّها حتى تركهم على مثل المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

جزاكم الله عنا خير الجزاء يا أكابرنا. لقد أمحضتمونا النصح حين أجمعتم على أن سُلوك الطريق إلى الله عز وجل بلا إمام مرشد ولي مغامرة في وُعورة لا أول لها ولا آخر.

كنت قد شارفت الأربعين عندما تداركني الرؤوف الرحيم بالمؤمنين بهبة ويقظة، فهام الفؤاد، وغلب التفكير في المبدإ والمعَاد، فوجدتني محمولا على الطلب مدفوعا إليه. كيف السبيل إليك يا رب؟ وعَكفت على كتب القوم، فما منهم إلا من صرفني للبحث عن الرفيق قبل الطريق. بِمن أَستنجد يا رب غيرك؟ وشككت وترددت أهو شرك مع الله؟ لكنني بَعد أن استغرقْت في العبادة والذكر والمجاهدة والتلاوة زمانا تبيّنتُ أن طلب ما عند الله هو غير طلب وجه الله. الأعمال الصالحة إن كان فيها الإخلاص وقبلها الحنان المنان تنيل الجنان. لكن أي شيء يرفعني إلى مقامات الإحسان وَفسحات العرفان. واشتد بي الأسى، وعِفْتُ نفسي، وتضرعت وبكيت عليه، هو الملك الوهاب. وأتحفتني أَلطافُهُ بلقاء عارف بالله رباني صحبته أعواما رحمه الله. وفَهمت منذئذ ما معنى كون الطريق مسدودا، ولم هذه السدود، وكيف اختراقها، وأين، ومتى، وأَيَّانَ! لله الحمد والمنة، ولأهل الله الناصحين خلق

(1) الإحياء، ج3، ص: 65.

الله، لا يخافون في النصيحة غير الله، ولا يرجون إلا الله، الشكر الخالص. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

غالب الـمُربين يخبرون أن الإرادة ترك العادة، وأن الهمة نهوض القلب في طلب الحق. وقالوا: الإرادة لَوْعة تُهَوِّن كل روعة! لوعة على ماذا؟ وروعة من ماذا؟ إذا كان لا يزورك هَم بالعاجلة ومعناها، والآجلة ومبناها، ولا يخامرك خاطر طلب الحق كما طلب الرجال، فلمثلك يقال:

دع المكـــارم لا ترحـــل لبغيتهـــا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

اقعد في سفاسف الأمور. واعلم أن الله عز وجل يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها كما جاء في الحديث. وأي شيء أعظم وأشرف وأعلى من همة سمعت السماع القلبي أن الله يتخذ من عباده أولياء أصفيَاء فتلوعت واكتوت. وتروعت وفقدت الراحة وأظلم نهارها كمدا وابيض ليلها أَرَقًا! وما استقر لها قرار حتى وضعت قدمها على أول الطريق، وهو العُثور على الرفيق.

قال الدقاق رحمه الله: «الإرادة لوعة في الفؤاد، لَذعة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تتأجج في القلوب».

هنالك مريد ومُراد في اصطلاح القوم، والكل إرادته عز وجل وإفضاله. طائفة سلك بهم طريق المجاهدة والصبر والمكابدة فهم المسمون مريدين. وطائفة سلك بهم طريق المِنن، ومهد لهم في السر والعَلَن، وأسلس لهم الرَّسَن، وحملهم على أجنحة التوفيق والوفاق إلى التلاق. أولئك هم المرادون. سادتهم الأنبياء ثم الصحابة المجاهدون فالإخوان المكرمون. جعلنا الله منهم بمنه وعفوه وكرمه. آمين.

لا خَبَرَ عند الطاعمين الكاسين بأن يقظة القلب، ولوعة الفؤاد، وهبوب الهمة، ولذعة الليل والنهار إيذانٌ بخرُوج القلب من ظلمات الغفلة، وبميلاد الروح من رَحِم النفس ومَشيمَتِها. قال كبير من أهل الذوق والتوق والشوق شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله: «القلوب في هذه الولادة ثلاثة. قلب لا يولد ولم يأْنِ له أن يُولدَ، بل هو جَنين في بطن الشهوات والغي والجهل والضلال. وقلب قد وُلد وخرج إلى

فضاء التوحيد والمعرفة، وتخلص من مشيمة (أحشاء الرحم) الطباع وظلمات النفس والهوى، فقرّت عينه بالله، وقرت عيون به وقلوب، وأنِسَتْ بقربه الأرواح، وذكَّرت رؤيتُه بالله. فاطمأن بالله، وسكن إليه، وعكف بهمته عليه، وسافرَت هِممُه وعزائمه إلى الرفيق الأعلى. لا يَقِرّ بشيء غير الله، ولا يسكن إلى شيء سواه، ولا يطمئن بغيره. يجد من كل شيء سوى الله عِوَضا. ومحبته قوته. لا يجد من الله عوضا أبدا. فذكره حياة قلبه، ورضاه غاية مطلبه (...). وقلب ثالث في البرزخ ينتظر الوِلادة صباحا مساء. قد أصبح على فضاء التجريد. وأنِس من خلال الديار أشعة التوحيد. تأبى غَلَبَات الحب والشوق إلا تَقرُّباً إلى مَن السعادة كلها بقربه، والحظ كل الحظ في طاعته وحبه».[1]

لا تحسبي يا نَفْس أن بالقوم رضي الله عنهم وَلُوعـاً بالأدب وحباً في النثر الفني ينمقون العبارات للمعارض الكلامية. قصدهم إثارتك لتسألي مَنْ قلبك بين القلوب، وأين أنت من معاني الإرادة والهمة والميلاد القلبي. ولعل أنامل الكلمة الرقيقة من نثر وشعر تتخلل كيانك الكثيف لتبلغك لطائف المعاني.

انظري أية سدود تعوقك عن الاقتحام، أم أن مستنقع الرذيلة مجال يستهويك، أو عندك «فضيلة» رخيصة أنت تستحْلينها، مفضلة «عافية الجبناء» المريحة من اللوعات والروعات؟!

إنه الملك الوهاب سبحانه، عليكِ به إن آنسْت تخفُّفا من جذَبات الإبطال والإحباط، أو عطّرتكِ نسمة من مسافرين إلى الله مجاهدين في سبيل الله فهجس فيكِ هاجس الطلب.

إن فاتكِ أن تكوني من الذين «قرت عيونهم بالله، وقرت بهم عيون وقلوب، وأنست بقربهم الأرواح، وذكرت رؤيتهم بالله»، وكانوا على باب الملك تراجمة عن الوحي أمناء للرسل، فلا أقل من أن تقفي بالباب راجية راغبة.

«ما اسمكَ؟! اسمكَ مذنب، اسمكَ غدا محاسَب ومناقَش. أنت في القبر مذموم، لا تدري أمن أهل النار أنت أم من أهل الجنة. عَاقبتك مبهمة فلا تغترَّ بصفاء حالك.

(1) طريق الهجرتين، ص: 17.

ما تدري ما اسمك غدا. يا بُنَيَّ إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح. (...) علامة غفلتك مصاحبتك الغافلين. يا أحمق؟ من لا يظهر عليه أمارات الحق لماذا تصحبه؟ (...) يا أحمق! تأتي باب هذا وباب هذا تسأله حتى يكثر جمعك (الحديث موجه لمن يطلب بعلمه الرئاسة على الخلق). كيف يرجى لك الفلاح! هلا كنت على باب الملك؟!».[1]

أوصى الأكابر بالوقوف بالباب وبتعلم آداب الوقوف ممن «عندهم رأس الأمر كله، وهم قناطر الخلق». قال الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله: «أوصيكم كل الوصية بعد علم واجبات الدين بصحبتهم، فإنها تَرياق مجرب. عندهم رأس الأمر كله. عندهم الصدق والصفاء، والذوق والوفاء، والتجرد من الدنيا، والتجرد من الأخرى، والتجرد إلى المولى. وهذه الخصال لا تحصل بالقراءة والدرس والمجالس. لا تحصل إلا بصحبة الشيخ العارف الذي يجمع بين الحال والمقال. يدل بمقاله، وينهض بحاله. أولئك هدى الله فبهداهم اقتده».[2]

إن كنت لم تفهم معنى «التجرد من الأخرى، والتجرد إلى المولى» فاصبر معي إلى آخر الكتاب، عساك تفهم، وتغنم، والله أعلم.

قال القاعد المرتاح:

ذريني تجئني ميتتي مطمئنة ولم أتجشم هول تلك الموارد
فإن عُليات الأمور مَشوبَةٌ بمستودعات في بطون الأساوِد

وقال المهاجر إلى الله:

خذ طارف السير بلا عائقٍ لله لا تقصد سوى الله
فكل ما أملته قائم بهجرة القلب إلى الله

(1) الشيخ عبد القادر في «الفتح الرباني»، ص: 343.
(2) البرهان المؤيد، ص: 71.

وقال الناصح المشفق:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة   وليلك نـوم والـردى لـك لازم
وتَكدح فيما سوف تُنكر غبَّه   كذلك في الدنيا تعيش البهائـم
تُسَرُّ بما يَفْنَى وتفـرح بالمُـنَى   كما غُر باللذات في النوم حالم

وقال السائر المقتحم في بحار الأهوال:

ولما ركبت البحر نحوك قاصدا   ولم أر غيـر الله مـالا ولا أهــلا
دعوتك بالإخلاص والموجُ طافح   بصدقِ وِداد لم يكن قط مُعْتَـــلاّ
أيا منقذ الغرقى ويا ملهم التقـى   ويا صمدا يبقـى إذا أذهب الكُلا
لوجهك ذَلّ البَر والبَحْرُ خاضـع   وحُق لهذا الخَلق أن يألـف الذّلا

وقلت أغاثني الله وكل ملهوف تائق لحضرته:

كــلُّ الــذي تأمُلُــهُ هبَــة   تـنـالـهـا إن ملْـتَ لله
إن همـة منـك إليـه ارتَقَـتْ   وَتَـسْلُـكَ النّجـدَ إلـى الله
تـفــوز بـالله إذا مـــدِّدَت   كــف الضراعــة إلـى الله

جناية المصطلحات

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري. وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي. وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي. واجعل الحياة زيادة لي في كل خير. واجعل الموت راحة لي من كل شر.

إن كانت عقبَات الصمم عن سماع النداء الموجه للفطرة، وعقبات الكبرياء المانعة من الأخذ عن الأكابر، وعقبات البعد عن عهد النبوة والصحابة، وعقبات الدنيا والشهوات المانعة من التوبة واليقظة، وعقبات الانغماس والانطماس عن طلب المعالي حواجزَ شاهقة وسدودا غَالقة عن الاقتحام فإن من أهم العقبات وجود آراء مسبقة عن شيء يسمى التصوف، يتحدث جهابذة علمائه عن «سبيل الدين الغامض»، وعن المعرفة واللحظ، وعن ميلاد القلوب، وعن ضرورة الشيخ، ويستعملون مصطلحات محدثة. وعندي وعند المسلمين أن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فما هي هذه الشجرة التي تزْعمون أنكم شممتم أزهارها وقطفتم ثمارها؟ من غرسها، وبم سقاها، ومن تعهدها حتى وَرِفَتْ ظلالها، وامتدت، وفاء إليها أكابر العلماء يجثون على الركب أمام الشيخ العارف يسلسون له القياد. وقام طائفة من أهل العلم يصرخون ويستصرخون، وينقدون ويؤلفون في «تلبيس إبليس»؟ دين الله واضح، وها هو الكتاب وها هي السنة.

ضع بإزاء سؤالاتك سُؤالاً أخيرا: ما حقيقة إسلامك أنت؟ وما حقيقة إيمانك؟

وضع بإزاء وجود الكتاب والسنة وجودك أنت، واشتغل بسؤالها إن طُفْتَ وأعياك التَّطواف بالكتب والخلافات.

ثم تعال معي، واصبر معي. فقد جنيت لك الأطايب من شجرة طيبة إن كنت من الصادقين، وإن علمت أن أحداً من العقلاء لا يجازف بآخرته فيهرف بما لا يعرف.

ذكر البخاري رحمه الله عن علي رضي الله عنه أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، وَدعوا ما يكرهون. أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟» ومن هذا الباب قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما من رجل يحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم».

وقد كانت ولا تزال أحاديث الصوفية عن مواجيدهم وما يتخذونه من مصطلحات فتنة لكثير من المسلمين. ومن الناس من يكره تلك الأحاديث لمجرد أنها تشير إلى ما لا تدركه عقولهم. وعند القوم رضي الله عنهم مما يضمره الجنان ما لا تتسع له العبارة رغم وفرة المصطلحات. قال الغزالي رحمه الله: «ومن أول الطريقة تبتدئ المشاهدات والمكاشفات حتى إنهم (أي الصوفية) في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا، ويقتبسون منهم فوائد، ثم تترقى بهم الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطإ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه».(1)

رويدا، رويدا! ملائكة تشاهد! أرواح! ثم لا يكفي هذا! أين بساطة الإيمان من هذه الدعوى التي لا يستسيغها مُدرك بحس ولا متخيل بحدس؟!

السلف الصالح لم يستعملوا الألفاظ الـمُغْرِبة وإن كان ورد عن عمران بن حصين الصحابي رضي الله عنه أنهُ كانت تصافحه الملائكة حتى اكتوى فاحتجبت عنه.

إن اصطلاحات القوم ككل الاصطلاحات المحدثة في الإسلام أشياء محددة بالمكان، موسومة بالزمان، أملاها الاضطرار.

قال الأستاذ القشيري: «السلف الصالح لم يسْتعملوا هذه الألفاظ. لم يكن في معارفهم خلل. والخلَف الذين استعملوا هذه الألفاظ لم يكن ذلك منهم لطريق

(1) المنقذ من الضلال، ص: 54.

الحق مُبايَنةً، ولا في الدين بدعة. كما أن المتأخرين من الفقهاء عن زمان الصحابة والتابعين اسْتعملوا ألفاظ الفقهاء من لفظ «العلة» و«المعلول» و«القياس» وغيره. ثم لم يكن استعمالهم لذلك بدعة ولا خُلُوُّ السلف عن ذلك كان لهم نقصا. وكذلك شأن النحويين والتصريفيين ونَقَلَةُ الأخبار، في ألفاظ تَخْتص كل طائفة منهم بها»[1].

قال هذا الأستاذ القشيري رحمه الله، وهو من أئمة الفقهاء والمتكلمين والصوفية، جمع الله فيه خيرا كثيرا، في رسالة له يدافع فيها عن العقيدة الأشعرية وعن مصطلحات المتكلمين.

ومن العلماء الأكابر من يشفق على قارئ أخبار الصوفية أن يسيء فهمهم فيقرب ويُسدد. قال ابن القيم بعد أن تناول مبحثا دقيقا من مباحث شيخ الإسلام الهروي رحمه الله: «وكَسَوْتُهُ أحسن عبارة لئلا يُتَعدى عليهم بسوء التعبير الموجب للتنفير»[2].

ومنهم من يشرح ويُقارن. قال الإمام السيوطي رحمه الله: «واعلم أن دقائق علم التصوف لو عُرضت معانيها على الفقهاء بالعبارة التي ألفوها في علومهم لاستحسنوها كل الاستحسان، وكانوا أول قائل بها. وإنما ينفرهم منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يألفوها»[3].

وبعد فما هو التصوف، وكلمة «تصوف» هي رأس قائمة المصطلحات؟ وما علاقة التصوف، وهو لفظ محدث، بالإحسان وهو لفظ قرآني نبوي، وبالتزكية والتطهر؟

اعلم يا أخي أولا أنني أزهد الناس في المصطلح إن سلمت لنا مطويات القلوب ومكنونات اللبوب. واعلم ثانيا أن هؤلاء الذين تسموا في التاريخ صوفية أشكال وألوان وأصناف، منهم الصادقون ومنهم دون ذلك. واعلم أخيرا أنني لا أبغي بغير الصحابة المجاهدين المهاجرين إلى الله ورسوله الناصرين بديلا.

---

(1) طبقات الشافعية، ج 2، ص: 287.

(2) مدارج السالكين، ج 2، ص: 249.

(3) تأييد الحقيقة العلية، ص: 21.

أما الصوفية فقال عنهم واحد من فرسان العلماء وجهابذتهم ابن تيمية رحمه الله: «طائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة (...). وطائفة غَلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء. وكِلا طرفي هذه الأمور ذميم. والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله. ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده. وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين. وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيُخطئ، وفيهم من يذنبُ فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه. (...) فهذا أصل التصوف. ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم».[1]

يعني شيخ الإسلام بصوفية الحقائق صوفية السلوك والأذواق والكشف والفتح والكرامات على درجات. ويعني بصوفية الأرزاق أقواما حبسوا أنفسهم في الخانقات والزوايا تجري عليهم الجرايات والأرْفاقات والصدقات. ويعني بصوفية الرسم المتشَبّهون والمتبركون والمتسبون باللباس والآداب والزي. صنف رابع لم يذكرهم الشيخ هم صنف التصوف الفلسفي يحملون الاسم زورا وبهتانا.

وصنف خامس لم يذكرهم الشيخ ولعلهم كانوا لا يوجدون في زمانه ومكانه واهتمامه. وهم صوفية الرباط، المجاهدون في ثغور المسلمين.

بالجملة ما حكم العلماء على الصوفية الصادقين؟ قرأنا في الفصل الأول من هذا الكتاب شهادات تمشي على رجلين، هي شهادات فطاحل العلماء الساعين بخضوع للجلوس بين يدي العارف الرباني. ونقرأ هنا شهادة مكتوبة. قال ابن القيم رحمه الله: «فَنبأ القوم عجيب، وأمرهم خفي إلا على من له مشاركة مع القوم، فإنه يطلع من حالهم على ما يريه إياه القَدْر المشترك». لا شك أن الشيخ يعني نفسه هنا، يشارك القوم (الصوفية) في مشاربهم القلبية ويَنْفَرِدُ عنهم بالمشاركة الواسعة في علوم الظاهر. والقَدْرُ المشترك بينه وبينهم عَلّمَه أن: «جملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وغُمِرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته. فسرت المحبة

(1) الفتاوي، ج 10، ص: 18 – 19.

في أجزائهم، فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب. قد أنساهم حبه ذكر غيره. وأوحشهم أنسهم به ممن سواه. قد فَنُوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون إليه والتّذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره».(1)

أهذا غلُو في القوم يُبْديه تلميذ ابن تيمية الذي يعده المستَخِفّون عدوا لكل ما يمت للتصوف بصلة؟ كلا والله بل هي شهادة رجل واثق ذائق صادق.

والتصوف الخُلُق. قال الكتاني رحمه الله أحد مشايخ الصوفية: «التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف». وسئل ذو النون المصري رحمه الله، وهو من أكابر القوم، عن الصوفي فقال: «هو الذي لا يُتعبه طلب، ولا يزعجه سلب». وقال أيضا: «هم قوم آثروا الله على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء».

لا حاجة لنا هنا في البحث عن أصل المصطلح هل هو من الصوف أو من الصفاء. ولننظر في المواضيع التي تملأ كتب القوم. في رسالة القشيري رحمه الله: «باب في تفسير ألفاظ تدور بين هذه الطائفة». منها الحالُ والمقام، والقبض والبسط، والهيبة والأنس، والتواجد والوجد والوجود، والجمع والفرق، والفناء والبقاء، والغيبة والحضور، والصحو والسكر، والذوق والشرب، والمحو والإثبات. والقائمة طويلة. وتحت كل لفظ علوم يُبْهمها الصِّيانُ ولا يفصح عنها البيان إلا إشارات ومصطلحات يعرفها من ذاق.

لا بأس من هذه الأذواق الشريفة الـمُنيفة تُصاغ في قوالب لفظية ليتداولها أهل الذوق وليتفاهموا فيما بينهم. وقد كانت حياتهم حياة التفرغ والانكفاف عن الخلق. يتسع وقتهم لتعْميق المشاعر الرقيقة. يا حسرة على من ظن أن حديث القوْم ولغتهم زخرف القول غرورا، تزويق وتنميق. ذاك على الباب ما قرع، ومن أهل الذكر ما سمع. أولئك هم الغافلون.

(1) طريق الهجرتين، ص: 262.

لابأس، وبخ بَخٍ! لكني لا أجد في هذه القائمة المبجلة كلمات القرآن والنبوة عن الجهاد، والقتالَ، والنفقة في سبيل الله، وحصار المشركين، والغلظة عليهم والشدة، والتحزب لله، وحمل هم الأمة، والنصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم.

وجَدَّتْ في عصرنا مستجدات: أمة مقهورة مقسومة مغلوبة، فلسطين القدس المحتلة، تخلف المسلمين، حكام الجبر عليهم، قوى عظمى تتحكم في الأرض، تخلف، صناعة، فضاء، علوم، اختراعات، تكنولوجيا، طوق إعلامي يغزو سكان الأرض، مجاعة، تضخم سكاني، استعمار، ثورة، تلوث البيئة، أسلحة نووية، أسفار نحو الكواكب، إنتاج، استهلاك، ديموقراطية، اشتراكية.

أين تقع مصطلحات القوم من اهتمامات العصر، ومن المستقَر القرآني النبوي، ومن النموذج الصحابي الجهادي؟ هذا هو سؤالنا في هذا الكتاب.

قديما قال الشاعر الصوفي يأسف على ما آل إليه التصوف في زمانه، ونحن همنا أن ندرج التربية الإحسانية في سياق جِهادي لكيلا تكون مَخْرَقَة:

أهل التصوف قد مضوا صار التصوف مخرقه
صار التصوف صَيْحة وتَواجُدا ومُطَبَّقَه
مضت العلوم فلا علوم ولا قلوبٌ مشرقه
كذبتك نفسك ليس ذا سَنَن الطريق المُخْلَقه
حتى تكون بعين مَن عنه العيون المُحدِقَه
تجري عليك صروفه وهموم سِرّك مُطرقه

وقلت جعلني الله وإياك من الإخوان أهل القرآن:

كذَبَتْكَ نفسك بالأما ني والأماني مَخْرَقهْ
لا لن تفوز بقربه وترى الفتوح المشْرقَهْ
إلا بعزم صابر وبهمة مُتَعَشِّقَهْ

كن حلس بيتك

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني. أنت الحي لا تموت. والجن والإنس يموتون.

قَال المعترض المحتار وقد أسر صدمة رؤية أولياء الله الملائكةَ وأرواحَ الأنبياء في نفسه: «إن كان للصوفية فيما مضى داع لاصطناع مصطلحات متخصصة كما فعل علماء الفنون الأخرى، فما بَالُ الصوفية، كانوا ولا يزالون، رَمزاً للخمول والهروب من الواقع والانكماش والدروشة؟ وإن زعمتَ أنك تريد تجاوز التصوف كمذهب ومدرسة وأسلوب تربية فهل يمكن شيء من ذلك إلا بنبذ المذاهب جملة، والإعراض عن كل شيء سوى الكتاب والسنة؟».

فأقول وبالله التوفيق: إن الله جلت عظمته يقول: **﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ الله الْحُسْنَى وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً﴾**.[1]

أي شيء ألجم تلك الإراداتِ القوية والهمم العلية عن غشيان ساحَات الوغى، وعن مناصرة القرآن في وجه السلطان لما اختصم السلطان والقرآن؟ أولئك الذين كانوا يُرَقِّقون الدمعة ويُعَفّرونَ الخد على «باب الملك» لماذا لم يُريقوا دماءهم في سبيل الله كما أراقها أصحاب المجد السامق الصحابة الكرام؟ هل كان لهم من عذر؟ وهل ينفعهم العذر عند الله فيدركوا وهم في ركن الخلوة مراتب المجاهدين؟

(1) النساء، 95 – 96.

عذرهم أوامِرُ نبوية صريحة. أطلع الله عز وجل نبيه الكريم على مستقبل الأمة، وجاء في الأحاديث الصحاح أنه ﷺ أخبر أصحابه بكل ما يحدث بعده إلى يوم القيامة. فأنساهم الله تعالى تفاصيل ما أخبر به، وأسدِلت سجُفُ الغيب، لتبقى لكل جيل مسؤولية الكسب والاختيار. وكان من النصوص التي لم ينسَها الصحابة وورَّثونا إياها أحاديث تأمر بالانعزال عن الفتنة، نسْرُدُ بعضها:

أخرج مسلم وأبو داود عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتن. ألاَ ثُم تكون فتنة، القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي إليها. ألا فإذا نزلت، أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه». فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: «يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحَجَر، ثم لِينْجُ إن استطاع النَّجاءَ. اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟». قال: فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت إن أكرهْتُ حتى يُنْطَلَقَ بي إلى أحد الصفين، أو إحدى الفئتين، فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: «يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار». وأخرج أبو داود عن وابصة الأسدي أن ابن مسعود حدثه عن رسول الله ﷺ أنه ستكون أيام الهَرْج (أي الفتنة والقتل) وأوصاه إن أدركه ذلك الزمان أن يكف لسانَه ويدَه، وأن يكون حِلْسـاً (حصيرا) من أحلاس بيته.

وأخرج البخاري عن سعيد بن جبير أن عبد الله بن عمر خرج عليهم يوما ليحدثهم، فسأله رجل عن الفتنة وعن قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ فقال ابن عمر: «وهل تدري ما الفتنة ثَكِلَتْكَ أمك؟ إنما كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنةً، وليس كقتالِكم على الملك». وأخرج الإمام أحمد أن ابنـاً لِسعد بن أبي وقاص جاءه وقت الفتنة بين علي ومعاوية يريده على الخروج، فقال: «يا بُني! أفي الفتنة تأمرني أن أكون رَأسا؟ لا والله! حتى أعْطَى سيفـاً إن ضربت به مؤمنا نَبا عنه (لم يجرحه) وإن ضربت به كافرا قتله». الحديث.

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أو ابن عمرو قال: شبك رسول الله ﷺ أصابعه وقال: «كيف أنت يا عبد الله بن عمرو إذا بقيت في حُثالة من الناس (أراذلهم)، قَدْ مَرِجَتْ

(فسدت) عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فصاروا هكذا!» قال: فكيف أصنع يا رسول الله؟ قال: «تأخذ ما تعرف، وتدع ما تُنكر، وتُقبل على خاصتك، وتدعهم وعوامهم».

هكذا تأصل في الأمة منذ الفتنة الكبرى إِثْرَ الخلافة الراشدة مذهبُ الانعزال والإقبال على خاصة النفس، وترك الأتقياءُ الأخفياء الأبرياء الناس يتقاتلون على الملك. هكذا انسحب أهل الفضل من ساحة السلطان ليحافظوا في مدارس العلم ومجالس الحديث وخلاوي الذكر على لب الإسلام وجوهره وكلمته. ولئن جلس المفتون للعامة يفصلون القضايا، وجلس الفقهاء للتعليم العام، فإن الصوفية انصرفوا في عزلتهم إلى تربية الخاصة من المريدين يورثونهم تلك الأمانة التي تنزل في جذر قلوب الرجال كما قرأنا في حديث الشيخين. جاء حديث: «تنزل الأمانة في جذر قلوب الرجال» عند البخاري في «باب الأمانة». والأمانة لازمة من لوازم الإيمان، لا تتساكنُ في جذر القلوب مع النفاق. فنفهم نزولها في القلوب نزولا للإيمان فيها واستقراراً.

وبقي العلماء أمناء على أمانة الإيمان والعلم، بمعزل عن العامة وعن السلطان كما أوصى بذلك هذا الحديث الشريف الذي أخرجه الحسن بن سفيان والقضاعي وابن عساكر رحمهم الله عن أنس رضي الله عنه بإسناد حسن: قال رسول الله ﷺ: «العلماء أمناء الرسل، ما لم يخالطوا السلطان ويداخلوا الدنيا. فإذا خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم».

ليس جنس علماء القصور جنسا محدود النسل في تاريخنا، لكن الأمة لم تثق في كل عصر إلا بالأتقياء الأخفياء الذين وصفهم رسول الله ﷺ حيث قال: «إن أغبط الناس عندي لمؤمن خَفيفُ الحاذِ (خفيف الظهر من تكاليف العيال)، ذو حظ من الصلاة، أحسنَ عبادةَ ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافا، فصبر على ذلك. عُجّلت منيته، وقلت بواكيه». رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح عن أبي أمامة رضي الله عنه.

هذا النموذج الغامض الخامل في الناس، المنصرفُ لخاصة نفسه، نموذج نازل عن درجة الأصحاب المجاهدين، ما في ذلك شك. لكن الفتنة التي عاشتها الأمة

تقوم له مقام العذر. قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾[1]: الضرر: العُذر. وجاء عند البخاري رحمه الله عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان في غزاة فقال: «إن أقواما بالمدينة خَلْفَنا ما سلكنا شِعبا ولا واديـاً إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر».

مَن حبسه العذر عن الجهاد حُسِبَ عند الله كمن حضر الجهاد، ولو بقي في خلوته غامضا خفيف الحاذ متجردا. ذلك إن كانت نفسه تحدثه بغزو وجهاد، وإلا مات على شعبة من نفاق كما جاء في الحديث: «من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق». أخرجه مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فيما نستقبله بحول الله من أيَّام ازدهار الإسلام ارتفع عنا العذر فلا مكان بين الأخيار بعد للغامض الخامل. يكفي أولئك الأخفياء أمناء الرسل شرفـاً في الدين أنهم حافظوا لنا على بذور الإيمان حتى أورثوناها رحمهم الله.

رَفَع عنا العذرَ وفَتَح لنا أبوابَ الجهاد والاجتهاد إخبارُ المصطفى أمين الوحي ﷺ أنها ستكون خلافة ثانية راشدة ينهض بها إخوانه على منهاج النبوة والخلافة الأولى بعد أن يَنقضي زَمان الملك العضوض والجبري الذي قضى به الله في سنته الأزلية، ونزل به القدر بعد ثلاثين عاما من وفاة الرسول الكريم، وكسَبَت أيدي الناس وقُلوبهم ما كسبت من إثم في خوض فتنه، وسفك دمائه، وتأجيج ناره، واعتلاء كراسيه.

روى الإمام أحمد رحمه الله عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكا عاضا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون ملكا جبريا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت».

(1) النساء، 95.

سكن الصوفية الكرام في أرض الخمول، واستكانت الأمة للسيف زمانا. وكأننا بعد أن أفقنا على صيحات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأصحابهم رحمهم الله أصحاب كهف يغطون في نوم عميق. وكأنّ الإسلام في هَبّته منذ قرن وفي صحوته منذ سنوات وافدٌ جديد طارئ وجد المكان تحتله ذهنية الخمول الموروثة، وتحتله اللاييكية التي كان الشيخ رشيد رضا رحمه الله يسميها «المقالة الإبليسية». المساجد في دار الإسلام مزدحمة، ومكة في موسم الحج والعمرة مكتظة بالمسلمين، لكن إسلام المسلمين بمثابة بناء فوقي مهزوز في الهواء. والقاعدة المتمكنة في الأرض، لا تزال، هي العض والجبر أعتى ما يكونان. ولطالما التمسَ ذَراري المسلمين المغربون من «صيدلية الغرب» حلولا لمشاكل الأمة في علب اللبرالية والاشتراكية والثورية، فخابوا ولم تقم لهم في الأرض قائمة دائمة.

فآن لنا أن نستمد من القرآن الكريم ومن السنة المطهرة مادة الحياة كما استمد الصحابة. لكن قلوبنا خاوية من الإيمان، وهم رضي الله عنهم أوتوا بصحبة خَير الأنام الإيمان قبل القرآن. فماذا في صيدلية السادة الصوفية من علاج للقلوب؟ وهل نحتاج لهذا العلاج؟ وهل يمكن أن نقتبس منهم دون أن نتقيد بأسلوب الغموض والخفاء؟ وهل يمكن قبل كل شيءٍ أن نثق بتلك الصيدلية التي ثار حولها الجدل وأوسعها الناس تشهيرا وتكفيرا؟ ما في وُسْعنا أن نتخَفّف من الحاذ ومهمات إقامة الدولة الإسلامية أمامنا في عصر عَجّاج ثَجّاج متَلاطم الأمواج. ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.(1)

فاتَ أوان التعَذّر والاستعذار، ودفعت الأمة ثمنا فادحا، ولا تزال تدفع، للسكوت عن الظلمة. وكان مراد الله عز وجل أن يتحمل كل جيل مسؤولية التقدير لما هو أوفق وأرفق. والرضى بما فات ومضى وانقضى جزء من عقيدة المؤمن. واكتمال الإيمان في حقنا أن نبذل الروح في طلب المنزلة الشامخة التي نوَّه بها قوله تعالى: ﴿**لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ**﴾.(2)

(1) البقرة، 134.

(2) النساء، 95.

نَسَائمُ القرب من الحبيب استروحها الأصفياء الأخفياء أهل الله الذاكرون لِلّه في خلواتهم قرونا. ونحن بعونه وفضله ومنته نستروحها تحت غبار النَّقْع وتحت ظلال الرايات الخفاقة للقومة الإسلامية بجهاد متعدد الجوانب ميادينُه تسمى «تحررا» و«تنمية» و«تصنيعا» وبناء للوحدة، وإتقانا للعلوم الكونية، وحملا للرسالة إلى العالمين.

قال عبد الله بن المبارك وكان رجلا مجاهدا لصديقه فضيل بن عياض رحمهما الله:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الكريهة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا عن مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

وقلت وقاني الله وإياكم من القعود:

يا قاعداً عنّا بلين معيشة ... كم ذا تسوف للنهوضِ وتلعَبُ
كَبَدٌ حياتُكَ! لَو أَتَيتَ رِكابنا ... لوجدت أشبال العرينِ تأهَّبُ
وَوَجَدْت عزما ماضيا ومروءة ... ووجدت إيمانا يَجِدُّ ويُكْسَبُ

عقبة الخلاف والاختلاف

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴾. يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك.

كان عبد الله بن المبارك محدثا كبيرا، وجمع الله له إلى ذلك خصالا جليلة، فكان شاعرا جوادا مجاهدا، يحج عاما ويغزو عاما. واشتهر فضيل بن عياض بالزهد والصلاح، يعتبره الزهاد والصوفية إماماً.

عِتَابٌ رقيق بين صديقين متصافيين. وكان الرجلان عَلَمين بارزين من أعلام القرن الثاني. في القرون التالية اتخذ الخلاف في المذهب والرأي ووجهة النظر شكل الجدَل العَنيف، واستفحل، وكانت حروب كلامية وغارات. وتَرِثُ هذه الأجيال المتأخرة كتُبَ الخلاف فيما ترث، فتقفُ عند جزئيات الخلاف دون أن تتعلم أن ذلك الخلاف كان ضروريا، وكان رحمة، لأنه تمخض عن زبدة الدين، وتحررتْ من خلاله العقيدة، وصُفي الحديث، وتأصل الفقه، وحوربت البدع.

لا يمكننا أن نضرب بما شجر من خلاف بين علمائنا عُرض الحائط، ويمكننا أن نستفيد من مسيرة هُبوطِهِ إلينَا اكتشاف الطريق الصاعدة إلى النبوة والخلافة الراشدة. تخطي هذا الخلاف مثل اتّخاذه هدفاً أسمى وسقفا موقفان متطرفان، بينهما توجد الحكمة.

والحكمة قبول الخلاف ظاهرةً بشرية، وقبول تنوع الاجتهاد، وتنظيم هذا التنوع. وبداية الحكمة أن نضع خلافات علمائنا الأولين مواضعها النسبية، لا نتخذ رأي فلان أو فلان مرجعا نهائيا ومطلقا لا تسمو العقول لمناقشته.

حظٌّ كل صاحب مذهب ورأي من حفظ النص وتحريره، ومن حِدة العقل وتنظيمه، ومن تَوجُّه الإرادة وسموها ومضائها يحدد إمكانياته ويرسم له حدودا. فينكر في حدوده وظروفه وزمانه ومكانه ما هو عند الآخرين غير منكور. ويَرُدّ ويُردّ عليه. ولكل مجتهد أجر عند الله، ووجه معقول مَقْبول عند العقلاء الموفقين.

عقبة الخِلاف في شأن الصوفية والتصوف ليست أهون العقبات أمام من يريد أن يشرح ما عند القوم من كنز محفوظ لقارئ وقع في يده كتاب من هذه الورقات السطحية التي تتكاثر في السوق، يكتبها من ألهاهم التكاثر عن السؤال المركزي: «وأنا ماذا فعلت، وماذا علمت، وما حظي من ربي؟».

ينحصر معظم الخلاف على الصوفية في المُحَدّثين الحنابلة. علم أصول الحديث علم تعديل وجرح، وبنفس المنهاج تناول الحنابلة المحدثون الصوفية فجرحوا أكثر مما عَدَّلوا. وكان من أدعياء التصوف وفلاسفة الإشراق طوائف نالوا بجدارة واستحقاق من بعض المحدثين الحنابلة تصويرا سلبيا محضا. فأنت إذا قرأت كتاب «تلبيس إبليس» خيل إليك أن الصوفية في كلمة واحدة هم إخوان الشياطين. ويا حسرة على من قرأ نُقول من نقل عن من نقل عن أمثال ابن الجوزي رحمه الله، ثم اكتفى وطوى الملف! ماذا فاتك يا مسكين!

لهذه الخلافات أسباب ظاهرة مشروعة، مثل الخلاف في العقيدة، ولها أسباب دُنيوية تاريخية. والخلاف جزء لا يتجزأ من العناصر الحركية التي عليها صلحت الأرض واستقامت. الخلاف مهما كانت أسبابه، شريفة عفيفة أو مغرضة أو جاهلة أو تحاملية، دفاع الله الناس بعضهم ببعض، ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾.[1]

قال التاج السبكي يقص قصة خلاف المحدثين والصوفية، وقد كان ووالده التقي السبكي شيخ الإسلام من أكبر المعارضين لابن تيمية. قال: «نبه شيخ الإسلام ابن دقيق العيد أن الخلاف بين كثير من الصوفية وأصحاب الحديث قد أوجب كلام

(1) البقرة، 251.

بعضهم في بعض، كما تكلم بعضهم في الحارث المحاسبي وغيره. وهذا في الحقيقة داخل في قسم مخالفة العقائد، وإن عده ابن دقيق العيد غيرَهُ. والطامة الكبرى إنما هي في العقائد المثيرة للتعصب والهوى. نعم، وفي المنافسات الدنيوية على حطام الدنيا. وهذا في المتأخرين أكثر منه في المتقدمين».[1]

عندما تختلف الآراء، وتشتبك الألسنة في الجدال، تثور النفوس وتتعمق الهوة بين الخصوم، ويجد الشيطان في هوى الناس مطية لإشعال الفِتْنة. والغِرُّ من يظن أن النزاعات بين العلماء تعكس كلها الصفاء الملائكي والتحري المجرد عن كل شائِبَةٍ. والبشر بشر، والفتنة اللسانية أمضى من فتنة السيف وأسرع ضِراما. روى أصحاب السنن رحمهم الله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تكون الفتنة تَستنطف (أي تأتي على الأخيار) العرب. قتلاها في النار. اللسان فيها أشد من السيف». هذا لفظ الترمذي رحمه الله.

والغيرة البشرية بين الأقران والمتعاصرين تتدخَّل فتُضخِّم ما يكون ثَمَّ من أصل حقيقي للخلاف. رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لا أدركتُ ولا أدْركتم زمانا يتغاير الناس فيه على العلم كما يتغايرون على الأزواج!».

ولأبِي عُمر بن عبد البر كلام نفيس في الموضوع أنقله عن التاج السبكي. وابن عبد البر من المحدثين المحققين يحظى بالاعتبار التام عند علماء الأمة. قال السبكي: «عقد الحافظ ابن عبد البر في كتاب العلم بابا في حكم قول العلماء بعضهم في بعض بدأ فيه بحديث الزُّبَيْر رضي الله عنه: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء» الحديث. قلت: وهو حديث صحيح رواه الحاكم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيصيب أمتي داء الأمم فقالوا يا رسول الله! وما داء الأمم؟ قال الأَشَرُ والبَطَرُ والتكاثر والتناجش في الدنيا، والتباغض والتحاسد، حتى يكون البغي»».

ثم قال السبكي رحمه الله: «وروى (ابن عبد البر) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «استمعوا علم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم على بعض. فوالذي

(1) طبقات الشافعية، ج 1، ص: 165.

نفسي بيده، لهم أشدُّ تَغايُراً من التُّيوس في زُروبها» وعن مالك بن دينار: «يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض» (...). واختلاف الاجتهاد مما لا يلزم المقول فيه ما قال القائل فيه. وقد حمل بعضهم على بعض بالسيف تأويلا واجتهادا. ثم اندفع ابن عبد البر في ذكر كلام جماعة من النظراء بعضهم في بعض وعدم الالتفات إليه، إلى أن انتهى إلى كلام ابن معين (وهو من كبار المحدثين) في الشافعي، وقال: إنه مما نُقِمَ على ابن معين وعِيبَ به. وذكر قول أحمد بن حنبل: «من أين يعرف يحيى بن معين الشافعي؟! هو لا يعرف الشافعيّ، ولا يعرف ما يقوله الشافعي، ومن جهل شيئا عاداه».[1]

أقول وبالله التوفيق: إن خلاف العلماء وشجارهم ووقوع بعضهم في بعض عن حسن نية أو فلتةً بشريّةً ينبغي أن لا يوهمنا أن الحق في هذا الجانب ضربة لازب. فهم خطاؤون ككل ابنٍ لآدم، وهم مخطئون أحيانا. وحلة القدسية التي يضفيها خيال الـمُقلدين على إمام عالم هي من صنع الجهل. وكل واحد يؤخذ من كلامه ويطرح إلا قول المعصوم ﷺ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

وأرجع لابن السبكي وابن عبد البر رحمهما الله لأنقل إليك فَصّاً ثمينا من فصوص العلم ونوادر الحكمة. قال: «ثم قال ابن عبد البر: فمن أراد قبول قول العلماء الثقات بعضهم في بعض فليقبل قول الصحابة بعضهم في بعض. قال: فإن فعل ذلك فَقد ضل ضلالا بعيدا، وخسر خُسرانا مبينا. قال: وإن لم يفعل، ولن يفعل إن هداه الله وألهمه، فليقف عند ما شرطناه في أن لا يقبل في صحيح العدالة المعلوم بالعلم قول قائل لا برهان له».

يظلم نَفسَه ويظلم العلماءَ من يجرد الخصومات التي خاضُوها من ملابساتها الظرفية وشوائبها البشرية، وينصب أحدَهم لواءً خفاقا يخوض تحته معاركهُ هو، عن جهل للأصول والفروع، وعن تقليد أعمى لمن لا يحسن حتى فك جملهم وفهم لغتهم، فأحرى أن يفهم مرامي الكلام وظواهره وبواطنه ودوافعه ومقدماته التاريخية.

(1) طبقات الشافعية، ج 1، ص: 188 – 189.

من المظلومين في هذا العصر شيخ الإسلام ابن تيمية. تبحره في العلوم، وتمكنه في الحديث وقد كان حافظا، ثم انتشار كتبه الانتشار الواسع تنفق عليها بسخاء جهات معروفة لأسباب قد لا يعرفها كل الناس، جعل من اسمه سلاحا مرهبا، ومن سرد كلماته حجة قاطعة، ومن فكره مرجعا نهائيا، يحسب المتحنبلون الجدد أن كلمة شيخ الإسلام رحمه الله هي الكلمة الفصل، والكلمة الوحيدة، والكلمة الأخيرة، وكأن الله عز وجل لم يخلق معه ولا بعده عالما يذكر.

تعمدت في هذا الكتاب الاستشهاد بكلام ابن تيمية، وخاصة بكلام تلميذه ومريده هذا النجم الثاقب في سماء البيان ابن القيم، إشفاقا على من ظَلَموا أنفسهم وظلموا أهل العلم، وإشفاقا على من تجرعوا مرارات الخلاف وصمَّتْ آذانَهم طبولُ المقلِّدَةِ.

كتب الدكتور سعيد رمضان البوطي مقالا مهما بعنوان: «موقف ابن تيمية من ابن عربي»، دافع فيه عن ابن عربي بما هو معروف من أن كتبه دُسَّ فيها الكثير. في كتابي هذا تجنّبت مواطن الخلاف على الأشخاص، إذ الشأنُ بي وبك لا بمن مضوا وانقضوا ولقُوا الله بأعمالهم. لكني أنقل إليك تظَلُّم عالمنا الجليل سعيد من المقلدة. قال: «والحقيقة التي لا ريب فيها أن ابن تيمية رحمه الله قد ظُلم من قِبَلِ هؤلاء الناس... لقَدْ ظُلم من قبلهم مرتين: المرةَ الأولى أنّهم نسبوا إليه بسبب جهلِهم أو بسبب أغراضهم التي يتأبطونها ما لم يقله، وما لم يخطر منه على بال. فقد صوّروا منه عدوا للتصوف، وهو من أبرز المنافحين عنه والداعين إليه، والقائلين بوجوب الانخراط في منهجه التربوي على كل مسلم (...)».

قال: «والمرةَ الثانيَةَ أنهم صَبَغوه بذلك في تصوُّر كثير من الناس، بل حتى العلماءِ والباحثين السطحيين، بصبغة المُنكِرِ لهذا الذي ثبت أنه جوهر الإسلام ولُبابه، والمنقِّصِ لكل من سار في هذا الطريق وسلك الناس في طريق تزكية النفس، حتى غدا اسم ابن تيمية عند عامة الناس رمزاً لمحاربة هذا السبيل الإسلامي القويم»[1].

نعم، من العقبات الكبرى والحواجز العائقة عن سماع كلمة الحق في موضوع جوهر الإسلام ولُبابه استعمال المتسطحين الحرفيين لاسم ابن تيمية وترجمتهم لفكره.

(1) مجلة «منار الإسلام»، رمضان 1408، ص: 103.

كان الرجل رحمه الله شعلة من الذكاء والهمة العالية والفروسية العلمية والميدانية. كانت حياته كلها معارك، فاصطبغ فكرُه بلون الأرْجُوان، وعلاه غبار الميدان الحربي. ولولا وضوح فكره وتمكنه ورسوخه في العلوم، ولولا تشبثه المتين بالأصول يدافع عن الحق في زمان استفحلت فيه البدع، وهجمت الباطنية، وطمَّ الغزو التتاري فكان الفارس المُعْلَم في كل تلك الميادين، لكانت خلافياته مما طُوِيَ وبقي في الرفوف. لكن نشر تراثه الممتاز أثار موجة من البلوى عمت وطمت.

الرجل، وإن كان اختلف مع المتأخرين من الصوفية، يعتبر أمثال الجنيد وابن يزيد وسهل رحمهم الله أئمة هدى. ويضع الشيخ عبد القادر الجيلاني موضع الاحترام المطلق. يذكر اسمه فيقرنه بالترحم الصوفي على الأكابر: «قدس الله سره».

إن كان ابن تيمية كفر هذا وجرح ذاك وشدّد على هؤلاء وسالم أولئك، فتلك معاركُ مضت وانقضت. وتبقى رسالة ابن تيمية وشهادته ناصعة الجبين واضحة المعالم لمن تجاوز مراحل محاربة الأمية أنَّه من أكبر الداعين للتزكي القلبي وصحبة المشايخ وملازمة الأوراد.

خاصم الغزاليَّ رحمه الله في أمور نُسبت إليه في كتاب «مشكاة الأنوار» وكتاب «كيمياء السعادة» ثم قال: «وقد أنكر عليه (على الغزالي) طائفة من أهل الكلام والرأي كثيرا مما قاله من الحق. وزعموا أن طريقة الرياضة وتصفية القلب لا تؤثر في حصول العلم. وأخطأوا أيضا في هذا النفي. بل الحق أن التقوى وتصفية القلب من أعظم الأسباب على نيل العلم».[1]

المكاشفة والكشف والفتح هي الأسماء التي يطلقها الصوفية على العلوم الوهبية التي يفتحها الله الكريم الوهاب على من يشاء مصداقا لوعده الكريم: ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ الله﴾.[2] ابن تيمية من أهل الذوق، علم يقينا أن الذاكرين السالكين تفتح لهم أبواب من العلم لا يَنالها غيرهم. وهذا لب المسألة كلها. ومن العلماء من ينكر هذا

(1) كتاب «الرد على المنطقيّين»، ص: 511.

(2) البقرة، 282.

العلم الموهوب جملة وتفصيلا ويعتبر المكاشفة «كلاما فارغا».[1] وكلا الرجلين محدث حنبلي، لكن شتان ما بينهما.

نقطة أخرى تتطابق فيها معرفة ابن تيمية وتجربته مع معرفة الغزالي وتجربته، هي ضرورة صحبة المشايخ لاكتساب علوم الولاية. قال: «أهل التصفية والرياضة والتأله يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر، كما قال الشيخ الملقب بالكبيري للرازي ورفيقه، وقد قالا له: «يا شيخ! بلغنا أنك تعلم علم اليقين». فقال: «نعم!» فقالا: «كيف تَعْلَمُ ونحن نتناظر في زمان طويل، كلما ذكرَ شيئا أفسدتُه، وكلما ذكرتُ شيئا أفسدَه؟» فقال: «هو واردات ترد على النفوس، تعجز النفوس عن ردها. فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام. وطلب أحدهما أن يحصل له هذه الواردات فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له».[2]

اعتراف إذا ونصح بمشروعية التشيخ وبنتائجه.

في نص آخر يصرح ابن تيمية بحقيقة لا تسعها أدمغة المقلدة، ولعل منهم من يؤولها لنا تأويلا إن استطاع. قال: «إن الأنبياء والأولياء لهم من علم الوحي والإلهام ما هو خارج عن قياسهم (أي الفلاسفة) الذي ذكروه، بله الفراسة أيضا وأمثالها».[3]

قرَنَ إذن الأنبياء والأولياء في تلقي علوم الوحي والإلهام. هل قال الغزالي وأكابر السادة الصوفية غير هذا؟

كان ابن تيمية رحمه الله ذا شخصية قوية عزيزة الجانب. قوته وعزة جانبه يرشَحان من مقالاته الجازمة الحاسمة في مؤلفاته. فمن لا يعطي الحقائق مكانتها النسبيّة يظن أن ما كتبه عالِمنا الواسعُ في زمان ما ومكان ما حقٌّ مطلقٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وذلك خطل وخبال.

(1) ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»، ص: 184.
(2) رسائل ابن تيمية، ج 1، ص: 52.
(3) الرد على المنطقيين، ص: 437.

كان خطاءً ككل بني آدم عرضة للخطإ مثلهم. وكان يكتب اليوم ما يجزم به اليوم، فيَفتح الله له غدا بما يناقض اقتناعه بالأمس. نرجع إن شاء الله في الفصل السادس من هذا الكتاب لمسألة نظر الأولياء في اللوح المحفوظ. ابن تيمية الشيخ يكتب في مرحلة ما من مراحل سلوكه أن ذلك ممتنع، ويشهد ابن القيم المريد أن شيخه صرح بأنه ينظر في اللوح المحفوظ. تناقض؟ لا! لكن سَيْر، واطلاع نسبي، وقصور بشري، ومِنن إلهية يختص الله بها من شاء من عباده متى شاء. وقد نعرض لبعض التناقضات الظاهرة في كلام ابن تيمية وتلميذه الوفي، لا لكي نحطم الشخصين العزيزين، لكن لنكسر صورة التشويه التي صنعها المقلدة.

كان خصوم ابن تيْمية يرمونه بتهمة أنه لم يتأدب على يد شيخ يهذب شخصيته. وكيف ينقاد شخص في مثل قوته وكرامته واندفاعه لأحد؟ قال التقي السبكي الوالد: «ثم جاء في أواخر المائة السابعة رجل له اطلاع، ولم يجد شيخا يهذبه، وهو على مذهبهم (يعني الحنابلة المُثْبتة يسميهم الخصوم مجسمة). وهو جَسور مُتجرد لتقرير مذهبه».[1] وقال: «وهو كان مكثرا من الحفظ، ولم يتهذب بشيخ، ولم يرتض في العلوم، بل يأخذها بذهنه، مع جسارة واتساع خيال وشغَب كثير (...). وكان الناس في حياته قد ابتلوا بالكلام معه للرد عليه».[2]

في نظر معاصري ابن تيمية يتقمّص ابن تيمية حجمه الطبيعي النسبي: «جاء في أواخر المائة السابعة رجل»، رجل «له اطلاع ولم يجد شيخا يهذبه». لَمّا ترفعه قداسة القِدَمِ وتقليد القاصرين إلى مراتب العلاء.

ومن معاصري شيخ الإسلام، من المحدثين الحنابلة الصوفيين، رجل من أكابر العلماء وأئمتهم لا ريب، أخذت منه شخصية الحافظ «الجسور» كل مأخذ، فاتخذه شيخا بكل ما في كلمة «شيخ» من فخامة وضخامة، وأحبه وأخلص له، ووَفّى، وخاض معه معارك، وبث في كتبه النفيسة ما أورثته صحبة شيخ الإسلام الكريم علينا من علوم ظاهرة، وأذواق باطنة لا تكون إلا عند خلّص الصوفية. ها هو يشيد بشيخه

(1) الرسائل السبكية، ص: 85.

(2) نفس المصدر، ص: 195.

إشادة لاَ يتأتى لها النثر. فقال شعرا في نونيته المشهورة التي سجَّلت معركة حَاميةً في تاريخ الخلاف. إنه ابن القيم شيخ الإسلام الجليل رحمه الله. قال:

(...) حتى أتاح لي الإله بفضله   من ليس تجزيه يدي ولساني
فتى أتى من أرض حران فيا   أهلا بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هو أهله   من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي وسار فلم يرم   حتى أراني مطلع الإيمان
ورأيت أعلام المدينة حولها   نزل الهدى وعساكر القرآن
ورأيت آثارا عظيما شأنها   محجوبة عن زمرة العميان
ووردت كأس الماء أبيض صافيا   حصباؤه كلآلئ التيجان
ورأيت أكوابا هناك كثيرة   مثل النجوم لوارد ظمآن

وقلت جعلني الله وإياك من عساكر القرآن المجاهدين تحت أعلام النبوة لإقامة الخلافة الثانية آمين:

نَزلَ الهُدى ببشائر القُرآن   للمُستجيب لدعوةِ الإحسانِ
أمر الوَرى بالعدل في أحكامهم   واستُنهضوا لِمآدب الرحمن
وَالعدْل في الأقسام نُطْعِمُ سَاغبًا   نُرْوي لُغُوبَ الواردِ الظَّمْآن

ابك على نفسك!

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾. اللهم عافني في جسدي، وعافني في بصري، واجعله الوارث مني. لا إله إلا أنت الحليم الكريم. سبحان الله رب العرش العظيم. والحمد لله رب العالمين.

لم يكن ابن القيم بدْعـاً من العلماء في صحبته لشيخ أخذ بيده حتى أراه مطالع الإيمان، وحتى رآى على يده آثاراً عظيمة «محجوبة عن زمرة العميان». وقد رأينا نماذج من سعي العلماء إلى المشايخ الربانيين يجثون أمامهم على الركب.

وما منهم إلا من أخبر عما آتاه الله من الفضل حين «ورد» الكأس الصافية. وقد تركوا لك شهادات مشفقة على شكل نداء لفطرتك يَسْتَنْهِضُونَكَ لتطلب كما طلبوا وترِد كما وردوا. فاجلس معي لأسمِّعك عسى أن تتيقَّظ همتك، وتَنْبعث، وتسير، وتصحب، وتذكر الله، وتحب الله ورسوله، وتبلغ مبالغ الرجال، فأكونَ السعيد بأن أجدك في صحيفتي ونلتقي هناك في رحمته، بمحض فضله وكرمه، إنه سبحانه الكريم.

قالَ لَكَ الشيخ الإمام القدوة مولانا عبد القادر الجيلاني قدس الله سره: «يا غلام! (...) دَأبُ الله عز وجل مع عباده المصطَفَيْنَ المـُجْتَبَيْنَ أن يقطعهم عن الكل، ويبْتليهم بأنواع البلايا والآفات والمحن، ويُضيق عليهم الدنيا والآخرة وما تحت العرش إلى الثرى. يُفْني بذلك وجودهم، حتى إذا أفْنى وجودهم أوْجدهم له لا لغيره، أقامهم معه لا مع غيره. يُنشئهم خلقا آخر كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.[1] الخلق الأول مشترك (مع سائر بني آدم)، وهذا

(1) المؤمنون، 14.

الخلق مفرد. يفرده عن إخوانه وأبناء جنسه من بني آدم. يغير معناه الأول ويُبَدِّله. يُصَيِّرُ عاليَه سافلَه. يَصِيرُ ربانيا روحانيا».[1]

وخاف عليك شيخ الإسلام ابن القيم أن لا تصدق التحويل الذي يحول الله أولياءه، فقال لك: «وما أظنك تصدق بهذا! وأنه يصير له وجود آخر. وتقول: خيال ووهم! فلا تعجل بإنكار ما لم تُحط بعلمه، فضلا عن ذوق حاله، وأعط القَوْسَ بارِيَها وخلِّ المطايا وحادِيَها».[2]

وقال لك الشيخ عبد القادر قدس الله سره: «ويحك! تدعي أنك منهم! ما علامتهم عندك؟ ما علامة قرب الحق عز وجل ولطفه؟ في أي منزلة أنت عند الحق عز وجل وفي أي مقام؟ ما اسمك وما لقبك في الملكوت الأعلى؟»[3].

وقال: «يا منافق! طهر الله عز وجل الأرض منكَ! ما يكفيك نفاقك حتى تغتاب العلماء والأولياء والصالحين بِأكْل لحومهم! أنت وإخوانك المنافقون مثلُك عن قريب تأكل الديدان ألسنتكم ولحومكم، وتقطعكم وتمزقكم. (...) لا فلاح لمن لا يُحسن الظن بعباد الله عز وجل وبعباده الصالحين ويتواضع لهم. لِمَ لا تتواضع لهم وهم الرؤساء والأمراء؟ من أنت بالإضافة إليهم؟ الحق عز وجل قد سلم الحل والربط إليهم. بهم تمطر السماء وتُنبت الأرض».[4]

وقال: «يا غلام! تفكر في أمرك! (...) ما أنت صادق ولا صِدّيق ولا مُحب ولا موافق ولا راض ولا عارف! قد ادعيت المعرفة بالله عز وجل: قل لي ما علامة معرفته؟ إيشْ ترى في قلبك من الحُكْم والأنوار؟ ما علامة أولياء الله عز وجل وأبدال أنبيائه؟».[5]

(1) الفتح الرباني، ص، 51.
(2) مدارج السالكين، ج 3، ص: 327.
(3) الفتح الرباني، ص: 58.
(4) نفس المصدر، ص: 68.
(5) نفس المصدر، ص: 113.

وقال: «هذا العبد الذي وصل إليه (...) يصير مِطْرَقـًا للخلق جَهْبَذاً (أي خبيرا كاشفا للعيوب المبطنة) سفيراً دالاًّ إلى باب الحق عز وجل. فحينئذ يدعى في الملكوت عظيما. (...) لا تَهْذِ! أنت تدعي ما ليس لك، وما ليس عندك! أنت نفسُك مُستولِيَةٌ عليك والخلق والدنيا كلها في قلبك! هما في قلبك أكبر من الله عز وجل. أنت خارج عن حدِّ القوم وعدِّهِم. إن أردت الوصول إلى ما أشرتُ إليه فاشتغل بطهارة قلبك (...)، واصبر مع القَدَر، وأخْرِج الدنيا من قلبك. وبعد هذا تعال إليَّ حتى أتكلم معك (...). وقبل هذا فالكلام هَذَيانٌ!»(1).

واقرأ أخي وأختي ولو مرة كتاب «الفتح الرباني» فكله رسالة واحدة، وصية واحدة، من هذا الرجل المبارك الذي أجمعت الأمة على توقيره. وإن كان في الكتاب أحاديث ضعيفة وواهية فإن شيخ المحدثين الإمام أحمد رحمه الله لا يرى بأسا في الاستشهاد بالضعيف في فضائل الأعمال.

وأوصاك الإمام الجليل القدوة الشيخ أحمد الرفاعي قدس الله سره فقال: «أي أخي! أين أنت؟ في أي واد؟ تهيم في وادي وهمك! تَسرح في ميادين قطيعتك! اللهَ اللهَ بك! أحْرِصُ عليك والله أن تنقطع! أخاف عليك أن تخذل! (...) يا أخي لا تَحْرِدْ (لا تهرب) مني إذا انقطعتَ وأنت تظن الوصل، ورأيت أنك عالم وأنت على طائفة من الجهل. فقد فاتك السَّوْمُ، وسبقك القوم، وعمك اللوم».(2)

وترك لك عندي نصيحة أخرى تقول: «أيْ محجوب! تزعم أنك اكتفيت عنا بعلمك! ما الفائدة من علم بلا عمل؟ ما الفائدة بعمل بلا إخلاص؟ الإخلاص على حافة طريق الخطر. من ينهض بك إلى العمل؟ من يداويك من سم الرياء؟ من يدلك على الطريق القويم بعد الإخلاص؟».(3)

ووصية أخرى تقول: «أي سادة! أحذركم الدنيا! أحذركم رؤية الأغيار! الأمر صعب، والناقد بصير. إياكم وهذه البطالات! إياكم وهذه الغفلات! إياكم والعوالم!

(1) الفتح الرباني، ص: 261.

(2) البرهان المؤيد، ص: 75.

(3) نفس المصدر، ص: 44.

إياكم والمحدثات! اطلبوا الكل بترك الكل. من ترك الكل نال الكل. ومن أراد الكل فاته الكل. كل ما أنتم عليه من الطلب لا يُصلحه إلا تركه والوقوف وراءه. وحِّدوا المطلوب تندَرِجْ تحت توحيدكم كل المطالب. من حصل له الله حصل له كل شيء، ومن فاته الله فاته كل شيء».[1]

إن كان ما قرأته من وصايا الرجال هيج شوقك، فاسمع قوارع الكلام يحاول به أهل الله وخاصته أن يَخِزُوا به همتك وأَنَفَتك وخزاتٍ مؤلمة عساك تنهض ولا ترضى بما دون اللحاق بهم ومنافستهم وسبقهم. ولم لا تطلب والله لا يزال وهَّاباً كريما!

رجل من بني آدم طلب فوجد، وسلك فوصل يخاطبك: «يا من باع كل شيء بلا شيء، واشترى لا شيء بكل شيء! قد اشتريت الدنيا بالآخرة، وبعت الآخرة بالدنيا! أنْتَ هَوَسٌ في هَوَس! عَدَم في عدم! جهل في جهل!»[2].

ويخاطبنا وقد هاج عليه إخلاصه قائلا: «إن أردت الفلاح فاصبرْ على مطارق كلامي. إني إذا أخذني جنوني لا أراك! إذا ثار طبع سري، طبع إخلاصي، لا أرى وجهك! وأريد الصلاح وإزالة الخبث عن قلبك، وأطفئ الحريق عن بيتك، وأصون حريمك. (...) أنت كسلان! أنت جويهل! أَلَيْكِع! عندك أنك أعْطِيتَ شيئا! كم سَمَّنَتْ الدنيا مثلك وأكلته؟ سمنته بالجاه والكثرة ثم أكلته. لو رأينا فيها خيرا ما سبقتنا! ﴿**أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الأمُورُ**﴾[3]».

ويخاطبنا معاشر الخربين من الباطن بحدَب الحريص الـمُشفق فيقول: «إذا صفا السر تَعدّى الصفاء إلى القلب والنفْس والجوارح والمأكول والملبوس، وتعدى إلى جميع أحوالك. أولُ ما يَعْمُر داخلُ الدار، فإذا كملت عمارتها خرج إلى عمارة الباب. لا كان ظاهر بلا باطن! لا كان الخلق بلا خالق! لا كان باب بلا دار! لا كان قُفل على خَرِبَة! يا دنيا بلا آخرة! يا خلقا بلا خالق! جميع ما أنت فيه لا ينفعك يوم القيامة».[4]

(1) البرهان المؤيد، ص: 39.

(2) الشيخ عبد القادر في «الفتح الرباني»، ص: 105.

(3) الشورى، 53.

(4) الفتح الرباني، ص: 111.

ويحثنا جَزاه الله خيرا على الإخلاص فيقول: «أنت صنم بلا روح! جِلْدٌ يابس بلا معنى ولا قوة! لا تصلح إلا للنار! عبادتك لا إخلاص فيها؟ فإذاً لا روح فيها! لا تصلح أنت وعبادتك إلا للنار! ما تحتاج تتعب إن لم تُخلص في الأعمال!».(1)

ويقول: «يا أحمق! أنت في قيام وقعود بلا إخلاص. تصلي للناس وتصوم وعيناك إلى أطباق الناس وإلى ما في بيوتهم. أيَا خارجاً عن الأنام! يا منفردا عن وصف الصديقين والربانيين!».(2)

ويقول: «يا غلام! أراك قليل المعرفة بالله عز وجل وبرسوله، قليل المعرفة بأوْلياء الله عز وجل وأبدال أنبيائه وخلفائه في خلقه! أنت خالٍ من معنى! أنت قفص بلا طائر! بيت فارغ خراب! شجرة قد يبست وتناثر ورقها»(3). أيقصد الشيخ الجليل تحقير أحد من المسلمين؟ حاشا معاذَ الله! إنما هو أسلوب لإيقاظ النائمين.

ما بال القوم يختارون لك من العبارات أنفذَها إلى القلوب؟ ما بالهم لا يملون إخبارك عن العبودية وصفاتها، والألوهية ومُصافاتها، وطريق الولاية وشروطها؟ إنهم لآخرتهم يحرثون. يا هذا! لا تظن أن بهم هما غير الله، والدلالة على الله، وتحبيب العباد إلى الله الذي يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح. فهم الحريصون على أن يلتقي قضاء الله لك أيها السعيد، وسابقته الأزلية لك بالحسنى، مع كلمة تسمعها منهم تكون سبب يقظتك وتشميرك فينالوا عن طريقك مثوبة من الله ورضوانا.

هذا واحد ممن أبلى البلاء الحسن في إيصال رسالة الربانية إليك، أسمعك عَذْبَ حديثه بعد أن سمعتك قوارع الجيلاني الكبير. هو ابن القيم الطيب الكريم. يبلّغك على يدي هذه المختارات من هداياه إليك، وارجع إلى كتبه لتقطف مزيدا من الأطايب.

قال رحمه الله، لا يعنيه أن تصدق أو لا تصدق بعد أن بلغ الجهد معك وبلغك: «فلو فُرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل، لم يكن لها نسبة إلى لذة

(1) الفتح الرباني، ص: 128.

(2) نفس المصدر، ص: 275.

(3) نفس المصدر، ص: 79.

جمعية قلبه على الله، وفرحه به، وأنسه بقربه، وشوقه إلى لقائه. وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه. فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك».[1]

وقال لك رحمه الله عزاءً في ضَيْعتك: «ومن لم يعلم معنى وجوده لله عز وجل والفوز به، فليَحْثُ على رأسه الرماد، وليبك على نفسه!».[2]

وقال يهيب بالقاعدين مثلنا السالكين في ديار الشهوات والغفلات إلى السفر إلى المولى الكريم: «من لم يسافر ولم يخرج عن وطن طبعه ومرباه، وما أَلِف عليه أصحابَه وأهلَ زمانه، فَهو بمعزل عن هذا. فإن عرف قدرَه، وكفى الناسَ شره، فهذا يُرجى له السلامة. وإن عدا طَوْرَه، وأنكر ما لم يعرفه، وكذب بما لم يحط به علما، ثم تجاوز إلى تكفير من خالفه، ولم يقلد شيوخه، ويرضى بما رضي هو به لنفسه، فذلك الظالم الجاهل، الذي ما ضر إلا نفسه، ولا أضاع إلا حظه».[3]

إن كنت أخي وأختي ممن يستبعد أن يصرف العقلاء وقتهم وجهدهم في العبث والفراغ، فاصبر معي في الفصول المقبلة حتى أصف لك أحوال الأولياء، وأصف لك طريق الولاية. وإن كنت من الصنف الآخر الذي قرأت عنه في هذه الصفحة، وكان رِضَى رُفقتك وأهلِ زمانك أحبَّ إليك من رضى الله تطلبه مع الطالبين، وكان الإنكار والتنكر أوفق لطبَعك من التصديق، وكانت النفرة من كلمة النصيحة ألصق بنفسك وأشهى إليها من الانقياد، فاطو هذا الكتاب وانفض يدك وقل: كلام فارغ! كما قال غيرك، وهذا فراق بيني وبينك.

واعلم من هنا أن ألف كتاب تحفظه لا يتقدم بك شعرة في الطريق إلى الله إن لم تنبثق فيك إرادة ويقظة وهمة وطلب ولم تجد من يسدد خطاك من رجال عصرك. وتكفي كلمة صادق في لحظة صفاء في لقاء شفوي أو مقروء يباركه الله تعالى ليُورَى زَنْدُكَ، وتظلم الدنيا في عينك، لا يقِرُّ لك قرار حتى تضع قدم قلبك في مدارج العقبة لتقتحمها، ولتكون من أهل المناجاة والنجوى، والقرب مع ذوي القربى. كان الله معك!

---

(1) مدارج السالكين، ج 3، ص: 163.

(2) نفس المصدر، ج 2، ص: 452.

(3) نفس المصدر، ج 1، ص: 159.

قال لك وامق محب على لسان حضرة القرب:

لا يُبعدَنَّك عَتْبُنا عن بابنا فالعهد باقٍ والوِدادُ مُصانُ
فبجاهنا وبحُسْننَا وبلطْفنا شاع الحديث وسارت الركبان
وإذا ذَلَلْتَ لعِزِّنَا ذلت لعزتك الملوك وهابك السلطان
يا أيهَا العشاق دونكم السباق فهذه الشقراء والميدان

وقال محب لك في الله يبشرك بالعقبى إن قدرت على الثمن:

يا طالبًا للمعالي مهر المعالي غَالي
قدِّمْ فأول نقد مُعَجّلُ الآجال
ما استعذبَ الموت إلا من ذاق ذَوْقَ الرجال
حَمَاه دون وصال حَمَاه حَدُّ النصال
كذا القصور العوالي حُفَّتْ بسُمْرِ العوالي
والشهْدُ دون جنَاه لَذْعٌ كحَرِّ النبَال

وقلت وأنا الحريص عليك الشفيق:

يَا طالبا للمعالي تبغي لَحَاق الرِّجال
شمِّر بعزمٍ لترقى لِشاهقات العوالي
وغالبِ الجُبنَ واهجُم بمَاضِيات النِّصال

الفصل الثالث

الصحبة والجماعة

- حب الله قطب رحى الدين
- محبة رسول الله هي العروة الوثقى
- الحب في الله والبغض في الله
- سنة الله في التابع والمتبوع
- شفاء السائل
- الشيخ كإمام للصلاة
- من أصحب يا رب ؟
- ولادة القلب
- المحبة والأدب عماد الطريق وسمة الطائفة
- قضية الشيخ والبيعة
- شعب الإيمان

حبُّ الله قُطبُ رحى الدّين

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾.رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكُر لِي ولا تمكُر علي، واهدني ويسر هُدَايَ، وانصرني على من بغى عليَّ، رب اجعلني لك شاكرا، لك ذاكرا، لك راهبا، لك مِطْواعاً، إليك مُجيبا مُنيبا تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثَبِّتْ حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسللْ سخيمة قلبي.

الطريق الصادقة الصاعدة التي إن استقام عليها العبد في إرادته وجه الله، لا تصْرِفُ إرادة الدنيا وجهَه، طريق تقرب إلى الله عز وجل وتوصل إليه. إنها طريق الولاية والسبق لدرجات القرب من الله عز وجل. وتتحقق الولاية للعبد، ويُحْرِزُ على السبق والقُربى حين تكلل جهوده في طاعة مولاه وحبه والوفاء له والسير إليه بحب المولى عبده ذلك الحب الخاص الذي تَشرئب إليه أعناق الرجال. روى الإمام البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذَنته بالحرب. وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعِلُه تردُّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مَساءَتَه».

هذا الحديث القدسي العظيم سندٌ قَوي لزيادة بيان ما أثبته القرآن وأثبتته السنة من أن الله جلت عظمته يحب من عباده خاصَّةً يُفْرِدُهم عن الناس هم أولياء الله. وحول

هذا الحديث نَشِبَتْ بين طوائف العلماء خلافات وتأويلات. أفرده بعضهم بالتأليف لمزيد العناية به، كما فعل الشوكاني رحمه الله في كتاب «قطر الولي في حديث الولي»، وأنكره بعضهم مع ثبوته في أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى لَمّا ضاقت حُوَيْصِلَتُه عن قبول المعاني الجليلة التي يتضمّنها، كما فعل الذهبي حين زعم أنه: «حديث غريب جدا، ولولا هيبة الجامع الصحيح لعددته من منكرات خالد بن مخلد».[1] وخالد بن مخلد راو من رجال إسناد الحديث، تجاوز القنطرة بتَزكية البخاري له، ويريد الذهبي غفر الله له أن يرده على أعقابه.

حديث جليل عظيم تفسر بعض معانيه فصول هذا الكتاب. نقف هنا على كون حب الله عبدَه ذلك الحب الخاص هو مطلب كل متقرب إلى الله، محب لله، مطيع لله، طامع في الله، مريد لله، فائز بالله.

وحب الله الخالق المنعم مغروزٌ في الفِطَرِ الكريمةِ الـمَعْدِنِ، تَطْمِرُه الطّوامر وتُبرزه من مكامنه صحبة من «ينهض بك حاله، ويدلك على الله مقاله». لا ينكر حب العبد لربه واستجابة المولى الودود بحبٍّ أكبر إلا جاحد مُعاند، أو مُعطل فاسد. «فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال. وكل ما في غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى. فهو المستحق لأن يُحب على الحقيقة والكمال. وإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلها معبودا. كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته، وهو يستلزم إنكار كونه ربا خالقا. فصار إنكارها مستلزما لإنكار كونه رب العالمين، ولكونه إله العالمين. وهذا هو قول أهل التَّعطيل والجمود».

قال هذا شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أورد حديث الولاية في بداية كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، ولم يتوقف فيه كما توقف الذهبي، بل بنى عليه واهْتَبَل به. والعجب لرجل من أهل الحديث مذهبُه إثبات الصفات وإمضاؤها كما جاءت، يتحول مُعطلا لِمَا يسمع من جلال ولاية الله لعبده المحبوب حتى لَيَكون سمعَه وبصرَه ويدَه ورجلَه! عجب! ثم عجب! ثم عجب لمن يحارب المؤوِّلين في

(1) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ج 1، ص: 641.

الصفات عُمْرَه، ويذهب هو يؤول ويعطِّل في مثل هذا الخبر العظيم الذي بلَّغه من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. والحمد لله أن هنالك هيبة الجامع الصحيح تحول دون المحرفين ودون طمس معالم الطريق.

حب العبد ربَّه وحب الرب عبدَه هو قطب رحى الدين. وكلما كان العبد أشد إيمانا كان أشد حبا لله. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾.[1] هذه المحبة بين العبد وربه، منك إليه ومنه إليك، هي: «عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها (...). ولهذا كانت أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداءه، وأهل غضبه ونقمته فهذه المسألة هي قطب رحى الدين الذي عليه مدارُه. وإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق. وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله وأحواله وأقواله. ولا حول ولا قوة إلا بالله».[2]

والمؤمنون في حبهم لله مراتب، فالعامة يحبونه لما يغذوهم به من نعم ومِنَن، وخاصة أهل الله يحبونه عبودية وإخلاصا وشوقا. وكل هذه العواطف فروع لشجرة المحبة المغروزة في الفطرة الإنسانية، تبْرز من داني الفطرة وقاصيها إلى الوجود، فيقذف الله بها، وهي حق، على كل باطل مشكِّك مُعطِّل، فيدمغه فإذا هو زاهق. «أما بعد، فإن الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده في قلوب من اختارهم لربوبيته، واختصّهم بنعمته، وفضّلهم على سائر خليقته. فهي شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»[3] ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم.

رابطة الحب بين العبد وربه مغناطيس يجذب، ويُقَرِّب، ويُبَلِّغ المقامات العليا. قال سلطان العلماء: «إن المحبوب أبدا يسلُب بلطافةِ خاصِّيةِ محبته، ويجذب أجزاءها إليه بقوة سلطانه عليه. كما أن المغناطيس تعلقت به أجزاءُ الحديد، وانجذب

(1) البقرة، 165.

(2) ابن القيم في «طريق الهجرتين»، ص: 415.

(3) ابن القيم في «طريق الهجرتين»، ص: 4.

إليه بذاته، فهو يدور معه حيث دار، وينجذب إليه حيثما سار. فمِن أوصاف الحب الميلُ الدَّائم، بالقلب الهائم، ومخالفة اللائم. إن من أراد كشف هذا السر الخفيّ، والكشف الجليّ، فليتدبر قوله عليه السلام مخبرا عن ربه عز وجل: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وفؤادا».

قال رحمه الله: «فهمنا من ذلك أن علاقة وصلة المحبة لما اتصلت بها لطافة وصْلة المحبوبية، واستمسك بعروة حتى أحبه، قَوي سلطان المحبوبية على سلطان المحبة فأفناه عن ذاته، ونَفاه عن صفاته، ثم أقام ببقائه عن فنائه، وخيم بصفاته عن فنائه. تبدلت الصفات بالصفات، وقام الوجود بالوجود، فجاءت خِلَعُ الجود على يد: «فَبي يسمع وبي يبصر»».(1)

نؤجل الحديث عن علوم الأولياء وأذواقهم ومعارفهم مثل الفناء والبقاء والوجود بالوجود إلى سائر ما يعبر به كل معبر. ما يبلغ متكلم بلاغة المصطفى ﷺ وأمانته ودقته وصدقه. غاية اسْتِفادتنا من كلامهم رضي الله عنهم أن نستمع عسى تَبلُغُ نبرة من نبرات صدقهم مَغَابِنَ فطرتنا. قال الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله: «أيْ بُنَيَّ! اعلم أن حبيب القلوب سبحانه إذا أحب عبدا أطْلع سره على جلال قدرته، وحرك قلبه بمراوح ذكر مِنّته، وسقاه شَربةً من كأس محبته، حتى يُسكره به عن غيره. وجعله من أهل أنسه وقربه وصحبته، حتى لا يصبر عن ذكر ربه. ولا يختار أحدا عليه، ولا يُشغل بشيء دون أمره»(2).

سُقي القوم من قبلنا رضي الله عنهم شراب المحبة بكاسات دهاقٍ في خلوات المجاهدة والرياضة والتفرغ الدائم لذكر الله. ومطلب المجاهدين المشتاقين إلى ربهم في مستقبل القومة لله، والتحزب لله، وإقامة الخلافة على منهاج رسول الله، ينبغي أن يكون عند مقام من وصفهم الله عز وجل في كتابه العزيز حيث قال: ﴿سَوْفَ

(1) بين الشريعة والحقيقة، ص: 14.

(2) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص: 226.

يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

هنيئا لأحباب الله أولياء الله رحيقَ المحبة سُقوه قرونـاً طويلة في ظلال الخلوات، وأهنأُ منه ما سُقِيَه الصحابة تحت ظلال السيوف، وما يوعد به «الإخوان» بعد الصحابة تحت ظلال البنادق وأزيز الصواريخ وعجيج دواليب الدولة الإسلامية، تعْمر الأرض، وتنشر لواء العزة بالله، وتبلغ للعالمين رسالة الله.

ادعاء حب الله دون إعطاء براهين الصدق العمليَّة كذب وأمانٍ وأحلام. لستَ هناك حتى يَنقلعَ من قلبك حبٌّ ما سوى الله من دنيا مُؤَثَرة وهوى مُتبع وأنانية طاغية! لستَ هناك حتى يرى اللهُ ورسولُه والمؤمنون عملَك عند الأمر والنهي! قال الغزالي: «لا ينبغي أن يَغْتَرّ الإنسان بتلبيس الشيطان وخِدَعِ النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات، وما لم يُطالبها بالبراهين والأدلة. والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، وثمارُها تظهر في القلب واللسان والجوارح».

وذكر رحمه الله سبعة أدلة على ثبوت محبة الله في قلب العبد، منها «حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة»، و«أن يكون مُؤْثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه»، و«أن يكون مستهترا بذكر الله». و«أن يكون أنسُه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه»، و«أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل»، و«أن يتنعم بالطاعة، ولا يستثقلها»، و«أن يكون مُشْفِقاً على جميع عباد الله، رحيما بهم، شديدا على جميع أعداء الله».[2]

من الناس من يَزعم أن السلوك إلى الله عن طريق الحب أمر إرادي يتحقق بدون اعتبار الأمر والنهي الوارد بهما الشرع. ويتحدثون عن المحبة والدنو والقرب والعشق والهُيام وسائر هذه المصطلحات، ثم تجدهم عند الأمر والنهي مُتلَكّئين مُتهاوِنين. هؤلاء عابثون مستهزئون، «لم يحققوا شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا

(1) المائدة، 54.

(2) الإحياء، ج 4، ص: 282.

رسول الله. فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله وأن يحبَّ ما يحبه الله، ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه. وأنك لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تسأل إلا الله وهذا ملة إبراهيم. وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين».[1]

محبة الله عز وجل الصادقة بِبَراهينِها، المُوَفِّية لشروطها من جانب العبد، الفائضة من العزيز الحميد نُزُلا مُباركـًا، جنة في الدنيا معجَّلة لأحباب الله. قال ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»[2].

وقال المحب:

إن المحب نهارُه مستوحش ... بين العباد يسير كالمتفرِّد
فالعين منه قريرة بحبيبه ... يرجو لقاء الواحد المتوحِّد
يا حُسْنَ موكبهم إذا ما أقبلوا ... نحو الإله مع النبي محمد!

وقال آخر:

أموت وما ماتت إليك صبابتي ... لا قُضيَت من صدق حبك أوْطاري
مُناي، المنى كل المنى، أنت لي مُنىً ... وأنت الغنى، كل الغنى، عند إِقتاري
وأنت مَدى سُؤْلي وغاية رغبتي ... موضع آمالي ومكنون إضْماري
تَحمَّلَ قلبي فيك ما لا أُبْثه ... إن طال سُقْمي فيك أو طال إضراري
وبين ضلوعي منك ما لَكَ قَدْ بدا ... ولم يَبْدُ باديه لأهل ولا جَار
وبي منك في الأحشاء داء مُخامرٌ ... فقد هَدَّ مني الركنَ وانبث إسراري
ألستَ دليل الركب إن هم تحيرَوا؟ ... ومنْقذَ من أشفى على جُرُفٍ هار؟
أنَرْتَ الهدى للمهتدين ولم يكن ... من النور في أيديهم عُشْرُ معشار

(1) ابن تيمية في الفتاوي، ج 8، ص: 337.

(2) الوابل الصيب، ص: 44.

فَنِلْـني بعفــو مــنك أحْيــى بقــربه أغثني بيُسْـر مـنك يطـرد إعساري

وقال المحب الذاكر ذو البصيرة:

ذكــرك لــي مؤنــس يعارضــني يُوعــدني عنـك منـك بالظَّفَــر
فكيـف أنسـاك يـا مَـدَى هِمَمـي وأنــت مــني بموضـع النظــر؟

وقال الإمام الشافعي رحمه الله يخاطب الدعِيَّ الكاذب:

تعصـي الإلـه وأنـت تظهـر حبـه هـذا محـال في القيـاس بديـع
لـو كـان حبـك صـادقا لأطعتـه إن المحـب لمـن يحـب مطيـع
في كـل يـوم يبتديـك بنعمـة منـه وأنـت لشكـر ذاك مضيـع

وقلت وأنا العبد العاصي عفا الله عني:

تعصيه ويْحك زاعما بوقاحة حبَّ المهيمن إن ذا لفظيــعُ
أبدعت في شرع الوداد وخنْتَه إن الـمُحبَّ لمن يُحب مُطيــعُ
ما أنت مِن رِقّ الهوى مُتحرِّرٌ ولأنت في وَحَل الفُتون صـريــعُ

محبة رسول الله هي العروة الوثقى

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾. اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

صلى الله على من قرنَ محبته واستحقاق المزيد من المحبة والمغفرة باتباعه حيث قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[1]. اللهم صل وسلم تسليما كثيرا على محمد وآله وصحبه الذي جعلت طاعته من طاعتك، ومعصيته والتولي عنه كفرا، وبيعته من بيعتك، ومحبته من محبتك، عبدك ونبيك ورسولك ومصطفاك من خلقك، العروة الوثقى وثوق كتابك الذي أنزلت، الحبل الممدود بينك وبين أحبابك وأصفيائك وأوليائك، سندا متصلا. قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي». ورواه أيضا الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

لا فاصل بين حب الله وحب رسول الله وحب أهل بيت رسول الله، وإن تنوعت النعمة. وأعظم نعم الله علينا الرحمة المهداة ﷺ. اللهم لك الحمد على ما تغذونا به من نعمك، ولك الحمد على نعمتك العظمى محمد حبيبك.

ولا حدود للتفاني في محبة الشخص الكريم على الله حتى يكون أحب إلينا من الناس أجمعين ومن أنفسنا. روى البخاري رحمه الله عن عبد الله بن هشام رضي الله

(1) آل عمران، 31-32.

عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب. فقال له عمر: يا رسول الله! لأنت أحبُّ إلي من كل شيء إلا نفسي! فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسك!» فقال عمر: فإنه الآن والله لأنْتَ أحبُّ إلي من نفسي! فقال له النبي ﷺ: «الآن يا عمر!»».

مَلَكَ والله ناصيةَ التوفيق من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وذاق حلاوة الإيمان، وأشرف على مشارف الإحسان، ودحض مزاعم الشيطان الذي يزعم أن التفاني في حب الذات المحمدية غلو. يا شيطان، هذه أنوار حبه الشريف المنيف فهل من محيص!

كان عند الصحابة رضي الله عنهم من المحبة لرسول الله ﷺ ما بلغ بهم أن يفتدوه بالمهج، ومن التعظيم والهيبة لذلك الجناب ما يُخرس الألسن ويغض الأبصار ويُطوِّق الأنفس بِحَرَس من جلاله ﷺ وجماله. إنه رسول الله! وكفى.

وكان عند التابعين والسلف الصالحين من محبته وتعظيمه مثلُ ما كان عند الصحابة. ذكر القاضي عياض رحمه الله في «الشفاء» أن مَالكـاً رحمه الله سئل عن أيوب السختياني فقال: «ما حدثتكم عن أحدٍ إلا وأيوب أفضل منه. قال: وحج حجتين، فكنت أرمُقه فلا أسمع منه غير أنه إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه.

قال عياض: «وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعُب ذلك على جلسائه. فقيل له يوما في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم عليَّ ما ترون: لقد كنت أرى محمد بن المنكدر، وكان سيد القراء، لا نكاد نَسأله عن حديث أبدا إلا بكى حتى نرحمه. ولقد كنت أرى جعفر بن محمد (وهو الإمام جعفر الصادق من آل البيت)، وكان كثير الدُّعَابَة والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهَارة. ولقد اختلفتُ إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إمّا مصليا، وإما صامتا، وإما يقرأ القرآن. ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعُباد الذين يخشون الله».

قال مالك: «ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فيُنظَر إلى لونه كأنه نَزَفَ منه الدم، وقد جفَّ لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ. ولقد كنت آتي عامر بن

عبد الله بن الزبير، فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع. ولقد رأيت الزُّهري، وكان لَمِنْ أَهْنَإِ الناس وأقربِهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفَك ولا عرفته. ولقد كنت آتي صفوان بن سُلَيم، وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه».

هذه بعض الصور لأهل الإيمان الأولين. ومن أصدق المعايير على تردّي إيماننا ذبول زهرة الحب الإلهي النبوي في قلوبنا. حالت أكداس الكتب والتفاريع بيننا وبين المعين الفياض، حالت بيننا وبين الوراثة القلبية لأولئك الرجال انقطاعات الفتنة. واحتفظ الصوفية رضي الله عنهم بالتعلق الشديد بجناب النبوة. قال الناطق بلسان الصفوة المحبين شيخ الإسلام ابن القيم نضر الله وجهه: «فهذا العلم (يعني علم القلوب، علم الأولياء) الصافي المتلقّى من مشكاة الوحي والنبوة يُهذب صاحبَه لسلوك طريق العبودية. وحقيقتها التأدب بآداب رسول الله ﷺ باطنا وظاهرا، وتحكيمُه باطنا وظاهرا، والوقوفُ معه حيث وقف بك، والمسيرُ معه حيث سار بك، بحيث تجعله بمنزلة شيخك الذي قد ألقيت إليه أمرك كلَّه سرَّه وظاهره (...) وتعلق قلبك بقلبه الكريم، وروحانيتك بروحانيته، كما يُعَلِّق المريد روحانيته بروحانية شيخه».(1)

لكن أنى لك بذلك التعلق بالقلب الأسمى والجناب الأحمى ونفسك في الحضيض، عديمُ الإرادة، ساقط الهمة! عليك بمحبة العوام واسأل ربك أن يقيض لك روحانية عارف تطير بك همتها بأجنحة المحبة إلى رحاب الوحي والنبوة.

إن تَوَلِّي رسول الله ﷺ، والصلاة عليه الدائمة، وحب آل البيت المطهرين، وتولي صحابته، لَمِمَّا يقرب المسافات للمريد الطالب. واختلف العلماء فيمن هم أهل بيته الذين جاءت في محبتهم وموالاتهم أحاديث صحيحة تذكرنا الله وتناشدنا الله فيهم وفي القرآن. فمن قائل إنهم الآل الذين تحرم عليهم الصدقة من بني هاشم. ومن قائل إنهم ذريته وأزواجه. ومن قائل إنهم أمته عامة. ومن قائل إنهم أتقياء أمته خاصة. وحديث الترمذي يخصص عليا وفاطمة والسبطين الكريمين الحسن والحسين.

(1) مدارج السالكين، ج 3، ص: 143.

وعند مسلم أن زيد بن أرقم رضي الله عنه عرَّف أهل البيت بأنهم: «من حُرِم الصدقة بعده، وهم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس».

والموفّق من يوالي الله ورسوله والأهل الخاصين والعامين، محبة متصلة ممتدة تربطه برباط المودة والرحمة بمن أحبهم الله وأمر بمحبتهم.

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فردا متفردا في التوقف في قضية التوسل والتبرك. كان همه أن يُنزِّه جناب الألوهية عن الشرك، وأن يبرز مكانة الوحي والنبوة ويرفعها عن تقديس المشايخ. هو عندنا من عدول الأمة الذين حاولوا مجتهدين في طاعة الله أن يدفعوا عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. لكنه قال في التوسل والزيارة للقبر الكريم مقالا شَاذّاً رده عليه جمهور العلماء. ما أحسن عفا الله عنه الحفاظَ على حبل المحبة الواصل بين الله والناس عبر الشخص الكريم ﷺ.

إنه يتحدث عن الرسول ﷺ كما يتحدث عن الأموات. ورسول الله ﷺ حي تعرض عليه أعمالنا ويدعو لنا. فارقنا جسدُه الشريف، فهو في القبر ثاوٍ لا يعتدى عليه التراب، والروح رَفرافة حاضرة يملأ نورها الخافقين. روى ابن خزيمة وصححه وابن حبان في صحيحه والحاكم وغيرهم حديث حياة النبي ﷺ. ورواية ابن ماجه لهذا الحديث عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود، تشهده الملائكة، وإن أحدا لا يصلي علي إلا عُرِضَتْ علي صلاته حتى يفرُغ منها». قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: «وبعد الموت، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء». وأخرج البزار بسند صحيح عن ابن مسعود أنه ﷺ قال: «حياتي خير لكم تُحدثون ويَحْدُث لكم. ووفاتي خير لكم، تُعرض علي أعمالكم فما رأيتُ من خير حمدت الله، وما رأيتُ من شر استغفرت الله لكم».

كرِهَ الإمام مالك رحمه الله أن يقال: «زرت قبر النبي ﷺ»، لأن كلمة قبر تتنافى مع إجلال من هو عند الله أجل وأعظم قدرا من الشهداء الأحياء عند ربهم يرزقون فرحين، يكفر من رد إخبارَ الله عنهم بذلك وقال إنهم أموات.

قال الحافظ: «أَلْزموا ابن تيمية بتحريم شد الرحال إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله ﷺ وأنكَرْنا صورة ذلك. وفي شرح ذلك من الطرفين طولٌ. وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية (...). الزيارة من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال. وإن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع والله الهادي إلى الصواب».[1]

وأجمع الفقهاء المالكية وكثير من علماء المذاهب على استحباب التوسل بالمصطفى سيدنا محمد ﷺ. وأنكر ذلك وينكره التيميون غفر الله لهم. بل ينكرون على من يذكر لفظ السيادة تمشيا مع مسألة بَشعة شذّ فيها رجل شذوذاً لم يسبقه إليه أحد كما قال الإمام التقي السبكي.

وقد جاء في مسألة التوسل حديث الضرير الذي رواه الترمذي وابن ماجه والنسائي رحمهم الله في عمل اليوم والليلة وغيرهم بسند صحيح أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني فقال: «إن شئت دعوتُ وإن شئت صبرتَ فهو خير لك». قال: فادعُهْ! قال: فأمره أن يتوضأ فيُحسن الوضوء ويدعوَ بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة. يا محمد! إني أتوجه بك إلى ربي فِي حاجتي هذه لتُقضى. اللهم فشفعه في».

المعركة طويلة، وهناك ذرائع يجب أن تسد لكيلا تُعبَد القبور. والأرواح النائرة تهفو لجناب الروضة الشريفة ولَوْ رَغِمَ أَنْفُ الشاذّين. قال التلميذ الوفيُّ لابن تيمية المتشدد، تسمع آهات الأسى من بين الكلمات: «وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم، وأحبُّ إليهم منها، يجدون نفوسهم أقرب إليه وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة. والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومَنْ حولها».[2]

ويقول مستهام آخر: «وأرواح الكُمل إذا فارقت أجسادَها صارت كالموج المكفوف (...). ولكن النفوس التي هي دونها تلتصق بها بالهمة فتجلب منها نورا

(1) فتح الباري، ج 3، ص: 66.

(2) ابن القيم في «مدارج السالكين»، ج 2ـ ص: 266.

وهيأةً مناسبة للأرواح. وهي المكنى عنه بقوله عليه السلام: «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام». وقد شاهدتُ ذلك ما لا أحصي في مجاورتي المدينة سنة ألف ومائة وأربع وأربعين».[1]

ولله دَر الدكتور سعيد رمضان البوطي الذي جاء المسألة من باب رفيع. ذكر السببية التي جعلها الله في الكون، وذكر أن الله أرسل رسوله ﷺ رحمة للعالمين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]. ثم قال: «وإذا كان (أي قانون السببية) بالنسبة للدواء والطبيب والأمطار، لا ضير فيه ولا حرج، فلأنْ يكون أيُّ ضير في ذلك بالنسبة للأنبياء كالتوسل والتبرك بهم أولى وأجدر (...). وقد امتلأ الصحابة كلهم شعورا بهذا المعنى، فلم يألوا جهدا في التوسل والتبرك بآثاره وفَضلاته (...). وقد ثبت ذلك بأحاديث ثابتة صحيحة لا يرقى إليها الظن أو الوهم (...). إن رسول الله ﷺ لا تأثير له في شيء ما، لا في حياته ولا بعد موته. ومن اعتقد خلاف ذلك فهو كافر بالله ورسوله. أما مناطُ التوسّل والتبرك به فهو مُجرد تكريم من الله عز وجل له، وجَعْلُه وسيلةَ رحمةٍ للعباد. وهذا التكريم والتشريف لا ينفك شيء منه عن النبي ﷺ بوفاته. بل إنه ليزداد -كما نعلم- علوا وشرفا».[3]

قال الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله في كتاب «الغنية»: «فإذا من الله تعالى بالعافية (على الحاج) وقدِمَ المدينة، فالمستحب له أن يأتي مسجد النبي ﷺ فليقلْ: (...) اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ الله وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ الله تَوَّاباً رَّحِيماً﴾.[4] وإني أتيت نبيك تائبا من ذنوبي مستغفرا. فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حال حياته، فأقرَّ عنده بذنوبه، فدَعَا له نبيُّه، فغفرت له. اللهم إني أتوجه إليك بنبيك عليه سلامك نبيِّ الرحمة. يا رسول الله! إني أتوجه بك إلى ربي ليغفر لي ذنوبي».[5]

(1) ولي الله الدهلوي في «حجة الله البالغة»، ج 2، ص: 77.

(2) الأنبياء، 107.

(3) كبرى اليقينيات الكونية، ص: 239.

(4) النساء، 64.

(5) أنقل هذا النص عن الشيخ النبهاني في كتاب «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق»، ص: 75.

في أية خانة يضع الشاذون كلام الشيخ عبد القادر قدس الله سره، أهي استغاثة وتوسل بدْعِيَّان؟ كلا والله بل هي السنة الخالصة.

والإمام النووي رضي الله عنه قمة شامخة في الحديث والمعرفة بالله يوصي في الباب السادس من كتابه «إيضاح المناسك» بزيارة قبر سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ بآداب بالغة في احترام الحضرة الشريفة وبمخاطبات وتسليمات عليه وعلى صاحبيه وضجيعيه لا تليق بمن يزور قبرا جامدا وأمواتا فائتين، بل هي مخاطبات لأفضل الأحياء من وراء حجاب الموت والنقلة عن هذه الدار الفانية.

قضية الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله في زيارته لقبر جده ﷺ معروفة لا حاجة للتطويل فيها. وقد ألف السيوطي رحمه الله كتاب «الشرف المحتم» ليشرح للمعارضين معنى نوبة الأشباح والأرواح، وقال: «أول ما أقول إن حياة النبي ﷺ هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا قطعا لما قام عندنا من الأدلة بذلك. وقام بذلك البرهان وصحت الروايات وتواترت الأخبار».

ولأئمة المسلمين العظام هُيام لا ينتهي بالجناب الشريف وبالذرية والآل. غلا في تلك المحبة قوم لم تتسع صدورهم لحب الصحب الكرام بعد الفتنة الكبرى، فرفضوا الخلفاء الراشدين، يا لخَيبتهم وحِرمانهم ! وحفظ الأئمة العظام الميزان.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

آل النبي ذريعتي ... وهم إليه وسيلتي
أرْجو بهم أُعْطَى غدا ... بيدي اليمين صحيفتي

وقال:

إذا في مجلس نذكُرْ عليّاً ... وسبطيه وفاطمة الزكيه
يقال: تجاوزوا يا قوم هذا ... فهذا من حديث الرافضيه
بَرِئْتُ إلى المهيمن من أناس ... يرون الرفض حب الفاطميّه

وقال:

إذا نحن فضّلنا عليا فإننا　　روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضل أبى بكر إذا ما ذكرته　　رُميت بنَصب عند ذكريَ للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصبٍ كلاهما　　بحبِّيهما حتّى أُوَسَّدَ في الرمل

وقال:

يا آل بيت رسول الله حبكم　　فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم　　من لم يصل عليكم لا صلاة له

وقلت:

آل النبي بحبكم　　قد طاب عَرْفُ سريرتي
أنتم سُلالة أحمد　　هادي الأنام ذخيرتي
أرجو شفاعته غداً　　لكبيرتي وصغيرتي

الحب في الله والبغض في الله

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾. اللهم اغفر لنا ذنوبنا وظلمنا وهزلنا وجدنا وعمدنا، كل ذلك عندنا.

الحُبُّ لله والحب في الله، رزق يرْزقه الله من يشاء، لا يفيد في ذلك تفعل العبد إلا أن يدعوَ ربه. عن عبد الله بن يزيد الخطيمي الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحبُّ فاجعله قوة لي فيما تحب. وما زَوَيْتَ عني مما أحِبُّ فاجعله فراغا لي فيما تُحب». رواه الترمذي رحمه الله وحسنه.

وأعظم الرزق بعد حب الله حب رسول الله ﷺ. حبه الشريف مقام يرفع الله إليه العبد المختار. وهو حب عميق في قلوب الرجال يستفيض منه العامة هذه المحبة للجناب النبوي التي يعبرون عنها بالمحافل والمواليد، وهي مناسبات خير لا شك ما تُجُنِّبَتِ البدع.

حبه الشريف ﷺ علامة على صدق المريد وجه الله في طلبه، وعَلَمٌ من أعلام النصر على طريق السلوك إلى الله. قال ابن القيم رحمه الله: «فإذا صدق في ذلك (أي في جمع إرادته على الله) رُزِق محبة رسول الله ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وشيخه وقُدوته، كما جعله الله نبيَّه ورسوله وهاديا إليه. فيطالع سيرته ومبَادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاتِه وأخلاقَه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه، من بعض

أصحابه.»[1] قلت: والشغف بسيرة الحبيب ﷺ وبتفاصيل حياته لازمة من لوازم اتباعه في جليل الأمر وهينه، أصدق علامات أهل الله شغفهم بتقليد المحبوب في سنته الكاملة.

ألقى الله عز وجل في قلوب العارفين والمؤمنين حبه كما يلقي على أحبابه، خصه من ذلك بالنصيب الأوفر. زاده الله تعظيما وشرفا. قال الله لموسى عليه السلام يَمُن عليه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.[2] ويُلقي الله من هذه المحبة على من يشاء من عباده ممن هم دون مقام النبوة. روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة (واللفظ هنا لمسلم فروايته أكمل) أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه. قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القَبول في الأرض. وإذا أبْغض عبدا دعا جبريل عليه السلام، فيقول: إنِّي أبغض فلانا فأبغضه. قال: فيُبغضه جبريل. ثم ينادي في أهل السماء إن الله يُبغض فلانا فأبغضوه. ثم توضع له البغضاء في الأرض».

يا غافل! ونفسيَ الأمارةَ بالسوء أعني، إن منادي السماء يهتف باسمك! فأي فلانين أنت؟ وما اسمك في الملكوت؟ وبِمَ تَنَزَّل الأمر في حقك؟ أيسوغ لك طعام وشراب قبل أن تعرف؟ أتحلو الدنيا في عينك قبل أن تستشف ما وراء الحجب بالاستماع والتسمُّع والذكر والابتهال والتضرع والتقرب حتى تأتيك البشرى؟ اللهم ارزقنا محبتك ومحبة أحبابك ومحبة محابك حتى يقع حبنا في مواضع حبك.

الجنة ممنوعة علينا ما لم نتحابَّ في الله، وهو تحاب يلقيه الله على هذه الأمة المرحومة، على المؤمنين المتقين، يتذوقونه وتحلو الحياة به وهي مرة. «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد! إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» كما روى ذلك الشيخان عن النعمان بن بشير مرفوعا. وروى مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. أوَلاَ أدلكم على شيء إن فعلتموه تحابَبْتم؟ أفشوا السلام بينكم». إفشاء السلام سبب ظاهر

(1) مدارج السالكين، ج 3، ص: 268.

(2) طه، 39.

إذا اقترن بالأسباب الأخرى فاجتمعت القلوب على طاعة الله، والوفاء بالعهود، والتحزب لله، ونصرة دين الله، واتباع سنة رسول الله حصل المقصود، فتراص الصف كالبنيان، واستقرت أعضاء الجسد الواحد، وتضامنت وتعاونت. فثبت خير الدنيا بحياة الإيمان الجماعي وثبت خير الآخرة بإيمان التحاب في الله. وهنا نضع الأصبع على مفصل، بل موصل، من أهم مواصل بناء الجماعة، بل هو أهمها إطلاقا: ألا وهو التواصل القلبي. الصحبة في الله المؤدية إلى جماعة في الله هي مبدأ الحركة ووسطها ومعادُها. وكل ذلك رزق يُلقيه الله عز وجل على المرحومين، له علائم ظاهرة، وأسباب مشروعة، وحكمة ورحمة يضعها الله في قلوب العباد.

ومن رُزق في الدنيا من المؤمنين تحابا خاصا عميقا كان له في الآخرة مكانة خاصة. يقول الله تعالى يوم القيامة: «أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظِلُّهم تحت ظلِّي يوم لا ظل إلا ظلِّي». أخرجه مسلم ومالك في الموطإ عن أبي هريرة مرفوعا. ومن أحب قوما حشر معهم. فانظر يا غافل من يسكن في فؤادك حبّه. روى الشيخان وغيرهما عن أنس أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: «متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها؟» قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله. قال: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرَحَنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أحب النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل أعمالهم».

ونحن يا مُولِي النعَمِ ومُفيض الكرم نحمدك على حبنا إياهم ونَفْرح، زدنا حبا لك ولرسولك ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، واهد إخواننا الشيعة لتوسيع ما ضيقوه على أنفسهم حِرمانا وتعنُّتا.

يا غافل! هذا عمرك يتصرَّم! فماذا أسست من صداقات، وماذا بنيت لآخرتك من معارف، وما شَغَفَ قلبك من أحباب؟ أنت مع أولئك يوم القيامة، وأنت من ذلك الصنف أيا كان. «فالأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» كما روى مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا.

اهرُب من قرناء الغفلة، وارْتَمِ في أحضان قوم صالحين، وابك على ربك ليرزقك محبتهم، عسى أن تنجوَ من وَرطَة الانحشار في زمرة الهالكين. فإن حب الصالحين

يُثمر حب الله، وحب الله يثمر حب الصالحين قال الغزالي: «إن حب الله إذا قوي أثمر حب كلِّ من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل، وأثمر حب كل من فيه صفة مرْضية عند الله من خُلُق حسن أو تأدب بآداب الشرع».[1]

واعلم أن «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» كما روى الطبراني عن عبد الله بن عباس مرفوعا. واعلم أن «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله» كما أخرج أبو داود عن عمر بن الخطاب مرفوعا. وبهذا الاعتبار يكون حب المؤمنين وبُغض الأعداء في الله عملا بوسعك أن تكسبه وتَتَسبَّب في حصوله. فما لأحد عند الله عُذر أن يقول: ما رزقت شيئا! ويهرب في دهاليز العقيدة الجبرية والعياذ بالله.

ولكون الحب في الله كسبًا للعباد بوجه من الوجوه، جاء الحث عليه في الكتاب والسنة، واستُحِب للرجل إذا أحب أخاه أن يخبره ليكون ذلك مدعاة لمزيد من التعاطف والتواد، واستُحِب أيضا أن يقتصد بَعضنا في حب بعض لكيلا تحجبنا ألفة بعضنا بعضا عن حب الله ورسوله. يكون حب الله في صميم صميم قلوبنا، ويغشى حبُّ رسول الله تلك الشِّغاف، وتَستَظْهر النفوس حبَّ بعضنا بعضا مما يلي القلب، ومما يلي جانب المواساة والتعاون الفعلي، والبذل والعطاء، والخدمة والرعاية، والتعاون على البر والتقوى، والتواصل والتزاور والتجالس والتراص في صف الجهاد، والانتداب للمشاركة في أعمال البناء الجماعي تربية وتنظيما وزحفا، وحملا لأعباء الدعوة والدولة، وتبليغا لرسالة الرحمة والمحبة للعالمين.

لا تحسب أن الحب في الله المقبول عند الله، الذي يتقرب به إلى الله استراحة وتبادُل وُدّي للعواطف في مجالس الرخاوة والبطالة، بل لِلْحُبِّ في الله مُقتضيات وواجبات أدناها إماطة الأذى عن طريق من تحبهم في الله، وأعلاها مواجهة الـمُبْغَضين في الله في صف الأحباب في الله حتى الاستشهاد. ولكل مرتبة من مراتب العاصين لله، والجاهلين بالله، والـمُحادّين لله، والضالّين عن سبيل الله، المستكبرين في أرض الله، نوعٌ ودرجة من إبغاضك، ونوع ودرجة من مقاومتك ومحاربتك. وما سَواءٌ ما يطلبه منك الشرع والحكمة في حق المبتدعين الجهلة، والعاتين الظلمة، والكافرين العادين على الناس.

(1) الإحياء، ج 2، ص: 154.

للحب في الله والبغض في الله ميزان في القلوب خفي، لكنَّ لهما في ظاهر تصرُّفِ الفردِ والجماعة معاييرَ شرعيَّة وحدوداً، لكيلا تستحيل المسألة إلى عاطفية عائمة فوضوية.

في صميم صميم قلب المؤمن الموفق يستقِرُّ حب الله ورسوله، ويخرُج حب الدنيا وأهلِها إلى مراتبهم التي وضعهم فيها الشرع، ليُعْطِيَ المؤمن كلّ ذي حق حقَّه، وهو دائما لله لا لغيره. من علامات محبتك لله ظهورُ تلك المحبة في تصرفك. قال الإمام الشيخ عبد القادر قدّسَ الله سره العزيز: «ويحَك قد ادعيت محبة الله عز وجل ! أما علمت أن لها شرائط؟ من شرائط محبته موافقتُه فيك وفي غيرك. ومن شرائطها أن لا تسكن إلى غيره، وأن تستأنس به، ولا تستوحش معه. إذا سكن حب الله قلب عبد أَنِسَ به، وأبغض كل ما يشغل عنه».[1] وقال: «المحب لا يملك شَيئا. يسلم الكل لمحبوبه. محبةٌ وتملُّكٌ لا يجتمعان، المحب للحق عز وجل، الصادق في محبته، يسلم إليه نفسه وماله وعاقبته، ويترك اختياره فيه وفي غيره. لا تتهمه في تصرفه! لا تستعجله! لا تُبَخِّلْه! يحلو عنده كل ما يصدر إليه منه. تَنْسدّ جهاتُه. لا تبقى له إلا جهة واحدة».[2]

يا غافل! إذا أنستَ من نفسك عُزوفاً عن الدنيا وأهلها أو بداية اشمئزاز من رذائلها فذاك، واحمد الله. وإلا فابحث عن من يخرجك من ورطتك. «أنت ميت القلب وصحبتك أيضا لموتى القلب. عليك بالأحياء النجباء البُدلاءِ. أنت قبر تأتي قبراً مثلك! ميت تأتي ميتا مثلك! أنت زَمِنٌ يقودُك زَمِنٌ[3] أعمى يقودك أعمى مثلك! اصحب المؤمنين الموقنين الصالحين. واصبر على كلامهم واقبله واعمل به وقد أفلحت. اسمع قول الشيوخ واعمل به واحترمهم إن أردت الفلاح».[4]

إن لم تستخلصكَ صحبة الصادقين ومخالطتهم ومجالستهم من رُقاد غفلتك فمن ينْتشلك من وِهادِ رُفقتك؟ إنها عقبة شاقة على نفسك أن تسلك إلى البيوت من

(1) الفتح الرباني، ص: 32.

(2) نفس المصدر، ص: 167.

(3) الزمِن: المُقعد.

(4) نفس المصدر، ص: 248.

أبوابها. لذلك يسهل أن تزعم لنفسك أنك تحب الله ورسوله وتزعم للناس. هات برهانك إن كنت صادقاً!

قال الإمام الشافعي رحمه الله يعبر عن حبه من ينفع الله بحبهم:

شهدت بأن الله لا رب غيره وأشهد أن البعث حق وأخلص
وأن عرى الإيمان قول مبين وفعل زكي قد يزيد وينقص
وأن أبا بكر خليفة ربه وكان أبو حفص على الخير يحرص
وأشهد ربي أن عثمان فاضل وأن عليا فضله متخصص
أئمة قوم يهتدى بهداهم لحى الله من إياهم يتنقص!

وقال:

قالوا: ترفضت قلت كلا! ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت غير شك خير إمام وخير هادي
إن كان حب الولي رفضا فإن رفضي إلى العباد

يقصد بالولي عليا كرم الله وجهه. وقال:

يا راكبا قف بالمُحَصَّب من منىً واهتِفْ بقاعد خِيفِها والناهض
سَحَراً إذا فاض الحجيج إلى مِنىً فَيْضاً كمُلْتطم الفُرات الفائض
إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنيَ رافضي

وقال رضي الله عنه يشيد بأهل الحديث ويواليهم لمكانهم من رسول الله ﷺ:

أهل الحديث همُ أهل النبي وإن لَم يَصْحبوا نفسه أنفاسَه صحبوا

وقلت:

لَوْمُكَ يا عاذلي اعتداءٌ ويْحك أقْصر من العناد
حبُّ النبي من حب ربي حبٌّ ثَوى مُهجة الفؤاد
وذاك ديني وعَقدُ قلبي وحُجَّتي في يوم التَّنادي

سُنّة الله في التّابِع والمتبُوع

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾. اللهم اغفر لي ما أخطأت وما تعمدت، وما أسررت وما أعلنت، وما جهلت وما تعمدت.

نزلت علينا دلالة الله في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾،[1] وتنزلت فينا دلالة رسول الله ﷺ حية بيننا، نموذجا شاهدا حاضرا، معلِّما هاديا رؤوفا رحِيمـًا صاحبا أسوة: «ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؟». لم تَكن دلالة الرسول ﷺ ودلالة إخوانه من قبله من النبيئين مجردَ تبليغ، وإن كان التبليغ ركنا من أركان الدلالة، وإنما كانت مُعَايشةً وسياسة وتلَطُّفا وخفضَ جناحٍ وقيادةً آلت إلى اتباع وإيمان، ورفع الاتباع إلى محبة الشخص الرسول، ورفعت محبة الرسول إلى محبة الله، وأوجبت محبة الله عبده المتقرب بالفرض والنفل، ومن الفرض الآكد اتباع الرسول وحبه، مراتب الاصطفاء والفلاح.

أمر إلهي أَسَّس المسيرة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[2]، وخبر إلهي قدسي أخبر بمراحلها: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه». ولم تنقطع المسيرة ولم تُرفَع في فضاء الروحانية والشوق إلى زمان مضى وانقضى، بل حافظَ على شروطها الحُبِّية الواصلة بين العباد والله سنة الحب في الله، وفضيلة الصحبة في الله، ووجود أولياء الله إخوان رسول الله في أرض الله.

---

(1) الصف، 10.

(2) آل عمران، 31.

إثر وفاة رسول الله ﷺ وقعت للصحابة رضي الله عنهم دهشة لخبر عظُم عليهم، حتى شَهَرَ عمر بن الخطاب سيفَه يُهدِّدُ من زعم أن محمداً قد مات. ثم رجع عمر وبقيَتْ دهشة غياب الشخص الكريم. روى الترمذي عن أنس بإسناد حسن قال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء. وما نفَضْنا الأيديَ من دفن رسول الله ﷺ، وإنا لفي دفنه، حتى أنْكَرْنَا قلوبنا».

حضورٌ أضاء له كلُّ شيء، وغيابٌ ذهِلت له القلوب. ما قبل التبليغ اللساني وما بعده وما وراءه نورانيَّة تتعرفُ عليها القلوب وتحبها، وتُنكر القُلوبُ قلوبَها لغياب شخص وضع الله له غاية القَبول في الأرض.

بعد ذلك أفاق الصحابة من الذهول، وانتخبوا خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فأدَّت الصديقيَّة منذئذ ما كانت تؤديه النبوة من وظيفة الحضور والشهادة بين الناس والهداية والدلالة، وكان التبليغ العلمي اللساني العقلي جزءا من المسألة لا كل المسألة. بقيت الوراثة القلبية والتحاب في الله بين المؤمنين جوهرَ الدين. بقيت سنة الله في التابع والمتبوع قائمة وستظل إلى يوم القيامة.

وقد أخبر رسول الله ﷺ بتسلسل المدد القلبيِّ الفتحيِّ الحُبِّيِّ من بعده حين قال: «يأتي على الناس زمان يغزو فيه فِئَامٌ من الناس (جماعات) فيقولون: هل فيكم من صاحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم! فيُفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان، فيغزو فِئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون نعم! فيُفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون نعم! فيُفتح لهم». رواه البخاري ومسلم والترمذي رحمهم الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بركة متسلسلة، وفلاح ونصر. وإن التابعين فَمَن بعدهم إلى يوم القيامة لَتَشُم أرواحُهم نسيمَ الحب والقرب من عِشْرَة أصحاب القلوب النيرة الخيرة، وتحوم حولها، وتقتبس منها نوراً ومحبة ورَوْحاً. روى الإمام مالك رحمه الله في الموطإ بسند صحيح عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله قال: «دخلت مسجد دمشق، فإذا

فتى براقُ الثَّنايا، والناس حوله. فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدَروا عن رأيه. فسألت عنه، فقالوا: هذا معاذ بن جبل. فلما كان الغد هَجَّرْتُ[1] إليه، فوجدته قد سبقني في التهجير، ووجدته يصلي. فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قِبَل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت والله إني لأحبك في الله! فقال: آللّهِ! فقلت آللّه! فقال: آللّه! فقلت آللّه! فأخذ بحُبْوة ردائي، فَجَبذَني إليه وقال: أبْشِرْ! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتباذلين في».

وكان أمناء الرسالة، ورثة الحب في الله المقرِّبِ إلى الله من بعد أصحاب رسول الله، أولياءَ الله الذين أحبهم الله بعدما تقربوا إليه بالفرض والنفل حتى أكرمهم بذلك السمع والبصر واليد والرجل والسؤال المستجاب والإعاذة والقبول في الأرض. تابع ومتبوع بإسناد قلبي متّصل إلى يوم القيامة. ولا ولاية لك أيها الفقيه في الأحكام الظاهرة على هذا الموضوع لتتكلم فيه، وتُفْتي بأنه زعم مرفوض مرفوض!

اسمع الخبر الصحيح من نبيك ﷺ عساك تهتدي وتقتدي.

هاك حديثا عظيما يثبت الله به قلوب من يشاء رواه ابن حبان في صحيحه، وروى الإمام أحمد وأبو يعلى والحاكم رحمهم الله حديثا بمعناه وصححه. أعطيك رواية أبي داود رحمه الله للحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياءُ والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله». قالوا: يا رسول الله! تُخبرُنا من هم؟ قال: «هم قوم تَحابوا برُوح الله على غير أرْحام بينهم، ولا أموال يَتعاطونها. فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». وقرأ هذه ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

توقّف بعض العلماء في معنى هذا الحديث، لأنهم تعاظموا أن يكون الأنبياء يوم القيامة يغبطون من ليسوا أنبياء ولا شهداء بمكانتهم من الله. ولا مزاحمة في الأمر،

(1) هجرت: ذهبت وقت الهاجرة، وهو أول وقت صلاة الظهر.

(2) يونس، 62.

وما ينبغي للولاية أن تزاحم النبوة. ينصرف الأنبياء إلى مواطن الشفاعة في أممهم يوم العرض، والشفاعة تشريف زائد، بينما يبقى الأولياء على منابر النور بالقرب الإلهي. فهي لحظة وموقف. ولا مزاحمة.

إنها سنة إلهية ماضية إلى يوم القيامة أن يكون في سلسلات الولاية تابع ومتبوع. قال الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه: «إن الله عز وجل أجرى العادة بأن يكون في الأرض شيخ ومريد، صاحب ومصحوب، تابع ومتبوع من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة». وذكر رحمه الله كيف كان آدم بعد نزوله من الجنة محتاجا إلى شيخ، «وجبريل عليه السلام أستاذه وشيخه، (...) ثم هلم جرّاً، تعلم شيت بن آدم من أبيه آدم، ثم أولاده منه، وكذلك نوح النبي عليه السلام علم أولاده، وإبراهيم عليه السلام علم أولاده، قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[1] أي أمرهم وعلمهم، وكذلك موسى وهارون، علما أولادهما وبني إسرائيل، وعيسى عليه السلام علم الحواريين. ثم إن جبريل عليه السلام علم نبينا ﷺ (...) ثم تعلم الصحابة رضي الله عنهم منه ﷺ، ثم التابعون منهم، ثم تابعو التابعين منهم قرنا بعد قرن، وعصرا بعد عصر (...) فلا ينبغي له (المريد) أن ينقطع عن الشيخ حتى يستغني عنه بالوصول إلى ربه عز وجل، فيتولى تبارك وتعالى تربيته، ويوقفه على معاني أشياء خفيت على الشيخ، ويستعمله فيما يشاء من الأعمال، ويأمره، وينهاه، ويبسطه، ويقبضه، ويُغنيه، ويُفقره، ويُلقنه، ويُطلعه على أقسامه (ما قسم له من رزق) وما سيؤول إليه أمره. فيستغني بربه عن غيره».[2]

نصحوك! نصحوك! وعلموك إن كنت موضعا للتعليم. واصبر حتى أُسَمِّعَك ما يقصدون بالوصول والأمر والنهي بعد زمان الوحي، والبسط والقبض، والاستغناء بالربِّ وسائر هذه المعاني الرقيقة الراقية.

---

(1) البقرة، 132.

(2) الغنية، ج 2، ص: 165.

في أي شيء كان الصحابة رضي الله عنهم الذين ورثوا الإيمان، وعُلموه قبْلَ القرآن، وأوتُوه بالصحبة والمحبة؟ وفي أي شيء كان الأولياء المشايخ الصوفية أهلُ النور الذين حملوا عصراً بعد عصر وقرنا بعد قرن أمانةَ الرسل، وسرَّ طبِّ القلوب، وإكسيرَ علاجها، وجُرثومة إحيائها؟

كان الصحابة رضي الله عنهم في جهاد الذلة على المؤمنين والشدة على الكافرين والإنابة لرب العالمين. وانْحَسر السادة الأماجد النورانيون من بعدهم عن الميدان الجهادي، جلُّهم لا كلُّهم، فكانوا أحلاس بيوتهم، فرغوا من الشأن العام ليتفرغوا لشأن التربية الخاص.

منذ زمان التابعين، وفي عصرنا بصفة خاصة، غلب اسم «عالم» على عقول المسلمين، وحمل الِاسمَ أغزرُ الناس اطلاعا وأكثرُهم جمعا للمعلومات، وأقدرُهم على الإفصاح والخطابة. وانعزل «العارف» الرباني في حيزه، «وأصبح علم الآخرة مطويا»، يبحث عنه الراغبون المريدون بشروط أهمها الانزواء عن العامة.

المطلوب الآن وبعد الآن استجماع ما تفرق بعد زمان الصحابة، واكتساب الشخصية الجهادية الصحابيَّة، واستصحاب ما ترثه أجيالنا من علماء الدين الأولين والآخرين استئناساً به لا عبئا ثقيلا، اجتهادا نستضيء به نحن لنقول كلمتَنا من إزاء القرآن ومن مشارف الصحبة. من أهم ما يُجْلِي عنا سحابَ الفتنة وينفُض عنا غبارَ التقليد القرونيِّ اقتباسُنا لما عند رجال الله أولياء الله من كنوز «الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن، واجتنابُ دقيق الإثم وجليله، والحرصُ على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان، إلى غير ذلك من علوم الباطن».(1)

بعد عهد الصحابة «هبَّت عاصفة عقلية جامحة بعثها «علم الكلام»، الذي كان الشغلَ الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة. وكانت هذه العاصفة عاتية شديدة، انطفأت بها كوانين القلوب ومجامرها. وإذا كانت لا تزال بقية من جمرات الحب والعاطفة فقد كانت كامنة في الرماد، مغلوبة على أمرها. وقد أصبح المسلمون

---

(1) الإحياء، ج 1، ص: 70.

بعدما كانوا شعلة من الحياة وجذوة من النار رُكاما بشريا أو فحما حجريا بَعُدَ عهده بالنار والحرارة».[1]

من تحت الرماد نقْتبس الجذوة الحُبيَّة، لا مناصَ من أخذ جَوهر ديننا عن الأكابر أهل المعرفة والنور وإن محاولة تخطي عصور الرُّكام قفزاً بلا زاد قلبيٍّ يؤصل نسبتنا للنبوة والصحبة لَمغامرة في فضاء الإسلام الفكري الثقافي إلى غير وِجهةٍ. قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «اصحبوا شيخا عالما بحكم الله عز وجل وعلمه يدلكم عليه. من لا يرى المفلح لا يُفلح! من لا يصحب العلماء العمال فهو من نَبْضِ التراب لا أب له ولا أم. اصحبوا من له صحبة مع الحق عز وجل».[2]

من لا أب له ولا أم في الربانية والحب في الله صحبته نَكَدٌ.

قال الإمام الشافعي رحمه الله يشكو «نبض التراب» في عصره:

إني صحبت أناسا ما لهم عدد ... وكنت أحسب أني قد ملأت يدي
لما بلوت أخلائي وجدتهم ... كالناس في الغدر لم يبقوا على أحد
إن غبت عنهم فشر الناس يشتمني ... وإن مرضت فخير الناس لم يعد
وإن رأوني بخير ساءهم فرحي ... وإن رأوني بشر سرهم نكدي

وقال:

كن سائرا في ذَا الزمان بسيره ... وعن الورى كن راهبا في دِيرهِ
واغسل يديك من الزمان وأهله ... واحذر مودّتهم تنلْ من خيره
إني اطلعت فلم أجد لي صاحبا ... أصحبُه في الدهر ولا في غيره
فتركت أسفلهم لكثرة شره ... وتركت أعلاهم لقلة خيره

(1) أبو الحسن الندوي، «ربانية لا رهبانية»، ص: 60 – 61.
(2) الفتح الرباني، ص: 269.

وقال:

لـم يبق في الناس إلا المكـر والملَـقُ شوْكٌ إذا لُمسوا زهر إذا رُمِقُـــــوا
فإن دعتك ضرورات لِعشـــرتهـم فكـن جحيمـا لعـل الشـوْكَ يحترق

قال هذا في القرن الثاني، وكم من رُكام بعده تراكم!

وقلت:

جَانـبْ رفـاقَ الخَنَـا لا تَغتَـررْ بهـمُ وَاصْحَب خَليلَ التُّقى فالطَّبع يُسْتَرَقُ
واسْلكْ سَبيـلَ الأُلَى زَكَّـا نُفُـوسَهم وفي الجِهـاد بعهـد الله قـد صـدقوا
بـادِرْ لجمْعهِـمُ واقْصد لِقصدِهـمُ واسْمعْ لنصحهمُ، ما عنْـدَهُم مَـلَقُ

شفاءُ السّائِل

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾.
اللهم أحسنت خَلْقي فأحسن خُلُقي.

للمؤرخ الكبير أحد حكماء المسلمين، أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون «قدر مشترك» مع الصوفية. ليس مذكورا من أهل الفن، لكنَّ له مشاركةً واطلاعا ورأياً يبدو منه الاهتمام الكبير. له رسالة سماها: «شِفاء السائل لتهذيب المسائل» وسع فيها الفصل الذي خصصه في المقدمة الشهيرة للتصوف.

وكانت المسألة التي وَرد بها الكتاب من علماء الأندلس قد أثارت بين فقهاء تلك العدوة خلافات ومناظرات منذ القرن الثامن فما بعده. شارك في السؤال والمناظرة والمراسلة إمام الأصوليين في ذلك العصر وهذا أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله. وناهيك به سائلا ومناظرا ومراسلا!

تدورُ هذه الرسالة حول سؤال ورد على الفقيه المؤرخ المقرَّب في بلاط فاس في موضوع كان ولا يزال مَثاراً للخلاف. قال: «وقَّفني بعض الإخوان أبقاهم الله على تقييد (أي كتاب) وصل من عَدْوة الأندلس وطن الرباط والجهاد، ومأوى الصالحين والزُّهاد، والفقهاء والعُبَّاد، يخاطب بعض الأَعلام من أهل مدينة فاس، حيث المُلْكُ يَزْأرُ، وبِحار العلم والدين تزْخَر، وثواب الله يُعَدُّ لأنصار دين الله ويُذْخَرُ. طالبا كشف الغِطا في طريق الصوفية، أهلِ التحقيق في التوحيد الذوقيّ والمعرفة الوِجْدانيَّة، هل يصح سلوكه والوصول به إلىَ المعرفة الذوقية، ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلُّماً من الكتب الموضوعة لأهله، واقتداءً بأقوالهم الشارحة الوافية بشروط البِداية والنهاية، كالإحياء (للغزالي) والرِّعاية (كتاب للحارث المحاسبي) أم لا بد من شيخ

يتبين دلائِلَهُ، ويحذرُ غَوائِلَهُ، ويُميِّز للمريد عند اشْتِباه الواردات والأحوال مسائلَه، فيتنزل منزلةَ الطبيب للمرضى، والإمام العادل للأمة الفوضى».[1]

هذا هو السؤال: ما موقع الكتب وفائدتها ومردوديتها في السلوك القلبي؟ وهل لا بد من شيخ يُسلِّمه المريد زِمامَه كما تستسلم «الأمة الفوضى» للإمام العادل، وكما يستسلم المريض للطبيب؟

ويبدأ فقيهنا الحكيم العبقري الجواب بالإشارة إلى تميّز الطائفة عن سائر علماء الإسلام بعد عهد أتباع التابعين قائلا: «ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، وفشا الميل عن الجادَّة، والخروجُ عن الاستقامة، ونسي الناس أعمال القلوب وأغفلوها وأقبل الجَمُّ الغَفيرُ على صلاح الأعمال البدنيَّة والعناية بالمراسم الدينية من غير التفات إلى الباطن ولا اهتمام بصلاحه. وشُغِل الفقهاء بما تعم به البلوى من أحكام المعاملات والعبادات الظاهرة حسبما طالبهم بذلك منصبُ الفُتْيَا وهدايةِ الجمهور. فاختص أرباب القلوب باسم الزهاد والعُبّاد وطُلاب الآخرة، منقطعين إلى الله، قابضين على دينهم كالقابض على الجمر حسبما ورد (في الحديث). ثم طرقت آفة البِدَع في المعتقدات، وتداعى العُبّاد إلى مذاهبَ شتى، هذا معتزلي ورافضي وخارجي، لا ينفعهم شيء من أعمالهم الظاهرة والباطنة مع فساد الـمُعْتَقَد الذي هو رأسُ الأمر. فانفرد خواص السنة المحافظون على أعمال القلوب، المقتدون بالسلف الصالح في أعمالهم الباطنة والظاهرة، وسُموا بالصوفية»[2].

ويَخلُص عالمنا الفحل إلى صُلْب الموضوع فيحدد أهداف التصوف في ثلاث مجاهدات: «مجاهدة التقوى وهي رعاية الأدب مع الله في الظاهر والباطن بالوقوف عند حدوده مراقباً أحوالَ الباطن، طالبا النجاة، وإنه التصوفُ عند الصدر الأول منهم. ثم مجاهدة الاستقامة وهي تقويم النفس وحملُها على الصراط المستقيم حتى تصير لها آداب القرآن والنبوءة، بالرياضة والتهذيب، خُلُقاً جِبِلِيَّةً، طالبا مراتب الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين. ثم مجاهدة الكشف والاطلاع، وهي إخماد القُوى البشرية كلِّها حتى الأفكارَ، متوجهاً بكلية

(1) شفاء السائل، ص: 21.

(2) نفس المصدر: ص: 26.

تعقله إلى مطالعة الحضرة الربانية، طالبا رفع الحجاب، ومشاهدة أنوار الربوبية في حياته الدنيا، ليكون ذلك وسيلة إلى الفوز بالنظر إلى وجه الله في حياته الأخرى التي هي غاية مراتب السعداء».[1]

وبعد أن يبين أن المجاهدة الثّالثة، مجاهدة الكشف، تنطوي على المجاهدتين الأوليَيْن وتَنْبَنِي عليهما يُبَيّن أن همة المريد تقفُ به عند حدود مطلَبه، وأن طالب التقوى والنجاة قد لا يكون له باعث أعلى ليطلب مراتب الاستقامة، وأن طالب الاستقامة المجتهدَ لنيلها قد لا تسمو إرادته إلى أعلى ليطلب وجه الله و«مشاهدة أنوار الربوبية في حياته الدنيا».

ويخلص إلى محور السؤال والخلاف وهو ضرورة الشيخ فيقول: «ثم اعلم أن افتقار هذه المجاهدات إلى الشيخ الـمُعلِّم، والمربي الناصح، ليس على سبيل واحدة. بل هو في بعضها أكمل وأولى، وفي بعضها أحق وآكدُ، وفي بعضها أوْجبُ، حتى إنه لا يمكن بدونه (...). أما مجاهدة التقوى التي هي بالورع فلا يضطر فيها إلى الشيخ، إنما يكفي فيها معرفةُ أحكام الله وحدودِه، أخِذَتْ من كتاب أو لُقّنَتْ من مُعلم أو تُدُورِسَت من أستاذ (...). وأما مجاهدة الاستقامة التي هي التخلق بالقرآن وبخلق الأنبياء فمحتاجة بعض الشيء إلى الشيخ المعلم لعُسر الاطلاع على خُلُق النفس، وخفاءِ تلوُّناتِ القلب، وصعوبةِ علاجها ومُعانَاتها (...)، فإذن يتأكد طلب الشيخ في حق صاحب هذه المجاهدة، والاقتداء فيها بسالكها المطلع على عللها (...).

قال: «وأما مجاهدة الكشف والمشاهدة التي مطلوبُها رفع الحجاب والاطلاعُ على العالَم الروحاني وملكوتِ السماوات والأرض، فإنها مفتقرة إلى المعلم المربي، وهو الذي يُعبَّر عنه بالشيخ، افتقار وجوبٍ واضطرارٍ، لا يسع غيره، ولا يمكن في الغالب حصولُها بدونه».[2]

رحمك الله أبا زيد! كنت تحدثنا عن المريد الطالب رفع الحجاب ليشاهد أنوار الربوبية، فإذا بك بعد حين تشتغل مع مريدك بالأكوان و«الاطلاع على العالم الروحاني

(1) شفاء السائل، ص: 43.

(2) نفس المصدر، ص 58 – 59.

وملكوت السماوات والأرض»! وأين الأكوان من الـمُكَوِّن ما شاء الله كشف لك من عوالمه وملكوته، وما زوى عنك، فأنت عبد للأكوان إن تعلقَتْ همتُك بالأكوان ومطالعة ما دون الله، مُتَهاوِيـاً عن المطلَبِ الأوحد، مطلبِ الرجال، وجهِ الله.

ثم يتحدث صاحبُنا الذي صرف عمرا طويلا في مراقبة تاريخ الأمم فخرج باستنتاجه العبقري ناقلا بأمانة أقوال الرجال أصحاب الفن، ويقول: «إذا كان السالك نُصْبَ عين الشيخ وبِمرأىً منه وتمحيصٍ لأعماله وسلوكه، والشيخ قد سلك، وعلم فاسدَ الأحوال من صالحها، وعما ينشأ صالحُها وفاسدُها، وكيف ينشأ، وما يكون منها واصِلاً، وما يكون قاطعـاً، وكيف تترتَّب الأحوال المقدورة على الأعمال المقدورة، ومقدارُ الزكاء في الأعمال الذي يكون عنه الصفاءُ في الأحوال، وقد خبر ذلك كلَّه بالابتلاء والتجربة والمِرَانِ، ولم يُقلِّدْ فيه الكُتُبَ والأخبار (إذا فعل السالك ذلك) استقام السلوك، وأُمِنَتْ المخاوف، وذهب الغرور».

ويحاور عالمنا الجليلُ الحكيمُ طائفة الأخباريِّين العاكفين على الكتب، قال: «فقال لهم (المدافع عن ضرورة الشيخ): لِمَ اعتمدتم على الكتب وتركتم الاعتماد على شيوخ الطريقة، والقوم إنما اعتمدوا على الشيوخ وتركوا الكتب؟ فقالوا: أصل السلوك إنما هو بالكتاب والسنة وما نشأ عنهما. وها هي بأيدينا مسطورة، وناقلوها منتصبون لتعليمها. وشيوخُ هذه الطريقة من جُملتهم. فما الذي يمنع من السلوك دونَهم؟ فقال لهم: إن كان مجرُد النّقْل كافيـاً في حصول هذا المقصود أو غيرِه فليسْتَوِ في جميع أنواع العلوم والصنائع من حَفِظَ وصفَها ولم يُعانِهَا مع مَن عاناها بالفعل، ودخل فيها حالاً واتِّصافا».[1]

قال مستخْلصـاً: «والحق أنه لا بد للسالك من الشيخ، ولا يُفضي به النقل وحده إلى مطلوبه، لا مِنْ أجل التفاوت في التحصيلين (أي في كون الشيخ أوسع اطلاعا على الكتب وأحفظَ للنّصوص)، بل من أجل أنّ مدارك هذه الطريقة ليست من قبيل الـمُتعارَف من العلوم الكسبيَّة والصنائع، وإنما هي مداركُ وجدانيَّةٌ إلهاميّة خارجةٌ عن الاختيار في الغالب، ناشئةٌ عن الأعمال، على هيئات مخصوصة. فلا يدرَكُ

(1) شفاء السائل، ص: 63.

تمييزُها بالمعارف الكسبية، بل يحتاج إلى الشيخ الذي يميزُها بالعِيان والشِّفاه (أي المشافهة)، ويعلم هيآت الأعمال التي تنشأ عنها وخصوصياتِ أحوالِها».[1]

لا يزال إلى جانب صنف المستهزئين بالصوفية والتصوف الذين يُصْدِرون الأحكام الجِزافَ على غير علم، صنفُ الذين يعْترفون بما عند الصوفية من حق، لكنهم في حيرتهم وزَحمة الدنيا عليهم، وربما أساسا لغياب المسألة الإحسانية الكامل عن أفُقهم، يُصِرّون على أن التصوُّف السنيَّ الذي تحتاج إليه الأمة في عصرنا هو تصوف ينحصر في ترقيق القلوب بقراءة كتب الغزالي ومُدارسة الإحياء وما أشبهه. كيف تُفهم هؤلاء الفضلاء أن الله عز وجل موجودٌ، وأنه يُحِب ويُحَب، وأن مناديَه في السماء والأرض ينادي: إن الله يحب فلانا من عباده فأحبوه، وأن العبد المتقرب إلى الله بالفرض والنفل يأتي وقت يحبُّه الله فيفعلُ به جل وعلا ما قرأناه في الحديث العظيم الذي توقف فيه الذهبي حيرةً وتردداً، وأن علماء فطاحل من هذه الأمة جَثَوْا على الرُّكب طيلةَ هذه القرون أمام الأولياء مشايخ الطريق يلتمسون بركتهم وتوجيههم وتسليكهم وتوصيلهم إلى الله عز وجل ؟ من يُفهم هؤلاء الفضلاء أنَّ وأنّ وأنّ؟

رُبَما يزعم زاعم من النُّفاة المكفرين الجاهلين، أو يجادل فاضل من المشتغلين عن طلب الله، أن ما تُسمونه سلوكا وطريقة وشيخا وتصوّفا أمور لم يأذن بها الله ولا أوجبها بمقتضى الشرع. لمثل هؤلاء يقال: إن رسول الله ﷺ ما ترك شيئا يُسمّى مصحفا، ولا كتباً، ولا فقها، ولا أصولا، ولا دواوين للحديث، ولا مدرسة، ولا نحوا، ولا صرفا، ولا علوما تخصصية، ولا، ولا، ولا.

ويتقابل نفي مع نفي، ورفض مع رفض. وما أنت بمُسمع من في القبور.

وتعال قف بالباب مع الأحباب الذين نصحوك، قف بباب روح المصطفى ﷺ عسى نفحةُ رضىً تهب على قلبك. قال ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر ما رواه البخاري رحمه الله من اهتزاز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ رضي الله عنه: «إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه (ﷺ) فرحا واستبشارا بقدوم روحه،

(1) شفاء السائل، ص: 65.

فكيف بقدوم روح سيد الخلائق! فيا منتسباً إلى غير هذا الجناب، ويا واقفا بغير هذا الباب، ستعلم يوم الحشر أيَّ سريرة تكون عليها يوم تبلى السرائر».[1]

قال سيدنا بلال رضي الله عنه يحن إلى مكة حيث عرف الله بتعريف حبيبه رسول الله:

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلة   بوادٍ وحولي إذْخِر وجَليل؟
وهل أرِدَنْ يوما مياهَ مَجَنّة   وهل يَبدُوَنْ لي شامَة وطَفيل؟

وقال أبو العباس بن العريف رحمه الله يصون وُدّ الأحباب:

ما زلت مذ سكنوا قلبي أصون لهم   لَحظي وسمعي ونُطقي إذهم أُنُسي
حلوا الفؤاد فما أندى ولو قطَنوا   صخراً لجاد بماء منه مُنبجس
وفي الحَشا نزلوا والوهج يجرحهم   فكيف قَرّوا على أذكى من القبس!
لأنهضنَّ إلى حشري بحبهم   لا بارك الله فيمن خانهم فنَسِي

وقال غيره:

جسمي معي غير أن الروح عندهم   فالجسم في غربة والروح في وطن
فليعجب الناس مني أنَّ لي بَدَنا   لا روح فيه ولي روح بلا بدن

وقال محب رحلوا عنه:

راحوا فباتَت راحتي من راحتي   صِفراً وأضحى حبهم لي راحا
فتحوا على قلبي الهمومَ وأغلقوا   باب السرور وضيعوا المفتاحا

وقلت:

ما خُنْتُ عهدا للوداد أحبَّتي!   وَتَلَقَّفَتْنِي بعْدَكُمْ أتْرَاحِي
زلَّت بيَ الأقدامُ مُذ فارقتُكمْ   والنَّفسُ منِّي مُزِّقتْ بجراحِ
لِلّه أَيامُ الصفاء تبدَّدَتْ   فمَتى تعُود بِطِيبَتي أفراحِي؟

---

(1) الفوائد، ص: 63.

الشيخ كإمام للصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. رب اغفر وارحم واهدني السبيل الأقوم.

ولي الله الذي نحسن به الظن ابتداء، أو نذهبُ إليه مع الناس لما ظهر من فضله وتقواه وبركته واشتهر، هل هو رجل نلتمس منه دعاء لتستقيم أحوالُنا، أم هو مرشد نعرض عليه مشاكلنا، أم طبيب يعرف ما نعرض عليه من أمراض قلوبنا فيصف الدواء المناسب؟

تختلف بواعث القاصدين ومراتب المقصودين. فالعامة يغترّون بسُمعة أهل الصِّيت، خاصة إذا كانوا من أصحاب الكرامات والخوارق، وقد يكون الشخص دجالا من أولياء الشيطان. لا يُمَيِّزُ العامة بين الرّباني والشيطاني، بل من عامة القراء في زماننا من صام عن العلم زمانا، ليس معه من وسائله وطرائقه وفقه طلبه متاع، فيفطر ذات صباح بكتاب يحذِّر من أولياء الشيطان فيصور له اغترابه عن العلم أن كل من وُسِمَ بالصلاح والولاية نوع من الدجالين. عامَّةٌ كالذباب يتساقطون في أحضان العرّافين ضَحِيَّةً بين براثين الشيطان، وعامة من القرّاء الصائمين المفطرين عندهم كلُّ من خَلَقَ الله من مقصود يفِدُ عليه الناس مظِنّة للكذب، مُتَّهَم مشكوك في عقيدته. ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾[1].

ودعنا هنا من ذكر إخوان الشياطين ؛ إلى حين إن شاء الله.

العامة العامة يقصدون الشيخ للتبرك به، يسألونه الدعاء في حاجة مريض أو غائب أو رزق. وقد يصادف أن تقضى تلك الحاجات والمزورُ كذّاب دجّال استدراجا

(1) الحج، 8.

من الله عز وجل وخذلانا. وقد يكون المقصودُ ممن قال الله فيهم: «ولئن سألني لأعطينّه»[1] فيكون الزائر مغبونا أشد الغبن إذا أوقفه الله على باب من أبوابه فلم يسأل إلا عافية الأولاد وسراح السجين وإدرار الرزق.

من المشايخ من له حظ من الولاية لا يؤهله لأكثر من إشمام جلسائه وأصحابه رائحة الرائحة، فمهما كان باعث المريد القاصد عاليا فالغنيمة لا تعدو قبضة من الخير في درجة التقوى والاستقامة. ومن المشايخ بحارٌ زخارةٌ بالأنوار، مفتوح لهم الباب، يجذبون القاصد ويرفعونه ويرقونه ولو جاء بباعث دونٍ. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

كما أن هنالك درجات في سمو باعث المريد ودُنوِّه، فهنالك أيضا درجات في أهلية الشيخ. والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف كما قرأنا في الحديث. وحظوظ العباد من الله تعالى ومما يؤدي إلى معرفته جل وعلا من لقاء الرجال الواصلين الموصلين قدَر مقدور وكتاب مكتوب. اللهم مُنَّ علينا بمعرفتك ومعرفة أحبابك.

يشترك العامة المتبرِّكون والمريدون الصّادقون في ميلهم إلى الغلوِّ في الشيخ، خاصَّة إن كان من أصحاب الكرامات الظاهرة والبراهين الساطعة والهداية والتيسير. وينبري علماء الشريعة رضي الله عنهم، حراسُ الحدود، ليدفعوا بلاء الغلوِّ غيرةً منهم على مقام النبوة والإلهية أن يزاحما، وخوفا منهم أن يؤديَ الغلوّ إلى الشرك والعياذ بالله. لذا نجد الفطاحل من أمثال ابن تيمية يعترف بمقام المشيخة، لكن يهون من شأنه إلى حد ما. فالشيخ المربي عنده بمثابة إمام الصلاة يَجوز الاستغناء عنه إن صمم المصلّي أن يضيع أجر الخمس وعشرين ضعفا الموعودة لصلاة الجماعة خلف الإمام. فاعتراف ابن تيمية رحمه الله بالمشايخ وإعطاؤه إياهم مرتبة إمام الصلاة شيء لا يُستهان به. وهو حكم شبيه بفتوى ابن خلدون في الحالات التي يُطلب فيها ابتغاء الشيخ دون أن يكون ابتغاؤه شرطا ضروريا، حسب الباعث والمراد.

(1) كما جاء في الحديث القدسي المذكور آنفا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والشيوخ الذين يُقتدى بهم يدلون عليه (أي على الله جل جلاله)، ويرشدون إليه، بمنزلة الأئمة في الصلاة (...)، وبمنزلة الدليل الذي للحاج، يدلهم على البيت وهو وَهُمْ جميعا يحجون إلى البيت، ليس لهم من الإلهية نصيب، بل من جعل لهم شيئا من ذلك فهو من جنس اليهود والنصارى الذين قال الله في حقهم: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾»[1]. [2]

ويسرد جزاه الله خيرا، صيغ الاستغاثة بالأحياء والأموات الفاشية في العامة ليشدد النكير عليها. وهذه ذريعة خليقٌ بكل صادق أن يتجند لسدِّها.

نستمع الآن إلى أهل الفن ماذا يقولون في المشيخة. واحد من أحبائهم، اللاحقين بهم إن شاء الله، هو عز الدين بن عبد السلام. له معهم «قدر مشترك» أوفى من قدر شيخ الإسلام الذي عاب عليه معاصروه أنه «لم يتأدب بشيخ». فمعرفة سلطان العلماء الشافعي المنفتح بالمشيخة وأنوارِها أدقّ من معرفة الفاضل الحنبلي الفارس المتصدي للبدع. وكلاهما مفخرة للمسلمين.

قال ابن عبد السلام رحمه الله: «اعلم أن الخلق كلهم أطفال في حجر تربية الحق سبحانه يُغذِّي كل واحد من خلقه على قدر احتمال معرفته. فغذاء الرجال لا يصلح للأطفال، ومراكب الأبطال لا تصلح للبطّال. ألا ترى أن الطفل لـمّا لم يُطِق تناول الخبز واللحم، أطعمته حاضنته فوصل إليه (الغذاء الذي يتضمنه الخبز واللحم) بواسطة اللبن ولو أطعم ذلك مجردا لمات. ومن هنا يقال: من لا شيخ له لا قبلة له، ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه».[3]

الشيخ إذن أكثر من إمام الصلاة، بل هو قبلة وحاضنة مُغذية.

فإذا جئنا إلى أساتذة الفن وجهابذته وجدنا المعرفة الأكمل بما هو الشيخ، لأن من يتكلم عن حال واتصاف ليس كمن يراقب من خارج الأسوار عن بعد أو قرب

(1) التوبة، 31.

(2) الفتاوي، ج 11، ص: 499.

(3) بين الشريعة والحقيقة، ص: 29.

ويصف ما لحظته عيناه من ظواهر الأمور. ولئن كان سلطان العلماء طفلا أرضعته أثداء المشايخ السخيّة لـمّا جاء طالبا راغبا، فإن أمثال الشيخ عبد القادر والشيخ الرفاعي قدس الله سرهما هم المغذون والأئمة والقبلة، قبلة القلوب والحب، لا قبلة العبادة والصلاة.

قال الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله: «عليكم أي سادة بذكر الله! فإن الذكر مغناطيس الوصل، وحبلُ القُرب. من ذكر الله طاب بالله. ومن طاب بالله وصل إلى الله. ذكر الله يَثْبُتُ في القلب ببركة الصحبة. المرء على دين خليله. عليكم بنا ! صُحْبَتُنَا تَرياقٌ مجرّب، والبعد عنّا سم قاتل. أيْ محجوب! تزعم أنك اكتفيت عنا بعلمك! ما الفائدة من علم بلا عمل؟ ما الفائدة من عمل بلا إخلاص؟ (...) من ينهض بك إلى العمل؟ من يُداويك من سم الرياء؟ من يدلك على الطريق القويم بعد الإخلاص؟ ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]. هكذا أنبأنا العليم الخبير».[2]

إنك يا غافل لا تقرأ إشهار رجل يدعو الناس إلى نفسه، إنما تقرأ نصيحة عالم عَدْلٍ يمحض جلساءه الوصية، ويوصي مَن بَعْدَ زمانه من الصادقين بأن الدواء والترياق هو الصحبة والذكر. الذكر والصحبة. «والبعد عنا سم قاتل». نعم والله ولو حَيِيتَ حياة العافية في بدنك وظاهر إسلامك! هل طبت بالله كما طابوا؟ هل وصلت كما وصلوا؟ اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

من وراء الخبرة و«المعاناة» التي وصفها ابن خلدون رحمه الله أمْرٌ زائد، رحمة خاصة يجعلها الله في قلوب أصفيائه، ويجعل طريق امتصاصها إقبال المريد بصدق، وتعلقه بشيخه كما يتعلق الرضيع بأمه، بمحبة وجوعة وشوق.

كان سلوك القرون الأولى سلوك مجاهدة ورياضة لها قواعدها ورجالها كما وصف كلَّ ذلك القشيري في رسالته والغزالي في إحيائه. والشيخ في سلوك المجاهدة مُرشد وصاحب في الطريق وخبير بالعلل وبركة وقدوة. بعد أن أظهر الله كبار المشايخ مثل الجيلاني والرفاعي والشاذلي من بعدهما أصبح السلوك شيئا فشيئا عن طريق

(1) النحل، 43.

(2) البرهان المؤيد، ص: 43.

الشكر. المجاهدة مُكَابَدَةٌ وصبر وصمت وعزلة وصوم وذكر وهم في الخلوات، حتى كان من المشايخ من يمنع مريده من مخالطة أحدٍ عدا شيخه. وطريق الشكر أيسر وأقرب، للشيخ و «مغناطيسيته» وبركته فيها الغناء الأول.

ونرجو من كرم من له الفضل والمنة والرحمة سبحانه أن يتصل مدد السالكين فيما يستقبلنا من زمان بحضرة النبوة فيكون السلوك جهاديا عفويا جامعا مانعا رائعا كما كان في عهد الصحابة وهم في حضن خير البرية ﷺ.

أنت يا من يعتز بعلمه، ولا عمل، فإن كان عمل فلا إخلاص، أيُّ شيء بيدك تريد أن تخرِق به سدود ما بينك وبين ربك مما صنعته غفلتك ورياؤك؟ معك إبرةٌ! اسمع الجيلاني ناصِحَكَ: «يا هَوَس! تعقل! ائتوا البيوت من أبوابها، من أبواب شيوخ الفناء الذين فنوا في طاعة الله عز وجل. صاروا معانيَ، صاروا جليسي بيت القرب. صاروا أضياف الملك يُغْدى عليهم بطَبَقٍ ويراح عليهم بآخر. وتُغَيَّر أنواع الخِلَع (الأوسمة بلسان العصر)، ويَطوف بهم مملكتَه، أراضيَه وسماواتِه، أسرارَه ومعرفتَه. أنت من وراء حائط عرضه فرسَخٌ، ومعك إبرة. كيف لك أن تثقُبَ! القوم إذا وصلوا إلى ذلك الحائط فتح لهم ألف باب، كل باب منها يدعوهم للدخول إليه».(1)

واسمعه يقول: «هذه الطريق لا تُسْلَكُ مع النفس والهوى (...)، هذا شيء لا يجيء بِعَجَلَتِكَ. يحتاج إلى حبال ورجال وصبر ومعاناة ومجاهدة. وأن تصحب بعض ملوك المعرفة حتى يدلك ويعرِّفك ويحمل عنك ثِقلك. تمشي في ركابه، فإذا تَعِبتَ أمر بحملك، أو أردفك خلفَه، إن كنت محبا أردفك خلفه، وإن كنت محبوبا أركبك في سَرْجه وركب هو خلفك. من ذاق هذا فقد عرفه. القعود مع أهل الأهليّة نعمة ومع الأغيار المكذبين نقمة».(2)

اللهم من علينا برحمتك العظمى، واحمل عنا الأثقال، ويسر لهذه الأمة من الرّجال من يفتح للجهاد ألف باب لا كَإِبَرِ المكذبين.

(1) الفتح الرباني، ص: 37.

(2) نفس المصدر، ص: 24.

قال محب حضرتهم:

لِيَكْفِكُمُ ما فيكمُ من جوىً ألقى[1]	فمهلا بنا مهلا ورِفقا بنا رِفقا
وَحُرَمةِ وُدّي لا سئمت هواكم	ولا رُمتُ لي منه فَكاكا ولا عتقا
سأزجرَ قلبا رام في الحب سَلوة	وأهجره إن لم يمت فيكمُ عشقا

وقال متيم في هواهم:

ما ناح في أعلى الغصون هزار	إلا تشوقت لتلك الديارْ
ولا سرى من نحوكم بارق	إلا وأجريت الدموع الغزارْ
وا أسفي أين زمان الحمى	وأين هاتيك الليالي القصارْ؟
وا حر قلبي فمتى نلتقي؟	وتنطفي من داخل القلب نارْ؟
وأنظر الأحباب قد واصلوا	ويأخذ الوصل من الهجر ثارْ
أقول للنفس أبشري باللقا	قد واصل الحِبُّ وقر القرارْ

وقلت زادني الله قربا لجنابه ورزقني محبته ومحبة أحبابه:

وا أسفي على زمن مضى	يا حَسرتَا فرَّطتُ! والعُمرُ طارْ
باللّه ضُمُّوني لجَمْعكُمُ	أهلَ الصَّفا فما لنا منْ قرارْ
تُبتُ لِربّي فأنا ضَارِعٌ	إليه يرحمُ دموعي الغزَارْ

(1) أي يكفي ما ألقَى من عذاب الشوق إليكم.

من أصحب يا رب؟

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.
يا ولي الإسلام وأهله، ثبتني به حتى ألقاك.

لا يهم من احترق فؤادُه حسرة على ضياع عمره بعد أن «أُسمع» أن لله أولياء أن يكون الشيخ الدال على الله بمثابة إمام الصلاة أو حاضنة ترضع أو طبيبا يناول القاصد تَرياقا. همُّه المقيم أن يعثر على من يحدثُه عن الله وعن الطريق إلى الله. هذا المريد اليائس من كل شيء دون الله، المنقطعُ للبحث عن الدليل صنفٌ نادر. قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «مريدو الدنيا فيهم كثرة، ومريدو الآخرة فيهم قلة، ومريدو الحق عز وجل الصادقون في إرادته أقل من كل قليل. هم في القلة والعدم كالكبريت الأحمر. هُم آحاد أفراد في الشُّذوذِ والندور».[1] وكذلك المشايخ الكمل قلة من قِلة من قِلة. قال الشيخ رحمه الله: «من صحت تبعيته للرسول ﷺ ألبسه دِرعا وخَوْذَة، وقلّده بسيفه، ونَحَلَه من أدبه وشمائله وأخلاقه، وخلع عليه من خِلَعِه، واشتد فرحُه به كيف هو من أمته، ويشكر الله ربه عز وجل على ذلك. ثم يجعله نائبا له في أمته، ودليلا وداعيا لهم إلى باب الحق عز وجل (...) وهم آحاد أفراد، من كل ألفِ ألفٍ إلى انقطاع النفس واحدٌ».[2]

إن وجد الطالبُ الغريبُ الفريد، الصادق في طلبه، فكيف لقاؤه مع ذلك الوارث الكامل المتحقق بتبعيته الشاملة للرسول ﷺ، النادر حتّى لا تجد إلاّ واحدا في الخلق بعد أن تصعد الحساب إلى آلاف الآلاف تعدها حتى ينقطع نَفَسُك؟

(1) الفتح الرباني، ص: 58.
(2) الفتح الرباني، ص: 107.

تلتفت إلى مصدر الهداية والنّور والدلالة على الله وهو الرسول المكرم ﷺ فيخبرك أن: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». [1] انظر وابحث وتحرَّ لئلا تسقط على أول خطيب يسحرك ببيانه، أو أول واعظ رقَّق قلبك فأبكاك وأبكى الناس، أو أول ذي رئاسة في العلم الظاهر حوله هالة وتلامذة، أو أول متشايخ من أبناء الفقراء له في الطريقة نسب عريق، أو حتى أول مُبَهْرِج نصّاب مرتزق، بل أول شيطانيٍّ عراف يُخبرك أخبار بيتك ويُمخرق وتزدحم العامة الذبابية على بابه.

رتبة المشيخة الحقيقية عالية نادرة عزيزة الوجود، فكيف السبيل إلى معرفة صاحب الأهلية وأنت قاصر؟ قال الإمام أبو حفص عمر السهروردي رحمه الله: «رتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله». ولقب «شيخ» لقب ذائع شائع حتى ليطلقه عامة العامة وعامة القُراء على كل من يفتح الكتابَ ويُنَسِّق بعض العبارات ويتصدّى للفتوى وفصل الأحكام.

أمامك إحدى ثلاث طرائق للنظر والبحث فيمن تخالل. فالأمر موكولٌ إليك.

أول طريقة أن تعتمد على موازينك المسكينة وتزن بها من يُشار عليك بصحبته. تجيء بمواصفات مسبقة وَقَرَتْ في فهمك، فربَّما تتصور هذا الوارثَ الكامل النائبَ في مقام الدعوة إلى الله على صورة ما يشبه الملائكة، فكن على ثقة أنك لن تعثر على شيء ولو انقطعت أنفاسك مرات في عد الآلاف، ولو انقطع عمرك في السياحة شرقا وغربا تحمل معك تلك الموازين المسكينة. ذلك أن أولياء الله أصنافٌ ومراتب وألوانٌ، منهم الوسيم الجميل الفصيح البليغ الجامع بين علم الظاهر وعلم الباطن، ومنهم الأشعث الأغبر، الذي لا يكاد يُبين. وربما يفوتُك الفَوْت حين تتخطّى رجلا عاديا في مظهره لا يُؤبَهُ له، وهو من هو. قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «رُبَّ أشعث أغبرَ مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه».

ويعقد نفس الإمام مسلم رحمه الله في كتاب «فضائل الصحابة» بابا لذكر نموذج الولي الأشعث الأغبر: «بابٌ من فضائل أُوَيْسٍ القَرنِيِّ رضي الله عنه». روى في هذا الباب أن وفدا من أهل الكوفة وفدوا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(1) أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

زمان خلافته، وفيهم رجل ممن كان يسخر بأُوَيْس. فقال عمر: «هل ههنا أحد من القَرَنِيِّينَ؟» فجاء ذلك الرجل فقال عمر: «إن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلا يأتيكم من اليمن يقال له أُويس. لا يدع باليمن غير أم له. قد كان به بياضٌ فدعا الله فأذهبه عنه إلا موضعَ الدينار أو الدرهم. فمن لقيه منكم فليستغفر لكم»».

الصحابة ذوو القدر العالي عند الله ورسوله يُنصحون بالتماس بركة رجل ما هو من الصحابة ولا ممن يؤبه بهم، دعاؤه مستجاب. فأين تقع موازينك من معرفة الرجال؟

الطريقة الثانية أن تجرِّب ثم تجرب حتى تعرف من نفسك هل عثرت على من: «ينهض بك حاله ويدلك على الله مقاله». وهنا أيضا إن اعتمدت على يقظتك وفطنتك ستقضي عمرا طويلا في بلاد التيه لأنك لا تستطيع تُميز بين«النهضة» التي يحدثها فيك مقال الواعظ الصادق الذي يسمعه العاصي فيتوب إلى الله على يديه، وبين «نهضة» القلب الذي تنتزعه صحبة العارف الوارث من لصوقه بالدنيا، وتحلق به في سماء طلب وجه الله. ثم إنك قد تجرِّب على المطلوب الحقيقي فتجده على غير ما كنت ترجو. وقد يصدر منه السلوك البشريُّ العاديُّ فتنكره، فلا تستطيع معه صبراً كما لم يستطع موسى صبراً مع الخضر عليهما السلام. نعم، لا يكون أحد من الصالحين، بَلْهَ أن يكون من الأولياء المتبوعين وهو مرتكب للكبائر مصر على الصغائر. ميزان الشرع معك هو وحده عاصمك. لكن ما زاد عليه مما هو من مثاليات معاييرك المسبقة فأوهام لا تنفع.

كنتُ حين استوحشت من الدنيا عِفْتُ نفسي وطار لُبِّي في طلب الحق عز وجل. اخْشَوْشَنْتُ وانقبضت وانصرفت للعبادة والتلاوة والذكر آناء الليل وأطراف النهار. فلما منّ علي الحنان المنان له الحمد والثناء والشكر بلقاء شيخي رحمه الله وجدت أنْساً ورحمة وطلاقة وبشرا وفرحا بالله. ما كنت أتصور مدة انقباضي و«أزمتي» وبحثي أن من شأن مريد صادق أن يضحك، ولا أن يلتذ بطعام وشراب، ولا أن يستقرّ به فراش وينعم بنوم.

دعك من الاعتماد على غير الله، وابحث واحمِلْ معك ميزان الشرع، لكن لا مخرجَ لك من البحث التائه إلاَّ أن تقف على باب الملك الوهاب الهادي. استخره

واستعنه وتوكل عليه ولن تعدُوَ قدرك ومقدورك وسابقتك على كل حال. قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «إذا أشكل عليك الأمر ولم تفرق بين الصالح والمنافق فقم من الليل وصل ركعتين ثم قل: يا رب دلَّني على الصالحين من خلقك، دلني على من يدلني عليك، ويطعمني من طعامك، ويسقيني من شرابك، ويكحل عين قلبي بنور قربك، ويخبرني بما رأى عيانا لا تقليدا». [1] وقال: «إذا أردت أن تصحب أحدا في الله عز وجل، فأسبغ الوضوء عند سكون الهمم ونوم العيون، ثم أقبل على صلاتك تفتح باب الصلاة بطُهورك، وباب ربِّك بصلاتك. ثم اسأله بعد فراغك: من أصحب؟ من الدليل؟ من المخبر عنك؟ من المفرِّدُ؟ من الخليفة؟ من النائب؟ هو كريم لا يخيِّبُ ظنَّك. لا شك يُلهم قلبك، يوحي إلى سرِّك، يفتح الأبواب، يضيء لك الطريق. من طلب وجدَّ وجد». [2]

من علامات صدق طلبك أن تُديم الوقوف بباب الملك الوهاب، وأن تديم التوسل إليه والضراعة والاستغفار والاستخارة. ثم توكل عليه بعد أن يطمئن قلبك، ولا تلتفت إلى وراء. فإن حَسْبَك الله.

يقول المعترض الخليُّ من هم الله وهمِّ نفسه وعُمْرِه: ما بالنا وبال الشيخ! الشيخ، الشيخ! القصد معروف، وطريق الآخرة واضحة، والكتاب والسنة بين أيدينا. يقول ذلك وهو في دار الغفلة راقد، طاب له المأكل وهَنَأَ بالمشرب. مجنون بالدنيا وبنفسه، مغرور بهما. لمثل هذا أحملُ رسالة من الشيخ عبد القادر رحمه الله يقول فيها: «تعلّق برجال الحق. أنتم مجانين غَرْقى في بحر الدنيا. رجال الحق يداوون المرضى، وينجون الغرقى، ويرحمون أهل العذاب. كن عنده إذا عرفته، فإن لم تعرفه فابك على نفسك!». [3]

ابك على نفسك إن كنت خاليا من الإرادة العليّة، بارد الهمة، نزّاعا إلى الأرض، مخلداً إليها، راضيا بالحياة الدنيا. وإلا فابك على الله عز وجل أن يتداركك بمن يحملك ويحمل عنك. من فاته الله فاته كل شيء.

(1) الفتح الرباني، ص: 119.

(2) نفس المصدر، ص: 330.

(3) نفس المصدر، ص: 373.

يا بارد يا شاردُ! اسمع مقالة الشيخ الرفاعي: «من فاته الله فاته كل شيء. بالله عليك هذه المعرفة تمر! هيهاتَ هيهاتَ! من خرج عن نفسه وغيره، وصفع أَبَّهَة طبعه، تخلّص من الجهل. جُبَّة صوف وتاج وثوب قصير! جبة حزن وتاج صدق وثوب توكل! وقد عرفتم! العارف لا يخلو ظاهره من بوارق الشريعة وباطنه من نيران المحبة. يقف مع الأمر، ولا ينحرف عن الطريق وقلبُه يتقلب على جمر الوَجد».[1]

يا هذا! ما معرفة الله عبارات تلوكها الألسنة وتُسطَّرُ جملا مرصوفةً على القرطاس. ما هي بضاعة يمر بها التاجر في الشارع، سهلة المتناول رخيصة الثمن. الجبة من الصوف، والتاج من عمامة الفقراء، والثوب القصير شعار الزهاد، كانت براهينَ صدق المريدين زمان الخلوة والانزواء والانطواء. ذهب ذلك الزمان وبقي نداء أهله الصادقُ المُرَدَّد لوصية النبوة بالحزن على ما فات، والصدق في طلب الحق، والتوكل على الله عز وجل في اقتحام العقبة. والطريق مُشْرَعَةٌ إلى الله عز وجل إلى يوم القيامة في وجه من طلب، وجدَّ، وصبر، ووجد الدليل والرفيق، ووجد من يغسله وينقيه ويغذوه ويكسوه ويُجَمِّله حتى يصلح لتلك الحضرة.

الشيخ بمثابة الماشطة، وهي العجوز الخبيرة التي يوكل إليها تزيين العروس ليوم جلوتها. قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «يا غلام! العمل بالقرآن يوقِفك على منزِّلِه، والعمل بالسنّة يوقفك على الرسول نبيِّنا محمد ﷺ. لا تَبْرَحْ بقلبك وهمتك من حول قلوب القوم. الشيخ هو المستفتِح باب القرب لها. هو الماشطة. هو السفير بين القلوب والأسرار وبين ربها عز وجل (...). لو ملكت الدنيا كلّها ولم يكن قلبك كقلوبهم كنت لا تملك ذرة. (...) ويحك! اعرف قدْرك! إيش أنت بالإضافة إليهم؟ أنت كل همك الأكل والشرب واللبس والنكاح وجمع الدنيا والحرص عليها. عَمَّالٌ في أمور الدنيا، بطّالٌ في أمور الآخرة. تعبِّئ لحمك، وتهدفه للدود وحشرات الأرض».[2]

(1) البرهان المؤيد، ص: 39.

(2) الفتح الرباني، ص: 76.

وقال: «إنك عبد مَنْ زِمامُكَ بيده. إن كان زمامك بيد الدنيا فأنت عبد لها. وإن كان زمامك بيد الأخرى فأنت عبد لها. وإن كان زمامك بيد الحق عز وجل فأنت عبد له. وإن كان زمامك بيد نفسك فأنت عبد لها (...). منكم من يريد الدنيا، والقليل منكم من يريد وجه رب الدنيا والآخرة».[1]

وقال المشتاق إلى لقياهم، المحترق شوقا ولهفة:

يا راحلا وجميل الصبر يتبعه   هل من سبيل إلى لقياك يتفق؟
ما أنصفتك جنوبي وهي دامية   ولا وفى لك قلبي وهو يحترق

وقال آخر:

فأسفا لأيام وإخوان مضوا   ومنازل فارقتها مغلوبا
قلبت قلبي جمرة من بعدهم   ولبست عيشي بعدهم مقلوبا
طالبت بعدهم الزمان بمثلهم   فأجابني هيهات، لا مطلوبا!

وقال آخر:

فآها من الرَّبع الذي غيَّر البلى   وواها من القوم الذين تفرقوا
أصون تراب الأرض كانوا حلولها   وأحذَرُ من مَرِّي عليها وأفرق
ولم يبق عندي للهوى غير أنني   إذا الرّكب مروا بي على الدار أشهق

وقلت عافاني الله وإياكم من البرود والشرود:

يا رب قيِّض قبل حين مَنيَّتي   عَبداً مُنيباً أتَّخذه خليلاً
أنِفَ الفؤادُ من الحياة بدونكم   فمتى أصيب إلى الوصول سبيلاَ؟
ومَتى تَدارَكُني عناية فضلكُم   ومتى ألاقي في الطريقِ دليلاَ؟

---

(1) الفتح الرباني، ص: 188.

ولادةُ القلب

بسم اله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾. اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا ومن عذاب الآخرة.

موتى هم أكثر من في الأرض، على رَشْحَةٍ من حياة هو المسلم الغارق في لُجَّةِ الدنيا، على رجاء في الحياة الآخرة هو المؤمن الذي تاب وعمل صالحا. الأحياء عند ربهم هم الشهداء قتلوا في سبيل الله. وللأولياء حياة مثلها معجَّلةٌ قبل مفارقة الروح الجسد. لهم ميلاد قلبيٌّ ووجود جديد. على هذا شُدَّ يَدَكَ. واعلم أن الشيخ الكامل أبٌ لروحك إن عثرت عليه وأحبَبْته وصحبته وكان لك عنده من الله وديعةٌ سبقت إليك بها الحسنى من المنعم المتفضل الوهاب سبحانه. كل ما سمعته من أن الشيخ كإمام الصلاة أو بمثابة طبيب مرشد يمكن أن يطابق حال طالب الاستقامة، يتمسح بشيخ على مَسْحَةٍ من صلاح، يتمسح قبرٌ بقبرٍ، يسيرُ ميِّتٌ في جنازة ميت.

على هذا شُدَّ يَدَكَ، ودعهم يرمونك عن قوس واحدة ويَسْلِقُونَكَ بألسنة حدادٍ: ما هذا الهراء ! اقرأ لنفسك قول الله تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾.[1] واقرأ عليهم قوله عز من قائل: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**﴾.[2] ﴿**قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾.[3]

ويا حسرتا على من يستخفّ بكلام الرجال، يفنون عمرهم في تحقيق الطريق ليُدْلوا لك بشهادتهم ويقدموا لك النصح الخالص على طبق! يا حسرتا على من لم

---

(1) الأنعام، 122.

(2) النمل، 80.

(3) الأنعام، 91.

يسمع! ويا حسرتا على من لم يذق! ويا حسرتا على من لم يشمَّ حتى الرائحة لأنه استغشى ثيابه لـمّا جاءته كلمة النصح، وجدها مرة. أزُفُّ لغير هذا الميت، فما لجُرْحٍ بميِّت إيلامٌ، كلمةَ أسَفٍ من ابن القيم ناصحك ووامقك. قال رحمه الله: «فوا أسفاهاً! وا حسرتاه! كيف ينقضي الزمان، وينفد العمر والقلب محجوب، ما شمَّ لهذا رائحة. وخرج من الدنيا كما دخل إليها وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيشة البهائم، وانتقل منها انتقال المفاليس. فكانت حياته عجزاً، وموته كمداً، ومعاده حسرةً. وا أسفا! اللهم فلك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التُكْلان، ولا حول ولا قوة إلاّ بك».[1]

ذبح القوم نفوسَهم، ووطئوا بالأقدام شهواتهم وأنانيَّتَهم، وصلّوْا على الدنيا صلاة الجنازة، وجاءوا حبواً على الركب ليلْقَوا رجلا يعطف، ويؤوي، ويتعهد الزرع، ويسقي الريحان القلبي إذا تفتح، ويمشط العروس ويطيب ويبخر، ويستقبل المولود ويرضع ويفطم ويغذو.

هل بوسعك أن تذبح نفسك وهواك وأنانيتك هذه الذبحة لتجد رَوْحَ الشهادة في سبيل الله إن فاتتك الشهادة في صف القتال؟ «تميتها فلا يبقى لها عندك من القدر شيءٌ، فلا تغضَب لها، ولا ترضى عنها، ولا تنتصر لها، ولا تنتقم لها. قد سَبَّلْتَ عِرْضَها ليوم فاقتها وفقرها، فهي أهون عليك من أن تنتصر لها». وإنما تنتصر لله، وتغضب لله ثم يقول صاحب هذا الكلام، ابن القيم رحمه الله: «وهذا وإن كان ذبحا لها وإماتة عن طباعها وأخلاقها، فهو عين حياتها وصحتها، ولا حياة لها بدون هذا البتَّةَ. وهذه العقبة هي آخر عقبة يُشرف منها على منازل المقرَّبين، وينحدر منها إلى وادي البقاء ويشرب من عين الحياة، ويخلِّصُ رُوحه من سجون المحن والبلاء، وأسر الشهوات، وتتعلق بمعبودها وربِّها ومولاها الحقِّ. فيا قرة عينها به ! ويا نَعيمَها وسرورها بقربه ! ويا بهجتَها بالخلاص من عدوها! (...) وهذا الزهد (في النفس) هو أول مهر الحب، فيا مُفلسُ تَاجِرْ!».[2]

(1) طريق الهجرتين، ص: 268.

(2) نفس المصدر، ص: 325.

هذا هو الـمَهْرُ، تتقدم به إلى والدك الرّوحي ليتاجِرَ لك في قضيتك، ويخطب لك، ويَجْلُوَ لك العروس، ويشرِف على الميلاد السعيد.

لا تظنَّ أخي أنّ القوم يُنَمِّقون العبارات، ويتجاوزون حدود الاستعارة والمجاز ليحلِّقوا في سماء الخيال معبِّرين عن مواجيد غامضةٍ. أولئك أصحاب الشّطحْ حين تجمح بهم الحقائق. أما مسألة الميلاد القلبي والوجود الجديد والفناءِ بعدَه البقاءُ ورضاع الوليد وفطامه وتربيته فهي مراحل للنشأة الآخرة التي ينشئها الله عباده بعد مفارقة الروح الجسد، يعجلها سبحانه لأوليائه تعجيل تشريف وتكريم ليكونوا على بصيرة يستبشر بعضهم بما آتاهم الله من فضله في خاصة نفسه، ويتصدّى فحول الكُمَّل للإشراف على تربية جنين من جاء بالـمَهر وأخلص لوجه الله الطلب والإرادة والهمة.

قال الإمام أبو حفص عمر السهروردي في كتاب «عوارف المعارف»، وهو من أئمة القوم رضي الله عنهم، غير السهروردي المقتول الفيلسوف الزنديق. قال: «وبما هيأ الله تعالى من حسن التأليف بين الصاحب والمصحوب، يصير المريد جُزْءَ الشيخ كما أن الولد جُزْءُ الوالد في الولادة الطبيعية. وتصير هذه الولادة آنفا ولادة معنوية».[1]

بهذا الميلاد المعنوي يدخل المريد عالم الملكوت مع رفاقه وَلِدَاتِه وإخوتِه في الشيخ، إخوته في الله. قال: «والمشايخ منهم من يكثر أولاده ويأخذون عنه العلوم والأحوال ويُودِعُونَها غَيْرَهم كما وصلت إليهم من النبي ﷺ بواسطة الصحبة. ومنهم من تقل أولاده. ومنهم من ينقطع نسله».

قال قدس الله سره: «الولادة الظاهرة يَطرُق إليها الفناء، والولادة المعنوية مَحْميَّة من الفناء (...). فتبين أن الشيخ هو الأب معنى».[2] وكان الشيخ أبو النجيب يقول: «ولدي من سلك طريقي واهتدى بهديي».

ويفصل الإمام بعد هذا مراتب الشيوخ: أولها: «السالك المجرَّدُ الذي لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه. فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى

(1) عوارف المعارف على هامش الإحياء، ج 2، ص: 16 – 18.

(2) نفس المصدر، ج 2، ص: 21.

في مقام المعاملة».[1] هذا رجل صالح لم يذبح نفسه ولم تُجْلَ عروسه، ولم يولد جنينُه. المرتبة الثانية مرتبة المجذوب الذي تَخْطَفُه يد القدرة عن وجوده. وقد يسيح في الأرض ويقول الناس: مجنون! هذا، «يُبادئه الحق بآيات اليقين، ويرفع عن قلبه شيئا من الحجاب، ولا يؤاخذ في طريق المعاملة». هذا مُوَلَّه في ربِّه لا حاجة له بشيخ، وهو من «صبيان الحضرة»، من الأطفال الأبديين. المرتبة الثالثة مرتبة «السالك الذي تُدُورِكَ بالجَذْبة». ثم المرتبة الرابعة مرتبة «المجذوب المتدارك بالسلوك»، «يرتوي من بحر الحال ويتخلّص من الأغلال والأعلال».

وأعلى المراتب مرتبة المراد المحبوب المقرَّب «الذي أهل للمشيخة، سلم قلبُه، وانشرح صدره، ولان جلدُه فصار قلبه بطبع الروح، ونفسه بطبع القلب. ولانت النفس بعد أن كانت أمارة بالسوء مستعصية. ولان الجلد للين النفس». ويقبله الحق عز وجل حتى يتحرر «ويصير حرّا من كل وجه».

قال رحمه الله: «واعلم أن مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام، وقد سبق شرح الولادة المعنوية. فأوان الارتضاع أوان لزوم الصحبة. والشيخ يعلم وقت ذلك (...). فلا يأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلا بعد علمه بأن آن له أوان الفطام (...) ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الأعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ما ينال المفطوم لغير أوانه في الولادة الطبيعية».[2]

قال: «الطالب الصادق إذا دخل في صحبة الشيخ، وسلَّم نفسه، وصار كالولد الصغير مع الوالد، يربيه الشيخ بالعلم المستمَدِّ من الله تعالى بصدق الافتقار».[3] وعندئذ يصبح له وجود جديد. قال رحمه الله: «وهذا الوجود موهوب مُنَشَّأٌ إنشاءً ثانيا للمتمكن في مقام الصحو. وهو غير الوجود الذي يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة، لمن جاز على ممر الفناء إلى مَقَارِّ البقاء».[4]

(1) عوارف المعارف على هامش الإحياء، ج 2، ص: 22 – 26.
(2) نفس المصدر، ج 2، ص: 43.
(3) نفس المصدر، ج 2، ص: 45.
(4) نفس المصدر، ج 1، ص: 214.

عن هذا الوجود يقول ابن القيم المتحسِّر عليك يا من تُسَمَّعُ ولا تَسمع: «فإن اللفظ لملوم، والعبارة فتانة (...). يذهب العبد عن إدراكه بحالِه لما قهره من هذه الأمور. فيبقى بوجود آخر غيرِ وجودِه الطبيعيِّ. ولا أظنك تصدق بهذا. وأنه يصير له وجود آخر! وتقول هذا خيال ووهم! فلا تعجل إنكار ما لم تحط بعلمه، فضلا عن ذوقِ حاله، وأعط القوس بارِيَها، وخل المطايا وحاديَها».[1]

ويسأل المنكر: ما الدليل؟ فيجيب العالم العامل الجهبذ ولي الله تعالى: «إن طالب الدليل إنما يطلبه ليصل به إلى معرفة المدلول. فإذا كان مشاهداً للمدلول، فما له ولطلب الدليل.

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النّهار إلى دليل

فكيف يحتاج إلى إقامة الدليل على من النهار بعض آياته الدّالة عليه؟»[2].

القوم لا يقرّرون للعقل أدلّة المنطق لأنهم لا يضعون أنفسهم معك في موضع الجدال. إنما ينبسطون إليك مشافهة وكتابة ليخبروك بواقع، ويشهدوا لديك، ويبشِّروك، ويستنهضوك ومن آلاف آلاف الشاكّين والمشككين واللاهين الغافلين الغرقى واحد يجد الوديعة، ويُسْهِر لياليَه الخَبَرُ، ويؤرقه وقع الشهادة، ويقبل البشرى، وينهض يبحث عن أبوّة روحيّة.

هل عند المعترضين تحت لافتات السلفية المقلدين ما يفسرون به تصريح عظماء الرجال في شأن الولادة والأبوة الروحية؟ هذا نص آخر نقدمه إليهم عسى الله أن يعفو عنا وعنهم. قال ابن القيم رحمه الله: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يذكر ذلك (أي مرتبة الوجود الثاني التي هي أعلى مراتب الإحسان) ويفسره بأن الولادة نوعان: إحداهما هذه المعروفةُ، والثانية ولادة القلب والروح وخروجهما من مَشِيمَةِ النفس وظلمة الطبع. قال ابن تيمية: وهذه الولادة لما كانت بسبب

(1) مدارج السالكين، ج 3، ص: 326 – 327.

(2) نفس المصدر، ج3، ص 326.

الرسول كان كالأب للمؤمنين (...) قال: فالشيخ والمعلم والمؤدب أب الروح. والوالد أب الجسم».[1]

قلت: وهذا توسيع وتعويم للمعنى الدقيق الرقيق الذي يعرفه القوم، ويطل عليه العلماء العاملون أولياء الله على «قدرهم المشترك».

الشيخ الكامل الوالد المربي مراد أهل الله، وغايةُ مناهم. قال السهروردي رحمه الله: «الشيخ المطلَق، والعارف المحقِّق، والمحبوب المعتَّق نظره دواءٌ، وكلامه شفاء. بالله ينطق. وبالله يسكت. كما وَرد: لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه (...) الحديث. فالشيخ يعطي بالله، ويمنع بالله».[2]

على مثل هذا شُدَّ يدك إن ظفرت به، وازهد في الدنيا ومن فيها. قال المشفق المحب ابن القيم رحمه الله: «لا ريب أن عيش المشتاق مُنغَّصٌ حتى يلقى محبوبَه. فهناك تَقرّ عينه، ويزول عن عيشه تنغيصه. وكذلك يزهد في الخلق غايةَ الزهد لأن صاحبه طالب للأنس بالله والقرب منه. فهو أزهد شيء في الخَلْق إلا من أعانه على المطلوب منهم، وأوصله إليه. فهو أحب خلق الله إليه. ولا يأنسُ من الخلق بغيره، ولا يسكن إلى سواه. فعليك بطلب هذا الرفيق جُهْدَك. فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحبا ودع الناس كلهم جانبا».[3]

أقول: إن لم تظفر به فالجأ إلى باب المولى الهادي ليهديك إليه، ويدلّك على الدالِّ عليه. لا تكن قبوريا تتردّد على أضرحة الأولين، تتمسح بالأشباح الخاوية أشباح المتطفلين المتقولين. في أهل عصرك طلبتك، فيا ربِّ من الدليل عليك؟

قال الطالب الخبير بما يطلب:

ما الناس إلا الصالحون حقيقة ... وسواهم متطفل في الناس
كم بين أموات زمان حياتهم ... معنى وأحياء مع الأنفاس

(1) مدارج السالكين، ج 3، ص: 69.

(2) عوارف المعارف على هامش الإحياء، ج 2، ص: 26 – 28.

(3) مدارج السالكين، ج 2، ص: 54.

فـإذا ظفـرت بصالـح فاشـدد بـه　　　كفيـك تشـدد بالطبيـب الآسـي

وقال محب فارقه الوالد بعد الفطام:

لـو كنت أملك طرفي ما نظرت به　　　مـن بعـد فرقتكم يومـا إلـى أحـد
ولسـت أعتـده مـن بعدكـم نظـرا　　　لأنـه نظـر مـن ناظِـرَيْ رَمِـدِ

وقلت اعترافا وشكرا لله والناس:

كـم بَيـن مَيـت للزَّمـان يُقاسـي　　　ومُحبَّـبٍ حـي مشـى في النَّـاس
جعـلَ الإلـهُ لنـوره في قلبـه　　　مثلاً من المشكاةِ والنِّبـراسِ
يـا ربِّ عَجِّـل لـي اللِّقـاءَ بمثلـه　　　واخْـترْ لِعِلَّـتيَ الطَّبيـبَ الآسِـي

المحبَّة والأدبُ عمادُ الطَّريق وسِمةُ الطائفَة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.
اللهم إني أسألك غناي وغنى مولاي.

كثيرا ما تسمع مسلما جديدا أتى إلى الإسلام من الكفر أو الإلحاد يقول: هذا ميلاد جديد لي! ويقول التائب من الذنب: هذا ميلادي، ويقول الداخل مع المؤمنين في جماعة: هذا ميلادي. وما منهم إلا صادق يعبِّر عن فرحه وتحوله الحقيقيين. وبهذا الاعتبار فالمربي والمعلم والمؤدب والواعظ والداعية المرشد آباء بمعنى ما. لكن الميلاد القلبي الروحي حقيقة أخرى لا مقارنة بينها وبين غيرها. من السالكين من يخبره الشيخ، إن رأى في ذلك حكمة، بهذه الأمور، أو يبشره بميلاده وخطواته نحو الرجولة. ومنهم من يمثّل الله تعالى له ذلك في رؤيا المنام أو اليقظة. ومنهم من لم يقرأ ولم يسمع عن شيء من ذلك حتى فاجأه الفتح وجاءه النصر، وارتفعت على رأسه أعلام الولاية وهو يرى نفسه أحقر من أن يتطلع لأفق أعلى من مغفرة ذنبه.

من السالكين من تُطَوِّرُه العناية الإلهية في أطوار السلوك إلى الوجود الثاني والنشأة الآخرة وهو فاتح عينيْه على المشاهد والمقامات والأحوال، مشغول بالفرجة على تلك المغاني السَّنيَّة. وأعلى السلوك وأكملُه وأقربُه وأحبّهُ وأطيبه سلوك كبار الصحابة رضي الله عنهم الذين نشأوا ورشدوا في حجر خير البرية ﷺ، إمام الأنبياء، وأب الأولياء. كبار الصحابة هم سادة الأولياء وأئمتهم. فضلوا الكل بالصحبة المباشرة لأكرم مخلوق على الله. وفضلوهم بالجهاد، شغلتهم نُصرة الله ورسوله عن تَملِّي بَهاء الأنوار الكونية، وعن تذوق التجليات الربانية. شغلتهم الاستماتة في سبيل الله

في ميادين الجلاد عن ما يحدثه الله عز وجل في قلوبهم وأسرارهم من إنشاء معنوي روحي. شغلتهم الدعوة والهجرة والنصرة وتدبير أمر الأمة عن الاهتمام بالتحولات الباطنية فيهم، زواها الله عنهم، ودبَّرها لهم تدبير الوكيل. كانوا لله فكان الله لهم. ولا تظنَّنَّ أن سكوتهم عما لَهَجَ به من بعدَهم قصورٌ، بل هم في القمة، نالوا ما ناله القوم رضي الله عنهم، وزادوا، وزادوا.

العُمدة ليست في اطّلاعك على ما يفعله الله بك عز وجل، العمدة في اشتغالك بما أمرك. فمما أمرك به الجهاد. كان القوم أحلاس بيوتهم فما وجدوا من جهاد إلاّ جهاد أنفسهم، وأنت يا من تقرأ كتابي أحياك الله في أزمنةٍ أصبح فيها الجهاد لإقامة الخلافة الثانية على منهاج النبوة فرضا. فاشتغل بالعمل الصالح، لكن لا يفتك الله، واطلب من بين المجاهدين من يحضُنك ويطيبك ويبخِّرُك، ويزجُّ بك في حضرة الأحياء بالله في نفس الوقت الذي يحرِّضُك فيه على الجهاد في سبيل الله. إن فاتك طلب الله مع الطالبين، والشوقُ إليه مع المشتاقين، والسير مع السائرين، والولادة في الروح والمعنى مع الوالدين والمولودين، فقد تنال الشهادة الصغرى بالموت الطبيعي، تصيبك رصاصة في سبيل الله. لكن الشهادة الكبرى لا ينالها من انحصرت همته في طلب جنات النعيم ومفاكهة الحور العين. لا ينالها إلا من قتله سيف الحب لله، والحب في الله، والأدب مع الله ومع أولياء الله.

من ظفر بالكنز العزيز، الشيخ الكامل المكمِّل، وحظي عنده بالقبول، فذاك عنوان سعادته. فليحرص على مُخَالَلَتِه، إذ الرجل على دين خليله. وذلك بالتوجه القلبي إليه، وبتعظيمه وتوقيره وتعزيره حتى تتشرب روحُه من روحه، ويستقي غصنه من جذوره. قال الأستاذ القشيري رحمه الله: «وقبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته. ومن ردّه قلب شيخ من الشيوخ فلا محالة يرى غبَّ ذلك ولو بعد حين. ومن خُذِل بترك حرمة الشيوخ فقد أظهر رَقْم شقاوته، وذلك لا يُخطئ».[1]

يؤكد القوم النصيحة باحترام المشايخ وطاعتهم. وقد يقول قائلهم: «يكون بين يديه كالميت بين يدي غاسله». وهي مقالة خطيرة، لأنّ المريد لا يستطيع تمييز الشيخ

(1) الرسالة القشيرية، ص: 184.

الرباني من النصّاب الكذاب، فيسقط في يد نفس طاغية تلعب به كما تلعب بصاحبها. لذلك يفصل الإمام الغزالي شروط الشيخ الذي تتعين حُرمته، ويشير إلى المعاملة اللازمة معه إن أخطأ. فكل ابن آدم خطّاء، حتى كُمَّلُ الأولياء، حاشا المعصومين أنبياء الله. قال رحمه الله: «شرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائبا لرسول الله ﷺ أن يكون عالما. ولكن لا كلّ عالمٍ يصلح للخلافة. وإني أبين لك بعض علامته على الإجمال، حتى لا يدعي كل أحد أنه مرشد: من يعرض عن حبِّ الدنيا وحب الجاه، وكان قد تابع لشخص بصير تتسلسل متابعته إلى سيد المرسلين ﷺ، وكان محسنا رياضةَ نفسه من قلَّة الأكل والقول والنوم وكثرة الصلوات والصدقة والصوم. وكان بمتابعة الشيخ البصير جاعلا محاسن الأخلاق له سيرة، كالصبر والصلاة والشكر والتوكل واليقين والقناعة وطمأنينة النفس والحِلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأنّي وأمثالها. فهو إذا نور من أنوار النبي ﷺ، يصلح للاقتداء به. ولكن وجود مثله نادر أعز من الكبريت الأحمر. ومن ساعدته السعادة فوجد شيخا كما ذكرنا، وقبله الشيخ، ينبغي أن يحترمه ظاهرا وباطنا، أما احترام الظاهر فهو أن لا يُجَادله، ولا يشتغل بالاحتجاج معه في كل مسألة وإن علم خطأه. ولا يلقي بين يديه سجّادته إلا وقت أداء الصلاة، فإذا فرغ يرفعها. ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته، ويعمل ما يأمره به الشيخ من العمل بقدر وُسعه وطاقته. وأما احترام الباطن فهو أن كلَّ ما يسمع ويقبَلُ منه في الظاهر لا ينكره في الباطن لا فعلا ولا قولا لئلا يتسم بالنفاق. وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنه ظاهره».(1)

ظواهر العبادة والأخلاق قد يتحلى بها عابدٌ زاهد فاضل عالم ليس من «فن» السلوك في شيء فيا ربِّ من أصحب! من الدليل! ونلاحظ إلحاح الغزالي على تسلسل المتابعة. وهي نقطة أساسية، فمن لا أب له في طريق القوم لقيط دخيل، إلا أن يكون مجذوبـاً من أطفال الحضرة، وذاك لا يقتدى به ولا يَلِدُ ولا يربِّي. وكان الغزالي رحمه الله من أكثر الناس انقيادا للمشايخ، وبذلك فاز.

(1) أيها الولد، ص: 63.

ويقول الشيخ عبد القادر رحمه الله: «يا قوم! متى تعقلون! متى تدركون الذي أشير إليه! طوفوا على من يدلكم على الحق عز وجل. فإذا وقعتم بهم فاخدموهم بأموالكم وأنفسكم. المشايخ الصادقون لهم روائحُ، لهم علامات ظاهرة نيِّرة على وجوههم. ولكن الآفة فيكم وفي بصائركم وفي أفواهكم السقيمة. ما تفرقون بين الصّدّيق والزنديق».[1] لهم روائح لكن أين لك بالشم الذي به تتخالل الأرواح! قال الإمام السهروردي رحمه الله: «فإذا صادف (المريد) شيخا انبعث من باطن الشيخ صدقُ المحبة بتأليف القلوب وتشامِّ الأرواح وظهور سر السابقة فيهما باجتماعهما لله وفي الله وبالله».[2]

بأدبك مع المخلوق وشمِّك من روحه تتعلم الأدب مع الخالق سبحانه. وبصبرك في صحبته تتماثل للبروز إلى وجودك الروحي الكاملي. قال الشيخ عبد القادر قدس الله سره: «ما تأدبت مع المخلوق وتدعي الأدب مع الخالق! المعلم ما رضي عنك! ولا تأدبت معه، ولا قبلت أوامره. تقعد في الدست وتتصدر! لا كلام حتى يقوم توحيدك على رجلِه ويثبت بين يدي الحق عز وجل، وتخرج من بيضة وُجودك، وتقعد في حِجْر اللطف، وتكونَ تحت جناح الأنس به، وتلقُطَ حَبَّ الإخلاص، وتشرب ماء المشاهدة. ثم تبقى على ذلك إلى أن تصير ديكا». وا أسفا على من يظن أن هذا الكلام تزويق وتنميق! لكن ما الحيلة معك إن كنت قفصا بلا طائر! ما الحيلة إن كانت أنانيتك وكبرياؤك أحبَّ إليك من الله ورسوله!

وقال رحمه الله: «من أراد الفلاح فليصر أرضـًا تحت أقدام المشايخ. ما صفة هؤلاء الشيوخ؟ هم التاركون للدنيا والخَلْق، المودِّعون لما تحت العرش إلى الثّرى، الذين تركوا الأشياء وودَّعوها وداع من لا يعود إليها قطُّ. ودّعوا الخلق كلّهم، ونفوسهم من جملتهم، ووجدوا وجودهم مع ربهم عز وجل في جميع أحوالهم. كل من يطلب محبة الحق عز وجل مع وجود نفسه فهو في هوَس وهذيان».[3]

---

(1) الفتح الرباني، ص: 96.

(2) عوارف المعارف، ج 2، ص: 47.

(3) الفتح الرباني، ص: 263.

وجودُ النفس، هوسُ النفس، أنانيتُها، ذبحُها. اخرج من بيضة وجودك الدنِي، واجلس في «حجر اللطف». عناية الله عز وجل وحدها وسابق علمه فيك كفيلة بذلك. قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «فيا خيبة من لم يعرف الله عز وجل ولم يتعلق بأذيال رحمته! يا خيبة من لم يعاملْه، وينقطع إليه بقلبه، ويتعلق بسرِّه، ويتمسك بلطفه ومِنَنه! يا قوم! الحق عز وجل يتولى تربية قلوب الصديقين من حال صغرهم إلى كبرهم».[1] هذا حظ السابقة. وواجبك أنت في «المعاملة» و«الانقطاع» و«التعلق» و«التمسك» يبينه لك عبد القادر مضيفا: «يا غلام! كن غلام القوم وأرضًا لهم وخادما بين أيديهم. فإذا دمت على ذلك صرت سيدا. من تواضع لله عز وجل ولعباده الصالحين رفعه الله في الدنيا والآخرة. إذا احتملت القوم وخدمتهم رفعك الله إليهم وجعلك رئيسهم. فكيف إذا خدمت خواصَّه من خلقه!». ويقول رحمه الله: «يا من أراد السلوك! استدلَّ بمن قد سلك، وعرف المواضِعَ الـمَخوفَةَ منها، وهم المشايخ العمّال بالعلم، المخلصون في أعمالهم. يا غلام! كن غلام الدليل! اتبعه! اترك رَحْلَك بين يديه وسر معه، تارة عن يمينه، وتارة عن شماله، وتارة وراءه، وتارة أمامه. لا تخرج عن رأيه، ولا تخالف قوله. فإنك تصل إلى مقصودك ولا تضِل عن جادتك».[2]

يقول الغزالي رحمه الله إن الشيخ الكامل نور من أنوار رسول الله ﷺ. ومثل هذا يقول الشيخ أحمد الرفاعي قدس الله سره. وبالمواجهة، قلبا لقلب، مع العارف الكامل يحصل الاستمداد من الحضرة النبوية، وبالتعظيم لجناب الشيخ ورعاية خاطره تُستدام النفحات. قال الرفاعي: «وجِّه قلبك لرسول الله ﷺ، واجعل الاستمداد من بابه العالي بواسطة شيخك المرشد. وقم بخدمة شيخك بالإخلاص من غير طلب ولا أرَب (من غير طلب مكافأة دنيوية). واذهب معه بمسلك الأدب. واحفظ غيبته. وتقيَّد بخدمته. وأكثر الخدمة في منزله. وأقلل الكلام في حضرته. وانظر إليه بنظر التعظيم والوقار لا نظر التصغير والاحتقار».[3]

(1) الفتح الرباني، ص:236.

(2) نفس المصدر، ص: 298.

(3) البرهان المؤيد، ص: 96.

من المتصدرين للإرشاد قبل الفطام، بل بدون أن يكونوا خَطَوْا خَطْوَةً واحدة على طريق الاستقامة، من يطيب له أن يخدمه الخلق، ويتزلفوا إليه، ويكثروا الخدمة في منزله، ويضعوا أموالهم تحت قدميه. وهكذا يَهْوِي التابع والمتبوع في دركات الخزي، يستعبد «الشيخ» الأتباع، وترتع نفسه المخبَّثَةُ في هواها، وتتخبَّثُ نفوسُهم، وتنشأ دويلات استغلاليَّةٌ جاهلية كانت في تاريخنا ولا تزال محطّات للتعفُّن الاجتماعي. إن سَلَّمْتَ نفسك لنفس لاصقة بالدنيا فلا تنتظر إلا المصيرَ الرديء في الدنيا والآخرة. فيا ربّ من أصحب! وكيف أصحب! وأين أولياؤك الذين طلقوا الرئاسات لمّا هاموا في حبك وحب أحبابك!

في كل عصر تسمع من الصالحين أن زمان الصلاح أدبر وولّى، ولم يبق من يصلح للصحبة. وعلى لسان المشايخ المعتَبَرين تسمع أن المطلوب للصحبة نادر ندرة الكبريت الأحمر. وهو كذلك دائما وسيبقى. لكن الطالب الصادق الذي أيقظَ الله عز وجل فيه باعث الإرادة العليَّة والهمة المتقدة من حقه أن يستبشر، فإن الله جلت عظمته أكرمُ من أن يبعثه ويوقفه على الباب ثم يرده خائبا وإن «من كانت له بدايةٌ محرقة كانت له نهاية مشرقة» كما يعبر القوم رضي الله عنهم.

قال العاشق الوامق الطالب الراغب:

محا بعدَكم تلك العيونَ بُكَاؤُها ... وغال بكم تلك الأضالعَ غُولُها
فمن ناظر لم تبق إلا دموعه ... ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا ليَ قلبا بالغرام أذيبه ... عليكم وعينا في الطلول أُجيلُها

وقال الملتاع في هواهم الظامِئ لوِرْدِهم:

تزود من الماء القراحِ فلن ترى ... بوادي الغَضَا ماء قراحا ولا وِردا
ونل من نسيم البان والرَّنْد نفحةً ... فهيهات واد يُنْبِتُ الورد والرندا
وكرَّ إلى نجد بطرْفك إنه ... متى تغْدُ لا تنظر عقيقا ولا نجدا
تلفَّتُّ دون الرَّكْب والعينَ غُمْرَةٌ ... وقد مدّها سيل الدموع بها مدا

لعلـي أرى داراً بأسنمـة النَّـقا فأطْـرَبُنـا للـدار أقربنـا عهـدا
تـلاعَـبُ بـي بـين المعـالم لوعـةٌ فتذهـب بي يأسا وترجع بي وَجدا

وقلت:

وَفي كَبدي من فرط وَجديَ لوعةٌ تَأَجَّجُ في الأحشاءِ ناراً، تَحــرَّقُ
تَنامُ العُيـون السَّاليــاتُ ومُقــلَتي هَتــونٌ بدمعـي، إنَّ شملي مفرَّقُ
إليكَ إلهي الشوقُ فامنُـن بِرحمةٍ يُسدِّد خطــواتي خليـلٌ مــوفَّقُ

قضيَّة الشَّيخ والبيعَة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. اللهم إني أسألك الطيبات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تتوب علي. وإن أردت بعبادك فتنة أن تَقْبِضني غير مفتون.

تحت هذا العنوان كتب الشيخ سعيد حوى رحمه الله في كتابه «تربيتنا الروحية» يذكر أهمية الشيخ ووظيفته الأساسية في قضية التربية. كان كتابه هذا فاتحة مؤلفات له خصصها للحديث عن التربية الروحية، يزداد فيها حَثُّه على الرجوع إلى «تصوف محرر» كتابا بعد كتاب. أعلن في كتابه الأول أنه تتلمذ للصوفية، فهو يكتب في الموضوع عن تجربة. وأوضح حرصه الكبير على «أن يوجد نوع من التصوف السلفي له شيوخه وحلقاته»، وأن الحركة الإسلامية المعاصرة بحاجة إلى هذه التربية المعمَّقة لمواجهة عصر الشهوات، وأن التعاون بين هذه الحركة وبين المشايخ الصوفية أمر ضروري «لتزداد الصلات الطيبة بين الناس. ولتكثر حلقات الخير والعاملون لها، ولكن على أن يكون ذلك كله مستقيما على أصول الشريعة وفروعها، وألا يكون على حساب واجبات أخرى».

في الكتب اللاحقة عرض الشيخ سعيد غفر الله لنا وله ورحمه المشكل في تفاصيله، وهو كيف يستعيد «الإخوان المسلمون» وسائر العاملين في الدعوة روحانية الجماعة التي كانت أساس عمل الإمام البنا رحمه الله دون أن يكون ذلك على حساب واجبات أخرى.

هذه «الواجبات الأخرى» واجبات التحرك السياسي، والتكوين الفكري، والتفرغ التنظيمي ردت التربية الروحية ردا، وهدتها هدّا. فهل من سبيل للجمع بين الجهاد

العملي اليومي المتشعب القضايا وبين التطلع الدائم للملإ الأعلى والتخلق السامي بأخلاق أهل الله؟

اقترح الشيخ سعيد في أحد مؤلفاته اللاحقة تكوين جمعية تضم الربانيين في تنظيم خاص، ووضع لهذه الجمعية قانونا من بضع وثلاثين بندا، ووضع لوائح تنظيمية لها، وبرامج تعليمية، لتكون هذه الجمعية جامعة يفيء إليها الدعاة جميعا ويصدرون عنها وتلفُّهم ويلتفون حولها، من سلفيين وإخوانيين وغيرهم من فئات العاملين.

المشكل صعب عويص. المشكل تربوي نُوراني نوعي قلبي، لا تفيد اللوائح الكمية التنظيمية الفكرية فيه. المشكل أساسا هو كيف تجتمع في القيادة، في شخص واحد أو أشخاص، الربانية والكفاءة الجهادية الحركية كما كانت مجتمعة في البنا رحمه الله.

ويسيطر ظل البنا على الشيخ سعيد سيطرة تامة. فالبنا نقطة البداية. قال: «إننا نملك بفضل الله نقطة البداية الصحيحة. وهي الانطلاق من اجْتهاد إنسان مجدد لا يشك عارفوه أنه من أولياء الله عز وجل، وهو الأستاذ البنا رحمه الله».(1)

من مفهوم التجديد والمجدد ينطلق مؤلفنا ليتساءل عن «مهمة الشيخ في عصرنا؟»، و«ما هي مهمة الشيخ في عصر لم يعد فيه للمسلمين دولة؟»، و«كيف تكون الصلة بينه وبين غيره؟». ويشرح تصوره لهذا الموضوع بأن «رحلة الأمة المريضة إلى الصحة تبدأ بوجود المجدد ونوابه». هذا المجدد هو «نموذج الصحة الأول المتمثل في كل عصر أو قرن أو جيل بالمجدد ثم بالوُرّاثِ الكاملين». ولا يفتأ المؤلف يؤكد أن البنا هو المجدد، إشارة إلى أن «الوُرَّاث» المستحقين للقيادة المؤهلين للتجديد لا بد أن ينبثقوا من الشخص المجدد.

هذا التصور المُغْلَق لدائرة التربية هو بالضبط ما يُسَمَّى في اصطلاح القوم بالتبرُّك. والتبرُّك غير السلوك. التبرك سجّادة ومجلس كان يتصدره الشيخ المؤسس، فلما توفاه الله جلس مجلسه على سجادته «وارث» من أبنائه الدينيين أو الطينيين، واستمر

(1) تربيتنا الروحية، ص: 245 - 246.

في تقليد الأب الروحي للجماعة، وحافظ على التقاليد، واجتهد داخل المذهب التربوي، واتخذ لنفسه ولمن معه سقفا بشريا بينه وبين الله ورسوله، وحرص ألا يُزاد حرف على «وظيفة» الشيخ الراحل وأذكاره. وهكذا تكونت مدارس وطرق، في طيها العارفون بالله أحيانا، وفي طيها المريدون، وفي طيها أصحاب الأحوال والكرامات، وفي طيها كل شيء إلا التجديد الذي مات مع الشيخ رحمه الله.

إن الله عز وجل وحده يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها كما جاء في الصحيح. يبعثه حيث شاء، ولكل فئة من فئات حزب الله أن تزعُم أنها الوارثة لمجدِّدها، تُغمض عينها قرونا عما يُحدثه الله عز وجل الباعثُ الوارثُ خارجَ أسوارها ليبقى لها تماسُكُها ووحدتُها. الله سبحانه وحده قادر على أن يعيد ما تفرق من سنة المصطفى ﷺ لتتجمع الأمة كلها خلف قيادة، في شخص أو أشخاص، في زمن أو أزمان، جامعةٍ للوراثة المحمدية الروحية والجهادية، لاَمَّةٍ لِشَعَثِ ما تَفَرق، مُحْيِيَةٍ لقلوب ماتت، باعثةٍ لهمم هَمَدت وخَمدت، منوِّرة لعقول أخذها الجُهد لتصور «البدائل الإسلامية»، وتحليل الواقع، ووضع الخطط، وإحكام التنظيم، ومواجهة العدو الداخلي والخارجي، عن ذكر الله وعن الصلاة.

نسأله عزت قدرته أن يُلهم من بَعْدَنَا من أحبابه العارفين به وسيلة الجمع، وأن يعطيهم القدرة على سلوك الطريق إليه بهذه الأجيال على منهاج النبوة دعوةً ودولةً.

ولا معنى للتجديد ولا مكان له، ولو برز بين المسلمين زعماء عظامٌ، ما لم يتجدد في الأمة الإيمان بصحبة المجددين. وكذلك كان حال الأستاذ البنا رحمه الله. كان مغناطيسا ومركز إشعاع. وبحاله نهض الإخوان المسلمون، وعلى مقاله لا يزال يعيش كثير من حَمَلَةِ الأقلام وقراء الأدبيات الإسلامية رحمه الله رحمة واسعة.

كان فكر البنا مغناطيسا ملائما لزمانه، كما كانت روحانيته، وهو حي يرزق، آية من آيات الله. وكان حريصا على أن يخرج بجماعته من سلبيات الطريقة الحصافيّة التبركيّة التي تربى طفلا ويافعا بين أحضانها. لكنه احتفظ بالبيعة الصوفية وطوَّرها لتتسع للجهاد الذي ضاقت عنه الصيغة الموروثة عن المشايخ للبيعة. كانت بيعتُه

لأصحابه بيعة مزدوجة، بين السيف والمصحف. بيعة تأخذ من التقليد الصوفي جانبا ومن التنظيم العصري جانبا. ومن بعد البنا رحمه الله تردت هذه البيعة الموروثة عنه بوسائط أو بدون وسائط إلى رباط يمسك بتلابيب الملتحق بهذه الجماعة أو تلك لتضمن الجماعة ولاء عضوها الدائم. وإنها لعرقلة أخرى في سبيل التوحيد المنشود أن تتعدد البيعات وتتضخم. بلوى بلا جَدْوى. بل آفة وطامَّة.

لو اقتصر العاملون للإسلام على الاعتراف بالأمر الواقع لهان الخطب. والواقع أن هذه الجماعات تكونت بعضُها إلى جنب بعض، وبعضها قبل بعض، وبعضها اختلافاً مع بعض، وبعضها انشقاقا عن بعض، لأسباب ترجع إلى التمزق السياسي القطري، وإلى الأصل التربوي والثقافي للمؤسسين، وإلى المرجعية العقدية والمذهبية، وإلى حب الرئاسات ورُعونات النفوس، وإلى الاجتهاد الديني والموقف السياسي، وإلى تاريخ القيادات والجماعات.

لم يعترف العاملون بالواقع كما هو. ومعرفة أسباب المشكل نصفٌ كبير من الحل، بل برَّرَ كل فريق موقفه، وحفر خنادقه، وحصن حصونه. فلعل الربانية التي نبحث عنها تتجاوز بالجميع، إن شاء الله، خطوط التَّماسِّ، ليخمُدَ اتّقاد الوسواس، وتطيب بذكر الله الأنفاس.

لن يتجاوز بالأمة هذه الحدودَ الانغلاقُ التبركيُّ. لن يتجاوزها إلا البناءُ على الأساس المحمدية. وإلا فهو الجمود العقلي، والانحسار التربوي، والتصلب التنظيمي. وتبقى مسألة المشيخة الإحسانية، نكل تدبيرها إلى الله جلت عظمته، ونبث في هذه الأوراق نداءنا إلى العارفين بالله أن يجمعوا الشمل ويقودوا الركب. فكفانا تمزقا.

مهَّد الأستاذ البنا رحمه الله لشروط بيعته في «رسالة التعاليم» بشرح المفاهيم الأساسية لفكره وعمله. فبين ما يقصده بكلمة «فهم»، وهو فهم أصوله العشرين في العقيدة والشريعة والفقه وتمييز ما بين البِدعة والسنة. وبين ما يَعنيه بكلمة «إخلاص»، وكلمة «عمل»، وكلمة «جهاد»، وكلمة «تضحية»، وكلمة «تجرد»، وكلمة «أخوة». وختم بشرح مفاهيمه بمفهوم «الثقة» وقال: «للقيادة في دعوة الإخوان حق الوالد

بالرابطة القلبية، والأستاذ بالإفادة العلمية، والشيخ بالتربية الروحية، والقائد بحكم السياسة العامة للدعوة».

كان أفقه رحمه الله فسيحا جامعا لأطراف ما توزع من معان ومطالب. وكان شخصه الكريم فسيحا جامعا. فصحت قيادته وأثمرت أفضل الثمار. وبقيت البيعة بعده تُراثا ثقيلا. اشترط رحمه الله على الملتحق بالجماعة المؤدي للبيعة ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين شرطا، من بينها الوفاء بتعهدات شخصية مثل اجتناب الإسراف في شرب القهوة والشاي والاعتناء بالنظافة، ومن بينها التعبدية الإيمانية كإتقان الطهارة والصلاة وسائر الفرائض، ومنها الإحسانية كالمحافظة على الأوراد وحفظ القرآن، ومنها الأخلاقية كالحياء ورحمة الخلائق ومساعدة الضعيف، ومنها الحركية كالنشاط الدائم والتدرب على الخدمات العامة، ومنها السياسية كمقاطعة المحاكم الأهلية وعدم الحرص على الوظائف الحكومية، ومنها الاقتصادية كمقاطعة المعاملات الربوية والادخار للطوارئ.

كل هذا جيد، ويصلح نموذجا لإطار تربوي عام. لكن أين النورانية التي تسري من قلب إلى قلب في أسلاك المحبة في الله، وتطير بإرادة مع إرادة على أجنحة الشوق إلى الله، وتنهض بالجماعة في مِحَفَّةِ الصحبة في الله؟ هذا ما يبحث عنه الشيخ سعيد بحث الثكلان.

الشرط السادس والعشرون من شروط بيعة الأستاذ البنا رحمه الله يقول: «أن تديم مراقبة الله تبارك وتعالى، وتذكر الآخرة، وتستعد لها، وتقطع مراحل السلوك إلى رضوان الله بهمة وعزيمة، وتتقرب إليه سبحانه بنوافل العبادة. ومن ذلك صلاة الليل وصيام ثلاثة أيام من كل شهر على الأقل، والإكثار من الذكر القلبي واللساني، وتحري الدعاء المذكور على كل الأحوال».

وهي شروط عالية، من يَفِ بها لا شك يكن من المتقين. من بينها مسألة واحدة لا يفيد فيها إسرار ولا «إعلان» ولا يخبر عنها بَوْحٌ ولا كتمان، ولا هي من شأن دون شأن، ألا وهي مسألة «قطع مراحل السلوك إلى رضوان الله» هذا لا يجيء إلا بصحبة. والمصحوب رجل حي سلك المراحل إلى الله وتقرب حتى أحبه الله وجعل قلبه

مشكاة ونبراسا وسراجا وَهّاجا. ما يحصل ذلك بإجازة تبركية، ولا بالانضواء تحت جناح عظيم من عظماء الأمة، عدا المعصوم ﷺ، قبلةِ القلوب، رحمة العالمين، محبوبِ الرب جل وعلا.

حملت نسائم الحب هذه الرسالة إلى حضرة محبوب رباني:

هذا كتابي إليكم فيه معــذرتي ينبيكمُ اليوم عن شأني وعن سَقَمي
أجللت ذكركم عن أن يُغَيِّــرَهُ لون المداد فقد حبَّرتُه بدمي
ولو قدرت على جلدي لأجعله رَقّاً وأبري عظامي موضعَ القَلَمِ
لكان ذاك قليلا في مودَّتكم وما وجدت له واللهِ من ألَمِ

وقال محب رحل عنه شيخه:

يا صاحِبَيَّ سلا الأوطان والدِّمَنا متى يعود إلى عُسفانَ من ظَعنَا
إن الليَالي التي كنّا نُسَرُّ بها أبدى تذكُّرها في مهجتي حَزَنا
أستودع الله قوما ما ذكرتهمُ إلا تحدر من عينَيَّ ما خُزنا
كان الزمان بنا غِرّاً فما بَرِحت أيدي الحوادِث حتى فطَّنَتْهُ بنا

وقلت غفر الله لي وتاب علي:

هذي يدي فاقبلُوني في رياضكُم لعل ذكـرَ إلهي مُذْهِبٌ سَقَمي
علِّي أُروِّي غَليلي مِن حِياضكُمُ وأقْبِسُ النُّور كيْ تُجْلَى به ظُلَمِي
عسى نسائمُ طُهرٍ مِن جَنابَكُمُ تُحيي فـؤاداً مَواتـاً عُدَّ في الرِّممِ

شُعَبُ الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾. اللهم اجعل أوسع رزقك عليَّ عند كبر سني وانقطاع عمري.

ما العمل إذا وُجدت جماعة فيها أفراد من المؤمنين والمؤمنات يصدقُون بخبر السلوك، ويتوقون إلى السلوك، ويرجون الكمال والقرب من الله، ولم يوجد شيخ بالمؤهلات الموصوفة؟

ما الجواب العمليُّ عن تساؤلات الشباب الإسلامي «تحت إلحاح فطرته الإسلامية الظامئة: كيف السبيل إلى أن أسمُوَ على نفسي وأهوائها في هذه الأزمنة العصيبة وسط هذه المغريات المتأججة؟ كيف السبيل إلى أن أشعُرَ بلذة المناجاة للخالق إذا وقفت بين يديه في صلاة أو جلست أقرأ قرآنا؟ كيف أصنع لأرقي مشاعري إلى الرتبة التي أعبد الله فيها كأنني أراه؟ كيف أجعلُ محبة الله ملءَ كياني حتى لا أحب مع الله سواه؟ وكيف أجعل المخافة منه ملء شعوري حتى يذوب من قلبي الخوف من كل ما عداه؟»).

هذه الأسئلة التي عبر عنها الشيخ الأستاذ الدكتور سعيد رمضان البوطي هي الآن هاجسُ كل الشباب الإسلامي المنتظم في جماعات غلب عليها الفكر والحركية أو هَوَسِيَّةُ الإشارة بأصابع الاتهام إلى الناس.

وسواء كان المطلب عاليا سلوكيا أو على مستوى تطهير القلب بالتعبد والتقوى فوجود الشيخ الرباني المربي أو المرشد المتقي حاجة ماسة، يشعر بها الآن العلماء الرُّوادُ الداعون لإحياء الربانية، ويعبرون عنها بوضوح، ويعطون الجواب العلمي عن أسئلتها. وعند السواد الأعظم من العاملين للإسلام شعور غامضٌ بالحاجة إلى

تربية روحية، وقلق، وملل، لكن كلمة «تصوف»، وكلمة «شيخ»، وكلمة «انتساب»، وكلمة «صحبة» تبقى في حيز مظلم في قاع المخزون الفكري لعامة العاملين، يحيط بها الشك والإبهام والحذر أو صريح الرفض والعداء والقتال.

ما الجواب العملي عن حاجة الصادقين في إرادة الله والسلوك إليه وعن حاجة المتطهرين طلاب التقوى والاستقامة؟ هنا جماعة منظمة لها ضوابطها وهياكلها وأجهزتها وبرامجها. وهناك خارجَ الجماعة شيخ رباني فما العمل؟ أن ينخرط الشيخ في الجماعة أم تنخرط الجماعة كما هي في الشيخ؟ أيؤدّي له الأفراد الطالبون له البيعةَ الصوفية أم يؤدي هو للجماعة البيعة الجهادية؟ وإذا تعارضت تعاليم الشيخ مع أوامر الجماعة وبرامجها أنضحي بالتربية ونطرد الطبيب أم نضحي بالجماعة وندعها تتفتت وتندرج في سلك نِقَابَةٍ صوفية أو طرقية مَوصوفة؟

ليست لديَّ أجوبة جاهزة عن هذه الأسئلة. وعندما يرتفع مستوى الفهم لهذه القضية الكبرى في صفوف الجماعات وتُدرَك ضرورة اجتماع الأزِمَّة في يد واحدة لا في أيد متعددة، هناك تنظيم وهناك تربية، تتسع لديها السبيل للجمع بين وظيفتين فلا تجد إلاّ أن يخضع الظاهر للباطن، أن يتبع التنظيم التربية، أن تكون الدعوة أميرة على الإدارة والدولة. لا يزال تصور العاملين في الجماعات لوظيفتهم الدعوية فيما بينهم وفيما يلي الشعب الظامئَ للإسلام تصورا غامضا. لا يزال كثير من العاملين يظن أن دواليب الدولة، بعد استخلاصها، تنتظر كل زيد وعمرو من الشباب الملتحي الصادق. تصور يفضي بالذوبان الإرادي للجماعة في الجمهور، للدعوة في الدولة.

لتفادي ذوبان التربية في التنظيم وغرقها فيه، ولتفادي ذوبان الدعوة في الدولة لا بد من قيادة واحدة، قيادة رجال تحرروا من كل شيء وخلصوا لله وحده. قلبُهم يعمره حبُّه، وكيانهم يملأه ذكره، وعقولهم ينوِّرها علمه. إذا كانت القيادة مغروزة في الواقع الجاري العاتي المتلاطم الأمواج، لم تتجرد عنه لتشرف عليه من أعلاه، وتتحكم فيه بأمر الله، فكفيل أن تكون معركة الدعوة المحمولة على غير بيِّنة وربانيَّة مع الباطل المجهَّز بأحكم الوسائل معركةً مخذولةً بنسبة ما ينقص الجماعة وقيادتها من تعلق بالله، وقرب من الله، وولاية لله.

الوصلة الصحيحة بين الصحبة والجماعة قيادة ربّانية واحدة. فإن ارتفع مستوى الفقه الديني للجماعة حتى تعرف أن الدين إسلام وإيمان وإحسان، وحتى تعرف، ولو بالتسليم والتصديق، معنى المعرفة والكمال والسلوك والولادة القلبية والوجود الثاني والنشأة الأخرى التي يعجلها المولى الكريم لمن شاء من أحبابه، فعندئذ يكون العارف بالله الكاملُ هو الشخص الأمثل لقيادة الركب. قد يكون هذا العارف قاصرا في مظهر ما من مظاهر الكفاءة، كأن يكون غيره أفصح منه لسانا، أو أصح منه بنية، أو أقدر على المعاناة الطويلة لمسائل الجماعة وجزئيات تنظيمها. لكن العارف الكامل معه رأس الأمر كله كما يعبر الشيخ الرفاعي رحمه الله، معه نور الكشف وروح العلم وتوفيق الله عز وجل. فكيف يستغني حزب الله، يوم يرتفع مستوى فهمهم لدينهم، عن قيادة البصير ليقلدوا أمرهم عُشْوانـًا أو عُميانا!

إن العارفَ بالنسبة لعالم النصوص كهذا بالنسبة للجاهل الأمي. قال ابن القيم رحمه الله: «إن العارف صاحب ضياء الكشف أوسع بِطانا وقلبا، وأعظم إطلاقا بلا شك من صاحب العلم. ونسبته إليه كنسبة صاحب العلم إلى الجاهل. فكما أن العالم أوسعُ بِطانا من الجاهل، وله إطلاق بحسب علمه، فالعارف بما معه من روح العلم وضياء الكشف ونوره هو أكثر إطلاقا، وأوسع بِطانا من صاحب العلم».(1)

كان الصديق أبو بكر رضي الله عنه محمولا زمان رسول الله ﷺ على أنه العطوف الرؤوف الليِّن، فلما ولي الخلافة تكشَّف عن رجل هو أقدر الرجال على القيادة، ثابتُ الجنانِ ماضي العزم. واتخذ من أصحاب رسول الله ﷺ وزراء وأعوانا. فكان حسن استعماله لعمر وعلي وأبيٍّ وغيرهم عنوانا آخر لكفاءته. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظاهرَ الكشف يسطع نوره في كل أعماله. كان الصحابة رضي الله عنهم يعرفون من عمر صدق الفراسة، «لا يقول لشيء أظنه هكذا إلا كان كما قال». ظهر ذلك منه رضي الله عنه لطول مدته واستقرار أمره. وإلا فكبار الصحابة من أهل النور والتوفيق جميعا.

لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. والخلافة الثانية على منهاج النبوة لن تكون كذلك إلا إن قادها الربانيون أولياء الله. وفي انتظار أن يفتح الله بالفهم على

(1) مدارج السالكين، ج 2، ص: 420.

العاملين نتضرع إليه سبحانه أن ينزل رحمته من خلوات التبتل إلى ميادين الجهاد. في انتظار أن يكون لِقِرانِ الصحبة والجماعة معنى موصولٌ موحَّدٌ من حياة العاملين نادي أولياء الله العارفين بالله أن يتوجهوا بجند الله من صادقي المريدين وعامة المسترشدين نحو توحيد الجماعات، فتوحيد الجهد، فتوحيد الأمة في أقطارها ومذاهبها ومدارسها ومشاربها، حتى يكون المشربُ محمديا قرآنيا سُنيا محرَّرا من كل عالقات عصور الانزواء والخمول والانكماش.

توحيد تربوي يسمو بالكل، لا يضيره التنوع التنظيمي الفكري الاجتهادي المتعدد.

صحوة إسلامية. من يمدها بيقظة إيمانية وهبة إحسانية غيرُكَ يا حكيمُ يا عليمُ يا قادرُ يا ناصرُ يا ملكُ يا وهابُ!

ينبغي لجند الله أن لا يظنوا بأنفسهم وبربهم إلا الخير. وعليهم في انتظار أن يُخرج الله الولاية وأهلها من مكامنِهم أن يتعاونوا على البر والتقوى كما أمرهم الله. عليهم أن يقاتلوا الخبائث النفسية يدا واحدة كما يقاتلون العدو الخارجي جماعة واحدة. نصح الرفاعي رحمه الله قال: «حاربوا الشيطان ببعضكم، بنصيحة بعضكم، بخلق بعضكم، بحال بعضكم، بقال بعضكم. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾.[1] يقاتلون الشيطان والنفس وعدو الله. يقاتلون الشيطان كي لا يقطعهم عن الله. يقاتلون النفس كي لا تشغلهم بشهواتها الدنية عن عبادة الله. يقاتلون عدو الله لإعلاء كلمة الله ونشر علم الدَّلالة على الله. ﴿**أُوْلَئِكَ حِزْبُ الله أَلَا إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[2]».[3]

ونصح الشيخ عبد القادر رحمه الله أن تكون الصحبة بين الإخوان «بالإيثار والفتوة والصفح عنهم والقيام معهم بشرط الخدمة، لا يرى لنفسه على أحد حقا، ولا يطالب أحدا بحق، ويرى لكل أحد عليه حقا، ولا يقصِّر في القيام بحقهم (...)، ويكون معهم أبداً على نفسه، ويتأول لهم ويعذرهم، ويترك مخالفتهم ومنافرتهم ومجادلتهم

(1) الصف، 4.

(2) المجادلة، 22.

(3) البرهان المؤيد، ص: 75.

ومشادَّتهم، ويتعامى عن عيوبهم، (...) وينبغي أن يحفظ أبدا قلوب الإخوان (...) فلا ينطوي لأحد منهم على حقد».[1]

حفظ القلوب ومخالقة الإخوان وسائر من له علينا حق من العباد بالأخلاق الإيمانية ركن أساسي من أركان بناء الجماعة وبناء المجتمع الإسلامي وبناء الأمة جميعا. وقد جمعت من شعب الإيمان تحت خصلة «الصحبة والجماعة» إحدى عشرة شعبة يكون مجموعها نسيجا لِلأخوة في الله، ورداء يدخل في كنف رحمته القاصي والداني من الأمة. إن شاء الله. تتسلسل هذه الشعب الإيمانية التي يحافظ على حياتها تعاطف أعضاء الجماعة تحت نظر ربانية القيادة وكمالها كما يلي: محبة الله ورسوله، الحب في الله عز وجل، صحبة المؤمنين وإكرامهم، التأسي برسول الله ﷺ في خُلُقِه، التأسي برسول الله ﷺ في بيته، الإحسان إلى الوالدين وذوي الرحم والصديق، الزواج بآدابه الإسلامية وحقوقه، القِوامة والحافظية في علاقة الزوجين، إكرام الجار والضيف، رعاية حقوق المسلمين والإصلاح بين الناس، البر وحسن الخلق.

هذه الشعب من شعب الإيمان، وسائر شعب الإيمان البضع والسبعون، ركائز سلوكية لا يمكن لطامح في مقامات الإحسان وسلوك طريق العرفان أن يتجاوزها أو أن يتنكبها، وإلا كان كمن يبني على غير أساس. إن كان القوم في ماضي الانزواء والانطواء قعدوا أحلاساً في بيوتهم وزواياهم وتكاياهم خفيفي الحاذ لا حقوق عليهم لأهل ولا ولد ولا جار ولا لإصلاح بين العامة والجمهور، فإن جند الله القادمين على الخلافة الثانية جماعة، القادمين على ربهم فرادى في دار الكرامة، لا مناص لهم من اقتحام العقبة النفسية الأخلاقية الاجتماعية، يخالطون الناس لأن «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» كما جاء في الحديث، ويبلغون الدعوة للناس، وأبلغ الدعوة أن يكونوا نموذجاً صالحا يسعى على قدميه في المجتمع، يُعلن بالمثال والاقتناع واللزوم عن أخلاق الإيمان، وجدية المؤمنين، وصدقهم، ولين جانبهم، ودماثة أخلاقهم، وأدائهم للحقوق، وزيادتهم الإحسانَ والخدمةَ والفتوَّةَ والتَطَوُّعَ

(1) الغنية، ج 2، ص: 169.

على النِّصاب الواجب شرعا. لآلِئُ أخلاقية ما أبهاها وأقواها إن انسلكت في سلك حب المؤمنين بعضهم بعضا في الله!

قال محبٌّ سَهَّده فراق أَوِدّائِه في الله:

لا تَلْحَـه إن كـنت مـن سمرائـه   عـذل المحـب يزيـد في إغرائه
ودع الهـوى يقضـي عليـه بحكمـه   مـا شـاء فهـو مسلِّـم لقضائه
فشقـاؤه فيمـا تـراه نعيمـه   ونعيمُـه في ذاك عـينُ شقـائـه
كُحِلتْ مآقيـه بطـول سُـهَاده   وحَنتْ أضـالعـه على بُرَحائِـه

وقال الذاكر لإخوانه الحافظ لعهدهم:

لي بالمغـارب إخـوان وأخـدان   بانَ العـزاء وقلبي يـوم هُـم بانـوا
أنا الذي نـاء جسمـي عن ديـارهم   لكنهـم في فـؤادي حيثمـا كانـوا
شأني من الدهر تَذْكـاري لمجـدهـمُ   وكـل صَـبٍّ لـه مـن دهـره شـان

وقال المشتاق إلى أحبابه في الله، الراجي لقاءهم، الخائف اليائس:

أدال الشـوق يأسـي مـن رجـائي   وأوحـش مـا عهـدت مـن العـزاء
وأولانـي التصبُّـرُ مثلمـا قـد   ألفـت مـن الوِصـال مـن الجفـاء
كأن الدهـر غيـظ مـن ابتسـامي   فأبْـدَلَنيـهِ مُتَصِّـلَ البكـاء

وقلت جمع الله شملي بأحبائي دنيا وأخرى:

الطُفْ بنـا اللهـم قـد ضاقـتْ بنـا   دارُ البَـلا لم نستَمـع لِنداكَـا
تهنـا عـن المنهـاج في غَفَـلاتـنَا   لـم نَستعـدَّ بطـاعـةٍ لِلقاكا
فَامنُـن بخِـلَّان تُنِيـرُ طـريقهـم   بِلوامِـعِ الإحسـانِ من نُعْماكـا

الفصل الرابع

الـذكــر

- ولذكر الله أكبر
- تجديد الإيمان بقول لا إله إلا الله
- سبق المُفَرِّدون
- حِلَق الذِّكر
- الدعاء
- الأوراد وخصائص الأذكار
- التفكر
- الحزن ومحاسبة النفس
- ذكر الموت والدار الآخرة
- الاعتصام بالكتاب والسنة
- شعب الإيمان

ولذكر الله أكبر

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾. اللهم إني أسألك من الخير كلِّه عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم. وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم. وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل. وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل. وأسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ. وأعوذ بك من شر ما استعاذ بك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ. وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا.

قال الله عز وجل في محكم كتابه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾.[1] وقال عز من قائل يخاطب حبيبه ومصطفاه: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.[2] وقال له العزة والمنة: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.[3]

في ثلاث آيات يفصّل لنا مكانة الذكر يرفعنا إلى مقام التأسي برسول الله ﷺ، ومكانَتَهُ في عباداتنا، وأثره في قلوبنا. من لا يذكر الله كثيرا لا أُسوَةَ له برسول الله ﷺ، لا يقدر على التأسي، وهو الاستناد والاتباع، لم يؤهل له. من لا يذكر الله في صلاته وإذا تلا القرآن فلا تلاوة له ولا صلاة. له صورة الصلاة وأركانها البدنية، لكن ذكر الله، وهو الأمر الأكبر والأعظم الذي من أجله شرعت العبادات، فاته ففاته لب العبادة. من صفات المؤمنين الاطمئنان للذكر والاطمئنان بالذكر، فمن لا طمأنينة له بذكر الله لا يستكمل صفات الإيمان.

(1) الأحزاب، 21.

(2) العنكبوت، 45.

(3) الرعد، 28.

لنا في رسول الله ﷺ أسوة إن تحققت فينا ثلاثة شروط: رجاء الله، ورجاء الآخرة، وذكر الله الكثير. في كلمة (رجاء) معنى الانتظار. فالمتأسون برسول الله ﷺ هم المقبلون على الله تعالى، المنتظرون لقاءه، الراجون مغفرته، اشتغلوا بذكره آناء الليل وأطراف النهار، يسبحونه ويمجدونه، عن الدنيا الهاجمة عليهم من كل المنافذ، تُغريهم وتدعوهم ليرتَموا في أحضانها.

جاءت هذه الآية الشريفة في سورة الأحزاب، في سياق وصف الله عز وجل لموقف الرسول الكريم، وموقف المؤمنين، وموقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض. ذكرُ الله في سعة العافية وأمن المسجد والخلوة ذكر عظيم لكن ذكر الله في ساحة الوغى، والعدوُّ محيط، والخوف سار في الأفئدة، ذكرٌ أكبر لأن الذاكر لله الموقن به، بنصره أو لقائه كلاهما مطلب حسن بل أحسن، يصدر عن إيمان أقوى من المصلي التالي الذاكرِ في المسجد والخلوة. وهذا لا يقدر عليه إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن تأسى بهم، واستند إليهم بالصحبة والملازمة والطاعة والاتباع والوفاء بالبيعة الجهادية.

قال الله تعالى يذكر المؤمنين بما حل بهم يوم الأحزاب: ﴿**إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾.[1] ابتلاء شديد وهَلَع وخوف. قال سبحانه: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً**﴾.[2]

هؤلاء المنافقون المتخاذلون المتهالكون المخذِّلون في قلوبهم مرض، لم تطمئن قلوبهم بذكر الله. في هذا الموقف الذي بلغت فيه قلوب أهل الإيمان الحناجر لِما يرون من أهوال، ولِما دب إليهم بالصحبة والرفقة من داء المنافقين مرضى القلوب،

(1) الأحزاب، 10 – 11.

(2) الأحزاب، 12 – 13.

قُساتها من قلة ذكر الله، جاءت الآية الشريفة تأمر المؤمنين بالاستناد إلى رسول الله ﷺ الثابت في موقفه، الموقن بربّه، الموفي بعهده.

كان المنافقون عاهدوا الله قبل المعركة ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً﴾.[1] فلما جدَّ الجد فروا، والتمسوا الأعذار عند رسول الله ﷺ، واتهموا الله ورسوله بأن الله ورسوله ما وعداهم إلا غرورا. خواء في القلوب، ذِممٌ خربة، غَدْرٌ، سلوك انهزامي.

في مقابل هؤلاء الغافلين عن الله صورة الوفاء المطلق الذي وفاه رسول الله ﷺ لميثاقه العظيم الذي أخذه الله على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، حمَّلهم به أمانة الصدق ليكونوا مرجعا وملاذا ونموذجا ثابتا للحق والإيمان والجهاد. قال الله تعالى بين يدي قصة الأحزاب: ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾[2].

أمامنا ثلاث ركائز للإيمان: رسول من الله هو الأسوة، وذكر الله هو الزاد، والصدق المسؤول وفاء بالميثاق مع الله عز وجل.

أُخِذَ على النبيئين عليهم الصلاة والسلام ميثاق خاص، وأخذ على عامة بني آدم ميثاق الفطرة. فمن وصل حبله بحبل النبوءة، وصحب الرُّسُل وتأسى، أو صحب من صحب من صحب وتأسى، امتَدَّ إلى فطرته النائمة عن ميثاقها دَفْقٌ من الحياة الإيمانية، وشع فيها ضوء إحساني من مشكاة الميثاق النبوي الغليظ، واكتسب من جاء برأسمال صدق مزيداً من الصدق.

على هذا الأساس الفطري من جانبك، النبوي من جانب المصحوب الأسوة عليه الصلاة والسلام، تنبني الشخصية الإيمانية الإحسانية بذكر الله. كل العبادات شرعت لذكر الله. كل الأعضاء الظاهرة والباطنة منتدبة لذكر الله. ذكر القلب، أعظمها،

(1) الأحزاب، 12.

(2) الأحزاب، 7 - 8.

ثم ذكر اللسان، ثم ذكر الأعضاء عندما تتكيف بكيفيات الصلاة، أو تُمْسك نهارَ الصوم، أو تطوف وتسعى وتقف وترمي في نسك الحج.

ذكر الله به يتقدس الكيان القلبي للمؤمن، ويكون التقديس أعظم إن كان ذكر الله أدومَ. ويكون ذكر الله أعظم إن كانت دواعي الغفلة وأزمة الموقف أشدَّ. وبهذا يكون الذكر في الجهاد، الذكر عندما يخاف الناس ويزدحمون على مخارج الأمان ومهارب الجبن، أكبر الذكر.

يدلنا الله تعالى على أن كل العبادات تتضمن الذكر، وقد قرأنا آية الذكر في التلاوة والصلاة، فيقول عن الصيام: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ الله عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.(1) وفي الحج، قبله وأثناءه وبعده يقول عز من قائل: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ الله عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ الله كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا الله فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾.(2) والحج جهاد من أشرف الجهاد، كله للذكر وبالذكر. قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، ورمي الجمرات لإقامة ذكر الله».

وفي ختم صلاة الجمعة وهي مشهد عظيم من مشاهد الأمة، لا أعظم في حشدها إلا حشد الجهادِ، ذكر. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ الله وَاذْكُرُوا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.(3)

يقول السادة الصوفية: «من أوتي الذكر فقد أوتي منشورَ الولاية». كلمة منشور معناها في ذلك الزمان الوثيقة التي تتضمن قرار السلطان بتعيين فرد في مرتبة تشريفية ما.

نحن نسأل الله القوي العزيز الحنان المنان أن يكون مستقبلُ الذاكرين الله كثيرا في ساحات الجهاد بكل وجوه الجهاد، تأسيا بالأسوة العظمى ﷺ وبمن معه، تجاوزا

(1) البقرة، 185.

(2) البقرة، 198 – 200.

(3) الجمعة، 10.

لعصور الذكر في قعر التكايا وأمن الخلوات. ونسأله أن يكون سلوكُ من بعدَنا سلوكا جهاديا يكون للأعضاء فيه ذكرها بأنواع العبادات، وللقلب ذكرُه وللسان، وللروح ذكرُها عندما تتقدم مقتحمة عقبات الخوف والتخاذل فداءً لدين الله، وخدمة لتراث رسول الله، وبناءً لأمة رسول الله، وتشييدا للخلافة الثانية على منهاج رسول الله.

ثم بعد الدعاء نقرأ هذه الصفحة المشرقة من نثر شيخ الإسلام ابن القيم قال: «الذكر منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن مُنِعَه عُزِل. وهو قوت قلوب القوم التي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورا، وعمارةُ ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بُوراً. وهو سلاحهم الذي به يقاتلون قطّاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست فيهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إذا مرضنـا تداوينـا بذكركـم فنـترك الذكـر أحيانـا فننْتكِـس

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات. إذا أضلهم البلاء فهو مَلْجَؤُهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم (...).

«في كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة. بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم على كل حال: قياما وقعودا وعلى جنوبهم. فكما أن الجنة قيعانٌ وهو غراسها، فكذلك القلوب بورٌ خراب وهو عمارتها وأساسها. وهو جلاء القلوب ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما زاد الذاكر في الذكر استغراقا، زاد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقا(...)».

«به يزول الوَقْرُ عن السماع، والبَكَمُ عن الألسن، وتنقشع ظلمة الأبصار. زيّن الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصمّاء، واليد الشلاء».

قلتُ: هنيئا لهذا الشباب الصاعد في حركة الصحوة الإسلامية، يكون منهم إن شاء الله أجيالٌ تحابت في الله فاستحقت أن تكون تحت ظل الله، ويكون منهم من يذكر الله خاليا فتفيض عيناه فيستحق ذلك الظل الكريم مرتين. نسأل الله العظيم

الكريم أن تتألف منهم كتائب تذكر الله كثيرا في معمعان الجهاد، ويكون لها التأسي الكامل، والأسوة الحسنة، والسلوك المُتَسامي إلى مقامات فاز بها الصحب الكرام لهادي الأنام.

قال الذاكر المقاتل للهوى والشيطان بين يدي الردى:

طيب بذكر الله فاك فإنه   لأَجَلُّ ما فاهت به الأفواه
طفئت مصابيح العقول فكلنا   يُمسي ويصبح في ظلام هواه
كم مدَّعٍ علما لو استخبرته   لوجدت أكثر علمه دعواه
ما للفتى لا يرعوي وصباحه   ومساؤه يعظانه بسواه
تلقاه تيّاها على من دونه   ولسوف يعطشه الذي أرواه
والعيش بَلْوى عاقلٍ فتعجبوا   من عاقل مستعذب بلواهُ
إن زيد يوم واحدٌ في عمره   نقصت على مقدار ذاك قُواه
وكأنه والموت سدد سهمه   فأصاب مَقْتَلَه وما أخطاه
والمرء يُنشَرُ كالرداء إلى مدىً   فإذا انقضى جاء الرَّدى فطواه

وقلت:

طَابتْ بذكر الله أيَّامٌ لَنا   والغافلونَ تعلَّقوا بِسِواهُ
ذكرُ الإلَه صقالُ رَيْن قُلوبنا   وثَوَى المُغفَّلُ في ظلام هواهُ
بَيْنا تَراهَ يُصرُّ في لذَّاته   وفجورِه جاءَ الرَّدى فطوَاهُ

تجديدُ الإيمَانِ بقول لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّه

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾. اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه محمد ﷺ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه محمد ﷺ وأنت المستعان، وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قرأنا في الفقرة الفارطة عن ميثاق النبيين الغليظ الصادق الوثيق، وعن ميثاق الفطرة العام في بني آدم كيف يضعف فيخون المنافقون عهدَهم، ويهدرون مسؤوليتهم، ويرتجف المؤمنون خوفاً وتزيغ منهم الأبصار. وقرأنا كيف يكون ذكر الله الكثير رابطة موثقة لرباط الصحبة والأسوة. فهل بعد عهد النبوءة نصيب من ذلك الصدق الرسالي الذي أنيط به وبذكر الله مصير المؤمنين في المواقف الحرجة؟ هل بقيت فضلة من تلك المائدة المحمدية يَرِد عليها المؤمنون في عصر الخلافة الثانية ويتغذون عليها كما تغذوا في عصر الخلافة الأولى ؟ هل فني الدين العتيد أم للأمر فيه تجديد؟

يبلى الإيمان في القلوب، وتضعف ربْطة الميثاق الفطري الذي أخذه ربنا جل وعلا على بني آدم يوم «ألست بربكم؟»، وينقص بمخالطة الغافلين عن ذكر الله ومعاشرة المنافقين الذين لا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين. قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان يخلُق (أي يَبْلى) كما يخلُق الثوب، فجددوا إيمانكم». وفي رواية: «إن الإيمان ليخلُق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم». رواه الإمام أحمد والطبراني في الكبير والحاكم، وأشار السيوطي لحسنه.

رأينا كيف ضعف إيمان أهل الإيمان في الموقف القتالي في غزوة الأحزاب لما خالطهم المنافقون المترددون الشامتون المتربصون. ونقرأ عن الصحابة رضي

الله عنهم فنراهم سائر الأيام، غير تلك الحرجَةِ، يشعرون بنقص في إيمانهم لمجرد مخالطتهم الغافلين في الفترات التي يبتعدون فيها عن صحبة الأسوة العظمى العروة الوثقى ﷺ. قال حنظلة بن الربيع: «كنا عند رسول الله ﷺ فذكر النار. ثم جئت إلى البيت، فضاحكت الصبيان، ولاعبت المرأة، فخرجت فلقيت أبا بكر، فذكرت ذلك له. فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر. فلقينا رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! نافق حنظلة؟ فقال: «مه!» فحدثته بالحديث فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل فقال: «يا حنظلة! ساعةً وساعةً! لو كانت قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق». رواه مسلم والترمذي رحمهما الله.

نقف عند الجملة الأخيرة من الحديث يقول فيها المصطفى ﷺ: إن حضورهم بين يديه لسماع موعظته ذكر، هنا اندمجت الصحبة في الذكر.

وإن لله عبادا من أوليائه وأحبائه مجرد رؤيتهم تذكر بالله، فما بالك بصحبتهم. من ذكَرَهم ذَكَر الله، ومن ذَكَر الله ذَكَرَهم. عن عمرو بن الجموح رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يُحِقُّ العبد حقَّ صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى ويُبغض لله. فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله تبارك وتعالى فقد استحق الولاء من الله. وإنَّ أوليائي من عبادي وأحبائي من خلقي الذين يُذكرون بذكري وأُذْكَرُ بذكرهم». رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده.

بصحبة هؤلاء يتجدد الإيمان إذا خلُق، بربط الصلة التامة الدائمة بهم، يرتبطُ ما وَهَى من فطرتنا بالميثاق النبوي الغليظ عبر هذه القلوب الطاهرة المنورة التي غمرها حبّ الله والحب لله.

وإن الله عز وجل يبعث من أحبائه في كل زمان من يستند إليه المؤمنون ويتأسون به. قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينَها». رواه أبو داود والبيهقي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة.

ويتجدد الإيمان بعامل ثان، أو قل أول، فالأمر مفتول مربوط، هو ذكر الله تعالى باللسان والقلب، خاصة بقول لا إله إلا الله الكلمة الطيبة المطيِّبة. قولها كثيرا. قال

رسول الله ﷺ لأصحابه: «جددوا إيمانكم!» قيل: يا رسول الله! وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «أكثروا من قول لا إله إلا الله». رواه الإمام أحمد ورجاله ثقات، ورواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قول لا إله إلا الله أعلى شعب الإيمان وأرفعها. روى الشيخان وأحمد وأصحاب السنن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة- عند البخاري وأحمد بضع وستون- فأعلاها- في رواية أحمد فأرفعها وأعلاها- قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان».

بشهادة أن لا إله إلا الله يدخل الكافر إلى الإسلام، شهادةٍ مقرونةٍ بالإقرار بالرسالة لمحمد رسول الله ﷺ. وبقول لا إله إلا الله ذكرا لسانيا مكثّراً يتجدد الإيمان. إلى قول لا إله إلا الله دعا رسول الله ﷺ الناس فقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله». وقال لعمه أبي طالب وهو على فراش الموت: «يا عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله». وقال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

في كل هذه الأحاديث المطلوبُ قولها، قولا لسانيا، التكلم بها بكل بساطة وفطرية. في لفظها المقدس سرّ وكيمياء بهما ينفذ الإيمان إلى القلب. فيا من يكذب الله ورسوله في إخبارهما بما يُصلح الإيمان ويجدده ويصدق أوهامه! أقرأُ في كتاب لا أحب أن أذكر اسمه ولا اسم مؤلفه ما يلي: «الإيمان الذي دعانا إليه القرآن الكريم هو ثمرةُ الدراسة الواعية للكون الكبير، وما انبثَّ في جوانِبه من الأَحْياء». المؤلف عالم أزهري وداعية شهير ذو إنتاج غزير. ويحك! يقول المعصوم ﷺ إن الإيمان ثمرة قول لا إله إلا الله وتحيلنا أنت على «الدراسة الواعية» للكون الكبير وما فيه من أحياء! ويحك تعظم الكونَ وتستخف بوحي المكوِّن سبحانه!

إن الإسلام الفكري طامّة من الطوام، وتسطيح للدين وهجر للقرآن ولِدَليل القرآن سنة الأسوة المقدسة. وللفكر في قضية الإيمان مكان نقاربه في فقرة قريبة إن شاء الله.

كلمة التوحيد لقّنها رسول الله ﷺ عمه أبا طالب فأبى، ولقنها أصحابه فقبلوا وفازوا. وما يزال السادة الصوفية يحافظون على هذه السنة المجيدة سنة تلقين كلمة لا إله إلا الله، ويصرخ المسطِّحون: يا للبدعة!

في الفصل الأول من هذا الكتاب قرأنا كيف طلب الشوكاني أن يلقنه شيخ من الصالحين الورد النقشبندي. قال يعلى بن شداد: حدثني أبي شداد بن أوس، وعُبادة بن الصامت حاضر يصدقه، قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «هل فيكم غريب؟»، يعني أهل الكتاب فقلنا: لا يا رسول الله! فأمر بغلق الباب وقال: «ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله!» فرفعنا أيدينا ساعة. ثم وضع رسول الله ﷺ يده ثم قال: «الحمد لله. اللهم بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة. وإنك لا تخلف الميعاد». ثم قال: «أبشروا فإن الله عز وجل قد غفر لكم». رواه الإمام أحمد.

كلمةٌ بعث الله بها نبيه لتقال، حوَّلها بعض الناس فلسفة. لا شك أن معانيها ومقتضياتها عظيمةٌ عليها مدار صحة العقيدة، ومنها بدايتها. لكن ما بالنا نُنكر ما أثبتته السنة النبوية بكل إلحاح وتكرار من أنها تحمل سرا فاعلا، يتفجر منها الإيمان بقولها وتكرارها؟!

كلمة هي أفضل الذكر وأعلى شعب الإيمان وأرفعُها، لا يزهد في الاستهتار بها إلا محروم. قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله أفضل الذكر، وهي أفضل الحسنات». رواه أحمد والترمذي عن جابر. وقال: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله». رواه ابن ماجة والنسائي وغيرهما وأخرج أحمد عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله! أوصني! قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها». قال: قلت: يا رسول الله! أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات».

الأحاديث في فضلها كثيرة والمصدق لرسول الله ﷺ تصديقا حرفيا قليل. فيا حسرة على العباد! نيامٌ نيامٌ! غافلون عن ذكر الله!

من المائدة النبوية يتناول الموفقون، فيستيقظون ويرتقون. قال الشيخ عبد القادر قدس الله سره العزيز: «إذا تَرَقَّتْ درجة العبد من الإسلام إلى الإيمان، من الإيمان إلى الإيقان، من الإيقان إلى المعرفة، من المعرفة إلى العلم، من العلم إلى المحبة، من المحبة إلى المحبوبية، من طلبيته إلى مطلوبيته، فحينئذ إذا غفل لم يُتْرَكْ، وإذا نسي ذُكِّر، وإذا نام نُبِّهَ، وإذا غفل أوقظ، وإذا ولّى أقبَل، وإذا سَكَتَ نَطَق. فلا يزال أبدا مستيقظا صافيا، لأنه قد صفت آنية قلبه. يُرى من ظاهرها باطنُها. ورث اليقظة

من نبيه ﷺ، كانت تنام عينه ولا ينام قلبه، وكان يرى من ورائه كما يرى من أمامه. كل أحد يقظته على قدر حاله. فالنبي ﷺ لا يصل أحد إلى يقظته، ولا يقدر أن يشاركه أحد في خصائصه. غير أن الأبدال والأولياء من أمّته يردون على بقايا طعامه وشرابه، يُعطون قطرة من بحار مقاماته، وذَرَّة من جبال كراماته، لأنهم وراءَه، المتمسكون بدينه، الناصرون له، الدالّون عليه، الناشرون لعَلَم دينه وشرعه. عليهم سلام الله وتحياتُه، وعلى الوارثين له إلى يوم القيامة».[1]

هؤلاء اليقظى حين ينام الناس، الذاكرون حين يغفُل الناس، الثابتون حين يتزعزع الناس، الحاملون لكلمة التوحيد، القيمون على كنوزها هم مناط التجديد. الإكثار من ذكر الله على لسان المؤمن الصادق وفي قلبه وعقله وكيانه كلِّه تحريك لحبل الإيمان واستمطارٌ لغيثه وتجديد لعهده وميثاقه إذا كان مع الذكر الكثير وَصْلَةٌ دائمة مع العباد الذين أحبهم الله حتى صار ذكره ذكرهم، وذكرهم ذكره. لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله.

أوصى المشايخ العظام بذكر الله، بالإكثار من ذكر الله، كما أوصوا بالصحبة كلّ الصادقين. وما ذاك إلا لمعرفتهم أن الذكر منشور الولاية، في أعلى المنشور شعار لا إله إلا الله. قال الإمام الرفاعي قدس الله روحه العزيز: «عليكم، أي سادة!، بذكر الله. فإن الذكر مغناطيس الوَصل، وحبل القرب. من ذكر الله طاب بالله، ومن طاب بالله وصل إلى الله. ذِكْر الله يثبت في القلب ببركة الصحبة. المرء على دين خليله، عليكم بنا! صحبتنا ترياق مجرب، والبعد عنا سم».[2]

وقال: «أيْ سادةُ! قال أهل الله رضي الله عنهم: من ذكر الله فهو على نور من ربه، وعلى طمأنينة من قلبه، وعلى سلامة من عدوه. وقالوا ذكر الله طعام الروح، والثناء عليه تعالى تُرابها، والحياء منه لباسها. وقالوا: ما تنعَّم المتنعمون بمثل أنسه، ولا تلذذ المتلذذون بمثل ذكره».[3]

(1) الفتح الرباني، ص: 184.

(2) البرهان المؤيد، ص: 43.

(3) نفس المصدر، ص: 47.

وقال: «من حال المؤمن مع الله ذكرُ الله كثيرا. ومن أدب الذكر صدق العزيمة وكمال الخضوع والانكسار، والانخلاع عن الأطوار، والوقوف على قدم العبودية بالتمكن الخالص، والتدرّع بدرع الجلال. حتى إذا رأى الذاكِرَ رجل كافر أيقن أنه يذكر الله بصدقِ التجرد عن غيره. وكل من رآه هابَه، وسقط من بوارق هيبته على قلب الرائي ما يجعل هشيم خواطره الفاسدة هباء منثورا»[1].

مثل هؤلاء الصادقين هم العباد الذين يذكر الله بذكرهم. لا إله إلا الله.

قال صادق عزم على شد الرحيل في طلبهم، غريب يبحث عن غرباء:

دع المطايا تنسم الجَنوبا … إن لها لنبأً عجيبا
حنينُها وما اشتكت لُغوبا … يشهد أن قد فارقت حبيبا
تَرْزُم إما استشرفت كثيبا … كأن بالرمل لها سُقوبا
ما حملت إلا فتى كئيبا … يُسِرُّ مما أعلنَت نحيبا
يُمسي إذا حنَّت لها مجيبا … يَطْرُقُها إذا انثنت طروبا
إن الحنين يبعث النسيبا … لو غادر الشوق لها قُلوبا
إذا لآثرن بهنّ النِّيبا … إن الغريبَ يُسعد الغريبا

وقلت:

حُثَّ الخُطا لِنذكُر الحبيبا … فَذكره يُصقِّل القلوبَا
كَلمةَ الحقِّ التزم دَؤوبَا … واذكُر غُدُوّاً واذكُرَنْ غرُوبا
تَكَن نَبيهاً مُحسناً لبيباً … تَكُن سَميعاً للنِّدا مُجيباً

(1) البرهان المؤيد، ص: 58.

سبق المُفَرِّدون

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. اللهم إني أعوذ بك من العجز والكَسَل، والجبن والهَرَم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وضلع الدين وغلبة الرجال.

صنفان من الناس المتديِّنينَ يضربون في أرض الفهم دون أن يكون جهاز الفهم مكتملا لديهم، لا جَنَاحَيْن لهم من صحبة الأكابر ومن ذكر الله ليحلقوا في سماء الفهم والعلم. صنف يقصد ينابيع الشريعة يستفهم النصوص ببضاعة مزجاة من آلات العربية والإدراك العام لمقاصد الشريعة فَيَبْتَسِر ويقتصِر ويجرد النصوص عن ملابساتها. وصنف يضع بينه وبين الله ورسوله وسائِطَ من عمل من سبقنا بالإيمان والإسلام، من فهمهم، وتقاليدهم، وأخطائهم، ومعاركِهم، وخلافاتهم، يتبنّى كل ذلك بلا تمييز، ولا معرفة بما هو التمييز، وما هو إعطاء كل ذي حق حقَّه، وبدون إلحاق كل فرع بأصله، وبدون معرفة ما يترتب على تفريع كل قاعدة عن نيَّةٍ خاصةٍ وظروف خاصّة، وحدود خاصة ألزمت فهم من سبقنا مساراً خاصّا، وطوَّقته بطوق، وألجمته بلجام، ووجهته وجهات قد لا تكون ريح الهوى أجنبية عنها دائما كما قرأنا من كلام ابن عبد البر رحمه الله في فصْل سابق.

صنف يسمع رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بالمغفرة لمجرّد أنهم رفعوا أيديَهم ساعة يقولون نُطقا فِطريّا تصديقيّا كلمة لا إله إلا الله، ومع ذلك يأبى إلا أن يجعل الكلمة الطيبة فلسفة، فلا يُسلم لك إسلامَك حتى تسرُدَ عليه حقيقة إسلامك من خلال الخلاف العقائدي الكدر، وحتى تتبرأ من الجَهم بن صفوانَ والمعتزلة والقدرية

والجبرية، وحتى تحفظ توحيد الربوبية وفرق ما بينه وبين توحيد الألوهية. علمُ العقائد أصبح عقدة، والكلمة العالية الطيِّبة التي بعث الله عز وجل رسوله ﷺ وأمره بها ووعده عليها الجنة كلمة منسوخة بفلسفة التوحيد، وعلم الكلام. أضابيرُ وملفات عثر عليها بعض الضاربين في أرض الفهم ملؤها الكلام والجدلُ والخلاف والضِّرار، تَبَنَّوْا قضاياها، وزحفوا يتأبطونها على مواقع المسلمين، يؤججون حروبا يعتبرونها جهادا من أجل تحرير العقيدة، ويرفعون إلى عنان السماء أزيز مُرافعاتهم المتفرقعة.

صنف جمدوا على موروث خامد هامد، اقتصروا على كلمة التوحيد يرددونها في الخلوات أورادا كثيرة، يحسبونها هي الإسلام كلَّ الإسلام.

مع الصنف الأول نيّات حربية يخوضها المرء في ميادين الجدل لتزدهي نفسه بالانتصارات على الخصوم. وذلك من المُهلكات التي وصفها منذ القرن الخامس خير الوصف الإمام الغزالي رحمه الله. وقد يندرج في صفهم، وينتمي إلى حزبهم من سُذَّج الناس حشودٌ جاءوا يُلبّون نداء تحرير العقيدة بغيرة على الدين، فلا يلبثون أن يتعلموا بصحبة أهل الجدل لذة إفحام الخصم، وكلُّ المسلمين خصم، ولذة إلزامه بالحجة، ولذة إخراج النص القاتل في الساعة الأخيرة. وهكذا تجد العوامَّ وعوامَّ العوام يتصدَّون للفُتْيا، وما معهم إلا بضعة نصوص حفظوا مراجِعَها وأسانيدها وتعاليق العلماء عليها ممن سبقونا بإسلام أو إيمان، يخوضون بها المعارك الطاحنة. وكأن الإسلام ما هو رحمة للعالمين، بل نقمة، خاصَّةً على المسلمين.

ومع الصنف الجامد على الأوراد، القابع في زوايا الابتعاد، نيات مُنعكسة على الذوات، منكسرة لما تعرف عن نفسها من السيئات، راجية تطهير النفس من الدنيّات. إن كان أصحاب الأوراد صادقين مصدِّقين فهم مع من رفعوا الأيدي مع شدّاد بن أوس وعُبادة بن الصامت رضي الله عنهما على سبب من أسباب المغفرة والفلاح.

على سببٍ واحد هو ذكر الله، وبقيت أسباب أخرى ما للقاعدين على الأوراد منها نصيب إلا أن يضاعفَ الله لمن يشاء ويرحم من يشاء ويرفَعَ من يشاء. فات أهل

الأوراد الفضيلةُ الجامعة للخير كله، فضيلة الجهاد الذي رفع الصحابة رضي الله عنهم أعلى الدرجات.

إن كلَّ عمل نقرأه في القرآن والحديث قام به رسول الله ﷺ وصحبه الكرام عمل جهادي. كانت حياتهم جهادا متواصلا، استغرق الجهاد أموالهم وأنفُسَهم وأهليهم ووقتَهم وليلهم ونهارهم، إلا فترات يعافسون فيها الأموال والأولاد، ويضاحكون فيها الأطفال ويلاعبون فيها النساء، فيحسبون أن قد نافقوا لخروجهم تلك اللحظات عن مألوفهم الجهادي. ويفزعون إلى رسول الله ﷺ كما فَزِع حنظلة وأبو بكر رضي الله عنهما.

كان ذكرُهم ذكرَ مجاهدين، فبذلك ﴿**لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾.[1]

ذكرنا في فصل سابق كيف يَصِح عُذر القاعدين عن الجهاد بعد نُشوب الفتنة. وهمّنا في هذا الكتاب كلِّه أن نثبت بُطلانَ ذلك العذر في حق جيلنا وما يتبعه إلى يوم القيامة، وأن نلتمس مَسلكا للتأسي برسول الله ﷺ وبأصحابه لنكون الإخوان الذين بَشَّر بهم الحبيب المصطفى ﷺ.

وليكون ذكرنا ذكر مجاهدين نقرأ البرنامج الجهادي كله، ومن أهم مداخله دوام الذكر. قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه وهم في حركة جهادية، في سفر جهادي في طريق مكة: «سبق المفردون!» قالوا وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرا والذاكرات». رواه مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كان ﷺ يوم قالها قُرْب جبل جُمدان، لم يكن في رحلة صيد ومتعة واسترواح. فإن جاء جيل جرَّدَ قُربة الذكر الكثير عن سياقها الجهادي ومقدِّماتها الجهادية

(1) النساء، 95-96.

ولواحقها الجهادية فقد أخذ خيرا كثيرا، لكنه لم يأخذ السنة الكاملة، فلا يحقُّ له الأسوة الموعود عليها خير الدنيا والآخرة بالجزاء الأوفى والقرب والزلفى.

لأهل الأعذار تُعطى تعويضات ورخص. جاء فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «ذهب أهل الدثور[1] بالدرجات العُلى والنعيم المقيم! فقال وما ذاك؟ فقال يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! فقال رسول الله ﷺ: أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» فعلمهم رسول الله ﷺ التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل دُبُرَ الصلوات. روى الحديث الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كان الصحابة جميعا مجاهدين، فَضَل بعضهم بعضا بقربات تعبُّدية إحسانية.

فكان الذكر المـُهْدى للفقراء يعادل جهاد المال الذي فضل به أهلُ الدثور، حتى إن الذكر يُلحقهم بالمنفقين السابقين، ويحقق لهم سبقا على من بعدهم. ومن المسبوقين قطعا من عقد الأصابع بعد الصلاة وهو آمن قاعد في مسجده يحسب عليها ذكر الله. خير وافر، لكنه خير غير كامل، لم يزكه الجهاد.

حديث ورد عن رسول الله ﷺ يفهمه القاعدون فهما سطحيّا تجزيئيا ليُبرروا به قعودهم، وليس هو إلا رخصة أعطيت لذوي الأعذار، وسلوة وتعويضا. قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، وخيرٌ لكم من الوَرِقِ والذهب، وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى يا رسول الله! قال: ذكر الله». أخرجه مالك موقوفا والترمذي وغيره مرفوعا عن أبي الدرداء رضي الله عنه بإسناد صحيح.

المجاهدة بلا ذكر عملٌ مفضولٌ مسبوقٌ. والذكر بلا جهاد ولا عذر مفضول مسبوقٌ. لا شك في ذلك. وإنما أعظم رسول الله ﷺ البشارة وأكثر التحريض على الذكر لكونه قربةً إلى الله أقربَ، لا واسط بين الذاكر وربه، بينما بين المتقرب

(1) الدثور: المال الكثير.

بالجهاد وبين ربه رقابٌ تُضْرب وورِقٌ وذهب قد تكدَّر ماديتهما صفاء الروابط الإيمانية الإحسانية.

ثم إن إشادة رسول الله ﷺ بالذكر والذاكرين إشادةٌ دائمةٌ، متنوِّعة الصيغ لأهمية الموضوع، وليكون المؤمن في استهتار دائم بالذكر. وقد جاء في رواية الترمذي رحمه الله: قالوا: يا رسول الله! ما المفردون؟ قال: «المستهترون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم». والاستهتار هو الوَلُوعُ والمواظبة عن حب ورغبة دائمة.

بالذكر الكثير الدائم حياة القلوب، بل وحياة العالم. قال رسول الله ﷺ: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثلُ الحي والميت». رواه الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وسئل رسول الله ﷺ: أي العباد أفضل وأرفع درجة عند الله يوم القيامة؟ فقال: «الذاكرون الله كثيرا». قيل: ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما فإن الذاكر لله أفضل منه درجة». أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهذا الحديث السابق في أفضلية الذاكرين على المجاهدين يفهم في سياقه.

الذاكرون يَفْضلون غيرهم إذا عملوا مثل عملهم وزادوا عليهم بالذكر. أخرج ابن أبي الدنيا حديثا مُرْسلا عن النبي ﷺ أنه سئل: أي أهل المسجد خير ؟ قال: «أكثرهم ذكراً لله عز وجل». قيل: أي الجنازة خير؟ قال: «أكثرهم ذكرا لله عز وجل». قيل: فأي المجاهدين خير؟ قال: «أكثرهم ذكرا لله عز وجل» قيل: فأي الحجاج خير؟ قال: «أكثرهم ذكرا لله عز وجل». قيل: وأي العُبَّاد خير؟ قال: «أكثرهم ذكرا لله عز وجل».

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ذهب الذاكرون بالخير كله.

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون». وأتى رجل أبا مسلم الخولانيَّ رضي الله عنه فقال: أوصني يا أبا مسلم. قال: «اذكر الله تعالى تحت كل شجرة ومَدَرَة. فقال: زدني. فقال: «اذكر الله تعالى حتى يحسبك الناس من ذكر الله تعالى مجنونا». وكان أبو مسلم يُكثر ذكر

الله تعالى، فرآه رجل وهو يذكر الله تعالى، فقال: أمجنون صاحبكم هذا؟ فسمعه أبو مسلم فقال: ليس هذا بالجنون يا ابن أخي، ولكن هذا ذو الجُنون.

المفرِّدون غير المنْفرِدين المنقطعين عن العالم. المفردون هم المستهترون بذكر الله وهم في ساحة الجهاد أو في الطريق منها أو إليها. بُشر المفردون بالسبق والأفضلية والدرجات العلى يومَ كان كل مخاطَب بالبُشرى مجاهدا سائرا مع رسول الله ﷺ في غزاته، ليزكيَ كل مجاهد جهاده بالذكر. مسألة عصرنا وما بعده هي أن يقبل الغافلون عن ذكر الله المجادلون في الله، المفلسفون كلمة لا إله إلا الله، أن الذكر باللسان وبالقلب قربة عظمى، وأن يزكي الذاكرون ذكرهم بالجهاد والعمل الصالح. وبذلك يكون التجديد شاملا لمعاني الإيمان، وساحاته، وأقواله، وأفعاله، ومقدماته، ونتائجه، وسوابقه ولواحقه. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال ذاكر لاحق سابق إن شاء الله، يُلحقه الله لعلو قصده:

ولما ركبت البحر نحوك قاصدا ... ولم أر غير الله مالا ولا أهلا
دعوتك بالإخلاص والموج طافح ... بصدقِ ودادٍ لم يكن قَبْلُ مُعْتَلاّ
أيا منقذ الغرقى ويا ملهم التقى ... ويا صمدا يبقى إذا أَذهبَ الكُلاّ
لوجهك ذل البر والبحر خاضع ... وحق لهذا الخلق أن يألف الذلا

وقال ذاكر هَيَّمَهُ حب الله عن كل ما سواه فهو إن شاء الله من اللاحقين:

أيُّ النسيم جرى بأرض خيام ... متوشحا بذوائب الأعلام
وافى وقد عَبَقَتْ بنشر أحبتي ... نفحاته لغرارَة وثُمام
فطربت لا أدري بأيِّ لطيفة ... وثَمِلْتُ لا أدري بأي مُدام
وَلِعَتْ بقلبي صَبوَة شاميَّة ... وَلَعَ النسيم بيانعٍ بسَّام
فغدوت مشغوفا به وبأهله ... طَرَبَ الشمائل للوميض الشامي
لولا هوىً للروح بين خيامه ... ما بتُّ حنّانا لكل خيام

ومحَجّـب ما حظنـــا مــن وَصلـه إلا المنـــى ومواهــبُ الأحـــلام
تهفــو لــه ألبابنـــا فيصدهـــا سطو الجـلال و هيبـــة الإعظـام

وقلت حشرني الله وإياكم بمنه مع المفردين السابقين:

وَافَى بطيبِ حَديثكُم بَردُ الصَّبـاحْ يـا ذَاكريـنَ مُفــرِّديـن بِـلا بَـراحْ
فُـــزتم بقـــرب اللّــه فَـلْيهنأ بكـم جمعُ الأحبَّـة فـي غـدُوٍّ أو رَواحْ
تحْيـى بِكـم أرض القُلـوب وتُبْتَغـى مِن وَصلكم مِنحُ التَّفضُّل والسَّماحْ

حِلَق الذِّكر

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾. اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل.

تتغذى محاكم المرافعات والاتهامات التي يعقِدها الورّاقون من رفوف الأضابير العتيقة ومن طموح كل زيد وعمرو من أنصاف الأميين إلى الرئاسة والغَلبة في الجدل. فهم في زمان غيرهم في خدمة أنفسهم. ويتغذى الدّاعون للإسلام الثقافي من مقرّرات «الدراسة الواعية للكون الكبير وما انبث فيه من أحياء». وقد يكون من هؤلاء وهؤلاء صادقون خانهم الفهمُ وخانهم التوفيق، وقد يكون آخرون إنما يشتغلون «بالدعوة» على هذه الأساليب التواءً عن جادة الجهاد، وإعذاراً إلى أنفسهم الجبانة بمعاذير أنهم حماة السنة فوارس قامعون للبدعة.

هؤلائك وهؤلاء غفر الله لنا ولهم بحاجة إلى تعلم أبجدية الإيمان وهي حب الله، وحب رسول الله، وذكر الله، والجهاد في سبيل الله. لا سبيل إلى الأسوة بسيدنا محمد ﷺ إذا قرأنا القرآن والحديث و«الكون الكبير وما انبث فيه من أحياء» بلغة أبجديتها علم الكلام، وخلاف المجادلين في الله، وعواصمُ سوء الظن بكل عباد الله من قواصم الوهم الشركيِّ، أو بلغة نقلناها من ألم واقعنا المنهزم، وتخلُّفنا الاقتصادي، والاستبداد الواقع علينا من الحكام الجائرين علينا منا، وتقلّصنا في رقعة العالم القوي المنتج المصنَّع الغني المتعلم إلى ما يشبه الأصفار على الشمال. وإن اتخذنا من أبجدية الانهزام لغة تنمويَّة وحيدة مراجعها هناك ومواجعها هنا، تنتقش عباراتها وجملها وعَروضها وقواعدها في عقولنا فتحول دون أن ينتقش في قلوبنا حب الله ورسوله، وذكر الله، وسنة رسول الله، والجهاد في سبيل الله أسوة برسول الله.

من أبجدية الإيمان الاجتماع على ذكر الله. قوم من الدعاة الورّاقين يعلنونها حربا على كل مجلس يقعد فيه المسلمون لذكر الله، أو لتلاوة القرآن. يرون كل ذلك بدعة محدثة وضلالة في النار لمجرد أن جماعات من المؤمنين على مر الأعصار عرفوا بذكر الله، لكنهم سموا صوفية فباءت أعمالهم بسوء ظن الوراقين وحروبِهم لمّا باء الاسم بِسيِّئ السمعة.

أما أهل الإسلام الثقافي والدراسة الواعية للكون الكبير، باعتبار الدراسة والوعي للكون مصدرا في زعمهم للإيمان الذي جاء به القرآن، فالمتحلقون للذكر عندهم بطالون، وحق لهم أن يظنوا بالقاعدين لذكر الخمول سوءا لِمَا يرون من دراويشَ أخذوا كلمة التوحيد يجلسون إليها وعليها ويطرحون واجب العمل من ألواحهم بينما الأمة جائعة عارية تابعة خاضعة، لو قطعت عنها أمريكا القمح الأمريكي لَعَزَّ الغذاء في الأسواق العالمية ولماتت جوعا.

بين الإسلام الثقافي الأجوف وثرثرة الوراقين السفاكة تضيع الحقائق الجوهرية للدين.

من يقعد في حلقات الذكر آناء الليل وأطراف النهار يعولُه غيره فهو عاجز كاسل باخل، نعوذ بالله من العجز والكسل والبخل ورفاقها الانهزامية. وإن ضرورة الجهاد والسلوك الجهادي تعني فيما تعني النهوض لجهاد بناء الأمة، اقتصادِها وصناعتِها وتعليمِها وسياستِها وتنظيمِها وإحقاقِ الحقوقِ فيها بالعدل والإحسان.

ومن يتهم الجالسين في حلق الذكر بالبدعة، ويَصِمُ سلف الذاكرين بأنهم قوم انْسَحبوا إلى الدروشة من السنة، ويبدِّع ويكفر، فذاك لا يعطي للأمر ما يستحقه من تمييز. فلا يسأل عن الأسباب التي دعت رجالا من كبار الصحابة للانزواء عن الأمر العام حتى قعدوا أحلاسا[1] في بيوتهم. ولا يسأل عن النفس البشرية كيف تنغرس فيها على مر الأجيال عادات قلَّد فيها الآباء الأجداد ونشأ عليها الأطفال كما تنشأ الشِّرْنِقَةُ في تابوتها المغلق لِتَلِدَ آخر المطاف دودا مفسِداً. كان الانزواء عن الفتنة موقفا إيجابيا

(1) أحلاسا: جمع حلس وهو الحصير.

عند أمثال سادتنا سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم، فاستحال بعد إلى معاذيرَ جبانةٍ. وكانت حِلقُ الذكر على عهد رسول الله ﷺ سنة ثابتة ثبوت كتائب الجهاد، مقدسة قدسيَّتَها. فلما انفرط عقد الأمة، واختصم السلطان والقرآن، وأخذت عرى الإسلام تنتقض عُروةً عروةً غشي حلق الذكر بعضُ الخمول، لكنها بقيت على العموم رُكنا نيِّراً عاش فيه الصالحون يناجون ربهم ويستروحون الرحمة الموعودة للذاكرين في الحِلق.

وتبقى حلق الذكر دائرة نورانية عزيزة من دوائر السنة المحمدية على جند الله أن يعطوها حقها.

قال تعالى فيما رواه عنه حبيبه ﷺ من الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم. وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا. وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». هذه رواية للشيخين عن أبي هريرة.

حديث عظيم وبشارة عظمى للمحبين المتقربين الذاكرين فرضا ونفلا الصادقين المصدقين. نكذب على أنفسنا وعلى الناس، ونُكذب الله ورسوله إن قرأنا مثل هذا الحديث المقدَّس وإن تَلَوْنا في الصلاة آيات الذكر والجهاد والتقرب والمحبة ثم لا نصدق شيئا من ذلك بالعمل. مِنْ أعلى العمل المقرِّب إلى الله عز وجل الجلوس في جماعة لذكر الله.

في الحديث المشهور الذي رواه الشيخان رحمهما الله وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إن لله ملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم! فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا» الحديث. وفيه كيف ترفع الملائكة خبر الذاكرين إلى المولى العلي العليم وهو أعلم بهم، وكيف يسائلهم الحق جل وعلا في شأن عباده الذاكرين. أي احتفال هذا وأي شرف أن تسعى الملائكة في الأرض في طلبة عزيرة فلا يجدون حاجتهم إلا عند الجالسين للذكر! وأي شرف أن يخاطب الخالق عز وجل ملائكته خطابا طويلا

في شأن الذاكرين! لا شك أنهم المحبوبون المفرِّدون المستهترون مجانين ذكر الله وحب الله. طوبى! ثم طوبى! ثم طوبى لمن صدق وعمل ثم احتسب!

قال المعترض: المقصود بحلق الذكر حلقُ العلم والوعظ لا تلك التي نردد فيها لا إله إلا الله ونصلي فيها على رسول الله. دعونا فما لبلداء الأبجديات دواء! حِلق العلم والوعظ مجالس للذكر لا شك في ذلك. لكن الجلوس لذكر الكلمة الطيبة والصلاة على رسول الله ﷺ تحقيق مباشر لمعاني حلق الذكر.

روى مسلم والترمذي عن أبي سعيد الخدري أن معاوية خرج على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا جَلسنا نذكر الله! قال آللهِ ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا آللهِ ما أجلسنا غيره! قال: أما إني لم أستحلفْكم تُهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثا مني. وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا. قال: «آللهِ ما أجلسكم إلا ذلك!» قالوا: آللهِ ما أجلسنا إلا ذلك! قال: أما إني لم أستحلفكم تُهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة».

يا ورّاقين يا بطّالين كرهتم سنة عظيمة، فما مجالسكم التي تتباهى فيها الأنانيات بشوارد النصوص ومقفلات الجَدَل من مجالس طيبي الأنفاس التي يُباهي بها الله ملائكته ليريَهم أن هذا الخلقَ المستخلَف في الأرض الذي طعن فيه الملائكة مخافة أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء خَلْقٌ يُمجد الله ويوحده ويسبح بحمده رغم ما هو مثقل به من شهوات باطنية، ورغم ما يتطلبه معاشه من شغل، ورغم ما أمامه وحواليه من عقبات!

تقعدون فلا تذكرون الله إلا قليلا مذبذبين. أنساكم ذكرُ أنفسكم، وعرضُها في أبهى الصور وأزينِ الفصاحة ليعبدكم الأتباع والرعاع، ذكر الله. قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة». رواه أبو داود والحاكم رحمهما الله بإسناد صحيح.

تفوح مجالس الجدل وتبديع المسلمين بَدَلَ تعليمهم والرفق بهم بما تفوح. وبمثل ريح الجنة تفوح مجالس الذاكرين الصادقين. أخرج البيهقي رحمه الله عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر.

وكيف لا تكون حِلقُ الذكر جنة ورسول الله ﷺ يقول: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تبارك وتعالى يتلون كتاب الله عز وجل ويتدارسونه بينهم (في رواية لرزين: ويذكرون الله) إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده». رواه أبو داود عن أبي هريرة بسند صحيح.

يرى أصحاب البصائر المنوَّرة دائما الرحمةَ تنزل على الذاكرين كما رآها رسول الله ﷺ. فقد روى الإمام أحمد في الزهد عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله، فمر النبي ﷺ فكفوا. فقال: «ما كنتم تقولون؟» قلنا: نذكر الله. قال: «إني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها». ثم قال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر معهم». وذلك قوله تعالى لحبيبه: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾.[1] وفي هذا الحديث مرة أخرى نلتقي بمبادئ السلوك وأركانهِ: المعيةُ والجماعة ودوام الذكر بالغداة والعشي مع صحة الإرادة وسموِّها وتجرّدها وتعلقها بوجه الله عز وجل فوق كل الإرادات الدنيا.

وروى الطبراني وابن جرير رحمهما الله عن سهل بن عبد الله بن حنيف رضي الله عنه قال: «نزلَتْ على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**﴾ الآية، فخرج يلتمسهم. فوجد قوما يذكرون الله تعالى، منْهم ثائر الرأس وجافُّ الجلد وذو الثوب الواحد. فلما رآهم جلس معهم وقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم».

كانوا، الأحبةُ، ثائري الرأس جافِّي الجلد لهم ثوب واحد من الفقر والفاقة. وهم أهل الصُّفَّةِ المعبَّئون للجهاد، الجالسون رهن إشارة القائد المعصوم ﷺ. جاء من

(1) الكهف، 28.

بعدهم متزهدون ومتصوفون تجردوا وتشعثوا تشبُّها بالكرام. لكن أين الشعار الاختياري من حقائق الجهاد، وأين الكُحْلُ من الكَحَل! هيهات!

الذاكرون أهل الكرم، المتعلمون والمعلمون من أهل الكرم. وما جافى ذلك وقاتله ونافاه هَوَسٌ ولعنة. قال رسول الله ﷺ: «يقول الرب عز وجل يوم القيامة: سيعلم أهل الجمع من هم أهل الكرم». فقيل: ومن هم أهل الكرم يا رسول الله! قال: «مجالسُ الذكر في المساجد». رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري. وروى الترمذي وابن ماجة والبيهقي عن أبي هريرة بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم».

وقال ذاكر ذكروه فتذكر، وعلموه فتعلم، وشوقوه فأحب:

سرى من رُبا نجد صبا عَرْفِ رَيّاها ... فأحيى قلوب العاشقين وحيّاها
وذكّرها تلك العهود التي مضت ... على أنها محفوظة ليس تَنْساها
وروَّح أرواح المحبين رَوْحُها ... فتاهت به وَجْداً ووجْداً بها تاها
وهاموا فهامت عند ذاك رحالُهم ... تُرى علمت ما في حشاهم حشاياها!
فيا سائق الأظعان رِفْقَا فإنها ... بها من عظيم الشوق ما كان أغناها
تراءتْ لها من جانب الطور نارُه ... فطارت فلم يدر السُّرى أين مَسراها
حنينا إلى تلك الديار لأنها ... متيَّمة تهوى الديار وتهواها
ألم ترها مدَّتْ إلَيْك رقابها ... وترمي بساقَيْها وتَذْرِف عيناها
طواها السُّرى طيَّ السَّجِلِّ كتابَه ... فعادت حروفا تقرأ العين معناها

وقلت:

بمَجلسكم حفت ملائكة الربِّ ... ويُتلى اسْمُكم بالمدح في ملإ القُرْبِ
أيا ذاكرين الله فزتم وطبتم ... بذا جاءت الأخبار في مُحكم الكُتْبِ
ويغشاكُمُ والله روح سكينة ... كما بشَّر المختار من نسَب العرب
عليه صلاة الله ثم سلامه ... وللآل من تلك الصلاة وللصحب

الدعـاء

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾. اللهم آت نفسي هداها، وزكها أنت خير من زكاها. أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

بوب البخاري رحمه الله في كتاب الإيمان من صحيحه: «باب دعاؤكم إيمانكم». وذهب الشراح يؤولون كلامه، فمن قائل إن كلامه ينظر إلى تفسير ابن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[1] بأن المقصود بالدعاء الإيمان. ومن قائل إن معناه دعاء الرسل للخلق هو السبب في إيمانهم، ومن قائل إن معنى الدعاء هنا الطاعة أو العبادة. والذي يظهر لي والله أعلم أن هذا من باب قول رسول الله ﷺ في حديث الإمام أحمد رحمه الله: «كَرَم المرء دينُه» أي أن دينَه يكون على مستوى كرم أخلاقه وكرم معدنه وكرم همته صعودا أو هبوطا. كذلك فذو الحظ العظيم من الدعاء ودوام الوقوف على باب الله أعلى إيمانا من قليل الدعاء. وتكفينا الآية الكريمة للدلالة على أن الله عز وجل لا يعبأ بمن يستغني عن دعائه ويلجأ إلى باب غيْره.

في حديث: «من عادى لي وليا» يُخبرنا الحق عز وجل أن العبد المتقرِّب بالفرض والنفل المحبَّ المحبوب إذا أدركته العناية الإلهية فكان الله سمعه وبصره ويده ورجله يصير دعاؤه مستجابا. وهذه مرتبة مقابلة لمرتبة الذين لا يدعون الله ولا يعبأ بهم الله، نعوذ بالله.

(1) الفرقان، الآية الأخيرة.

إن الله جلت عظمته فائضُ الكرم رحيمٌ بالخلق يحب من يدعوه ويغضب على من لا يدعوه كما جاء في الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه». رواه الترمذي رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

من كرم الرب عز وجل أنه يَعْرِضُ علينا فضله كل ليلة، فلا ينال من ذلك الفضل إلا الأيقاظ الذاكرون الداعون. روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأُعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟»». أنعم به من رب كريم عظيم ينزل للعباد، ياحسرة على العباد، ناموا ومنادي الفلاح لا ينام!

في رواية لمسلم: «ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول: «أنا الملِكُ! أنا الملك! من ذا الذي يدعوني» الحديث. ويتجلى غضب الله الرب الملك على من لا يدعوه في الدنيا يوم القيامة. يوم القيامة يقول جل جلاله: «أنا الملك ! أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟». فمن يكون بمنجاة من ذلك الغضب إلاّ المؤمنون والمؤمنات المتزلِّفون إلى الله، الداعون المتقربون في ظلمات الليل الدنيوي حين ينام الغافلون؟

روى الشيخان وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يَطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: «أنا الملك! أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: «أنا الملك! أين الجبارون، أين المتكبرون؟»». هذه رواية مسلم.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.[1] المستكبر عن الدعاء مستكبر عن العبادة. فإن الذلة لله جل جلاله وإظهار الفقر إليه عبادة وعبودية. قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة» ثم تلا الآية السابقة. أخرجه أصحاب السنن من حديث النعمان بن بشير وصححه الترمذي. وأخرج الترمذي عن أنس قول رسول الله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة».

(1) غافر، 60.

اللهم لك الحمد ولك الثناء من ربّ ملكٍ يعرض فضله على العباد عرضَ الكريم الوهاب، ويهدّد بالنكال في الآخرة من لا يدعوه في حوائجه، ويغضَب عليه. لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك. أستغفرك وأتوب إليك. سبحانك تُجيب المضطر إذا دعاك كما أخبرت في محكم كتابك، ثم تبعث الرسل بالوعد والوعيد لِيَحْدُثَ عند المستغني اللاهي عن فقره والمستكبر المعتد بمتاع أنت ابتليته به افتقارٌ واضطرار. سبحانك ما أكرمك وما ألطف عطاءك!

الدعاء منجاة في الدنيا والآخرة، الدعاء في الرّخاء عدّة ليوم الشدة، الدعاء سلاح المؤمن. قال رسول الله ﷺ: «لا تعجزوا في الدعاء، فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد». أخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه من حديث أنس. وأخرج الترمذي والحاكم بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة قوله ﷺ: «من سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكُرَب فليكثر الدعاء في الرخاء». وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السماوات والأرض».

استجاب الله تعالى لأصفيائه من خلقه الأنبياء، وأنزل علينا في كتابه العزيز آيات تَضَرُّعِهم وتفضُّله عليهم لنتلوها ونتأسى بها ونتقرب باللَّجَإِ إلى بابه كما تقرّبوا. قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿**وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾.[1] وقال جل من قائل: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ**﴾[2]. وهم الداعون المتضرعون. وقال: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[3] ثم قال له الحمد من رب يرحم وينجي

(1) الأنبياء، 76.

(2) الأنبياء، 83 – 84.

(3) الأنبياء، 87 – 88.

ويُعطي: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾.[1]

هذه الرابطة القوية بين العبد المقرَّب وربِّه، أمتن الروابط، وأقرب القُرَب. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.[2] والأولياء هم أهل الرُّشد لأنهم أكثر العباد إيمانا واستجابة لدعوة الله، وتعرضا لنفحات الله، ودعاء وتضرعا إلى الله.

ليس الدعاء شيئا آخر غير الذكر، بل هو الذكر في أكثر حالات العبد حضورا مع الله عز وجل بالحاجة والندم والاضطرار والرجاء والخوف. وإن الله عز وجل لا يقبل دعاء الغافلين. أخرج الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة. واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ». ويشفع الذكرُ للمشتغل بالذكر أفضل الشفاعة، فينال أفضل ما يناله السائلون. قال رسول الله ﷺ: «يقول الربُّ تبارك وتعالى: «من شَغَله قراءةُ القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»». أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وحسنه.

وللدعاء آداب أجملَها الإمام الغزالي رحمه الله ورضي عنه في عشرة هي:

أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر والجمعة من الأسبوع ووقت السحر من ساعات الليل. الأدب الثاني أن يغتنم الأحوال الشريفة كساعة زحف العدو وعند الأذان وإثر الصلاة وحالة السجود. الأدب الثالث أن يدعو مستقبلا القبلة رافعا يديه. الرابع خفض الصوت بين المُخَافَتَةِ والجهر. الخامس أن لا يتكلف السجْع في الدعاء لأن ذاك تكلف يخالف حال التضرع المطلوب. السادس التضرع والخشوع والرغبة والرهبة. السابع أن يَجْزِمَ الدعاء ويوقن بالإجابة. الثامن أن يُلِحَّ في الدعاء ويكرره لما روى ابن مسعود عند مسلم من أنه ﷺ كان إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا. وينبغي للعبد أن لا يستبطئ الإجابة

(1) الأنبياء، 89 – 90.

(2) البقرة، 185.

ولا يَملَّ من الدعاء، فإنه لا يعلم ما يدخره الله له وما يختاره. وإن أولياء الله الكمل يدعون الله عبودية محضة يسألونه أعز ما يُطلب وهو النظر إلى وجهه الكريم، فما تأخرت الاستجابة فيه من حاجات دون هذا المطلب العلي فهو منحة زائدة محبوبة لأنها هدية الحبيب، لكنها لا تكدِّرُ صفاء المتوكلين. التاسع أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل ويختمه به، وعن بعض الصالحين أن الدعاء الذي يُبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ ويختم بها دعاء لا يسقط. العاشر هو الأدب الباطن وهو الأصل في الاستجابة: «التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بكُنهِ الهمة».[1]

من آداب الدعاء التأسي بأدعيته ﷺ والاستناد إليها وحفظُها والنَّسج على منوالها. وقد كان ﷺ يحب جوامع الدعاء. روى الإمامان أحمد وأبو داود رحمهما الله بسند حسن عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء، ويَدَعُ ما سوى ذلك». على أنه ﷺ أرشدنا أن يكون دعاؤنا شاملا حتى ندعو الله في كل حاجاتنا مهما كانت، فهو سبحانه يعلم دقائق الأمور كما يعلم جلائلها، وسؤال العبد ربه في جزئيات معاشه كسؤاله إياه في كليات معاده أدعى للاعتراف بالعجز والتبري من الحول والقوة. روى الترمذي والإمام أحمد والبخاري رحمهم الله في الأدب المفرد بسند حسن عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لِيَسْأَلْ أحدُكُم ربَّه حاجته كُلَّها. حتى يسأل شِسْعَ نعْلِه إذا انقطع». وشسع النعل هو السير الرقيق من الجلد تربط به النعل.

هاك هذه الصفحة المُونِقَةَ في آداب الذكر، تدخل في باب الدعاء من حيث كون الدعاء ذكرا، من كلام الإمام الرفاعي رحمه الله: «أي بني! اذكر الله تعالى، واعلم أن الله تعالى أعلى دَرجة الذكر، وعظم رتبته، ورفع شأنه، وشرفه وفضله. ثم قسمه على اللسان والأركان والجنان. فينبغي أن يكون الذاكر على حذر أن يلتفت إلى الذكر (أي أن يشتغل بعمله ويعتدَّ به)، ويكون شريف الهمة والإرادة، لطيف الفطنة في الإشارة، صحيح النية، لا يريد غيره، ولا يلتمس منه فراغه عنه إلى ما دونه».[2]

(1) الإحياء، ج1، ص: 274 وما بعدها.

(2) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص: 110.

قلت: احذر أن يكون سؤالك إياه في حاجتك الدنيوية والأخروية شاغلا لك عن طلبك الأعلى: وجهه الكريم.

قال: «لأن الوصول إلى الكل تحت الرضى به عن غيره، والحرمان من الكل تحت الاشتغال بغيره. ويجب على الذاكر أن يذكره على غاية التعظيم والحرمة، لا على العادة والغفلة، فيصيرَ بذلك محجوبا عن المذكور عقوبة لترك التعظيم والحُرمة، لأن حفظ الحرمة في الذكر، خير من الذكر (أي من لوك ألسنة الغافلين). وما من عبد ذكره على التحقيق إلا نسيَ في جَنْبِ ذكرِه ما سواه، وكان الله له عِوَضا من كل شيء. وربما يريد العارف أن يذكره فتهيج في سِرِّه أمواجُ التعظيم والهيبة، فيكلُّ لسانه ويطير فؤاده من إجلال الوحدانية».

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: الذكر أكبر من الجنة لأن الذكر نصيب الله، والجنة نصيب العبد. وفي الذكر رضى الله، وفي الجنة رضى العبد.

الذكر دعاء والدعاء ذكر. ولذكر الله بالقصد الأكبر أكبر والله يعلم ما تصنعون. قال ابن عطاء الله رحمه الله: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو مُوردُها عليك. فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا» وقال: «لا يكن تأخر أَمَدِ العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبا ليأسك. فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك. وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد».

فاذكره رجاء، وادعه ثقة، واسأله إلحاحا، وفوض إليه، فنعم المولى هو ونعم النصير.

قال آمل فيه، راج عفوه، مستمطر جوده:

ما أحسن الجود بلا علَّة … وأكرمَ العفو مع الذنب
يا رب حقق فيك ظنّي ولاَ … تخَيِّب الآمال يا ربّ!

وقال الآيس من نفسه التائب إلى ربه:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي … جعلت رجائي نحو عفوك سُلَّما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرّما

وقال المحب المشتاق المعذب من كثافة الحجاب:

خَرِسَ اللسان فما يطيق عبارة أَلَمٌ أَلَمَّ وما له من راق
ما للمحب من المنون وقاية إن لم يجد محبوبه بتلاق
مولاي عبدك ذاهب بغرامه أدرك بفضلك مِنْ دِماه الباقي
إني إليك بعلتي متوسل فاعطف بلطفٍ منك أو إشفاق

وقلت:

مَا أكْرَمَ المولى يُجيبُ الدُّعا ويغفِر الزَّلاَّتِ للجاني
يُعلنُهُ عَرْضًا رحيمًا: أنَا أُجْزِلُ مِنحاتي لِمَن جَانِي
أُجَيبُ كلَّ سائلٍ إنْ صحا في ثلثِ اللَّيل ورجَّانِي

الأوْرادُ وخَصائِصُ الأذكَار

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾. اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك.

لَبِيسَ عبد شغلته النعم يرجوها ويدعو بها عن المنعم، وألهته محبوبات النفس عن محبوب القلب، وبدَّد شمله هم المكان والزمان عن استجماع همته في ذكر مولاه. تعتري المؤمن فترات غفلة لأن الإنسان جبل على النسيان، فيفتر عن ذكر ربه وينشغل. لكنه يرجع إلى الذكر ويُراجِع. ولمثل هذا قال الله عز وجل على صورة خطاب موجه لسيد الذاكرين ﷺ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.(1) نسيان المؤمن موقوتٌ طارئٌ، ونسيان الجاحدين والكافرين والمنافقين والغافلين حالٌّ مقيم! ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.(2)

كان رسول الله ﷺ يذكر الله عز وجل على كل أحيانه كما روى مسلم رحمه الله وغيره عن عائشة رضي الله عنها. وبذلك أُمِرَ في قوله تعالى يخاطبه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.(3)

وقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾.(4)

---

(1) الكهف، 24.

(2) الحشر، 19.

(3) الكهف، 28.

(4) الأعراف، 205.

وجاء القرآن بتحريض الرجال حقِّ الرجال على الذكر في أطراف الليل والنهار في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ﴾.(1)

كلمة «سَبَّحَ» ذاتُ دلالة عامة تشمل كل العبادات من قول وفعل ونية كما قال الراغب الإصفهاني رحمه الله. واستغراق الوقت كله بالذكر والتسبيح درجة عليا نَدَبَ الله إليها رسله وسائر عباده المؤمنين. استغراق الوقت كله في الذكر والتسبيح علامة على إقبال العبد على ربه إقبالا كليا. قال الله تعالى لحبيبه في سورة طه: ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.(2) استدل الفقهاء رضي الله عنهم بهذه الآية على توقيت الصلوات الخمس. وهو كذلك. والصلاة من أعظم الذكر. والذكر اللساني والقلبي فيها بتلاوة القرآن والخشوع والمناجاة من أعظم ما يرجوه العبد من عمله. والذكر بعدها وما بين الصلوات وَصْلَةٌ مطلوبة. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.(3)

وهكذا يلحق أولو الألباب بالدرجات العُلى إن هم ذكروا الله على كل أحوالهم كما كان يفعل المصطفى ﷺ.

درجة فوق مجرد ملء الأوقات بالذكر هي درجة الاستهتار التي اختص الله بها المفردين الذين يذكرون الله حتى يقال مجنون.

وقد سن رسول الله ﷺ لأمته معراجا يتدرج فيه الذاكر ليصل إلى ما شاء الله من تلك الدرجات. قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله الذي يدوم عليه صاحبه». رواه البخاري ومالك رحمهما الله عن عائشة رضي الله عنها. وروى مسلم رحمه الله عنها

(1) النور، 36 – 37.

(2) طه، 130.

(3) آل عمران، 190 – 191.

عن رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها ولو قل». وفي رواية لأبي داود رحمه الله عنها عن النبي ﷺ: «اكلفوا من الأعمال ما تطيقون. فإن الله لا يملّ حتى تملّوا. وإن أحب العمل إلى الله أدومُه ولو قل. وكان إذا عمل عملا أثبته». أثبته بمعنى داوم عليه في وقته من نهار أو ليل.

المداومة في أوقات معينة على أذكار معينة هي ما يسمى في اصطلاح القوم بالأوراد. والأوراد أوتادٌ راسية عليها يبني المؤمن خيمة الذكر في أرجاء وقته وعامة نشاطه وسُوَيْدَاءِ قلبه.

الأوراد هي الطريق إلى الله عز وجل لا يستغني عنها مبتدئٌ ولا يزهد فيها واصل. قيل للجنيد رحمه الله: نراك تحافظ على أورادك وأنت شيخ! فقال طريق وصلنا بها إلى الله لا نتركها. قال الإمام الغزالي: «اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أن لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محبا لله وعارفا بالله سبحانه، وأن المحبة والأُنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وفي أفعاله (...) وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار».[1]

الأوراد والمداومة عليها سنة. وهي بمثابة نَذْر يقطعه العبد الصادق على نفسه يجب عليه الوفاء به. لذلك حذر العلماء من الدخول في الأوراد بخِفَّة مخافة أن لا يفي العبد بما عاهد الله عليه منها. قال العالم الفقيه أحد عباقرة الفقه الإمام الشاطبي رحمه الله: «إن في توقيت الشارع وظائف العبادات من مفروضات ومسنونات ومستحبات في أوقات معلومة لأسباب ظاهرة ولغير أسباب ما يكفي في حصول القطع بقصد الشارع إلى إدامة الأعمال. وقد قيل في قوله تعالى في الذين ترهبوا: «فما رعوها حق رعايتها»: إن عدم مراعاتهم لها هو تركها بعد الدخول فيها والاستمرار. فمن هنا يؤخذ حكم ما ألزمه الصوفية أنفسهم من الأوراد في الأوقات، وأمروا بالمحافظة عليه بإطلاق. لكنهم قاموا بأمور لا يقوم بها غيرهم. فالمكلَّف إذا أراد

(1) الإحياء، ج1، ص: 299.

الدخول في عمل غير واجب فمن حقه ألاّ ينظر إلى سهولة الدخول فيه ابتداء، حتى ينظر في مآله فيه، وهل يقدر على الوفاء به طول عمره أو لا».[1]

للذكر مَراقٍ، يترقى المريد من ذكر اللسان إلى ذكر القلب واللسان، ومن الوفاء بأوراد محدودة إلى الاستغراق ثم الاستهتار إن وفقه الله. قال ابن عطاء الله رحمه الله في حكمه: «لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره. فعَسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يَقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور. ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور. وما ذلك على الله بعزيز».

للذكر آثار عامة وفوائد خاصة. احذر كل الحذر من الذين يتخذون آيات الله هُزُؤاً ويرتبون لأنفسهم وللناس أذكارا. تقول كذا وكذا مرة في وقت كذا ليحصل لك كذا وكذا من أغراض الدنيا. هذا والسحر من بابة واحدة. ومن كان على بصيرة من ربه علم من أي باب يُرزق. ما سوى هذا من الأذكار الخاصة السنية أو الأثرية من عمل السلف الصالح لا اعتراض عليه. وفي أدعية رسول الله ﷺ التي علمها أصحابه والأمة الشفاء والغناء. لكل نازلة وحاجة وحالة توسل ودعاء وذكر. من الناس من يعتمد على تجارب الصالحين في التماس خصائص الأذكار. لابأس إن كان الذكر واردا في كتاب أو سنة. قال ابن القيم رحمه الله: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: من واظب على «يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت» كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الصبح أربعين مرة أحيى الله قلبه».[2] فهذا مريد اتخذ شيخه مرجعا نهائيا في المسألة. سند هذا الذكر بهذا العدد رؤيا رأى فيها الشيخ الكتاني رحمه الله النبي ﷺ يأمره بذلك كما ذكر القشيري رحمه الله في رسالته.

---

(1) الموافقات، ج 2، ص: 177 – 178.

(2) مدارج السالكين، ج 3، ص: 264.

الخاصية العامة للذكر والدعاء في قوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾[1] وقوله عز من قائل: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[2] وقوله: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾.[3]

قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «اذكروني بالشوق والمحبة أذكركم بالوصل والقربة. اذكروني بالمجد والثناء أذكركم بالعطاء والجزاء. اذكروني بالتوبة أذكركم بغفران الحوْبة. اذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء. اذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال. اذكروني بلا غفلة أذكركم بلا مهلة. اذكروني بالندم أذكركم بالكرم. اذكروني بالمعذرة أذكركم بالمغفرة. اذكروني بالإيمان أذكركم بالجِنان. اذكروني بالقلب أذكركم بكشف الحجْب. اذكروني بصفاء السر أذكركم بخالص البِر. اذكروني بالصفو أذكركم بالعفو. اذكروني بالجُهد فِيَّ أذكركم بتمام النعمة».[4]

من أعظم الأذكار فضلا، وأجلها قدرا، وأوفاها بمقصود المريدين المحبين المتقربين الصلاة على رسول الله ﷺ. هي شيخ من لا شيخ له. هي وسيلتنا إلى ربنا إذ هي ميثاق وفاء ومحبة، تلتقي صلاتنا عليه بصلاة الله عليه وصلاة ملائكته. فأي فضل أعظم من أن يكون موضوع صلاتنا مطابقا موافقا؟ روى الإمام أحمد والنسائي والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي عن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ «جاء ذات يوم والبشر في وجهه. فقلنا: إنا لنرى البشر في وجهك! قال: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد! إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلّي عليك أحد إلا صليت عليه عشرا. ولا سلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا؟»». وروى الترمذي بإسناد حسن وأحمد وغيرهما عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي». وأخرج الإمام أحمد وحسنه المنذري عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه وملائكته

(1) البقرة، 152.

(2) غافر، 60.

(3) الزخرف، 36.

(4) الغنية، ج2، ص:43.

سبعين صلاة». وقال ﷺ في رواية أحمد والنسائي بإسناد حسن عن زيد بن خارجة: «صلوا علي، فاجتهدوا في الدعاء وقولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد».

اللهم شكرا على نعمتك العظمى وتعرُّضاً لوعدك الكريم نقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، عدد خلقك ورضى نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

دوام الذكر، وتغلغل الذكر في القلب عن طريق الأوراد اللسانية التفكرية طريق الولاية مع الصحبة. قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «الذاكر لله عز وجل لا يفتر عن الذكر حتى ينتقل من حياة إلى حياة. فلا موت له سوى لحظة. إذا تمكن الذكر في القلب دام ذكر العبد لله عز وجل وإن لم يذكره بلسانه. كلما دام العبد في ذكر الله عز وجل دامت موافقته له ورضاه بأفعاله. (...). ما أعجب أمورَ القوم ! وما أحسن أحوالهم! كل ما يأتيهم من الحق عز وجل عندهم طيب. قد سقاهم بَنْجَ معرفته، ونومهم في حجر لطفه، وآنسهم بأُنْسه. فلا جَرَمَ يَطيب لهم المُقام معه. والغيبة عن كل شيء سواه. لا يزالون موتى بين يديه وقد ملكتهم الهيبة، فإن شاء أنشرهم وأقامهم وأحياهم ونبَّههم»[1]. وتلك هي الولاية الكبرى: البقاء بعد الفناء.

وقال قدس الله سره يُعلم الغلام المريد الجديد في خدمة مولاه: «يا غلام! اذكر الحق عز وجل أولا بقلبك ثم بقالبك ثانيا. اذكره بقلبك ألف مرة وبلسانك مرة. اذكره عند مجيء الآفات بالصبر وعند مجيء الدنيا بالترك، وعند مجيء الأخرى بالقبول، وعند مجيء الحق بالتوحيد، وعند مجيء غيره بالجملة بالإعراض عنه. إذا أرخيت عنان نفسك طمعت فيك ورمت بك. ألْجِمها بلِجام الورع ودع عنك القال والقيل».[2]

(1) الفتح الرباني، ص: 77.

(2) نفس المصدر، ص: 207.

ذكر الله باللسان والقلب والاستغراق والاستهتار والمحافظة على الأوراد آناء الليل وأطراف النهار بناء على غير أساس إن لم يَصن ذلك الذكرَ الكثيرَ ذكرُ الله عند الأمر والنهي، ذكرُهُ عند حق كل ذي حق، ذكره في الدرهم والدينار، ذكره في الأمة التي تنتظر مجاهدين لإقامة دين الله في الأرض.

قال الإمام الشافعي رحمه الله يناجي ربه ويذكره:

قلبي برحمتك اللهم ذو أُنُسٍ — في السر والجهر والإصباح والغلس
وما تقلبت من نومي وفي سِنَتي — إلا وذكرك بين النَّفْسِ والنَّفَسِ
لقد مننت على قلبي بمعرفة — بأنك الله ذو الآلاء والقُدُس
وقد أتيت ذنوبا أنت تعلمها — ولم تكن فاضحي فيها بفعلِ مُسي
فامنن علي بذكر الصالحين ولا — تجعل عليَّ إذاً في الدين من لَبَسِ
وكن معي طول دنياي وآخرتي — ويوم حشري بما أنزلت في عَبَس

لعله رحمه الله يشير إلى قوله تعالى في سورة عبس: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾.[1] اللهم اجعلنا منهم بمنك وبجاه نبيِّك.

قالت روح تحوم حول الحرم النبوي الشريف مُحبَّة وَالِهَةً:

يا سعد إن جئت لذاك المقام — أنْشِدْ فؤاداً في حماهم قام
وإن رأت عيناك ذاك اللِّوَى — عرِّض بذكر الواله المُسْتهام
يا عين إن لاحت لنا يثربٌ — فالسير من تلك علينا حرام
لما بدا وادي العقيق انثنَتْ — ترفل في مشيتها كالنَّعام
يا صاحبي أجْرِ معي أدْمُعاً — شوقا إلى محفل بدْر التمام
وقل إذا ما سِرْتَ في رَوْضِه — يا ساكن الحيِّ عليك السلام

(1) الآيتان: 38 – 39.

وقال مشتاق إلى ذلك الحمى:

نعـم، لـولاك مـا ذكـر العقيـق   ولا جـابت لـه الفَلـواتِ نـوقُ
نعم، أسـعى إليـك علـى جفـوني   تدانَى الحي أو بَعُدَ الطـريـقُ
إذا كـانت تحـن لـك المطايـا   فمـاذا يفعـل الصـبُّ المشـوقُ

وقلت:

يـا رَبِّ شَـقَّ النُّـزلُ شَـقَّ المقُـامْ   قـد اغـتربنـا بيـن قـوم لئـامْ
هـمُ أذَلُّـوا أمَّـة المُصطـفـى   ورَكبـوا وأمسكـوا بالـزِّمـامْ
يـا رَبِّ نصـرَك علـى جمعهِـم   ومَنْ تَكُـن لـهُ فَليس يُضـامْ

التفكـر

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.
اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار ومن شر الغنى والفقر.

للجوارح تسبيحها وعبادتها وذكرها. الإسلام ظاهر يتجلى في العبادات الظاهرة الجوارحية. وعلى مدارج الإيمان والإحسان تسبيح القلب وذكره، على ذكر القلب ونيته تنبني صحة الأعمال وقَبولها فِي الآخرة. العبادة الجوارحية كالنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج تصنف الإنسان في دائرة الإسلام، وتضمن له سعادة الدنيا لأنها تكفل حُرمة دمه وماله وعرضه، وتكفُل له مكانا في المجتمع المسلم عُضوا تام العضوية فيما يخص الحقوق والمعاملات. لكن عمل القلب وحده هو الذي يرفع المؤمن في درجات الآخرة والقرب من الله عز وجل، إن اقترن عمله بأداء الفرض والنفل.

وللعقل مشاركة في التسبيح والذكر كبيرة، ينظم الحركات الجوارحية في الزمان والمكان والمقدار، ويحرك نسائم القلب، ويسجل هباتها خادما ساعيا بين يدي القلب أمينا على تدبير الطاعات وضبط نزوات النفس. ما تسميه اللغة عقلا آلة ثمينة نفيسة وجوهر غال، بوجوده يتميز الإنسان من الحيوان. لكن ما يسميه القرآن عقلا هو اندراج العقل الاصطلاحي في خدمة القلب وتوجهاته إلى الله تعالى. فمن كان عقلهُ في خدمة النفس والشهوات سائراً في ركاب الشيطان والهوى فهو من الصم البكم الذين لا يعقلون.

كذلك التفكر على وزن تفعُّل، يفيد وزن تفعل رجوعا على النفس وانعكاسا، يختلف عن التفكير المشترك بين أفراد البشر. فالتفكير نشاط العقل الاصطلاحي في تناول المعطيات الكونية في انقطاع عن كل اعتبار يُرجعُ الأمور إلى الله، بينما التفكر

تناول الأشياء والمعاني من زاوية مرجعيتها إلى الخالق، ومن زاوية معنى وجود الإنسان، ومصيره بعد الموت، ومخلوقيته، ومسؤوليته في الآخرة. صيغة فعَّل تفعيلا تفيد انصبابا على العالم الخارجي وفعلا فيه.

بالعقل القلبي التفكري يتوَّج المؤمن بإكليل الكرامة الآدمية، المحافظة على الفطرة المتلقية بالقبول والإيمان رسالة الرسل، بينما يُعطي العقل الاصطلاحي، وإن تميز عن الحيوانية الاصطلاحية، للإنسان المفكر التأثير في الكون دون أن يخرجه عن الحيوانية المعنوية التي يقول الله عز وجل عنها: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾.[1] يفسرها ويعيِّن المقصودين بها قوله جل من قائل: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾.[2]

التفكيرُ تفتُّح هذه الملكة العقلية العجيبة على الكون، وتلمذتها له، واستقصاء شؤونه بالدراسة والتحليل والتركيب، وتأصيل العلوم الكونية. ومن هذا النشاط العقلي تنشأ العلوم الكونية، وعليه مدارُ تقدم الإنسان في مضمار الحضارة.

وقد خطِفَ بريق التقدم العلمي العقلي أنظار الناس في عصرنا، ومن جملة من خطفهم علماؤنا ودعاتنا. ذلك الذي قال: «إن الإيمان الذي جاء به القرآن الكريم ثمرة الدراسة الواعية للكون الكبير وما انبثَّ فيه من أحياء» رجل اختلط عنده الأمر فدل قُراءه المسترشدين به، وهو داعية كبير شهير صادق لا نشك في إيمانه، على الكون، ما دلهم على الله. دلهم على الأحياء، ما دلهم على المحيي المميت سبحانه.

ويقرأ بعض المسلمين، كثير من المسلمين، كتاب الله عز وجل فيقفون عند الآيات المخبرة عن العقل والتفكّر فيشرد بهم الفهم، ويقصر بهم الإدراك، ويزِلّون عن مرتبة الفقه والعلم، فإذا بهم يتقدمون بأن القرآن سبق إلى الدعوة للعقلانية، وبيَّن مزايا العقل. فلا ينتهي بهم التدحرج أسفل العقبة إلا وقد تجرّدوا عن معاني العقل القلبي الذي هو العقل عن الله وإلى الله وبالله ومن الله. وهذا منشأ الإسلام الفكري الثقافي.

(1) الأنفال، 22.

(2) الأنفال، 55.

إن الله عز وجل أخبرنا عن أولي الألباب ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.[1] يذكرون الله أولا، ذكرا كثيرا مستغرقا كل الأحوال، ساريا في الجوارح والكيان، ثم يتفكرون في «خلق السماوات والأرض» لا في مجرد الكون الكائن هناك. يتفكرون في الموجودات من حيث هي مخلوقة صادرة عن حياة الله عز وجل وقدرته وإرادته وعلمه وكلمته وأمره وقضائه وقدره. يتفكرون في الخلق، وهو فعل فاعل، لا في مادة صماء هي العالم القديم كما يزعم فلاسفة اليونان ومن ضل في سِربهم من المسلمين في العصور الأولى. يتفكرون في الخالق عز وجل الذي أنشأ وأبدع وبرى وصور وذرأ وبثَّ الدواب والأحياء في السماوات والأرض. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾.[2] هو بثَّها، ما انبثت من تلقاء نفسها كما تدل عبارة الداعية الكبير المُعَلْمَنَةُ رَغْمَ أَنْفِها. وفي قوله «الكون الكبير» تعظيم للمخلوق وعبادة له إذ لم يذكر أن لهذا الكون الكبير خالقا لتكون عظمة المخلوق دالة على عظمة الخالق.

يفعل هذا دعاة الإسلام الفكري الثقافي ويكتبونه دون إدراك لخطورة ما يترتب على خطابهم الممسوح من ذكر الله من سيِّئ الآثار. يكتبون بهذه اللغة المشتركة الثقافيَّة لأنَّ همهم، الصادق لاشك، منصرف إلى الجري لتلافي التخلف الشنيع الذي تعاني منه الأمة في ميادين المعرفة الكونية والعلوم والصناعات. أصبحت هذه اللغة الغافلة عن الله المغفِّلة عنه أسلوبا مألوفا، فينشأ عليها الخَلَفُ بعد السَّلَف في أحضان إسلام أجوف منبهر مأخوذ، يولي وجهه نحو الكون ومن فيه وما فيه إلا أوقاتا مخصوصة مستثناة يولي وجهه فيها نحو بيت الله لينقُر الصلاة نقْراً، أو يوليها المصحف ليقرأ آيات الله المباينة كل المباينة للغة الفكر والحضارة والبديل.

أجد في كتاب صاحبنا الداعية عبارة تلخص الانهيار الإيماني الذي دفع العلماء الأفاضل أمثال الشيخ سعيد حوى والشيخ سعيد رمضان أسعدهما الله وأسعد بهما، إلى التحذير من هاوية الإسلام الأجوف وإلى الدعوة الملحة للبحث عن الربانية.

(1) آل عمران، 191.

(2) الشورى، 29.

يقول الداعية المجرور: «وفي عصرنا هذا لا بد من الاستعانة بمقررات علم النفس، والاستعانة بما في الآداب الإنسانية الصادقة من تجارب وصور». لا أريد أن أطيل في التذكير بما هو «علم النفس» الجاهلي. الرجل مبهور مأخوذ من حيث لا يشعر، بل من حيث يطلق الصيحات الكبار ضد المبهورين بحضارة الغرب. لحضارة الغرب عنده ولفكرها وآدابها وعلومها حُرمة مطلقة، لذلك يريد أن يكون للإسلام سَنَدٌ وحُرمة مستمدة من الاستعانة بما هناك عند المُبْعَدين. قال في فقرة مهّد بها لكلمته عن الاستعانة: «إن تعهد الناشئة والكبار بما يوجه عواطفهم وآمالهم إلى الله جل جلاله شيء خطير، ولا بد من إقامته على أسس فنية محترمة». دعنا من المنهاج النبوي الفطري الساذج! فإذا قرأت بعد هذا لتعلم ما هي «الأسس الفنية المحترمة» التي يجب أن يبني عليها المسلمون فاجأك «علم النفس» و«الآداب الإنسانية الصادقة». تكنولوجية التربية من هناك تأتي محترمة مبجلة عصرية فنية، لا من القرآن ولا من سنة سيد الأنام وهي حب الله والحب في الله، وذكر الله. ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون. الأدهى في الأمر أن هذا الرجل يتكلم في «توجيه عواطف الناشئة والكبار وآمالهم إلى الله جل جلاله»!

التفكر من أشرف العبادات. بذلك ورد القرآن. وإن شغل التفكُّرُ بمعناه القرآني طوائف من المسلمين في عصور مضت عن التصدي للكوائن التي سخرها الله لنا حتى أصبحنا عاجزين مشلولين في الدنيا فإن انشِغالنا بالفكر عن التفكر في زماننا هذا يهدد بالانجراف مع الكوائن ناسين الله فينسينا أنفسنا، فتشل حاسة الإيمان فينا وهي القلب، فنخسر الآخرة.

قال الإمام حسن البصري رحمه الله: «من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو».

لا يمكن لنا أن نرجع من اللغو الفكري، والسهو الغافل، واللهو بمنجزات الحضارة الوثنية، حضارة الحواس واللّذة و«السعادة» الدوابية إلا بتجديد إيماننا تجديدا ينشط في ظله العقل المشترك المنظم المحترم الصانع تحت إمارة القلب، ساعيا بين يديه إلى غاية الإحسان وأهداف العدل.

العقل المَهْديُّ يتفكر في الله، في أفعال الله لا في ذاته وصفاته. لا مجال للعقل الآلة في الحَوَمان حول جنبات الذات والصفات. لكنه مطلق السراح ليتفكر في آلاء الله ونعمائه وأثر صفاته في العالم وفي الإنسان، في آيات الله الآفاقية والأنفسية.

العقل الخادم للقلب، المرتِّب لشؤونه، مؤهل لتقليب معاني علاقة العبد بربه في حالات الخوف، والرجاء، والتوكل، والتسليم للقضاء، والرضى به، والدعاء لصرفه، والاجتهاد لاحترام السببية التي جعلها الله نظاما في العالم، وفي حالة الشكر، والصبر، والحياء من الله، والتوبة إليه، والإنابة، والشوق، والمحبة، والاضطرار، والصدق، والتبتل، والاستغفار، ومحاسبة النفس، والهيبة، والأنس، والقرب، والتقرب، والطاعة، والمبايعة، ومعالجة الخواطر، والورع، والتقوى، واليقين، والإرادة، وأداء حقوق الله والناس، والإيقان بالآخرة.

كل ذلك ذكر لله عز وجل من خلال التفكر. فإن ارتبط التفكير بالتفكُّر ارتباط التابع بالمتبوع رجونا أن تتوج الأمة بإكليل الخلافة في الأرض والتمكين الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يعبدونه ويعظمونه، لا يعبدون غيره، ولا يعرفون لأحد ولا لشيء من الحرمة إلا ما عرّف به.

ماذا يطلب الإسلاميون؟ الحقَّ أم الخلق، الكون أم المكوِّن، مجرد النهضة الحضارية المناهضة للآخرين أم الخلافة على منهاج النبوة تحمل للعالم رسالة الله؟

قال الشيخ عبد القادر قدس الله روحه: «أما تعلم أنك كلما خطوت بقلبك خطوة إلى الخلق بعُدت من الحق عز وجل؟ تدعي أنك طالب الحق عز وجل وأنت طالب الخلق! (...) تدعي أن قلبك قد خرج من الخلق وأنت تخافهم وترجوهم! ظاهرك الزهد وباطنك الرغبة! ظاهرك الحق وباطنك الخلق».[1] وقال: «العلماء العمال بالعلم نواب الله في أرضه، ورثوا الأنبياء والمرسلين، لا أنتم يا مُهَوَّسين، يا مشغولين بِلَقْلَقَةِ اللسان وفقه الظاهر مع جهل الباطن. يا غلام! ما أنت على شيء! الإسلام ما صح لك! الإسلام هو الأساس الذي يُبنى عليه. تقول لا إله إلا الله وتكذب! في قلبك جماعة من الآلهة. خوفك من سلطانك ووالي مَحَلَّتِكَ آلهة، اعتمادك على

(1) الفتح الرباني، ص: 65.

كسبك وربحك وحولك وقوتك وسمعك وبصرك وبطشك آلهة. (...) القلب هو المؤمن، هو الموحد، هو المخلص، هو المتقي، هو الورع، هو الزاهد، هو الموقن، هو العارف، هو العامل، هو الأمير. ومن سواه جنوده وأتباعه».[1] أقول: هو الأمير في مملكة فردية وجماعة مؤمنة لا تؤله العقل الوثني كما ألهه اليونان وورثتهم في الحضارة اليهودية النصرانية الحواسية.

قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله يتفكر في المصير الأخروي ويذكرنا:

ذهب الشباب فما له من عودة — وأتى المشيبُ فأين منه المهرَب
فدع الصبا فلقد عداك زمانه — وازهد فعمرك مرَّ منه الأطيبُ
دع عنك ما قد كان في زمن الصبا — واذكر ذنوبك وابكها يا مذنبُ
واذكر مناقشة الحساب فإنه — لا بد يُحصى ما جنيت ويكتب
لم ينسه الملكان حين نَسيته — بل أثبتاه وأنت لاه تلعب
والروح فيك وديعة أُودِعْتَها — ستردّها بالرغم منك وتُسلب
وغرور دنياك التي تسعى لها — دار حقيقتها متاع يذهب
والليل فاعلم والنهار كلاهما — أنفاسُنا فيه تعد وتُحسب
وجميع ما حصلته وجمعته — حقا يقينا بعد موتك يُنهب
تبا لدار لا يدوم نعيمها — وَمَشيدُها عما قليل يَخرب
فعليك تقوى الله فالزمها تفُزْ — إن التَّقِيَّ هو البهيُّ الأهْيَبُ
واعمل بطاعته تنل منه الرضى — إن المطيع لربِّه لمُقرَّبُ

وقلت:

حصْنُ العدا عمَّا قليل يَخْرَبُ — والليل يُجلى والبلا والغيْهَبُ
رَايَاتُ نصرٍ سوف تخفُق في العلاَ — وَلِدين أحمد في المنابر يُخطَبُ
فعليكَ بالتقوى تفزْ بخلافَةٍ — وتُعَدَّ من فرسانها وتُكَتَّبُ

(1) الفتح الرباني، ص 74.

الحزن ومحاسبة النفس

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.
اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء.

حشو الأدمغة المفكرة في عصرنا، لا المتفكرة، ثقافة، وحضارة، وفن، و«أسس فنية محترمة»، وآداب إنسانية، وفلسفة، و«علم نفس»، وهوس العالم، وأخبار العالم. كل ذلك يتساكن مع بصيص من الإيمان، ومَسحةٍ من الإسلام، وغيرة ذاتية أصيلة نكره بمقتضاها حضارة الغرب الوثنية، ونعشق منها جوانب القوة والقدرة على صنع الأشياء وتدبير العالم وتنظيم المجتمع والدولة. لا تتنافر هذه العناصر الأَمْشَاجُ في الأدمغة المشطوبة المكنُوسَةِ من ذكر الله. فإن صرح أحدهم أو أشار، أو كَنَّى أو استعار، أو سكن أو مار، فعن تلك المرجعية الخليط يصدُر. فما شأنك أيها الغافل من شأني، ولا استرعاك ما استرعاني، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني.

قال بـ«علم النفس» و«الآداب الإنسانية الصادقة» وصدق بها، وأعطاها حُرمة، وعلق على فنِّيتها كل الآمال. لو كان الأمر يتعلق بغرض من أغراض التصنيع والإنتاج لقُلْنَا أو سكتنا. لكن عالم الأزهر الداعية المسموع الكلمة يوصي بهذا الوباء الجاهلي دواء «لتوجيه عواطف الناشئة والكبار لله جل جلاله». يا حسرة على العباد! وهذا مما يحزن القلب ويدمي الفؤاد ويفتت الأكباد!

التفسير الثقافي السياسي للإسلام راية رفعت بعد الأستاذ البنا رحمه الله لست أدري بل لا أريد أن أدريَ، متى بدأ تسطيح الإسلام في أذهان الدعاة قبل البنا وبعده، لكن المؤكَّدَ أن هذا الرجل العظيم من الأولياء الذاكرين. فما بال بعضهم ممن ينتمي لمدرسته يستسلم للهجوم الشيطاني الجني الإنسي الناهي عن ذكر الله الصارف عن التفكر في النفس والله والدنيا والآخرة إلى التفكير المسطَّح؟ ما بالهم يُخَنْدِقون في

واجهة الغزو الثقافي والسبق الحضاري والمعركة السياسية ويتركون واجهة التربية مكشوفة. بل هم ما عرفوا ما هي التربية. وردِّدْ معي تأوهات السعيدين حوى والبوطي المكتوبة المكمومة.

عمق التفكُّر هو الحزن على حال النفس والرجوع عليها باللائمة والقَرْع والقمع والتوبيخ الدائم. من كان «الكون الكبير» عظيما في عينه من دون الله فأنّى له أَن تملك عليه عظمة الخالق العلي القدير كيانه حتى يستصغر نفسه في جنب الله، ويَقمَعَها عن معاصي الله، ويبكِيَ حسرةً على ما فرطت في جنب الله، ويجابِهها بقَرْحِها وسرحها في الشهوات الشخصية الثقافية المعجبة بالنفس، التائهة فخرا ونفاسة بأصالتها وهويتها وتاريخها وجماعتها. هَوَسٌ ذاتي منفتح على هوس العالم إن غاب عنها الانتماء لله عز وجل بالعبودية، يكون هذا الانتماءُ جَوْهَر حياتها وشخصه، وما سوى هذا الانتماء ظلاّ زائلا وحالة عابرة. وما الانتماء العبودي لله جل شأنه إلا ذكره الدائم وإحضار النفس راكعة ساجدة تائبة آيبة آناء الليل وأطراف النهار. الغافلون عن الله من المنتمين للإسلام حاموا حول الوِرْدِ وما وردوا، وكانوا كمن جِيءَ به إلى المرعى الخصيب فشرَدَ إلى السراب. من يعزّيهم في مصابهم؟ بل من يعزي الأمة في مصابها بهم؟ من يصفي شراب الأمة الذي يقدمونه في كتبهم ومحاضراتهم ومهاتراتهم مشوبا مقلوبا؟ من يشفي مريضنا في بيت الدعوة والأطباء كثُروا فما وجدوا يدا تُسعف؟ من يصافي ومن يعافي؟ الأطباء بارزون في العَراء، ضاحون في الخلاء والمَلاء، مدحورون أو داحرون في الجَدل والمِراء!

وا مصيبتاه! وا حزناه! وا إسلاماه! وا إيماناه! وا إحساناه! وا ديناه! وا محمداه!

حزن من أين لنا به ونحن لا نشعر حتى بأن هناك مكانا للحزن!

كان رسول الله ﷺ يحزن رقة لحادث أَلَمَّ، فيكون حزنه على عزيز انتقل من الدنيا بالموت رِقَّةً بشرية هي رحمة مشتركة بين العباد مُسْلِمِهِم وكافرهم. هي مروءة. وكان ﷺ يلازمه حزن آخر أعمق: حزنه على النفس. عظم حزنه وطال وتعمق على قدر عظمة شأن رب العزة ورب العرش العظيم عنده، وعلى قدر طول تفكره وعمق ذكره.

لما توفي ابنه إبراهيم صبيا بكى ﷺ وقال: «إن العين تدمع، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا. وإنا بفراقك يا إبراهيم محزونون». رواه الشيخان وأبو داود رحمهم الله عن أنس رضي الله عنه.

وروى الشيخان عن أسامة أن بنت رسول الله ﷺ أرسلت إليه عندما كان ابنها أو ابنتها تُحتَضَر، فأخذ رسول الله ﷺ الصبي فأقعده في حجره «ونفسه تَتَقَعْقَعُ كأنها الشَّنُّ»، أي تتحرك ويُسمع له صوت كأنها قربة بالية. في رواية قال: «ففاضت عيناه فقال سعد: يا رسول الله! ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده».

رِقة ودمعة، هذه عاطفة نبيلة يرعاها الإسلام. وينهى النبي ﷺ عن النَّوْح والصراخ والعويل ولطم الخدود وشق الجيوب وسائر مظاهر الهَلَع والحزن عند الموت. أفعال تتنافى مع الإيمان باليوم الآخر. لا يجزع لفراق الموت إلا من كان لا يوقن بالبعث. والحزن الرقيق غير الجزع.

أعلى من هذا الحُزْنِ النفسي البشري الحزنُ القلبيُّ، حزن الذاكرين الله، الخاشعين لجلال الله، حزن الوجلة قلوبهم من ذكر الله، اللَّيِّنة من ذكر الله. شتان بين حزن على الناس وحزن خاشع لله. كلاهما رحمة، لكن رحمة بين الخلق والخلق لا نسبة لها مع رحمة بين الخلق والحق. هذه الرحمة العليا رِزْقٌ للأنبياء والأصفياء. عين بكت من خشية الله لا تدخل النار، تساوي في النَّجاء والعلاء عينا سهرت حارسة جند الله. رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه يدخل في ظل الله يوم لا ظل إلا ظل الله.

ترفع دمعة الحزن لله صاحبها إلى مصاف المجاهدين المُجْتَبَيْنَ. قال الله تعالى في سورة التوبة يستثني الباكين الذين حال الفقر بينهم وبين المشاركة في الجهاد من طوائف المخَلفين القاعدين عن الجهاد نفاقا وجبنا ورقّة دين: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.[1]

(1) الآيتان، 91 – 92.

وقال تعالى في آخر ذكره للأنبياء في سورة مريم: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾.[1]

وقال جل جلاله يتحدث عن الباكين لسماع القرآن: ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾.[2] وقال جل من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.[3] وقال سبحانه: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.[4]

رقة القلب ولينُه من ذكر الله وسماع آيات الله هُدىً وعبادة. وقسوة القلب وتحجر العين ضلال. وقد كان رسول الله ﷺ متواصلَ الأحزان، عميق التأثر بذكر الله كما يليق بالرحمة المهداة ﷺ، عين الهداية ﷺ. روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي رحمهم الله عن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ وفي صدره أزيز كأزيز المِرْجَلِ من البكاء». المرجل القدر تغلي فيسمع تَنَفُّسها.

وفي رواية للطبراني رحمه الله عن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن خاله هند بن أبي هالة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان متواصل الأحزان.

هذه الشخصية الإيمانية القوية في ذات الله اللوامة للنفس في جنب الله ليست شخصية متجهِّمَة غضبية. الشخصية الإيمانية الإحسانية حزينة لله على نفسها، باكية تائبةٌ راجعةٌ على الدوام إلى التفكر، لكنها بمقتضى الاعتدال الوارد في قوله تعالى من صفات الذين يحبهم سبحانه ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[5] تلين للناس، وتبتسم، وتبشر، وتيسر، وتخالق الناس بالخلق

(1) الآية، 58.

(2) الإسراء، الآيات: 107 – 109.

(3) الأنفال، 2.

(4) الزمر، 23.

(5) المائدة، 54.

الحسن، وتلقاهم بالبشاشة الدائمة. بشخصية عادلة معتدلة يتألف من تعددها وتحزبها لله وتربيتها جسم مجاهد يجمع بين مقتضيات الدعوة والدولة وبين باعث القرآن ووازع السلطان. من الخمول والدروشة وانعكاس الفهم أن نحزن ونبكي ونتجهم ونلعن ونبدِّع الناس بلا حجة ونكفر ونادي بالويل والثبور وعظائم الأمور حيث ينبغي أن نبتسم ونبتهج ونرفُق ونعطف ونتصرف بثقة في وعد الله، وثبات على أمر الله، مع إخواننا عباد الله.

كان ﷺ أكثر الناس تبسّما. قال عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه: «ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ». رواه الترمذي بإسناد صحيح. وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت رسول الله ﷺ مُستجمعا قط ضاحكا حتى تُرى لَهَواتُه، إنما كان يتبسم». رواه الشيخان رحمهما الله وغيرهما.

الضحك المستجمع من فعل الغافلين، والقهقهة المستهترة من مس الشياطين. كيف يضحك مستجمعا من قيل له في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾[1]؟ التبسم لإخوتك والبِشر والتبشير حق المسلمين عليك، لكن محاسبة النفس في حقوق الله هي واجبك نحو الله. قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا». والعاقل من جعل دَيْدَنَه محاسبة النفس صباح مساء، يستغفر ربه لزلاته، ويحمده على نعمائه، ويستغفر ويبكي ويتوب ويتفكر ويذكر.

قال الإمام الرفاعي رحمه الله: «أي بُنيَّ! اعلم أن أهل المعرفة يبكون إذا ضحك أهل الغفلة، ويحزنون إذا فرح أهل الغِرَّة (...) واعلم أن البكاء بكاء العين، وبكاء القلب، وبكاء السر. فأما بكاء العين فهو لأهل المعرفة من المنيبين، وأما بكاء القلب فهو لأهل المعرفة من المريدين، وأما بكاء السر فهو لأهل المعرفة من المحبين. واعلم أن لأهل المعرفة هموما مخبوءة تحت أسرارهم، مستورة عن أفكارهم. فكلما هاج من أسرارهم رياح خشية الهيبة، ومن قلوبهم لهب نيران الأحزان، أحرقَت ما عليها من هشيم الغفلة والنسيان».[2]

(1) الحشر، 18.

(2) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص: 218.

وقال: «أفضل العبادات والطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات». وقال القشيري رحمه الله: «الحزن حال يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة». وقال أبو عثمان المغربي رحمه الله: «أفضل ما يلزم به الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم». وقال الجريري: «أمرنا هذا مبني على أصلين: وهما أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى وأن يكون العلم على ظاهرك قائما».

الشخص الرباني يُعطي كل ذي حق حقه، ظاهراً لظاهر، وباطناً لباطن. إسلامه أساس لإيمانه، وإيمانه تشييد لإحسانه، وغايته الله، وذكره الله، وتفكره الله، وحزنه لله. ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]. لا إله إلا الله.

قال عارف بالله، عابد لله، ذاكر لله:

الليل داج والعصاة نيام ... والعارفون لدى الجليل قيام
يتلون آيات الهدى ودموعهم ... تجري ومنها قد تفيض سِجَامُ
لا يصبرون سويعة عن ذكره ... شوقا وليس لمن يحب منام

وقال المحاسب لنفسه النادم على ضياع عمره، التائب إلى ربه:

إلى كم تمادى في غرور وغفلة ... وكم هكذا نوم، متى يوم يقظة؟
لقد ضاع عمر، ساعة منه تُشْترى ... بملء السما والأرض، أية ضيعة!
أتنفقُ هذا في هوى هذه التي ... أبى الله أن تسوى جناح بعوضة!
وترضى من العيش السعيد تعيشه ... مع الملإ الأعلى بعيش البهيمة!
أيا دُرة بين المزابل أُلقيت ... وجوهرة بِيعتْ بأبخس قيمة!
أفان بباق تشتريه سفاهةً ... وسخطا برضوان ونارا بجنة!
أأنتً صديق أم عدو لنفسه ... فإنك ترميها بكل مصيبة!

(1) الأنعام، 164 – 165.

ولـو فعل الأعـدا بنفسك بعض ما فعلت لمسَّتـهم لها بعـضُ رحمة!
لقد بعتَها -حزْني عليك!- رخيصةً وكـانت بهـذا منك غَيْـرَ حقيقة!
فَوَيْـكَ! استقل لا تَفْضَحَنْهـا بمَشهد من الخلـق! إن كنت ابـن أم كريمـة!

وقلت:

اللَّـيل دَاجٍ والدُّمـوعُ سـجَامُ والصَّحْـبُ منَّـــا سُجدٌ وقيـامُ
فـإذا انْجلـى وَجـهُ النَّهـار تشـمَّروا مَـا مِنـهم إلاَّ فتـىً ضِرغـامُ
عَـنْ ذكـرِهمْ لا يَفتُـرونَ وإنهـم عـنْ غَير ما يَقْضـي الجِهادُ صِيامُ

ذكر الموت والدار الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.
اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام وسيّئ الأسقام.

في أول سورة البقرة وأول سورة لقمان رتب الله عز وجل الفلاحَ مع شروط إيمانية أخرى وربطه باليقين بالآخرة. قال تعالى: ﴿**الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.[1] وقال تبارك اسمه: ﴿**الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.[2] الهداية بالقرآن، والإيمان بالغيب، وإقامة شرائع الدين تثمر يقينا بالآخرة وفلاحا أبديا.

وقد أمر رسول الله ﷺ بذكر الآخرة فقال: «اذكروا هَاذِمَ اللذات». رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن غير أبي داود عن أبي هريرة. وما لأحد أُسوة برسول الله ﷺ إن لم يكن يَرجو الله واليوم الآخر يقينا واحدا. وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قالت عائشة رضي الله عنها راويةُ الحديث: «فقلت: يا نبي الله! أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت! قال: «ليس ذلك! ولكن المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه». أخرجه الشيخان.

(1) البقرة، 1 – 5.

(2) لقمان، 1 – 5.

الكافرون الجاحدون نُبُوة سيدنا محمد ﷺ آنذاك لم يكن كفرهم بالمعاد كفرا مُطْبَقـًا، إنما كانوا من الآخرة في شك مريب كما قال تعالى: ﴿**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ**﴾.[1] لذلك يكرهون لقاء الله. أما في عصرنا فالكفر بالله وباليوم الآخر سِمَةُ الحضارة المادية الحواسية الدوابية. وقد غلبت ثقافتها وخطابها الجهنمي وهيمنت حتى إنك تقرأ كتب الإسلام الثقافي من الدفة إلى الدفة فلا تجد ذكراً لله ولا لليوم الآخر إلا استثناء غير مقصود. وإن حاجتنا إلى العودة للخطاب القرآني والنبوي، وكلاهما ذكر لله والآخرة، لمن أمس الحاجات حتى لا نتيه وتضيع منّا مُسْكَة الإيمان بالغيب التي عليها مدار اهتدائنا وفلاحنا.

قرأنا في حديث التقرب بالفرض والنفل، في آخره، قول الله عز وجل، فيما رواه عنه عبده ورسوله ﷺ: «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته».

فالمؤمن كما قالت أمنا عائشة رضي الله عنها يكره الموت دون أن تخرجه هذه الكراهية عن مرتبة الكرامة المعطاة لمن أحب لقاء الله. يحب لقاء الله لكنه يكره الموت استصعابا لمقدماته وسكراته، أو لمفارقة الأهل والولد، إن كان ممن بقيت فيه بقية تعلق بالدنيا وأهلها لما يطلقها، أو استزادة للعمل الصالح، أو طلبا لاستصلاح أمره والاستغفار لذنبه. وقد كان رسول الله ﷺ عانى من سكرات الموت، فكان يقول: «إن للموت لسكرات!». وقال عمرو بن العاص وهو يُحتضر: «كأني أتنفس من خرم إبرة، وكأن غصن شوك يجرُّ به من قامتي إلى هامتي».

من الناس من يسهل انتقاله، وليس في سهولة موته ما يدل على ميزة سعادية. فإن كان من المؤمنين من يكره الموت فللأسباب المذكورة. وإلا فَ «الموت تحفة المؤمن» كما روى الطبراني رحمه الله بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعا. الموت عند العارفين المحسنين الأولياء راحة، لأنها تخففهم من كثافة الجسم الترابي، فيُصبح لقاء الله أقرب، يسبحون في الروحانية حتى يبعثهم الله ويبعث من في القبور في أجسام الخلود التي بها يتنعم من يتنعم وفيها يعذب من يعذب، أجارنا الله وإياكم من عذابه.

---

(1) النمل، 66.

في حضارة الحواس المادية الكافرة كراهية للموت من صنف آخر. الموت عندهم هو العدو الأول لأن الموت يعني العدم ومغادرة «الحياة» الجميلة الغالية. الموت يُطوى عندهم ذكره، وتَسْمُجُ في آدابهم الإشارة إليه. حتى إن أكثر دور الإقبار وشركات الدفن والتحنيط نجاحاً هي التي تختلس الجثّة سراً وفي صمت دون أن يسمع عن ذلك أحد. وجل المحتضرين والميؤوس منهم يساقون إلى المستشفيات ليموتوا هناك بعيدا عن الأبصار والأسماع.

في ديننا تشجع السنة الغراء على السكون للموت والاستئناس به. قال رسول الله ﷺ لأبي ذَر: «زر القبور تذكر بها الآخرة، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة. وصل على الجنائز لعل ذلك يُحزنك فإن الحزين في ظل الله يوم القيامة». رواه الحاكم ووافقه الذهبي رحمهما الله على صحته.

الحزن النفيس هو المقصود هنا لا حزن الرقة والعطف.

تربية أهل الإيمان ينبغي أن تجمع القلوب والعقول على ذكر الله، والتفكر في النفس ومصيرها، وأفعالِ الله بها وبالعالم، والتفكر في الآخرة وذكرها، والاستئناسِ بالموت لا باعتباره قفزة إلى المجهول، بل باعتباره مرورا من دار الفناء إلى دار البقاء. في تربية أهل الإيمان يؤدي ذكر الله عز وجل والتفكر والدعاء والحزن النفيس ومحاسبة النفس ودوام مناجاة الله جل شأنه بالاستغفار والتضرع وطلب الزلفى والقرب منه إلى قصر الأمل وإلى العزوف عن الدنيا. وتكون الآخرة كأنها رأي العين من تمكن اليقين. ما أخبر به الله ورسوله عند العبد الفالح المُفلح يقين إيماني، وعند المحسن المقرب ممن أكرمهم الله بالبصيرة وفتح عين قلوبهم حقيقة ماثلة. سؤال الـمَلَكَين، وعذاب القبر نعوذ بالله، والنفخ في الصور، والبعث، والنشر، والحشر، والموقف، والشفاعة، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة، والنار.

والذاكرون الله كثيرا المحبون المحبوبون، المريدون المرادون، يتطلعون إلى موطن فيه وجوه ناضرة إلى ربها ناظرة. طووا الدنيا والآخرة، ومجّوا من قلوبهم دار الأكدار، دار الغرور، دار البلاء والامتحان.

إن ثقافة الموت والآخرة -أعوذ بالله من هذه الكلمات الدخيلة الحاملة معها ريح الكفر-. أقول: إن ذكر الآخرة في سياق ذكر الله انطلاق من أسْرِ المادة وارتفاع عن حضيض الحياة الدنيا إلى الحياة العليا. من شأن هذا الانطلاق أن يحرر طاقات المؤمنين حين تصبح الآخرة عندهم هي حقيقة الحياة، وحين يَكون العمل الصالح هنا في الدنيا هو الزاد المطلوب هناك، والعُمْلَة الرائجة إن كان عليها طابع الإخلاص، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.[1] زاد المؤمنين إلى هناك العمل الصالح، زادُ قوم تقربوا إلى الله وذكروه كثيرا فخرجوا منها وقد فازوا بالله، وصحبوا في سفرهم إلى الآخرة الله، ونظروا بعين قلبهم هنا وينظرون بعين رأسهم هناك الله.

من شأن ذكر الموت في حياة أهل الإيمان أن يهونَ عليهم الموت ما داموا ساعين في العمل الصالح وفي رضى الله. يُصبح الاستشهاد في سبيل الله مطلبا غاليا، ويكون الجُهد والجهاد في سبيل الله بذلا مقصودا، لا تصرفهم الصوارف ولا تمنعهم الموانع عن الفاعلية الكبيرة في الدنيا. أما الباكون المتباكون من خوف الموت، المتماوتون في الدنيا خمولا ويأسا فقوم آخرون بل وباء وطاعون.

المؤمن مستبشر في الدنيا بالله، وفي الآخرة بالجزاء الحسن وبالله. حسن ظنه بالله قبل الموت وعنده عبادة. قال رسول الله ﷺ: «لا يموتَنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى». رواه مسلم وأبو داود رحمهما الله عن جابر رضي الله عنه.

قال ابن عطاء الله رحمه الله يصف الدنيا وطبيعتها بما هي دار بلاء واختبار وعبور: «لا تستغرب وقوع الأكدار ما دُمْتَ في هذه الدار. فإنها ما أبْرزت إلاّ ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها». وقال: «إنما جعل الله الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيَهم، ولأنه أجلَّ قدرهم من أن يجازيهم في دار لا بقاءَ لها».

وقال الإمام عبد القادر: «اقْعد بمقبرة! خاطب الموتى: ما لقيتم؟ إلامَ صرتم؟ أين الأهل؟ أين الأولاد؟ أين الدور؟ أين الأموال؟ أين الشباب؟ أين القوة؟ أين الأمر؟

(1) الشعراء، 88 – 89.

أين النهي؟ أين الأخذ؟ أين العطاء؟ أين المحابُّ؟ أين الشهوات؟ كأنهم يخاطبونك: ندِمنا على ما خلفنا! فرحنا بما قدمنا! هكذا كن إذا أردت أن تزور المقابر خاليا عن الرفيق، خاليا عن الرجال والنساء. كونوا عقلاء ! أنتم موتى عن قريب!».[1]

وقال: «المؤمن غريب في الدنيا، والزاهد غريب في الآخرة، والعَارف غريب فيما سوى المولى. المؤمن مسجون في الدنيا وإن كان في سعة الرزق والمنزل. أهله يتقلبون في ماله وجاهه، ويفرحون ويضحكون حواليه، وهو في سجن باطن. بشره في وجهه، وحزنه في قلبه. عرف الدنيا فطلقها بقلبه (...). ووقف مع الآخرة بكليته فبينما هو معها إذ برق نور الحق عز وجل، فطلق الأخرى قالت له الدنيا: لم طلقتني؟ قال لها :رأيت أحسن منك! وقالت له الأخرى: لم طلقتني؟ قال لها: لأنك محدثة مصورة (...) فحينئذ تحققت معرفته لربه عز وجل، فصار حُرّاً مما سواه، غريبا في الدنيا والآخرة».[2] قلت نعم العبد مَن يسأل الله الجنة لأنها دار مُقَامَة السعداء المفلحين، لكنه لا يرضى أن يكون ضيفا دون لقاء رب الدار.

وقال رضي الله عنه: «الزاهدون يأكلون في الجنة، والعارفون يأكلون عنده وهم في الدنيا. والمحبون لا يأكلون في الدنيا ولا في الآخرة، طعامهم وشرابهم، أُنسهم وقربهم، من ربهم عز وجل، ونظرهم إليه. باعوا الدنيا بالآخرة، ثم باعوا الآخرة بقربهم من ربهم عز وجل ربِّ الدنيا والآخرة. الصادقون في محبته باعوا الدنيا والآخرة بوجهه وأرادوه دون غيره. فلما تم البيع والشراء غَلَبَ الكرَمُ، فرَدَّ عليهم الدنيا والآخرة مَوْهِبَةً، وأمرهم بتناولهما فأخذوهما».[3]

الذين لا يؤمنون بالآخرة يقتحمون الموت وينتحرون ظنا منهم أنها الراحة من هذه الحياة الكدرة. وحقيق للنفوس ذوات المروءة الإنسانية أن تشمئز من الدنيا إذا كان كلُّ معنى وجود الإنسان وغايتُه أن يكون عُلبةً للأكل والإفراز، وآلة للاستهلاك والإنتاج، سعادته اللهو واللعب والفن والعطلة والسِّفاد!

(1) الفتح الرباني، ص: 373.
(2) نفس المصدر، ص: 178.
(3) نفس المصدر، ص: 221.

كتب رجل من صالحي الأمة وصيتَه بين يدي الموت وجهها إلى ربه عز وجل يوصيه فيها بنفسه، إذ لم يكن له من متاع الدنيا ما يوصي به. قال: «إلهي إنك أمرتنا بالوصية عند حلول المنية. وقد تهجمت عليك، وجعلتُ وصيتي إليكَ، عند قدومي عليك. فأول ما يُبدأ به إذا نزلت قبري، وخلوت بوِزري، وأسلمني أهلي، أن تؤنس وحشتي، وتوسع حفرتي، وتلهمني جواب مسألتي، ثم تكتب على منصوبِ نصيبي وفي لوح صحيفتي بقلم ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.[1] فإذا جمعتَ رُفاتي، وحشرتني يوم ميقاتي، ونشرت صحيفة سيئاتي وحسناتي، نظرت إلى عملي: فما كان من حسن فاصرفه في زمرة أوليائك، وما كان من قبيح فمدّ به إلى ساحل عتقائك، واغفره في بَحْر عفوك وغفرانك. ثم إذا وقف عبدك بين يديك، ولم يُسَبِّق إلا افتقاره إليك، واعتماده عليك، فقِسْ منه بين عفوك وذنبه، وبين غناك وفقره، وبين حلمك وجهله، وبين عزِّك وذلِّه، ثم افعل فيه ما أنت أهله. فهذه وصيتي إليك، تطفلا بفضلك عليك. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبدك ورسولك، وأن الموت حق، وأن الحياة باطل، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور».

هذا الموقف الإيجابي اليقيني من الموت وما بعدها ومن الله عز وجل ما هو وثبة في المجهول، هو عكس الموقف الانتحاري. كتب الوصية عز الدين بن عبد السلام المقدسي، وهو شخص آخر غير سلطان العلماء. رحم الله الجميع بمنه وكرمه.

قال موقن بلقاء ربه:

من كان يعلم أن الموت مَوْرِدُهُ والقبرَ مَنْزِلُه والبعثَ مَخْرَجُه
وأنه بين جنات ستُبْهِجه يوم القيامة أو نار ستُنْضِجُه
فكل شيء سوى التقوى به سَمِجٌ وما أقام عليه منه أسمَجُه
ترى الذي اتخذ الدنيا له سَكَنا لم يدر أن المنايا سوف تُزعجُه

(1) يوسف، 92.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

كم ضاحك والمنايا فوق هامته   لو كان يعلم غيبا مات من كَمَد
من كان لم يؤت علما في بقاء غد   ماذا تفكُّرُهُ في رزق بعد غَد

وقال:

ومُتْعِبِ العيس مرتاحا إلى بَلَد   والموت يطلبه من ذلك البلد
وضَاحِك والمنايا فوق مَفْرِقِهِ   لو كان يعلم غيبا مات من كَمد

وقال:

يا واعظ الناس عما أنْتَ فاعله   يا من يُعَدُّ عليه العمر بالنَّفَس
احفظ لشيبك من عيب يُدَنِّسه   إن البياض قليل الحمل للدنس
كحامل لثياب الناس يغسلها   وثوبه غارق في الرجس والنجَس
تبغي النجاة ولم تسلك طريقتها   إن السفينة لا تجري على اليَبَس
ركوبك النعش ينسيك الركوب على   ما كنت تركب من بغل ومن فرس
يوم القيامة لا مال ولا ولدٌ   وضمة القبر تنسي ليلة العُرُسِ

وقلت:

تَبغي النَّجاةَ وتعصي وَيْكَ! ذَا هوَسٌ   وتَركبُ الغَيَّ في بحرٍ وفي يبَس
تَذكَّر النَّعشَ، مَركُوباً تُزَفُّ به   لِدَارةِ القَبرِ مَحشوراً إلى الرَّمَسِ
وَيومَ تُبعثُ مَرْهوناً بما كسبَتْ   يَداك من سيئاتِ الإثم والدَّنَسِ

الاعتصام بالكتاب والسنَّة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾. اللهم إني أعوذ بك من الهدم، ومن التردي، وأعوذ بك من الغرق والحرَق والهرم. وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مُدْبِراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً.

«أهل القرآن هم أهل الله وخاصته». هكذا قال رسول الله ﷺ في حديث رواه الإمام أحمد وابن ماجه والنسائي والحاكم رحمهم الله عن أنس رضي الله عنه بسند حسن. أطهر أهل القرآن قلبا أقربهم لله. لا يمسه إلا المطهرون، وهم الملائكة ومن دخل في حكمهم بتطهره الظاهر والباطن حتى أزالت ملائكيته دوابيته، ومحت نورانيته ظلمته، وأذهب الله عنه الرجس وقربه وأحبه وجعله من خاصته. ولكل من عظم كتاب الله وخدمه حفظا وتلاوة، وعمل بأمره ونهيه نصيب من ولاية الله. ولَخَيْرُ الأمة من تعلم القرآن وعلمه، إذا كان مع التعلم والتعليم تقوى.

قال رسول الله ﷺ في حديث رواه البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه رحمهم الله عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». قال الإمام الرفاعي رحمه الله في شرح هذا الحديث: «هذا الحديث الشريف يفيد أن الخيرية قد صحت لمن قد تعلم القرآن وعلمه لما في القرآن العظيم من بالغ الحكم، وغامض السر، وخطير الشأن، وهو حبل الله الأعظم، به يهتدي المهتدون، ويصل الواصلون. وهو خُلُق رسول الله ﷺ، وباب الله تعالى، والمعجزة الدائمة، والنور الذي لا ينحجب. وعنه تأخذ أرواح العارفين أسرار المعرفة. وما المعرفة التي لم ترجع إليه؟ ما هي إلا زور وضلالة. ومتى تحقق العبد بالعلم بالقرآن العظيم فقد صار عارفا، وانكشفت له الأسرار الربانية، الملكية والملكوتية. ومتى صار عارفا

حَنَّ وأَنَّ، وطلب زيادة العلم بالله من كل طريق وفن وكل الطرق والفُنُون في القرآن العظيم. والعارفون هم الراسخون في العلم يقولون آمنا به، وإليه سير هِمَمِهم، وعنه يصدرون، وبه يهيمون، ومنه يأخذون».[1]

القرآن العظيم هو ربيع قلوب الذاكرين، هو الذكر الحكيم ﴿**هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾.[2] الذين لا يؤمنون بالله يسمعون لفظ القرآن، لكنهم لا يهتدون بالقرآن. لا يهتدون به ولا يحفلون لأنه «هدى وبشرى» للمؤمنين لا لغيرهم، لأنه «ذكرى» للمؤمنين لا لغيرهم، لأنه «هدى ورحمة» للمحسنين لا لغيرهم. قال الله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً**﴾.[3] وقال جل سلطانه: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾.[4]

نرى الناس في زماننا فَرَضوا على القرآن الإقامة الجبرية في المساجد ومعرض التجويد ومباريات الترنيم. ما أقاموه في الشأن الخاص والعام، ما احتكموا إليه، ما حكموه، ما اهتدوا به، ما تراحموا به، ما ابتسَمت حياتهم ببشراه. اتخذوه مهجورا في التسجيلات والتسميعات لتُشَنَّفَ بألحان ألفاظه الآذان، والقلوب في عماها. وما ذاك إلا لانعدام أصل الإيمان، وبِلاه، وخلْقه. لا يتخذ المسلمون القرآن إماما إلا إن جددوا الإيمان في قلوبهم. ومن الاعتساف والحكم المضاف أن نعتمد القرآن فقط مصدرا للتشريع لا نعدو حرفيته. من الكفر أن نعتبر القرآن تراثا من التراث المجيد و«إنتاجا» قوميا ونثرا فنيا رائعا لا غير.

أوتي الصحابة رضي الله عنهم الإيمان قبل القرآن، فاستقبلوا نزوله بخشوع، وتلوا آياته في خضوع، وطبقوا أوامره متبعين غير مبتدعين. قرأوه حلاوة في اللسان، وأمانة في جذر القلب، ونورا في العقل المتفكر المفكر، ودليلا في خاص الأمر وعامه، وإماما

(1) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص: 145.

(2) فصلت، 44.

(3) الإسراء، 82.

(4) التوبة، 124 – 125.

وحيدا، ومرجعا فريدا، يبينه الرسول الأمين، ويفصله ويفهمه وحيا على وحي، نورا على نور. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رجلا جاء النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني أقرأ القرآن فلا أجد قلبي يعقل عليه! فقال رسول الله ﷺ: «إن قلبك حُشِيَ الإيمان. وإن الإيمانَ يُعطى العبد قبل القرآن». وقال جندب بن عبد الله وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهما من الصحابة: «تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا». والآثار في هذا المعنى كثيرة، «رواها المصَنِّفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة». كما قال ابن تيمية رحمه الله في كتاب «الإيمان».[1] في رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «وأنتم أوتيتم القرآن قبل الإيمان، فأنتم تنثُرونه نثر الدقل». أي ترمون به مستخفين كما يرمى بالتمر الرديء.

يجب أن نقرأ أحاديث رسول الله ﷺ في توجيهه إيانا للقرآن ووصيته من بعده على ضوء أن الإيمان في قلوب الرجال هو الذي يهيِّئ السامع للاهتداء بالقرآن. كان القرآن كلمةَ الله التي ينطق بها رسول الله ﷺ، وكان بلاغه وبيانه وخطابه الدائم لمن يدعوهم من الناس. فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه. لم يكن سماعُهم للقرآن سواءً. هداية الله وسابقة المدعوين عند الله تحدّد النتيجة، فيؤمن بعض ويحصلون على أصل الإيمان بهداية الله وهداية رسوله، ويزدادون إيمانا إذا تليت عليهم آيات الله. ويكفر آخرون ويصمون ويستهزئون. ثم كان الصحابة يقتبسون الإيمان، بعضهم من بعض. يجلس بعضهم إلى بعض ليذكروا الله جميعا، ومن جملة الذكر، بل أعظم الذكر القرآن. لا إله إلا الله من القرآن، فبذلك كانت أعلى شعب الإيمان، وكان تَرْدادُها وتكرارها في صحبة المؤمنين أوثقَ مصدرٍ للإيمان وأقربه. يأتي عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فيأخذ بيد الرجل من الصحابة فيقول: تعال نؤمن ساعة! روى الإمام أحمد رحمه الله عن أنس رضي الله عنه أن عبد الله فعل ذلك وقاله ذات يوم لرجل، فغضب الرجل وجاء رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله! ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة! فقال النبي ﷺ: «يرحم الله ابن رواحة! إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة». وفي الباب الأول من كتاب الإيمان في صحيح البخاري: وقال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة.

(1) الإيمان، ص 212.

وأخرج الترمذي هذه الوصية النبوية الشريفة الموجهة للمؤمنين المجاهدين، رواها عن زيد بن أرقم بإسناد حسن يقول فيها الحبيب ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، وهو كتاب الله، حبل ممدودٌ من السماء إلى الأرض. وعتْرَتي أهلَ بيتي. لن يفترقا حتى يردا علي الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ قال: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ». الحديث.

ترك فينا الحبيب ﷺ كلمة الله الحية، وترك فينا رجالا مؤمنين أحياء. والإيمان والإحسان يتجددان بالاعتصام بالحبلين العظيمين، كتاب الله وسنة رسول الله، ومن سنته العِتْرَةُ الطاهرة، وهم عموما كل متق وليٍّ لله، وخصوصا الطاهرون الأولياء. وهم آل البيت حقـاً. باعتصامنا الصادق بهما يتجدد إيماننا حتى يتطابق مع إيمان الصحابة رضي الله عنهم ويتماثل على المعيار القرآني الذي جاء فيه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾.[1] وجاء فيه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾.[2] وجاء فيه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾.[3] رتِّبْ هذه الآيات إن شئت واقرأ شروط تجديد الإيمان وإحيائه: أخوة في الله، وصحبة، وذكر، وصدق.

بالاعتصام الجامع يصبح لتلاوة القرآن وحفظه معنى غير معنى الحافظين للحرف والمرتِّلين للسمع، تصبح له غاية زائدة على غاية الفقيه المجتهد وغاية المتبتل العابد. يصبح القرآن بحرفه وأحكامه ونوره قبلة الأرواح وضياء الدنيا والآخرة. الاعتصام الجامع هو مخرج الأمة من الفتنة، ومعراجُها من دركات الانحطاط والانهزام والغثائية. روى الإمام أحمد والترمذي والدارمي رحمهم الله عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنها ستكون فتنة!«قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو

(1) الحجرات، 10.

(2) الأنفال، 2.

(3) الحجرات، 15.

الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلُقُ على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: «إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به». من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم». الحديث.

الأحاديث في فضل القرآن، وثواب التالين، ودرجات الحافظين، وتنور السامعين كثيرة. كان الاعتصام بالقرآن والسنة طيلة هذه القرون بعد الخلافة الراشدة المهدية الأولى اعتصام قُربة فردية، نرجو من فضل مَن له الفضل سبحانه أن تجمع هذه الأجيال بين يدي الساعة إلى قربات القرآن الثوابية الدرجاتية قربة الجهاد في طريقنا إلى الخلافة الثانية المشهودة الموعودة. بذلك نكون حقا من أهل الله وخاصته كما كان من أُنزل القرآن بين ظهرانيهم. والقرآن كتاب جهاد أولا وأخيرا، ما أصبح تميمة للتبرك، ووثيقة مهجورة، ونصا معروضا معزولا إلا ببِلَى الإيمان وعموم الفتنة، أخرجنا الله من عهودها بمنه.

قال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «طر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة. ادخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ. اجعله وزيرَك ومعلمك. دع يده تُزَيِّنُكَ وتُمَشِّطُكَ وتعرضك عليه. هو الحاكم بين الأرواح، المربي للمريدين، جهبذ المرادين، أمير الصالحين».[1]

وقال الإمام الرفاعي قدس الله سره: «مفتاح السعادة الأبدية الاقتداء برسول الله ﷺ في جميع مصادره وموارده وهيئته وأكله وشربه وقعوده وقيامه ونومه وكلامه، حتى يصح لك الاتباع المطلق».[2]

خلاف بعض الناس للناس وَسِباقُهم إلى دعوى الاعتصام بالكتاب والسنة يُخفي هوى حب الرئاسات، و«يعتصم» هذا وذاك من الوراقين بفهمه هو، وبقصده هو،

(1) الفتح الرباني، ص: 179.

(2) البرهان المؤيد، ص: 80.

وخُطته هو، وإمكانياته هو، واعتقاده هو في عبقرية نفسه، وعصمة مدرسته، وتحقيق نصوصه، ينسب ذلك كله إلى السنة والكتاب، كل من خالف مجموعه الفريدَ النضيدَ خطأٌ وبدعة وضلال. ما نتكلم مع أمثال الخالية قلوبهم من ذكر الله، ومن محبة الله ورسوله، تلك المحبة التي يصدر عنها ويرد إليها الأكابر الأولياء.

قال مجتهد في طاعة الله، متبرئ من الدعوى، خال من البلوى إن شاء الله، طلق الدنيا والرئاسة، وارتفعت همته عن الدناءة والخساسة:

رجال الله قد سعدوا وفازوا ... ونالوا فضل رحمته وحازوا
بَدا علم النَّجاة فَيَمَّموه ... يُحَرِّكُهم بِدارٌ وانحفاز
فَبَعْضٌ نارت الأمصارُ منه ... وبعضٌ تستنير به المفازُ
تميَّزَ كل ذي دنيا بدنيا ... وهم لهم بدينهم امتياز
وما اعتزوا بمخلوق ولكن ... لهم بالواحد الأحد اعتزاز
أَرَدْتَ لَحاقَهُم وعجزتَ عنهم ... وحِدْتَ عن الإجازَةِ إذ أجازوا
أتطمع في اللحاق ولا نهوضٌ ... وتفرح بالرحيل ولا جهازُ!
وأنت أخوهم نسَباً ولكن ... طرازك فوقه ذاك الطراز
دع الدعوى فلست لهم بنِدٍّ ... وهل تخفى الحقيقة والمجازُ!!

وقلت:

تُريدُ لَحاقَ قوم قد أجازُوا ... إلى القُربى وبالرحمن فَازُوا
فَهلْ مَسكتْ يَداكَ بكفِّ خلٍّ ... وَهُيِّئ للمُصاحبةِ الجَهازُ؟
وهلْ بالسُّنةِ الغرَّاءِ أضحى ... عن البدع اعتصامٌ وانحِيازُ

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. اللهم إني عبدك وابن عبدك وأمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حَزني، وذهاب همي.

هذا التوسل النبوي العظيم رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد قط إذا أصابه هم وحزن اللهم... » وذكر التوسل. قال: «إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحا». قالوا يا رسول الله! ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات. قال: «أجل! ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن».

سؤاله ﷺ الذي توسَّلَ فيه إلى ربه هو أن يجعل القرآن ربيع القلب، إذ على حياة القلب، وهي المقصودة بالكناية بالربيعِ حياةِ النبات، يتوقف تجدد الإيمان وزيادته. وسأل ربه عز وجل أن يجعل القرآن نور الصدر وجلاء الحزن وذهاب الهم. جلاء الحزن على الدنيا والهم على شؤون الدنيا لا الحزن النفيس والهم المتعلق بالله.

كان رسول الله ﷺ يتعلم منه أصحابُه الإيمان، ويتعلمه بعضهم من بعض، بالجلوس ساعة لذكر الله. لم تكن لديهم كتب غير القرآن المحفوظ في الصدور ينورها، المتغلغل في القلوب يحييها، المتلو في الصلوات وقرآن الفجر المشهود، تشهده الملائكة. إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آيات الله زادتهم إيمانا. لم تكن للعقل التفكيري المُنْصَبِّ على العالم الخارجي وساطة بينهم وبين نور القرآن. لم يكن لهذا العقل الدارس الفاحص الخبير في الاحتجاج واللَّجاج هذا السلطان الذي اكتسبه من بعد في حياة المسلمين. لذلك كانت القلوب ترقى إلى

فَلَكِ الإحسان عن طريق ماهِدَةٍ، مهدتها سلامة الفطرة من العوائق الفكرية التي تنفي ولا تَشْفي، ومهدتها صحبة رسول الله ﷺ التي لا تُجارى ولا تعادل، ومهدها قربهم من القرآن قرب تعظيم وإجلال، ينفُذُ نوره بتعظيمهم لذكر الله وعكوفهم عليه إلى شغاف القلوب. كانت لديهم بهذا المهاد البواعث الجامعة. وفي عصرنا تتألب على طالبي الحق الصوارف المانعة. كانوا يتمايزون ويتعارفون بالتقوى التي في الصدور.

قال سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، وأبرَّها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا. قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقْل دينه. فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ، كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبَة!».

حفظهم الله من الجفاف الفكري وغلظة العاطفة التي أصابت الأمة بعد ذلك، وتميز بها الإسلام الحَرفي النصوصي والإسلام الفكري المعاصر. كان حب الله ورسوله، والحب في الله آصرتهم الجامعة. كان اتباعهم لرسول الله ﷺ في حياته وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى صحبة حميمة، ومحبة عميقة، لا مجرد تلق عن رسول أدى بطاقته وذهب بسلام. لا مجرد قائد رمزي عظيم أسس تاريخا مجيدا به وعليه تتأصل هُويَّتُنا. كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، بعد وفاة رسول الله ﷺ يأخذ برأس راحلته، في السفر، ويحوِّلها ويقول: لعل خُفًّا يقع على خُف. يقصد لعل خف راحلته يقع على موقع خف راحلة رسول الله ﷺ في أسفاره الجهادية السابقة. قال الزبير بن بكار رحمه الله: «كان عبد الله بن عمر يتحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ، وإذا غاب سأل من حضر عن قوله وفعله». هذا في حياة رسول الله ﷺ الدنيوية. فلما توفي كان عبد الله يتتبع آثاره في كل مسجد صلى فيه، وإذا وقف بعرفة وقف في الموقف الذي كان وقف فيه رسول الله ﷺ.

هذا التعلق القلبي، هذه الحياة القلبية، حياة الذاكرين الله كثيرا المتأسين برسول الله ﷺ اعتمادا حيويا بالحب المستهتر، غاب في عصرنا واغترب، وعز مطلبه على طالبي الحق. لا يقال لمن يحث على حب الله ورسوله، وعلى صحبة الأخيار، وعلى ذكر الله: هذا الرجل يقتفي أثر الصحابة، ويُحيي السنة، ويصفِّي منابع الإيمان.

بل يقال: هذا صوفي بِدعي. عُملة الوقت الرائجة، ونقد الوقت الدائر في الأوساط المُبْرِئ للذمم، وبضاعة الوقت المطلوبة في السوق هي الفكر، والعقل التفكيري، والعلم الموثق المشدودة حِبَالُه إلى نصوص قال فلان وعقب فلان وجادل فلان.

في تصنيفي لشعب الإيمان أعطيت للأفعال الشرعية والأوامر الإلهية والنبوية الموجِّهةِ للصحبة والجماعة والذكر الصدارة غِلابا للتيار السطحي الفكري النصوصي. وأدرجت تحت خصلة «الذكر» ثلاث عشرة شعبة، أعطي للذكر مفهوما واسعا يشمل كل العبادات الموصولة الواصلة بين العبد وربه. هذه الشعب هي: لا إله إلا الله، ثم صلاة الفريضة، ثم النوافل، ثم تلاوة القرآن، ثم مداومة الذكر، ثم مجالس الإيمان، ثم التأسي بأذكار رسول الله ﷺ، ثم الدعاء بآدابه السنية، ثم التأسي بالأدعية النبوية، ثم الصلاة على النبي ﷺ، ثم التوبة والاستغفار، ثم الخوف والرجاء، ثم ذكر الموت وما بعده.

إن إحياء القلوب بالمنهاج النبوي الذي تربى عليه الصحابة رضي الله عنهم، والذي حافظ السادة الصوفية رضي الله عنهم على جوهره، هو المنجاة من دركات الهبوط والسفول التي تَرَدَّى بطلاب الحق فيها إسلام النصوص الموثقة وإسلام العقول المفكرة غير المتفكرة المنبَطِحَة على أرض المادة، ما ترمُق إلا أفقَ الفِكْر العالمي السائد الصائل بمكتشفاته ومخترعاته وأشيائه.

اِقرأ معي كلمات الداعية الكبير المعاصر المفكر الذي يقرأ القرآن بمُخ مؤثث أفخر تأثيث. ثم اقرأ معي كلمات رجالٍ نوَّر الله صدورهم بالقرآن وأحيى الله قلوبهم بحب الله ورسوله وبذكر الله.

قال صاحبنا الآنف الذكر، ولست أذكر اسمه لأن التشهير بواحد كاعتراض لبحر هائج بِدَلْو، قال: «سألت نفسي: هل للمسلمين «جهاز» فكري أو روحي أو سياسي يحسب أرباحهم وخسائرهم، ويشخص العلل، ويرصد التجارب، ويحصي النتائج؟».

القضية قضية أجهزة ورصد للتجارب، يقصد تجارب العقل المخترع، وإحصاء للنتائج. الهم التربوي غائب. فإن اهتَم بالتربية دل على عين الزلل.

قال: «ما الذي يوقظ القلب الغافي ويعيد إليه حرارة الحياة ونشاطها؟». أين ذكر الله في السؤال؟ لا جرم يكون الجواب تيها في تيه. قال: «إن تعهد الناشئة والكبار بما يوجه عواطفهم إلى الله جل جلاله شيء خطير. ولا بد من إقامته على أسس فنية محترمة. وفي عصرنا هذا لا بد من الاستعانة بعلم النفس، والاستعانة بما في الآداب الإنسانية الصادقة من تجارب وصور».

هذا كلام نقلته في فقرة سابقة، وأعيده لأحزَنَ وتحزَنَ معي على حال الدعاة، تداركنا الله وإياهم بلطفه، وأصلحنا وإياهم، وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته. آمين.

وتحدَّثَ عن أذواق السادة الصوفية فلم يبدِّع ولم يكفِّر، لكنه صنع ما هو أدهى وأمر. سطَّح المسألة ونفى عنها جلال القلوب الطاهرة لتصبح هذه الأذواق «شارات اكتمال ثقافي عاطفي، فلا يمكن أن يحسها أهل البلادة والقصور. إن التألق طبيعة الشخصية المتقدة».

قال الشيخ عبد القادر، نسمة حياة! نكاد نختنق!: «عليكم بالإيمان، ثم بالإيقان، ثم الفناء والوجود بالله عز وجل لا بك ولا بغيرك. مع حفظ الحدود، مع إرضاء رسول الله ﷺ، مع إرضاء المتلو المسموع المقروء. لا كرامة لمن يقول غير هذا. هذا الذي في المصاحف والألواح كلام الله عز وجل طرف بيده وطرف بأيدينا عليك بالله ورسوله».(1)

وقال: «ارجع إلى قلوب الصديقين وسلهم. ارجع إلى قلوبهم فهي الصحيحة. لأن القلب إذا صح كان أقرب الأشياء إلى الله عز وجل. القلب إذا عمل بالكتاب والسنة قرُبَ، وإذا قرب علم وكان أقرب الأشياء إلى الله عز وجل».(2)

وقال: «كل من لم يتبع النبي ﷺ ويأخذ شريعته في يده والكتاب المنزل عليه في اليد الأخرى لا يصل في طريقه إلى الله عز وجل. يَهْلِكُ ويُهْلِكُ. يَضِلُّ ويُضِلُّ.

---

(1) الفتح الرباني، ص: 111.

(2) نفس المصدر، ص: 253.

هما دليلان إلى الحق عز وجل. القرآن دليلك إلى الحق عز وجل. والسنة دليلُك إلى الرسول ﷺ». [1] نعم هما الدليل المعصوم، لكن أبفِكر الغافل عن الله، أم بظن المقلد القاسي القلب من عدم ذكر الله؟ إن هذا الميدان ميدان صدق ومحبة. وإرادة خالصة لوجه الله. لا كرامة لمن يُهلك الأمة يَسْحَبُها في هلكته، ويجرها إلى وهمه، ويُغَفِّلها عن الله ورسوله. هذا الإسلام الحرفي النصوصي المكفر، وهذا الإسلام الفكري المغفل بِدَعٌ حدثث. لا كرامة!

قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «لا تبتدع وتحدث في دين الله عز وجل شيئا لم يكن. اتبع الشاهدَين العدلين: الكتاب والسنة، فإنهما يوصلانك إلى ربك عز وجل. وأما إن كنت مبتدعا فشاهداك عقلك وهواك. فلا جرم يوصلانك إلى النار، ويلحقانك بفرعون وهامان وجنودهما». [2]

وقال الرفاعي رحمه الله: «المادة الكبرى كلمة تقولها وتصل، وهي آمنت بالله. فإذا آمنت به آمنت بكتابه وبرسوله وبكل ما جاء به رسوله ﷺ، وعملت بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾، [3] وعظَّمت أمر الله، ووحدت الله، ووقفت على الباب بسائح الدموع، وسجدت بالذل والخضوع، وعرفت إلى أين المصير والرجوع، وتهيأت بما يليق بمقام الملاقاة، وأخلصت في أعمالك كلها فصرت إخلاصا خالصا. وبعدها تليق بك المراتب، وتسِحُّ عليك سحب المواهب، وتعود عليك عوائد الكرم، وتمدُّ لك موائد النعم». [4]

اللهم عرفنا بك، وأخلص قلوبنا من شوائب الفكر المادي والهوى والشيطان لنذكرك كثيرا ونشكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا.

اللهم إنك جعلت محمدا رسولك حجة على الخلق، وجعل بعضُ الناس أنفسَهم الخشنةَ لم يلطفها حبك وحبه حجة على سنته، وجعلوا فكرهم دليلا متنكبين ضوء

(1) نفس المصدر، ص: 117.

(2) الفتح الرباني، ص 192.

(3) الحشر، 7.

(4) البرهان المؤيد، ص: 67.

الهداية النبوية، ورحمة القرآن، وبشرى القرآن. اللهم فاجعل لأوليائك العارفين بك المحسنين المقربين المحبوبين دَوْلة ليقودوا موكب الإيمان وكتائب الإحسان. أخرجهم من غربتهم. آمين.

قال غريب يصف غرباء أمس:

لله تحت قباب العز طائفة أخفاهم في رداء الفقر إجلالا
هم السلاطين في أطمار مسكنة جَرُّوا على فلك الخضراء أذيالا
غُبْرٌ ملابسُهم شُمٌّ معاطسُهم استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا
هذي المكارم لا قَعْبانِ من لَبَنٍ شيبا بماء فعادا بَعْدُ أبوالا
هذي المناقب لا ثوبانِ من عَدَنٍ خيطا قميصا فعادا بعد أسمالا

وقال غريب آخر عن مثال من نسأل الله في إظهارهم:

بنفسي إذا نفسي أنابت وأصلحت غريب جرت من مُقلتيه غُروب
إذا ذكر المولى تنسم قلبُه وإن غلبته النفس كاد يذوب
أناخ بعليّين رائدُ سره إلى حيث لا تمضي العقول يجوبُ
أبى الله أنَ تُدرى ذَخَائِرُهُ التي إلى شعبهم ماء السماء يَصوب
همُ حسنات الدهر عند كماله ولكنهم عند الأنام ذنوب
محبتهم فرض ورؤيتهم هُدىً وللدين منهم ألسُن وقلوب

وقلت:

أطامعٌ أنتَ يوماً أنْ تكونَ لَهم نِدًّا وتُكسى مِن الإحسان سِربَالاَ؟
صَحِّحْ إلى رَبِّكَ الرُّجعَى وتُبْ أسفاً طَهِّرْ من الرِّجسِ أردانـاً وأذْيالاً
ثم اصْطحبْ منْ بِذكرِ الله بهجتُهم واطرحْ مِن الرُّفقةِ العمياءِ أسْمالاً

الفصل الخامس
الصدق

- المنزلة العظمى
- النفاق والرياء
- ستفترق أمتي...
- الخلاف على الصوفية
- العلماء المتلطفون
- الحنابلة أهل الحديث والأشاعرة
- إيمان الصوفية
- كرامات الأولياء
- آيات الرحمن
- الاستدراج
- شعب الإيمان

المنزلة العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. اللهم إنِيَ أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق.

لا بد لطالب الحق من علم مسبق بما هو الحق. لذلك تتبَّعتُ في الفصل الأول من هذا الكتاب صورا من حياة علماء أكابر جاءوا بعد تحصيل العلم النظري يطلبون معرفة الله والطريق إليها عند الصالحين. وسبَّقت في الفصل الثاني التذكير بالنداء الموجه إلى الفطرة البشرية، يدعو الله عز وجل الإنسان لاقتحام العقبة. وسبَّقت في الفصل الثالث الشرط الثاني للسلوك وهو صحبة المُسَلِّك. وفي الفصل الرابع سبقت الشرط الثالث وهو الذكر والأوراد ومجالس الإيمان. كان هذا التسبيق ضروريا ليستفيد طالب الحق من العبرة بمن سبقه، وليسمع كلاما أصبح غريبا مُلْقىً في الأركان المهملة لغربة أهله في زمان طُوِيَ ملف التصوُّفِ، على ظهرهِ بالحرف الكبير: هذا ليس من الإسلام.

هذا العلم المسبق بالتاريخ وبالشروط «الموضوعية» أدعى أن يُدخل في رُوح السائل عن الحق، ذي الإلمام بدينه تَتعاوَرُهُ نيات الإقدام والإحجام، اهتماما جديدا وهما سديدا وحرصا بعد ذلك شديدا بمصيره وحظه من الله ومنزلته عنده.

لقيَ أولَ عهده بالدعوة وجوها خيرة دعته إلى التوبة فلبى وانخرط في جماعة وجد فيها حياة جديدة. ووُلد فيها ميلادا جديدا. علمته الجماعة مبادئ الإسلام مليًّا، لكنها لم تلبث أن دفعت به إلى معمعة الفكر والحركة ومُكايَدة العدو ومكابَدته.

وهو لم يلبث أن فقد الهبَّة الأولى فقعد يتساءل ولا من مجيب عن سبب انْخناس إيمانه. وقته مليء بالأعمال، لا يمنعه من التخلي عنها إلا «التزامه» مع الجماعة وبيعته ومسؤولياته التنظيمية ومسلسل روابطه بها.

في هذا الفصل أُحدِّثُ طالب الحق العزيز عن الركن «الذاتي» والشرط الأول للسلوك، ألا وهو صدقه هو وطلبه ونيته. من أراد من الله حرث الدنيا آتاه منها، ومن أراد من الله حرث الآخرة زاد له في حرثه. ومن لا يدعو الله يغضب عليه الله، ومن لا يسأل الله لا يعطيه الله. وإرادة وجه الله خالصا فوق ما يطلبه عادة المسلمون. إرادة وجه الله، والصدق في طلبه، والسير إليه مطلب تستوفيه من يد القدر على يد اللقاء المقدَّر، فِطَرُ من خصهم الله بسابقة ولايته. وقد تكون نقطةُ البداية وقرعة اليقظة كتاباً يسألك مصنفه: هبْ أن الله جلت عظمته توَّج جهود العاملين للإسلام، وأنت منهم، بالتمكين في الأرض للجماعة التي نصرتَها، فما حظك أنت من عطائه. وما مرتبتك بين أوليائه؟ أعطاك ما سألت حين سعيت بالجهد الدائب الصابر لإقامة دولة الإسلام في الأرض، فأين أنت في معارج الإيمان والإحسان؟ كيف نسيت مصيرك أثناء الاشتغال بمصير المسلمين؟ إنما الأعمال بالنيات يا صاح، وإنما لكل امرئ ما نوى. فهل كانت هجرتك إلى الله ورسوله حقا أم كانت هجرتك إلى دنيا عاجلة وقفت في محطة ما من محطاتها؟ حتى دولة الإسلام إن نصرتها في غفلة عن الله دنيا في حقك، نصرت المسلمين لم تنصر الله. وإن الله ليؤيد هذا الدّين بالرجل الفاجر كما روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا. اللهم استخلصنا لنفسك.

فاتك تصحيح النية والصدق في الطلب والصواب في التوجه. وتلك هي المنزلة العظمى. لا يغنيك تألّق مصير الجماعة، ولا تمكين دين الله في الأرض، ولا فلاح من أفلح، ولا اختلاف من اختلف إن لم تتحقق لك أنت مع الله جل شأنه رابطة العبودية والمحبة والقربة لتكون من الذين إن تقربوا إليه شبرا تقرب إليهم باعا، وإن تقربوا إليه بالفرض والنفل صادقين صابرين منتظرين داعين راجين خائفين قربهم وكان سمعهم وبصرهم ويدهم ورجلهم. ويحك! إن لم تصحح القصد وتصدُقْ في الطلب قيل لك يوم يكلَّل هامُ الأمة بتاج الخلافة في الأرض: قم، فقد استوفيت

حقك، ونلت ما كتب لك، وأُعْطيتَ سُؤْلك، لم تطلب الله يوما. ومن فاته الله فاته كل شيء. ويحك! طلبت منه النصر والجنة، ما طلبت قربه والنظر إلى وجهه! وما طلبت مقعد الصدق عنده مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ضاع عمرك!

ما هذه التساؤلات من شباب الإسلام، ولا من مجيب، إلا علائم الغموض والإبهام والريبة. وإن رسول الله ﷺ قال للإمام الحسن السبط رضي الله عنه وهو صبي هذا الحديث العظيم الذي حفظه الصبي ورواه: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة». أخرجه الترمذي رحمه الله بإسناد صحيح.

ما أحرى الشباب الإسلاميَّ بحفظ هذه الوصية لفظا وعملا ونية ليدخلوا مُدخل الصدق ويخرجوا مُخرج الصدق على خطى المصطفى المجتبى ﷺ الذي لقنه الله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً**﴾.[1] ما أحراهم باتباع ملة إبراهيم حنفاء، وهو العبد الصالح الذي سأل الله عز وجل قائلا: ﴿**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**﴾.[2] ولسان الصدق الذي طلبه أبونا إبراهيم عليه السلام هو أن يُثني عليه الآخرون ثناء حسنا بما كان لهم قدوة وسلفا صالحا. ما أحرى الشباب الإسلامي أن يَرْكَبَهم هَمُّ الله، وهمُّ مرْتَبتهم عند الله، وهمُّ اسمهم في الملكوت الأعلى. لا يفيد إلا في الدنيا ما تحمله من كنية واسم حركي. ما حظك من الله؟ ما قَدَمُكَ عنده؟. ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾.[3] لا يفيدك مكانك في السلم التنظيمي إن لم تَسْمُ بك الهمة إلى مقعد الصدق عند المليك المقتدر سبحانه تُزاحم ثَمَّ الصديقين. ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾.[4]

انظر رعاك الله فيم تدخل وكيف تخرج وأي لسان تطلب وأي قدم لك عند ربك وأي مقعد هو مقعدك. أمن المسلمين أنت أم من المؤمنين والمحسنين؟ أسألته يوما

(1) الإسراء، 80.

(2) الشعراء، 84.

(3) يونس، 2.

(4) القمر، 54 – 55.

صادقا عارفا بما تطلب أن يلحقك بالصالحين؟ إلاّ تفعل فلست ممن يعنيهم كلامي، عمادك منقوض وكلامي عندك مرفوض.

قال الأستاذ القشيري رحمه الله: «الصدق عماد الأمر وبه تمامه، وفيه نظامه. وهو تالي درجة النبوة. قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ الله وَكَفَى بالله عَلِيماً**﴾.[1]

يا أخي! إن أردت أن يكون الله معك فالزم الصدق لأن الله مع الصادقين، كما جاء في القرآن الكريم. إن أردت أن ينصرك فانصره، إن أردت أن يذكرك فاذكره، إن أردت أن يستجيب لك فادعُه. هذه المعاملة معه سبحانه لا تثبت مع رياح الهوى العاصفة بالنفوس الخاوية، لذلك نصحك سبحانه حيث قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ الله وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾.[2] ولكل صدق مكان معلوم ونتائج معلومة. فصدق اللهجة أهله ناجون من شعبة واحدة من النفاق، وصدق العهد والوفاء به كذلك، والصادقون في مواجهة العدو وجهاده شهداء. وهكذا حتى تجد الصادقين الكاملين في الصدق، أبرموا مع الله عز وجل ميثاقا غليظا ليكونُن له عبيدا. أولئك المفردون السابقون. انحيازك إليهم يرفعك إلى المنزلة العظمى.

قال الإمام السهروردي رحمه الله بعد أن ذكر حديث إنما الأعمال بالنيات: «النية أول العمل، وبِحَسَبِها يكون العمل (...)، فإن دخوله (المريد) في طريقهم هجرة حاله ووقته. (...) وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم. (...) ومن لم يهتد إلى النية بنفسه يصحبُ من يعلمه حسن النية»[3].

لا إله إلا الله، أية حكمة تحت قوله: «من يعلمه حسن النية»! هناك أجيال من المسلمين طرق سمعَهم الحِسيَّ الفكري قول الله تعالى لنبيه: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ**

(1) النساء 69 – 70.

(2) التوبة، 119.

(3) عوارف المعارف، ص:469 وما بعدها.

يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.[1] لكن فطرتهم لم تسمعها، لم يعلمهم أحد هذه النية، لم يسألوا أهل الذكر.

وقال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله: «(منزلة الصدق) هي منزلة القوم الأعظم. والطريق الأقوم الذي مَن لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميَّزَ أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجِنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلا إلا أرداه وصرَعه. من صال به لم تُرَدَّ صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كِلْمَته. فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود فُسْطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين».[2]

ويحك! أنت لم تلج الباب، ولم ترافق الأحباب! دخلت قاعات الانتظار متطفلا، وحرفت الكلِمَ عن مواضعه متأوّلا. ونسيت حظا مما ذكِّرت به، وتملقت المجد الدنيوي: «جميع أعمالك وأقوالك ومقاصدك دنية. القوم ليس في أعمالهم ملق. هم الفائزون، هم الموقنون الموحدون المخلصون الصابرون على بلاء الله عز وجل وآفاته، الشاكرون على نعمائه وكراماته. يذكرون بألسنتهم ثم بقلوبهم ثم بأسرارهم. إذا جاءتهم الأذايا من الخلق تبسموا في وجوههم. ملوك الدنيا عندهم معزولون. جميع من في الأرض عندهم موتى، عاجزون، مرضى، فقراء. الجنة بالإضافة إليهم كأنها خراب. النار بالإضافة إليهم مخمودة. لا أرض ولا سماء ولا ساكن فيهما. تتَّحد جهاتهم (أي جهات قصدهم) فتصير جهة واحدة. كانوا مع الدنيا وأهلها، ثم صاروا مع الأخرى وأهلها، ثم صاروا مع رب الدنيا والآخرة. التحقوا به وبالمحبين له. ساروا بقلوبهم حتى وصلوا إليه، وحصلوا الرفيق قبل الطريق. فتحوا الباب بينهم وبينه بذكرهم. ما زالوا يذكرونه حتى حط الذكر عنهم أوزارهم. فقدُهم

(1) الكهف، 28.

(2) مدارج السالكين، ص: 268.

مع غيره ووجودهم به. سمعوا قوله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[1]. فلازموا الذكر له طمعا في ذكره لهم. سمعوا قوله عز وجل في بعض ما تكلم به (من الحديث القدسي): «أنا جليس من ذكرني» فهجروا مجالس الخلق، وقنعوا بالذكر حتى تحصل لهم المجالسة له». [2]

ويحك! أنت ما فتحت الباب بينك وبينه تذكره وتناجيه، بل فتحت باب الخلق، وتِهت في دراسة «الكون الكبير»، وتعمقت في «فقه الواقع»، ونسيت الله. ونسيت سنة الله. لا جَرَمَ تحصل على ما هاجرت إليه. لا جرم تلتحق بالمناضلين من كل صنف وإن رفعت شعارات الإسلام. لم تلتحق بأحبائه. ما سمعت عنهم خبرا. ما عاهدته، ما وفيت، ما صدقت. كيف لك بالصدق إن لم تكن مع الصادقين!

قال محب صادق تَرَكَكَ وشأنك، شغله حب الله عنك:

أأحبابي وصلتم أو هجرتم   فعبدكمُ على حفظ الأمانة
مقيم لا يزحزحه عَذولٌ   ولا يثني معنِّفُه عِنانه
حملت لأجلكم ما ليس تقوى   جبال الشُّم تحمله رَزَانَه
وحفظ العهد ما وافاه حر   وطُوِّقَهُ فتىً إلا وزانه
فدعه وحب من يهوى وإلا   فشانك يا معنِّفه وشانه

وقال صَبٌّ مُهيَّم وجهته الله لا غيره، صادقا وفيا:

قبيح على صب يذوب صبابة   وتنظر عيناه لحسن سِوَاهُ
أيجملُ أن تهوى هواه وتدّعي   سواه وما في الكون يُعْشَق إلا هو
إذا كان من تهواه في الحسن واحدا   فكن واحدا في الحب إن كنت تهواه

(1) البقرة، 152.

(2) الشيخ عبد القادر في «الفتح الرباني» ص 22.

وقال صادق يطمع في إيقاظ الراقدين:

الطُّرْق شتى وطُرْق الحق مفردة   والسالكون طريق الحق أفرادُ
لا يُعرفون ولا تُدرى مقاصدُهم   فهم على مَهَل يمشون قُصادُ
والناس في غفلة عما يُراد بهم   فجلهم عن سبيل الحق رُقادُ

وقلت:

حَفظتُ العَهد ما خُنت الأمانه   فَحِفظ العهدِ أصلٌ للدِّيانهْ
نذرتُ دَمي دفاعا عن حماهَا   ورَفضًا للخُنوع والاستكانَهْ
فها أنا ذا بِمُعْتَرَك المَنايا   عَلِيَّ القدْر مُرتفعَ المَكانهْ

النفاق والرياء

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. اللهم إني أعوذ بك من البخل والجبن وفتنة الصَّدْر وعذاب القبر وسوء العمر.

ما دَرى طالب الحق ما هو الحق، ما عنده طلب وإن كان يردد مع المسلمين: الله غايتنا، ما علمه أحد حسن النية، ما تعلم الإيمان قبل القرآن، ما ذكر الله، ما جلس مع الذاكرين. وإنما غموض وإبهام وترك للمسألة الجوهرية، مسألة القلب، في زاوية المسلَّمة الملغاة.

تعوَّذ رسول الله ﷺ من «فتنة الصدر» وفتنة الصدر ما يعتريه من أمراض من جملتها، بل من أشدها فتكا، النفاق والرياء. وعلمنا رسول الله ﷺ أن المرء على دين خليله، وأوصانا أن ينظر أحدنا من يخالل. وعلمنا الله عز وجل أن بذكره تعالى تطمئن القلوب. وعلمنا رسوله الكريم أن الصدق طمأنينة وأن التقوى «ها هنا» وأشار إلى صدره الشريف. وعلمنا الله في كتابه العزيز أن ﴿**الَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾.[1] واحد جاء بالصدق من عند الله تعالى، وهو الرسول منبع التقوى، وواحد صدق به واتبعه وأطاعه وأحبه حتى رفعه حبه إلى حب الله فأحبه الله وطهر قلبه.

بهذا الطبِّ النبوي استشفى الصحابة، وبه طهرت قلوبهم فتعلموا الإيمان قبل القرآن.

ذلك الطب النبوي، طب القلوب، أخبرتنا أجيال من الأكابر في هذه الأمة أنه لم يَضِعْ، وأنه يورَث. ومعاصرونا من علماء الفكر لا التفكر يتساءلون عن «الأجهزة

(1) الزمر، 33.

الروحية» التي من شأنها أن تعطي المسلمين الإيمان. وكأن الأمر تركيب ميكانيكي تَحُل معضلاتِه «القواعد الفنية المحترمة»! والأجهزة الإدارية المتخصصة!.

أي طب وأية صيدلية يلزم المسلمين، ويلزم طالب الحق، ليَرتفع الطالب من حضيض عاميته وأعرابيته القلبية إلى قُلَّة خصوصيته. تقرأ في الكتب وصفا وتاريخا، فما يحصل لك من الكتب إلاّ علم بأحكامٍ من أحكام الحلال والحرام تحفظها لتطبقها إن قدرت. وما يحصل لك إلا اطلاّع على أحوال مرضيَّة تحبها لنفسك العليلة، لكن أين الطبيب؟ وأنى للمصاب بالشفاء؟

ما يحصل لك من قراءة وصف الطريق وعوائقها، ومن قراءة خبر من سلكوا وفازوا بالله إلا توق وشوق إن تداركك الله بعنايته وأسمع أذن قلبك وفطرتك ما يَصِمُّ عنه غيرك إنكارا واستكبارا. وحسبي من هذا الكتاب أن أقرع سمعَك لعل الله يُسمِع من في القبور. حسبي أن أخبرك خبر صادق واثق أن رسول الله ﷺ علَّم فأحسن التعليم جزاه الله خيرا، وأن أكابر الأمة من بعده من الصحابة والتابعين بإحسان أدوا الشهادة. وهذه شهادتي تقرأها لتنفُض يدك، إن رعاك الله برعايته، من كل شيء لتخرج من صحبة الكتب وقد طار بك الشوْق لتبحث عن من يعلمك «حسن النية» حتى تصح بدايتُك فيصح سيرُك وتستقيم وتقيم وجهك للدين حنيفا.

تصحيح البدايات يخلصك من الريبة ويوحد في نيتك المطلوب، ويوحد الطلب، ويقوِّم الوجهة. مرض النفاق يشعِّبُك ويُعَوِّصُك، وهو مرض عُضال. النافقاء هي جحر فار الصحراء المسمى يربوعـاً يجعل لجحره بابين، ومن النافقاء أخذت كلمة النفاق لذي الوجهين، ذي البابين، لا صدق له، ولا طمأنينة، لا ثقة، لا قرار. لسانه مزدوج، ذمته مزدوجة، سلوكه مزدوج، لا وجهة له تعرف. قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقـاً خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها. إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». رواه الشيخان وأصحاب السنن رحمهم الله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه. وفي رواية عوض «إذا اؤتمن خان» جاءت «إذا وعد أخلف».

من خصال المنافق الكذّاب التكذيب، ومن أفظع التكذيب التكذيب بيوم الدين. ومن أكثره غباوة الكذبُ على نفسه وإظهارها بما ليس فيها، وذلك الرياء. التكذيب

بالآخرة يُبطل أصل الإيمان، والرياء يبطل أصل الأعمال. قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية. فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: «ألم أعلِّمْكَ ما أنزلت على رسولي؟ قال بلى يا رب! قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار. فيقول الله له. كذبت! وتقول له الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئ! وقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبت! وتقول له الملائكة: كذبت! ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان جواد! فقيل ذلك. ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول فيما قتلت؟ فيقول أَمَرْتَ بالجهاد في سبيلك، فقاتلتُ حتى قتلت. فيقول الله له: كذبت! وتقول له الملائكة: كذبت! ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء! فقد قيل ذلك». ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي (يقول الراوي أبو هريرة) فقال: «يا أبا هريرة! أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة».

روى الحديث مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي رحمهم الله. حدث أبو هريرة رضي الله عنه بهذا الحديث بعد أن نَشَغَ ثلاث مرات. ومعنى النشغ كما قال ابن الأثير رحمه الله : «الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي» قال: «وإنما يفعله الإنسان أسفا على فائت وشوقا إلى ذاهب». ما كانت القلوب باردة هامدة، بل تركها رسول الله ﷺ حية مُضيئة متوثبة بحب الله ورسوله وبالشوق والذوق. وقلوب العارفين الطالبين الخاشعين لا تزال كذلك والحمد لله. وحظ الكاذبين من هذا الإخبار التكذيبُ، ومَباءَتُهم الرياء ليقال، وقد قيل. في رواية: اذهبوا به إلى النار. وقانا الله وإياك من الكذب والتكذيب والتخريب وإبطال الأعمال.

هذا مشهد عظيم أخبرنا عنه رسول الله ﷺ، مشهد من ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً**﴾.[1]

(1) النبأ، 38–39.

تكلم القارئ المرائي والمقاتل المناضل والغني المتباهي بإذن، لكنهم لم يقولوا صوابا، فلم يقبل منهم، وأرداهم تزويرُهم. كانت نياتهم فاسدة، وأقوالهم كَاذبة، ويقدح في نية الصادقين أيضا مخالفة أقوالهم وأفعالهم للصواب. فمن شاء أن يتخذ إلى ربه مآبا، وعودة حميدة، ومقعد صدق عند مليك مقتدر، فعليه أن يتحرى الصدق والصواب. النيات الحسنة الخطأ لا تعطي الظمآن ريًّا، بل تميت من كان قبلها حيا. الفضيل بن عياض رضي الله عنه أحد زهاد هذه الأمة وصالحيها. سألوه: «ما أحسن العمل في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1]؟ قال: «أحسنه أخلصه وأصوبه». قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة». ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾.[2]

أين الوجهة الصواب، وكيف أخلص القصد يا رب! ادعه فهو الكفيل وحده عز وجل بالاستجابة.

قال ذو النون المصري رحمه الله: الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه، والصبر عليه. والصدق لا يتم إلا بالإخلاص فيه والمداومة عليه. وقال أبو يعقوب السوسي رحمه الله من الصوفية الأخيار: متى شهد الصادقون في إخلاصهم الإخلاصَ احتاج إخلاصهم إلى إخلاص. أي متى أُعجبوا بإخلاص أنفسهم فقد وَهموا واحتاجوا لمراجعة رأيهم في أنفسهم ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾.[3]

أرأيت دقائق النظر في أمراض القلب، والخبرة بها. هم وصفوها بوصف الكتاب والسنة. وعند الوصف يقف الوراقون رافضين أو تاركين غير عابئين. ومن الدقة في محاسبة النفس والرجوع عليها ومحاصرتها على دروب النفاق والرياء تُعرف قيمة

(1) الملك، 2.

(2) الكهف، الآية الأخيرة.

(3) النجم، 32.

الرجال. أعاظم الرجال بعد الأنبياء صحابة رسول الله ﷺ. إمام في مقدمة صفهم رضي الله عنهم عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. بشره رسول الله ﷺ بالجنة، ونزل القرآن بموافقته في ثلاثة مواقف، وكان وزير رسول الله ﷺ إلى جانب الصديق الأول، واختاره الصديق لخلافته، وأجمع المؤمنون على قبوله. ومع ذلك فهو يُسِرُّ إلى حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله ﷺ الذي علمه المصطفى أسماء المنافقين مخاوِفَه المنبعثة من محاسبته لنفسه، فيقول: يا أخي يا حذيفة بالله عليك هل أنا من المنافقين؟

هذا التدقيق على النفس هو عكس الرياء، هو إخلاص الإخلاص، هو الشفاء التام من النفاق والشقاق وسوء الأخلاق، هو أن لا ترى لنفسك مزية، ولا تعترف لها فيما بينك وبين الله بإخلاص. تتهمها أبدا. إذا فعلت، وأنّى لك يا حبيبي بلا طبيب حبيب! ألبسك الله رداء العافية القلبية، رداء الصدق والإخلاص.

قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «ليس الشأن في خشونة ثيابك ومأكولك. الشأن في زهد قلبك. أول ما يلبس الصادق في لبسه الصوف على باطنه، ثم يتعدى على ظاهره. فيلبس سرُّه، ثم قلبه، ثم نفسه، ثم جوارحه. حتى إذا صار كله متخشنا جاءت يد الرأفة والرحمة والمنة فغيرت ما عليه تغييرا. يُخلع عنه ثياب السواد وينقله إلى ثياب الفرح. تُبدَّل النقمة إلى النعمة، والبغْضة إلى الفرحة، والخوف إلى الأمن، والبعد إلى القرب، والفقر إلى الغنى».(1)

يتكلم الشيخ مع من يلبس على ظاهره لباس الرياء، ويتزيى بزي الصالحين. تأمل تعبيره بلبس الصوف على الباطن تجده أحسن وصف لخشونة الصادق على نفسه خشونة أمثال عمر رضي الله عنه. بأي نفاق وبأي رياء وبأية جولات في أوحال «علم النفس»، وهو عصارة نفوس الكافرين الخبيثة، يريد بعضهم أن يطبِّب أمراض المسلمين! إنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

(1) الفتح الرباني، ص: 19.

قال متفكر متذكر متحسر دامع المقلة باكي القلب:

تأخر الناس والأبدال قد سبقوا ليس الطليق كمَنْ دارت به الحَلَقُ
والخلق في الخلق أمثال مُساوية ولا مميِّز إلا الوصف والخُلُقُ
هل يستوي متأنٍّ في بطالته وحازمٌ نحو باب القرب منطلق؟
القوم أظمأهم حرٌّ فأرَّقهم فأنتجَ الأمنَ فيهم ذلك الفَرَقُ
شدوا الحيازم واشتدوا إلى عَلَم تاهت عن السعي في إدراكه الفِرَقُ
هم العُكوف على أبواب الله تَكْرِمَة في الله إن صمتوا بالله إن نطقوا
من كل أشعث ذي طمرين تحسبه سيفا تَفَرَّى عليه غِمْدُه الخَلَقُ
وهل تشين بياضَ الصبح لِبْسَتُه معاوِزَ الليل وهو الأبيَضُ اليَقَقُ
يقطِّع الليل تفكيرا وتَذْكرة والدمع مندفق والقلب محترق
فجسمه في بساط الأرض مُرتَهَنٌ وقلبه في بساط الغيب مخترق
ففي الهواجر أحلى وِرْده ظَمَأٌ وفي الدياجير أهنا نومه أرَقُ
سيماه دمعٌ كَسَيْح الوَبلَ تبعثه جوانح في رياض الشوق تصطفق
خرق العوائد منهم لست تُنكره وكيف ينكر نور الأنجم الأُفُقُ؟
يا من تشكك جهلا في كرامتهم حقق وصدق بأن القوم قد صدقوا
العقل جوَّزها والشرع أثبتها وما بِكفِّك إلا العِيُّ والخَرَقُ
قهقرْ فما لك في ميدانهم أثر وإن شككت فهذا اليوم والطَّلَقُ
جدّوا وقصَّرتَ عن إدراك جِدِّهِمُ والكيْس والعجز شيء ليس يتفق

وقلت:

لا يَستوي مَن بعهد اللّه قد صدَقوا وَمَن جَوانحهُم بالغَدر تَصطَفِقُ
لاَ يَستوي القَاعدونَ النَّاعمون وَمَن بِهمٍّ أمَّتهم يُذْكيهمُ الأَرَقُ
لاَيستوي الصدق والبُرهان يُثبتُه مع النِّفاقِ على حافَاتِه المَلَقُ

ستفترق أمتي...

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء، ومن صاحب السوء، ومن جار السوء في دار المقامة.

قال رسول الله ﷺ: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنتين وسبعين. والنصارى مثل ذلك. وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». أخرجه الترمذي وأبو داود رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه بسند حسن صحيح.

حول هذا الحديث دار جدل طويل ولا يزال. فلما ظهرت الفِرَق بين المسلمين، استند العلماء على هذا الحديث ورواياته المختلفة لتعيين الفرق الثلاث والسبعين وتبديعها وتكفيرها، معتمدين على رواية بإسناد غريب للترمذي يقول فيها الحبيب ﷺ في نهاية الحديث: «كلها في النار إلا واحدة». قالوا منْ هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». وعند أبي داود: «وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة».

الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الإسلام والإيمان والإحسان، والذي بينه الله عز وجل من الفرق في كتابه العزيز هم أهل الكفر والشرك وأهل النفاق. فقد ذكر الله عز وجل في أول سورة البقرة المؤمنين الموقنين بالآخرة المفلحين في آية، وذكر الذين كفروا الذين ختم سبحانه على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم صم بكم عُمي فهم لا يسمعون في آيتين، وذكر المنافقين الذين في قلوبهم مرض في بضع عشرة آية.

فبوضع الحديث بإزاء القرآن ليبينه نفهم أن الفِرَقَ الهالكة الثنتين والسبعين فروع تاريخية للشرك والنفاق أخبر بفتنها الرسول ﷺ وحذر منها. الختم على القلوب

ومرض القلوب أصل كل الضلالات. ويكون إصلاح القلوب، والمحافظة على سلامتها الفطرية، وتطبيبها أصلا لكل هداية وفلاح.

هذا. ثم إن العلماء اهتموا بتعيين الفرق الضالة التي حادت عما كان عليه رسول الله ﷺ من أصول الاعتقاد أو أصول الشريعة العملية. تكلم عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط رحمهما الله وقالا: أصول البدع أربعة: الروافض، والخوارج، والقدرية، والمرجئة. قال ابن المبارك: الجهمية ليسوا من أمة محمد. وقال طائفة من العلماء الحنابلة: الجهمية كفار فلا يدخلون في الثنتين والسبعين فرقة، كما لا يدخل فيهم المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وهم الزنادقة.

الجهمية هم من أشد الفرق ضلالة، وهم أتباع الجهم بن صفوان الذين ينكرون الصفات التي أثبتها الله عز وجل لنفسه وأخبر عنها رسوله ﷺ، ويقولون لعنهم الله : إن الله لا يرى ولا يتكلم، ولا يباين الخلق، ولا له علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا حياة. ويقولون بأن أهل الجنة لا يرون الله، وأن القرآن مخلوق. رادّين بذلك ما أجمعت عليه الأمة، وهم أهل السنة والجماعة حشرنا الله معهم.

ومن بعد العلماء الأوائل تكلم الإمام الأشعري رحمه الله في الفِرَق وعين منها في كتابه «مقالات الإسلاميين» خمساً وأربعين فرقة من فرق الشيعة، وستا وثلاثين فرقة من الخوارج، واثنتي عشرة فرقة من المرجئة، وعدَّد طوائف أخرى حتى بلغ بها أكثر من مائة فرقة.

أما ابن حزم فقد أضاف المعتزلة وعدهم إلى جانب الأربعة الأصلية: أهل السنة والشيعة والمرجئة والخوارج.

وعدد الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» ستا وسبعين فرقة رَدها إلى ضابطٍ عامٍّ يبيِّنُ موضوع خلافها مع أهل السنة والجماعة. فذكر القاعدة الأولى من ضابطه وهي الخلاف في الصفات والتوحيد، ما بين مثبت لها ونافٍ، وما بين من يفصل بين صفات الذات والفعل، وما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل. وفي القاعدة الثانية ذكر الخلاف في القدر والعدل، والمتكلمين في القضاء والقدر والخير والشر

والمقدور والمعلوم. وفي القاعدة الثالثة تعرض للوعد والوعيد والقائلين في الإيمان والتوبة والتكفير والإرجاء والتضليل والخلود في النار في حق مرتكب الكبائر. وذكر في القاعدة الرابعة الخلافات بين السمع والعقل والرسالة والإمامة والتحسين العقلي والتقبيح والصالح والأصلح والعصمة وشرائط الإمامة.

لا حاجة بنا أن نقف طويلا عند هذه الفرق البائد كثير منها. لكن نذكر أصول الخلاف الفكري الذي فصله الشهرستاني لأن المواضيع التي دار حولها الخلاف من طبيعة العقل المشترك الأصم الأبكم أن يضل فيها في كل عصر مثلما ضل عقل الأولين. ثم نرجع إلى أصل البلاء كله وهو ختم الله جلت عظمته القلوب، ومرضها. ومن مرضها أن تجد قوما في زماننا يتهمون كل مسلم لا يتطابق رأيه مع رأيهم أنه جهمي، وهو لم يسمع قط بما هي الجهمية ولا له نية ولا رأي ولا دراية بالخلاف في الصفات.

أول الفرق الضالة ظهوراً في الإسلام الخوارج، خرجوا من صف الإمام علي كرم الله وجهه بعد قضية التحكيم في حرب صفين. وما أدراك ما صفين، جرح لا يندمل! أخبر رسول الله ﷺ بظهورهم فقال: «يخرج في هذه الأمة، (ولم يقل منها)، قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حلوقهم، أو حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمِيَّة». الحديث رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري، ورواه غيره. وفي رواية للبخاري عن علي رضي الله عنه قال: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثا فوالله لأن أخرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أكذب عليه. وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيخرج قوم في آخر الزمان أحداثُ الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة».

مضى تاريخ قتال الإمام علي ومن بعده لهم، وبقي منهاجُهم المتجدد: شباب سفيهو الأحلام، أي خفيفو العقول، يقولون كلاما خيرا، ويصلون صلاة متقنة الأركان الظاهرة، ويقرأون القرآن لا يبلغ نور القرآن أبعدَ من حناجرهم. العقول

كليلة، والقلوب مغلَّفة مريضة، هذه هي معادلة بعض طوائف الشباب المتسائل عن دينه ولا من مجيب. ولئن توقف العلماء الأولون في تكفير الخوارج الأولين، فإن قضية زماننا وما بعده هي ترشيد هؤلاء الشباب. ترشيدُهم آكدُ القضايا وإن هم استباحوا لأنفسهم تصرفات طائشةً. وإن «استباحة دماء المصلين المقرين بالتوحيد خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطإ في سفك دم مسلم واحد» كما يقول الإمام الغزالي في كتاب «التفرقة بين الإيمان والزندقة».[1]

الخلافة الثانية على منهاج النبوة هي مستقبل المسلمين، وإن تعامل العاملين للإسلام مع سواد الأمة وطوائفها وأحزابها السياسية وتعامل الجماعات الإسلامية فيما بينها إما أن يكون بالرفق الإسلامي والتؤدة والتفاهم فيحالفَه توفيقُ الله في الدنيا والسعادةُ للجميع في الآخرة. وإمَّا أن يكون على الأساليب العنيفة المبدِّعة المكفِّرة المتجهمة الخوارجية فذاك الضلال بعينه عافانا الله.

حذرنا رسول الله ﷺ من داء الأمم، وهو المرض القلبي، فقال: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، وهي الحالقة. أما إني لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين. والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام فيما بينكم». رواه الترمذي رحمه الله عن الزبير رضي الله عنه وسنده جيد.

الإيمان حُب، وما في المسلمين من تحاسد وتباغض مرض دواؤه التحابُّ. وإن حب الله ورسوله، والحب في الله، والخلة في الله، والصحبة في الله، تثمر الرفق والشفقة على الخلق أجمعين. لا تمنع الذلةُ على المؤمنين من العزة على الكافرين. وما يحب الله عز وجل إلا من جمع بينهما.

ثائرة نارية لا بد من تسكينها. وإن رسول الله ﷺ أمر بالستر على المسلمين، وستر حتى المنافقين الذين كان يعرفهم ويعرف المسلمون بعضهم. وكم قال لعمرَ وغيره لما هموا بضرب المخالفين «أتريدون أن يتحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه!».

(1) كذا نقل عنه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»، ج 12، ص: 300.

ذكر الإمام الشاطبي في كتاب الاعتصام «سببين لسَتْر المسلمين وتجنب تعيينهم بأسماء للطعن فيهم وتفريق شمل الأمة: السبب الأول أن الله تعالى ستر على هذه الأمة في الغالب، بينما كان عصاة بني إسرائيل إذا أذنب أحدهم ليلا أصبح وعلى بابه معصيته مكتوبة. السبب الثاني هو أن «للستر حكمة أخرى وهي أنها لو ظهرت مع أن أصحابها من الأمة لكان في ذلك داع إلى الفرقة وعدم الألفة التي أمر الله ورسوله بها»».

نعم، لا بد من ذكر خطإ من أخطأ دون تعصب ولا تحامل لكيلا ترجع الخسارة على الأمة. وإن ممارسة ما يسمى بالنقد والنقد الذاتي في عصرنا ينبغي أن يكون مناصحة يضبطها الشرع وتلطِّفها المحبة وسلامة الصدر. قال الإمام الغزالي: «أكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوامِّ بتعصب جماعة من جَهَلَة أهل الحق. أظهروا الحق في معرض التحدّي والإدلالِ، ونظروا إلى ضعَفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها، حتى انتهى التعصب بطائفة إلى أن اعتقدوا أن الحروف التي نطقوا بها في الحال بعد السكوت عنها طول العمر قديمة. ولولا استيلاء الشيطان بواسطة العناد والتعصب للأهواء لما وجد مثل هذا الاعتقاد مستقرّاً في قلب مجنونٍ، فضلا عن قلب عاقل».[1]

قال الشاطبي: هذا ما قال، وهو الحق الذي تشهد به العوائد الجارية. فالواجب تسكين الثائرة ما قُدِر على ذلك والله أعلم.

قلت: قال الشيخ عبد القادر قدس الله سره: «أنت كدر بلا صفاء، خلق بلا خالق، دنيا بلا آخرة، باطل بلا حق، ظاهر بلا باطن، قول بلا عمل، عمل بلا إخلاص، إخلاص بلا إصابة السنة. إن الله عز وجل لا يقبل قولا بلا عمل، ولا عملا بلا إخلاص، ولا يقبل شيئا بالجملة غير موافق لكتابه وسنة نبيه ﷺ. (...) إن حصل لك قَبول الخلق مع كذبك فما حصل لك قبول الحق عز وجل وهو العالم بما في القلوب. لا تُبَهْرِجْ، إن الناقد بصير. إن الله عز وجل ينظر إلى قلبك لا إلى صورتك، ينظر إلى ما وراء الثياب والجلود والعظام. ينظر إلى خلوتك لا إلى جلوتك. أما

(1) نقله عنه الشاطبي في «الاعتصام»، ج 2، ص: 230.

تستحي! جعلت منظر الخلق مزيَّنا ومنظر الحق منجَّسا! إن أردت الفلاح فتب من جميع ذنوبك، وأخلص في توبتك». [1]

قال تائب قاصد أوى إلى الله وأخلص قلبه له:

فحسبي أن آوي إلى الواحد الفرد ... فإن سواه لا يُعيد ولا يبدي
هل الغاية القُصوى سوى الله وحده ... وهل بعد نَيْل الحق نيل لذي قصد؟
يجل مقام القُدس عن كل وارد ... وإن كان كل الناس يطمع في الوِرْد
فيا راحلا في بغية الحق إنه ... يناديك من قرب وأنت على بُعد
ومن سطع النور المبين أمامه ... فما باله يبغيه بالنص والوَقْدِ؟
أعندكَ أني لا أرى غير خالقي ... ولولا قصور الخلق بُحتُ بما عندي
ومن لم يكن للحق أهلا أضره ... كإضرار عين الشمس بالأعين الرُّمْد
فسبحان من يبدو إلينا بذاته ... فندركه من غير رسم ولا حد
نراه عيانا بالقلوب وإنه ... لأقرب من حبل الوريد إلى العبد
ويسدي إلينا أنعُما فات حصرُها ... ولكن تجليه لنا خيرُ ما يُسدي
تنزه عن أن يَسمُوَ الفكر نحوَه ... وجل عن التكييفِ بالقَبْل والبَعد

وقلت:

أتى بكَ للميدان صدقٌ وَهمَّةٌ ... أم القَصدُ إظهارُ المزيَّةِ والجِدِّ
وفي القَلبَ آفاتُ النِّفاق ورَيْنُه ... وتَفْتِلُ حَبلَ المكر والغدرِ والكيْدِ؟
ستُفضحُ فيَ سَاح الصَّفاء مع الأُلَى ... إلى اللّه قَاموا بالجهاد وبِالكَدِّ

(1) الفتح الرباني، ص: 201.

الخلاف على الصوفية

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾. اللهم إني أعوذ بك من البخل والجبن وفتنة الصدر وعذاب القبر وسوء العُمر.

ينطلق المهزوم في ميدان المروءات، الفاشل في العمل، من هزيمته وفشله ليأتلف مع أضرابه المقهورين على رقعة الواقع، وينصِب حواجز الشك والتُّهمة، ويُنصِّب نفسه قاضيا محاسبا ليصادر العقائد، ويَدين النيات، ويوسِع العالمين طعنا في إخلاصهم، محتكرا الصدق لنفسه وحزبه، معمما الريبة فيمن ليس من سربه. هو الصواب مجسما، وقوله الحق مسلَّما مكرما، من باب تكريم المرء نفسه وتزكيتها على طريق القدح في غيره.

جاء إلى رسول الله ﷺ سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه فسأله: يا نبي الله! حدثني بأمر أعتصم به. فقال ﷺ: «قل ربي الله ثم استقم». قال سفيان: قلت. يا رسول الله! ما أخوف ما تخاف علي؟ قال: فأخذ ﷺ بلسان نفسه وقال: «هذا». أخرجه الترمذي رحمه الله وقال: حديث حسن صحيح.

كان أهل الإيمان قبل نشوء الفرق يأخذون إيمانهم بعفويَّة «قل آمنت بالله ثم استقم» وبفطريتها. فلما انتشر الإسلام في الأعاجم دخلت الأفكار الوثنية والفلسفة، وامتدت رقعة دار الإسلام، وتناقضت الإرادات السياسية، وتقاتلت، واستعملت كل فرقة ما هو ثابت من النصوص، وصنعت منها ما يؤيد مقالتها، وشحذت سلاح العقل الفضولي، والعقل المتمرد. وتكلم الناس في الذات والصفات، وقست القلوب وأظلمت. فتن كقطع الليل المظلم، كان للسيف فيها جولات، وللكلمة وللقلم.

وعلى مرّ قرون الفتنة تأثّل في الأمة مخزون من البغضاء الخلافية، منه يستقي اليوم طائفة من المسلمين يسمون أنفسهم سَلَفية يرفعون راية قتالية اسمها ابن تيمية، ويحملون على هذا الكاهل مرارة الخلاف القديم، وعلى الكاهل الآخر هموم الحاضر. مُثقَلين مجهدين.

مركبة الإسلام المقلعة تجد أمامها نقاطا للمرور وشرطة وحسبة. لا فكاك، لا فكاك، حتى تدلي بشهادة البراءة من أوبئة الخلاف. يتفرس في وجهك شرطي المرور ليرى مخايل الاعتزال والبدعة والجهمية على وجهك. وقد لا يكتفي بالتفرس والتهمة والتبديع، فينزل إليك في فرقته بشوارع دمشق وعمان يروغُ عليك ضربا بالهراوات.

لا أحقر أحدا إن سميت القوم تيميين، وبحسْبِ المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. لكن أريد أن يكون في كتابي هذا من التنبيه مثلُ ما فيه من التنويه، نصيحة راحل عن هذه الدار، باك على نفسه، حزين على ويلاتها، ضارع إلى ربه في المغفرة.

ابن تيمية عندي فحل من فحول العلماء، فذ من أفذاذ الفرسان. تصدى لمعركة جامعة، معركة على كل الواجهات. حاول أن يجمع أطراف الاجتهاد، وكانت له مقوماته. فتعرض لأهل العقل المنطقي والفلسفي ينتقدهم انتقاد الأنداد. وكان بين المحدثين حافظا حتى قيل : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية ليس بحديث. وكان بين الفقهاء أصوليا فروعيا مجتهدا. وكان أمامَه واقع تميز بالسلطان المتخاصم مع القرآن، سلطان المماليك الذين يشجعون كل من يُثَبِّت ملكهم، ويقصدون للتبرك والدعاء كل من اشتهر بالصلاح والتقوى. فراجت في السوق المملوكية بدع وخرافات. وكانت لشيخ الإسلام واجهات أخرى قاتل فيها، منها واجهة الروافض الذين لم تنس الأمة ضلوعهم مع التتار في دخول بغداد، ومنها واجهة الهجوم التتاري المتواصل.

فارس قاتل على كل الواجهات، شجاع واسع الأفق. سَعَةُ اهتماماته وغزارة علمه، ومضاؤه في العمل تؤهله بحق أن يصنَّف مع عظماء مجددي هذه الأمة.

واستمرار اجتهاده وتلاحمه مع الواقع عقودا من السنين منذ حداثة سنه جعل من مواقفه المكتوبة بقلمه والمسجلة في تاريخه الحافل مجموعة من المقالات منها الصواب الذي استقر عليه، ومنها الناقص الذي كتبه ناقصا في وقت وكمله في وقت آخر، ومنها السهو الذي نُقل إلينا على حاله، ومنها الخطأ الذي صوبه فيما بعد، ومنها الخطأ الذي أصر عليه كما يُصر المجتهد الصادق ويؤجر على اجتهاده.

ومنها فوق كل شيء ما هو راجع إلى شذوذ الرجل وتفرده من بين الحنابلة، وهم أهل الحديث والمواقف المشرفة المعارضة، بآراء خرج فيها على الإجماع.

فيأتي في زماننا رجال قرأوا كتب ابن تيمية وابن عبد الوهاب رحمهما الله، لم يقرأوا غيرها. ويتبنَّون جملة واحدة مجموع مقالات العالم الفذ المجدد الشاذ أحيانا دونما اعتبار لظروف الرجل. سماء مجردة عن أرضية التاريخ البشري، وعن طبيعة الجدل بين الأقران المتعاصرين، وعن اعوجاج النيات والمقالات في حُمَّى الخلاف وأتونِ المناظرات والمحاكمات التي عقدت للرجل الفذ، يقاتله جمهور الفقهاء والصوفية والأمراء متضافرين متآزرين، حتى سجنوه مرات واضطهدوه، فمات رحمه الله في الحفرة.

نبذوا علم الرجل الواسع، لم يحتفظوا منه إلا بنصوص خاصة منتقاة بعناية لتكون منهجية قتالية. قاتل هو بدَعا حية، وهم يقاتلون أوهام البدعة. لم يبق مجال لتفصيل البدع والدينُ مخترق من أقصاه إلى أقصاه. البدع منكر ناتِئٌ خارج من بساط كلُّه معروف. البدعة حنظلة وشوكة وسط زرع صالح. أما والمجتمعات الإسلامية أصبح فيها المنكر هو المعروف وهو الأصل، والمعروف حالات خاصة غريبة! أمَّا والحقل كله شوك وحنظل فما بالك تصب جامَّ غضبك على القمحة المسكينة نبتت في بيئة حنظلية شوكية! اسقها وتعهدها وأصلح لها التربة، لا تُحرقها بنفَسك الملتهب.

اتخذوا شذوذ الرجل الفردي منهاجا فظلموه وظلموا أنفسهم، لا سيما عندما يضربون صفحا عن كتابات الرجل في السلوك ليحتفظوا بمقالاته الحربية يُسعِّرون بها الخلاف على الصوفية.

قال الشيخ الدكتور سعيد رمضان البوطي (أرجع إلى كلمته الصادعة)، وهو من خاض مع التيميين معارك ساخنة يعرفهم المعرفة التامة: «الحقيقة التي لا ريب فيها أن ابن تيمية رحمه الله قد ظُلم من قِبل هؤلاء الناس. لقد ظُلم من قِبلهم مرتين. المرة الأولى أنهم نسبوا إليه، بسبب جهلهم أو بسبب أغراضهم التي يتأبّطونها، ما لم يَقُلْه وما لم يخْطُر منه على بال. فقد صوروا منه عدوا للتصوف، وهو من أبرز المنافحين عنه والداعين إليه، والقائلين بوجوب الانخراط في منهجه التربوي على كل مسلم. والمرة الثانية أنهم صبغوه بذلك في تصوُّر كثير من الناس، بل حتى العلماء الباحثين السطحيين، بصبغة المنكر لهذا الذي ثبت أنه من جوهر الإسلام ولُبابه، والمنقِّصِ لكل من سار في هذا الطريق وسلَّك الناس في طريق تزكية النفس. حتى غدَا اسم ابن تيمية عند عامة الناس رمزا لمحاربة هذا السبيل الإسلامي القويم. مع أن الرجل كان، كما قد ظهر لنا من الرجوع إلى أقواله وواقع ترجمته، على النقيض من ذلك. أما إنكاره للبدع التي علقت به والانحرافات التي أدخلت عليه، وما ظهر من اهتمام بالغ له في شأنها، فإنه لا يدل في الحقيقة إلا على مبلغ تعلقه بالتصوف الحقيقي السليم وعلى مدى غيرته عليه أن يُدَنَّس بشيء من الزَّغْل والبدع والأباطيل».[1]

كان شيخ الإسلام عالما متفردا شديد الشكيمة، حتى أخص أحبائه وتلامذته كانوا يعرفون ذلك ويكرهونه له، لكن شخصية الرجل القوية وهيبته في نفوسهم منعت من أن يحوِّلوه إلى شيء من الاعتدال. لا أريد أن أُفيض في ذكر معاركه مع الشيخ الإمام تقي الدين السبكي رحمه الله فيما سمي بـ «مسائل ابن تيمية» وما اتُّهم به وأُلزِم من القول بالتجسيم، وما أُخِذ عليه من الاجتهاد الشاذ في الفقهيات، وما تنابز به مع خصومه الأشاعرة هو يسميهم جهمية وهم يسمونه وأصحابه حشوية. آخذ من الحنابلة أنفسهم شهادة ليضع كل ذي لُب واستقامة الأمور في نصابها والرجل في نسبيته الزمانية المكانية الظرفية الخلافية.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في ترجمة عِماد الدين الواسطي الذي كان يعظم ابن تيمية تعظيما كبيرا: «كان (أي الواسطي) هو وجماعة من أصحابه ربما أنكروا

(1) مجلة «منار الإسلام»، رمضان 1408، ص: 103.

من الشيخ كلامه في بعض الأئمة الأكابر الأعيان، وفي أهل التخلي والانقطاع (يقصد الصوفية) ونحو ذلك. وكان الشيخ رحمه الله لا يقصد بذلك إلا الخير والانتصار للحق. وطوائف من أئمة أهل الحديث وحفاظهم وفقهائهم كانوا يحبون الشيخ ويعظمونه. ولم يكونوا يحبون له التوغل مع أهل الكلام ولا الفلاسفة، كما هو طريق أهل الحديث المتقدمين كالشافعي وأحمد (...). وكذلك كثير من العلماء من الفقهاء والمحدثين والصالحين، كرهوا له التفرد ببعض شذوذ المسائل التي أنكرها السلف على من شذ بها حتى إن بعض قضاة العدل من أصحابنا (الحنابلة) منعه من الإفتاء ببعض ذلك».(1)

ثم ينقل ابن رجب عن الذهبي قوله: «ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية. واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يُسبق إليها. وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا. وجسر عليها هو». جسارة ابن تيمية له لا عليه إن شاء الله الغفور الرحيم. فالرجل كان مع جسارته في الاجتهاد «دائم الابتهال، كثير الاستغاثة والاستعانة بالله، قوي التوكل ثابت الجأش» كما قال الذهبي تلميذه الجسور. رحم الله الجميع وهدى التلامذة الحرفيين لما فيه الخير.

شاهَدَ القَرنانِ السابع والثامن نهضة حديثية، من شيوخ الحفاظ فيها الإمام التقي السبكي خصْمُ ابن تيمية. سمع منه الحديث الجهابذةُ المزي والذهبي وَ البَرْزالي، ثم «جرهم» إليه الحافظ ابن تيمية في معركته. ومع هذا فهم جميعا كانوا أهل فضل وبَقوا أهل فضل. والذهبي اللامع في سماء الحفاظ والنقاد لم ينس شيخه السبكي ولم يتنكر له. وقد قال فيه: «الإمام العلامة الفقيه المحدث الحافظ فخر العلماء (...) كان صادقا ثبْتا خيراً دَيِّنا متواضعا حسن السمت من أوعية العلم».(2)

وقال فيه شعرا:

لِيَهْنَ المنبر الأمَوِيّ لما علاه الحاكم البحر التقي

(1) طبقات الحنابلة لابن رجب، ج 2، ص: 394.

(2) نقل ذلك ابن السبكي في «طبقات الشافعية»، ج 6، ص: 150.

شيوخ العصر أحفظهم جميعا وأخطبهم وأقضاهم عليٌّ[1]

وقال الهائم في ذكر ربه:

وما الرب إلا حاضرٌ غير غائب وإن طاح ذو الإلحاد في هوة الجَحْدِ
إذا ما تبدى نوره لقلوبنا محا كل ظل للضلالة ممتدِّ
فلولاه كنا هائمين بِمَهمَه من الشك في ليل من الجهل مُسْوَدِّ
وليس بحي من يرى الحق باطلاً ولكنه من ظلمة الجهل في لحد
أرى العارفين السابقين إلى المَدَى كثيرين في المعنى قليلين في العد
ونحن أناس طهر الحق سرّنا ففي الله ما نخفي وفي الله ما نُبدي
فإن كنت لا ترضى سوى الحق مطلبا فيمِّمه من باب التجرد والزهد
فما يستفاد الفوْزُ دون مشقة ولا تجتنى الراحات إلا من الكد
خلوت بنفسي كي تتم سعادتي فأجني ثمار الفوز من منبت الجد
وما أنا وَحْدي حين أُعرضُ عنكم ولكن معي من ليس يتركني وحدي

وقلت:

تَقدَّم بِعزْم تَقدَّم بصدق وَوفِّ لِربِّك عهداً بِرِمْ
فَربُّك، جَلَّ، تأذَّن أن يَفوزَ الوَفيُّ قَضى أو غَنِمْ
قَضى نَحبَهُ في حِياض المَنُون أوِ النَّصرُ توَّجهُ فَسلِمْ

(1) نقل ذلك ابن السبكي في «طبقات الشافعية»، ج 6، ص: 157.

العلماء المتلطفون

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده. ومن همزات الشياطين وأن يحضرون.

قرأنا من حديث للبخاري أن الإمام عليا رضي الله عنه قال: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخِرَّ من السماء أحبُّ إلي من أن أكذب عليه. وإن حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خُدعة».

معنى كلام هذا الإمام العظيم أنَّ نقل الثقة حديث رسول الله ﷺ مما لا يحتمل أدنى هوادة في الصدق والتحري، أما حديث الرجل من تلقاء نفسه لعرض آرائه واجتهاده ففيه مجال للخطإ والمحاولة والإبلاغ الذي يتأثر بعوامل النفس وانفعالاتها وظروفها في مواجهة رأي الآخر.

قال سيد العلماء وسيد اللطفاء رسول الله ﷺ يتخذ مع ربه عز وجل عهدا ويعلمنا درسا في أمر بشريِّتنا ونقصها: «اللهم إني أتخذ عندك عهداً لن تخلفنيه. فإنما أنا بشر! فأي المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها صلاة عليه، وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة». أخرجه الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرج أبو داود عن عمرو بن مرة أن حذيفة بن اليمان وسلمان الفارسيَّ رضي الله عنهما كانا بالمدائن على عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وأن حذيفة كان يحدث الناس ببعض ما قاله رسول الله ﷺ لأناس من أصحابه في الغضب، فزجره سلمان وقال: «إن رسول الله ﷺ يغضب فيقول لناس من أصحابه، ويرضى فيقول في الرضى. أمَا تنتهي حتى تُورِث رجالا حب رجال، ورجالا بغض رجال، وحتى توقع

اختلافا وفرقة!؟» وذكره بعد ذلك بحديث النبي ﷺ عن بشريته وغضبه البشري وعهده مع الله في القضية بلفظ قريب من لفظ البخاري ومسلم.

يتعصب التيميون والوهابيون، أصلحهم الله، ويرفعون الرجال إلى سماء العصمة أو يخفِضونهم إلى حضيض الشيطنة، ما عندهم ميزان للاعتدال. رسخت في قلوب العوام رواسبُ الخلاف والشجار. هؤلاء يكفرون الشيعة عامة لأن ابن تيمية في زمانه ومكانه وغضبته سماهم روافض. ولو تريَّث المكفرون وتثبتوا لعلموا أن الرفض من ذلك الجانب هو الوليد الهجين اللعين للمقت الأموي الذي فرض على الخطباء في مساجد المسلمين في طول البلاد والعرض سب الإمام الطاهر علي بن أبي طالب لمدة ستين سنة قبل أن يوقف اللعنة الصالح التقي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

غضب بغضب، وبشرية ناقصة، وعناد ومعاندة، وجدل يتحدى فيه الخصم خصمه، وحرب تسلُّ فيها السيوف العضبة والألسنة المسمومة. فمتى يُرجى منكم تلطُّف بهذه الأمة يا من تقررون من وراء كرّاساتكم العتيقة، ومن فوق كراسيكم الآمنة أمن القاعدين!

كان ابن تيمية بطلا، كان فارس كل ميدان. خاض معركة مرج الصفر التي وقعت في رمضان سنة 702 تحت راية الملك الناصر محمد بن قلاوون ضد التتار. وقال لبعض أمراء الجيش: «يا فلان! أوقفني موقف الموت! قال الأمير: «فسُقْتهُ إلى مقابلة العدو، وهم منحدرون كالسيل، تلوح أسلحتهم من تحت الغُبار المنعقد عليهم. فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرك شفتيه طويلا (قلت: يذكر الله كما أُمِرَ المؤمنون إن لقوا فئة العدو). ثم انبعث وأقدم على القتال. وقد شوهد في هذه الموقعة ومعه أخوه يصيحان بصوت مرتفع، يحرِّضان الناس على القتال، ويحذرانهم من الفرار».[1] ما موقفكم أنتم من تتار زمانكم؟ يا خزيَكم!

هذا البطل كان يستطيع أن يُلجم غضبه وأن يتلطف. كان في المماليك مقدَّم بارز اسمه بَيْبَرس الجاشنكير، وهو غير بيبرس الكبير صاحب واقعة عين جالوت

(1) العقود الدرية لابن عبد الهادي، ص: 177.

المجيدة. وقد تسلطن الجاشنكير فيما بعد. وكان الجاشنكير يتغالى في حب شيخ صوفي اسمه نصر المنبجي. وكان لهذا الشيخ سيرة ومحاسن جمة.[1] قال الحافظ ابن حجر العسقلاني الإمام رحمه الله: «ارتفع ذكره في دولة الجاشنكير لأنه كان يعتقده ولا يخالف أمره (...). وكان يحط على ابن تيمية (ينتقده ويلومه ويوبخ) من أجل حطه على ابن عربي (...). قال الذهبي رحمه الله: جلست مع الشيخ (نصر) بزاويته، وأعجبني سَمْتُه وعبادته. قلَّ أن ترى العيون مثله».[2] وينقل ابن حجر شهادة الشيخ ابن عطاء الله، وهو ألد خصوم ابن تيمية، في الشيخ نصر رحمه الله فيقول: «الشيخ نصر حجة لنا على إبليس. يعني أنه لو ادعى أنه لم يبق على الأرض قائم بالله لقلت: كذبت يا إبليس، هذا الشيخ نصر بهذه الصفات!».

يمثل الشيخ نصر إذن حصنا منيعا متدرعا بالسلطان بعد تدرعه بالتقوى والصلاح. كفى ابن تيمية شجاعة أن يجهر برأيه في ابن عربي وفي بدع المتصوفة في عصر تحمي فيه الدولة المملوكية مملكة الدراويش بما فيهم من صادقين ومن «صوفية الحقائق» و«صوفية الأرزاق» و«صوفية الزي» حسب تعبير الشيخ نفسه. ومع خلاف الشيخ نصر له على طول الخط، و«حطه» عليه، فإن بطلنا الفارس تلطف للشيخ غاية التلطف، وكتب إليه رسالة مطولة يعرض فيها رأيه وأفكاره، وكأن لهجة الخطاب تحمل رسالة ثانية من وراء السطور، رسالة اعتذار عَمَّا فَرَطَ.

قال ابن تيمية البشر الغضوب العالم المتلطف: «من أحمد ابن تيمية إلى الشيخ العارف القدوة السالك الناسك أبي الفتح نصر فتح الله على باطنه وظاهره ما فتح به على قلوب أوليائه، ونصره على شياطين الإنس والجن في جهره وإخفائه، ونهج به الطريقة المحمدية الموافقة لشرعته، وكشف به الحقيقة الدينية المميَّزة بين خلقه وطاعته وإرادته ومحبته».[3]

(1) شذرات الذهب، ج 6، ص: 52.
(2) الدرر الكامنة، ج 5، ص: 165.
(3) الفتاوي، ج 2، ص: 452 وما بعدها.

وقال: «وبعد فإن الله تعالى أنعم على الشيخ، وأنعم به نعمة باطنة وظاهرة في الدين والدنيا، وجعل له عند خاصة المسلمين الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا منزلة عليَّة، ومودة إلهية، لما منحه الله تعالى به من حسن المعرفة والقصد».

وختم يقول داعيا: «الشيخ أيّد الله تعالى به الإسلام، ونفع المسلمين ببركة أنفاسه، وحُسْن مقاصده، ونور قلبه».

نجد عند العالمين الجليلين ابن تيمية وابن القيم تلطفا آخر في معالجة قضية حساسة جدا في تاريخ الحنابلة، هي قضية شيخ الإسلام أبى إسماعيل الهِروي صاحب كتاب «منازل السائرين». كان أبو إسماعيل محدثا حنبليا صوفيا. وكان بينه وبين الأشاعرة حروب في أول عهد الاصطدام بين الأشاعرة وأهل الحديث، وكان الأشاعرة، وهم الأغلبية الساحقة من الأمة، يرمونه بالتشبيه. ثم إن كتابه «منازل السائرين» يشتمل على مقالات هي من قبيل الشطح الصرف. لذلك كان ابن تيمية «يرمي أبا إسماعيل بالعظائم بسبب هذا الكتاب ويقول: إنه مشتمل على الاتحاد» كما قال الذهبي.[1] وكان ابن تيمية يميل إلى الهروي مع ذلك. فكانت مشكلة عويصة واجهت الحنابلة، وفي مقدمتهم ابن تيمية، أن يكون حنبلي محدث يكتب مثل ما كتب الهروي. فالتمس ابن تيمية لصاحبه في المذهب الأعذار، وتلطف للخصوم فقرَّعه أحيانا.

وكرّس ابن القيم جهودا كبيرة لشرح كتاب الهروي في مؤلفه «مدارج السالكين» كل ذلك لغسل أوْضار الخصومة ما بين أشاعرة صوفية هم الأغلبية وبين محدثين لهم «قدر مشترك» ولبعضهم، مثل الهروي، سهم وافر من التصوف.

قال ابن تيمية: «وأما أبو اسماعيل الأنصاري صاحب «منازل السائرين» فليس في كلامه شيء من الحلول العام. لكن في كلامه شيء من الحلول الخاص في حق العبد العارف الواصل إلى ما سماه هو «مقام التوحيد».[2]

(1) نقله عنه ابن السبكي في «الطبقات»، ج 3، ص: 117.

(2) الفتاوي، ج 5، ص: 485.

ويلتمس ابن تيمية عفا الله عنا وعنه العذر للقائلين بالحلول الخاص المعاذير فيقول: «وقد يقع بعض من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الاتحاد، فإن الاتحاد فيه حق وباطل».

العبارات تسرق. وتعالى الله أن يحل في شيء أو يحل فيه شيء. وتعالى أن يتحد بشيء أو يتحد به شيء. وغلبة الحال و «السكر» حق يفقد معه الذاكر السالك عقله ووجوده. ونعوذ بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ.

ومن يقرأ الجزء الثاني من فتاوي ابن تيمية ير العجب العُجاب، والخوض العميق الذي أخطأ معه من أخطأ وأصاب من أصاب.

قال ابن تيمية في معرض تكفير الحلاج: «وكلام صاحب منازل السائرين وأمثاله يشير إلى هذا (البَوح بسر التوحيد)، وتوحيده (الهروي) الذي قال فيه:

ما وَحد الواحد من واحد إذ من وحده جاحد
توحيد من يخبر عن نعته عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ونعتُ من ينعته لاحِدُ

قال: فإن حقيقة قول هؤلاء أن الموحِّد هو الموَحَّد، وأنَّ الناطق بالتوحيد على لسان العبد هو الحق، وأن لا يوحِّد إلا نفسه».[1]

لكنه عفا الله عنه لم يقل لماذا يعذر الهروي ويوصف بَوْحُه وشطحُه بأنه «حلول خاص» مقبول، ويكفر الحلاج وابن عربي لنفس المقالة.

وينبري ابن القيم ليدافع عن الهروي فيقول: «وحاشا شيخ الإسلام (الهروي) من إلحاد أهل الاتحاد، وإن كانت عبارته موهمة، بل مفهمة ذلك»[2].

بين تأويل العبارات «الموهمة» وإدانة العبارات «المفهمة» وقعت خصومات، وسالت دماء. وأنت تقول: إن أمر الأمة لا يصلح إلا بإعادة تلك الخصومات إلى

(1) الفتاوي، ج8، ص: 317.
(2) مدارج السالكين، ج 1، ص: 149.

الحياة، واختراع خصومات جديدة! وتقول إن البشر ليسوا بشرا، وأن الغضب والتعصب والعناد والتحدي والتحدي المضاد من عالم الشياطين لا من عالم بني آدم الخطائين التوابين!

ويتلطف ابن القيم للرأي الآخر فيقول: «شيخ الإسلام (الهروي) حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه. وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك».[1] ماذا قال المعصوم ﷺ عن بشريته وغضبه؟ يا معشر المقلدين!

هذه دعوة للتدارك والتوبة والعمل بدل التمشدق والتكلف والتعصب والتمَعْقُل. قال الشيخ عبد القادر قدس الله روحه: «عن قريب تصلون نارا حامية إن لم تتداركوا وتتوبوا وتعتذروا. عليكم بالاتباع من غير ابتداع. عليكم بمذهب السلف الصالح. امشوا في الجادة المستقيمة: لا تشبيه ولا تعطيل، بل اتباعا لسنة رسول الله ﷺ، من غير تكليف ولا تطبُّع ولا تمشدق ولا تمعقل. يسعكم ما وسع من كان قبلكم. ويحك تحفظ القرآن ولا تعمل به؟ تحفظ سنة رسول الله ﷺ ولا تعمل بها؟ فلأي شيء تفعل ذلك؟ تأمر الناس وأنت لا تفعل، وتنهاهم وأنت لا تنتهي!».[2]

الجدل عند قوم أحلى وأغلى من العمل. يتفرغ أحدهم ليستعرض الناس أمامه، من مضى منهم ومن هو حاضر، في طابورَين هو قرر قسمتهما ملوِّحاً باسم فلان وفلان، مُخْتفيا تحت رداء من مضوا ولقوا الله بأعمالهم، وليس له من خِيارهم ولا عِيارهم قسمة، ولا من علمهم مُسكة. طابور المهتدين حزبه، وطابور الهالكين من لا يخضع ويسمع ويتبع. نفوسهم لم تهذب بصحبة، ولا ذكرت الله، ولا حزنت على بلواها، بل ولا علمت بما هي مبتلاة به. ألا هل من تلطف أيها الناس!

قال رجلٌ رجُلٌ، وكأنه يخاطب أصحاب الافتتان بالعالم الواحد المعصوم:

صدِّق بأحوال الرجال وما تلقوا من فوائدْ
وإذا هَوِيتَ شفوفَهم فاسلك سبيلهمُ وجاهدْ

(1) مدارج السالكين، ج2، ص: 37.
(2) الفتح الرباني، ص: 47.

فـــوراء ذلـــك لـــذة يعتـابهـا مـن لـم يشاهـدْ
صحـت كرامـات الرجـال بنقـل أصحـاب المَسـاندْ
مـا نـائـم مـلء الجـفون كـقـائـم لله سـاجـدْ
هـل يستـوي هـذا وذا مـا ناقـص حـالا كزائـدْ
يـا راقـدا في ليلـه وإذا تنبـه فهـو راقِـدْ
أتَرَكْـتَ جمهـور الأئمـة واقتديـت بقـول واحـدْ؟
نـظـر لعمـرك فاسـد يـقضي بـأن القلـب فاسـدْ
فوقـوع مـا هـو ممكـن للقـوم مـن خـرق العوائـدْ
شهـد الوفـاق لهـم بهـا فـدع الخـلاف ولا تجاحـدْ

قيل هذا الكلام لجاحد كرامات الأولياء، وقلت لجاحد الولاية من أصلها:

الطُـفْ بِهِـمْ لا تَبْتَئِـسْ إنْ قـالَ خَصمٌ أو مُعانِـدْ
مَـات الرِّجـالُ ومـا بَقِـي مِـن أوليـاءِ اللّـه وَاحـدْ
وقِـفَنْ علـى بَـاب الكَريـم بِكامـلِ الصِّـدق وجَـاهِدْ

الحنابلة أهل الحديث والأشاعرة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم. والحمد لله رب العالمين.

ظهر بعد عصر التابعين وتابعيهم الكذبُ، واختفى في العامة الحُثَالَةِ حسب التعبير النبوي ذلك الصدق الفطري الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾.[1] خرجت طوائف مبتدعة أَجْفَل منها الصادقون، وتبرءوا منها منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم. لم يكن من رأي السلف الصالح في الصدر الأول من الإسلام أن يناظروا أحدا في الدين ولا أن يجلسوا للجدل، بل كانوا يقاطعونهم ويبغضونهم ويرون أن طريقهم مسلك مظلم يوشك من اقترب منهم أن يتوغل فيه فلا يهتدي بعدها. وكان السلف الصالح شديد المقت للمجادلين في الدين، خاصة القدرية. قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وهو كان عالما مجتهدا قبل أن يلي «الخلافة»: «ينبغي أن نتقدم إليهم فيما أحدثوا من القدَر، فإن كفوا وإلا استُلَّت ألسنتهم من أقفيتهم استلالا». وقال: «من جعل دينه غرَضا للخصومات أكثر التنقل». وكثرة التنقل في عبارته تعني التحول في العقيدة والاضطراب فيها والزيغ مسايرة للمجادل المخاصم.

فما جاء القرن الخامس حتى طم الجدل في الدين، وعمت الخصومة فيه، وقل أمثال الإمام أحمد بن حنبل الذي قاوم المعتزلة المعزَّزين بسلطان المأمون والمعتصم العباسيين، وتحمل الأذى والشدة في الدين في قضية قول الإسلام الرسمي المعتزلي بخلق القرآن، أكره على هذه المقالة الشائنة البائنة علماء الأمة بالنار والحديد.

---

(1) آل عمران، 193.

في القرن الرابع ظهرت البدع أيما ظهور، وعلا نجم الفلاسفة والملاحدة الزنادقة حتى أصبحت البدعة رائجة رواجا. أصبحت نقدَ الوقت وعُملته. وفي مواجهة هذا الطاغوت الفكري، الموازي المساير للطاغوتية في الحكم، ظهر المتكلمون المجادلون عن الحق بالبرهان العقلي والدليل. عم في الناس التيار العقلاني لما استعجمت الحياة العامة تحت سيوف بني بويه والسلاجقة، واستعجمت الألسن والقلوب. وغلا المتكلمون غلوا شديدا وأسرفوا حتى كفروا الزنادقة بحق وكفروا معهم العامة من المسلمين، «وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا، ولم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التي حررناها فهو كافر».[1]

ويقول أبو حامد رحمه الله: «من ظن أن مَدْرَك الإيمان الكلامُ والأدلةُ المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد. لا! بل الإيمان نور يقذفه الله في قلب عبده عطية وهدية من عِنْده، تارة بتنبيه من الباطن لا يمكن التعبير عنه، وتارة بسبب رؤيا المنام، وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره إليه عند مجالسته وصحبته. (...)، فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ جاحدا منكرا، فلما وقع بصره على طلعته البهية فرآها تتلألأُ منها أنوار النبوة قال: والله ما هذا بوجه كذاب!».

في القرن الرابع عقب القرون الثلاثة الفاضلة ظهر رجل من عظماء الأمة اسمه أبو الحسن الأشعري. عاش أربعين سنة مع المعتزلة القدرية يصوغ الأقيسة ويستدل بالاستقراء والتماثل، ويبني «القضية الكبرى» على الصغرى حتى أصبح واحدا من ألمع تلامذة الجبائي، أحد زعمائهم. ثم اهتدى، وبه اقتدى من بعده جمهورُ علماء الملة، خلا طائفة من الحنابلة أهل الحديث أشهرهم ابن تيمية ومدرسته. حتى الإمام الغزالي لم يخرج عن المذهب الأشعري إلا في مسائل قليلة كفره من أجلها بعض الأشاعرة المتعصبين.

كان لا بد من إقامة سدٍّ عقلي أمام هجوم العقلانية الفلسفية الزندقية لحماية الدين والدفاع عن المعتقدات التي نقلها عن السلف أجيال من العلماء عانوا الأمرَّيْنِ من اضطهاد الحكام واستعجام العصر. وأكثر ما كان نفعُ الصياغة الأشعرية

(1) أبو حامد الغزالي في كتاب «فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة»، ص 79 وما بعدها.

والماتوريدية لخاصة العلماء المتفرغين للجدل ولعامة المسلمين الذين يسمعون المقالات البدعية الفلسفية فيحارون، فيجيئون العالم المتكلم ليكشف عنهم غمة الشك. أما من اشتد مِراسُهم من المبتدعة والزنادقة فجلوس المتكلم المجادل معهم يغذي غرورهم ويزيدهم تمسكا بضلالتهم.

دافع أبو الحسن الأشعري، ومثله الإمام أبو المنصور الماتريدي مع خلاف يسير، عن ما جاء من عقائد في الكتاب والسنة بكل وسائل الإقناع العقلي وإلزام الخصم بالحجة العقلية والنقلية. وسلك في مسائل الصفات مسلكا وسطا بين الجهمية والمعتزلة المعطلين وبين المشبهة والحشوية المجسمين. كما سلك في «أفعال العباد» مسلكا وسطا بين المعتزلة الذين يقولون بخلود مرتكب الكبيرة في النار وبين المرجئة الذين يقولون بأن الإخلاص لله لا تضر معه كبيرة.

استعمل الأشعري رحمه الله، وكان من السادة الصوفية كما قال ابن السبكي رحمه الله، أسلحة المتكلمين المعتزلة العقلية وأسلحة أهل الحديث النقلية وبين جوانحه قلب ذاكر وإرادة ومحبة. غَلب على علمه العقلُ من حيث غلب القلبُ على علم الغزالي. وكانت الموازنة بين الإرادة الصوفية والعقل الكلامي والنقل القرآني الحديثي عند ابن تيمية في تركيبة أخرى غلب عليها طابع النقل، وحاول صاحبها أن يثبت للناس ما كان هو يعيشه في خاصة إيمانه من أن العقل الرجيح يطابق النقل الصحيح والذوق السليم.

متكلم صوفي تلميذ للحفاظ، وصوفي كبير متكلم على حظ غير كبير من النقل، وحافظ ناظر على «قدر مشترك» مع الصوفية. الأشعري والغزالي وابن تيمية رحمهم الله أعلام نيرة في سماء الإسلام.

كل منهم نافح عن الدين، وبارز طوائف الفلاسفة والمناطقة (باستثناء أبي حامد الذي عيب عليه تشبثه بالقياس المنطقي) وطوائف القرامطة والباطنية والروافض وسائر أهل الأهواء والنِّحل الفاسدة. من هذه الطوائف من لا يقطعه النقل، فسلّوا عليه صوارم العقل والبرهان. وجدير بمن أمسك في يده حساما صدئا أن تتصدّأ

يداه. فالغزالي لاموه على قوله باتخاذ المنطق وقياسه الصوري الأرسطي منهاجا. والأشعري رماه ابن حزم وابن تيمية وغيرهما بأنه من الجبرية الزائغين. وابن تيمية لما توغل في جدال الفلاسفة والمناطقة اضطر أن يتناول من حيث تناولوا فقال مقالة في قدم العالم لم يقلها أحد من أهل الاستقامة.

مستند الحنابلة أهل الحديث في تبديعهم للأشعري والأشاعرة أن الأشعري يؤول في الصفات. حتى إن ابن تيمية صنف الأشاعرة في الصف الخامس من أهل الزيغ، مع الباطنية المعطلة، والفلاسفة، والاتحادية القائلين بوحدة الوجود، والمعتزلة المنكرين لصفات المعاني.

إذا علمنا أن جمهور علماء الأمة، منذ القرن الرابع، على مذهب الأشعري في الدفاع عن العقائد تبين لنا خطورة القول بزيغ الأشعرية. يقول سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام: «إن المالكية والشافعية والحنفية وفضلاء الحنابلة أشعريون».[1]

ويقول المحدث الحافظ ابن عساكر: «هل من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية إلا موافق للأشعري، ومنتسب إليه، وراض بحميد سعيه في دين الله، مُثْنٍ بكثرة العلم عليه، غير شرذمة قليلة تُضْمِر التشبيه وتعادي كل موحد يعتقد التنزيه، وتضاهي قول المعتزلة في ذمه، وتباهي بإظهار جهلها بجانب سعة علمه؟».[2]

برز ابن تيمية من بين الحنابلة الذين انضمت قلوبهم على كَمَدِ فتنة الإمام الجليل أحمد بن حنبل وتعذيبه وجلده على يد المأمون والمعتصم. ونبغ ببيانه وقوة عارضته ومتانة شخصيته. فكان كنقطة بيان وإعلان في أوج المشاغبة الحنبلية المستديمة في وجه السلطان ومن معه من جمهرة فقهاء المذاهب الفقهية الأخرى. يجمع هذه المذاهب في نظر أهل الحديث الحنابلة إجماعُها على الأشعرية الماتوريدية في العقائد، وشبه إجماعها على التصوف من حيث كونه السلوك الأخلاقي الروحي الضروري لكل طالب للحق.

---

(1) طبقات ابن السبكي، ج 2، ص: 259.

(2) نفس المصدر والصفحة.

وطفق الفريقان من أهل الحق، الحنابلة من جهة، ما خلا ابن الجوزي المؤول، وسائر العلماء من جهة أخرى، يختصمون في أخبار الصفات، وفي الاستواء على العرش وحقيقته، وهل تثبت الصفات بما تثبت به الذات أو بشيء زائد، وهل النص المروي بخَبر الآحاد تثبت به عقيدة، وهل تُحمل الأخبار الصفاتية على الحس أو على المجاز، وهل نؤول بعض تلك الأخبار أو كلَّها لنعرف كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، ولنعرف كيف يأتي الله عز وجل إلى عبده هرولة إذا جاء العبد إليه يمشي، وهل القول بالجهة في حق الباري جل وعلا يُلزم القول بالجسمية أم أن اشتراك الحق سبحانه في الصفة مع العبد اشتراك في الاسم لا في الحقيقة.

في قضية التشبيه والتنزيه قضى علماء الأمة زمانا في الجدل والخصومة. لكل فريق من أهل الحق، ما بين صوفية أشاعرة وفقهاء مناظرين ومحدثين أثريين، خيارُه وعيارُه، وحظه من العقل والنقل والإرادة. سفينة الأمة اختلف على مقادتها ربابنَة متَعَددو الوجهات والنيات والقدرات. كل يدعو إلى اجتهاده ومَبْلَغ علمه، مخلصا مصيبا مرة مخطئا أخرى، ولم يخل الجو أبدا من أصحاب النعرات والنفاق والتعصب والمسابقة إلى الرئاسات والمِنَح والمناصب بالتزلف إلى الحاكم السائر برياح هواه. البشرية لم تتعطل، والشيطنة الجنية والإنسية لم تُعزل.

أنماط من التفكير، وألوان من المذهبيات، واختلاف في الأهداف والأساليب. انتقضت عروة الحكم بعد ثلاثين سنة من وفاة رسول الله ﷺ فانفرطت ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، وذات البَيْن الحالقة للدين، حبّاتُ العقد الإسلامي، وانفرطت جامعة الإيمان السمحة التي جاء بها الوحي بغياب وازع السلطان. اشتغل السلطان العاض، الذي يمثل في تاريخ الإسلام بدعة أعظم بدعة، بحرب القرآن وأهل القرآن. وأعانه هؤلاء على أنفسهم بالخصام والتراشق.

أفنبقى، ونحن على أعتاب الخلافة الثانية إن شاء الله، أسرى التجربة الخلافية التي خاضتها الأمة ؟ من أين نبدأ ؟ وما السبيل إلى إيمان لا إله إلا الله، وعصمة «قل ربي الله ثم استقم» وفلاح ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ ؟[1]

(1) آل عمران، 193.

قال صادق جلت بوارق عزيمته ظلام الجهل والفتنة:

وَرَكْبٍ سَرَوْا والليل ملق رِوَاقه ... على كلِّ مُغْبَرِّ المطالع قاتِمِ
حدوا عزماتٍ ضاقت الأرضُ دونها ... فصار سُراهم في ظهور العزائم
تُريهم نجوم الليل ما يبتغونه ... على عاتق الشِّعْرى وهام النعائم

وقال حي ذاكر بين أموات غافلين:

لله في الخلق أسرار وأنوار ... ويصطفي الله من يرضى ويختار
لا تحقرن فقيرا إن مررت به ... فقد يكون له حظ ومقدار
والمرءَ بالنفس لا باللَّبس تعرفه ... قد يخلَقُ الغِمْدُ والهنديُّ بَتَّار
والتِّبر كالترب قد تخفى مكانته ... حَتى يخلصه بالسبك مِسمار
ورب أشعث ذي طمرين مجتهد ... له على الله في الإقسام إبرارُ

وقال معتقد بالهداية والصحبة لا بترتيب الأدلة:

أسفا لأيام وإخوان مضوا ... ومنازل فارقتها مغلوبا
يا ليت قلبي جمرة من بُعدهم ... يا ليت عيشي بعدهم مقلوبا
طالبت بعدهم الزمان بمثلهم ... فأجابني: هيهات، لا مطلوبا

وقلت:

لِلّهِ بِالله سَارَ الصَّادقونَ إلى ... وَعدٍ وثيقٍ لِمن قد خصَّهُ الله
لَا رَيبَ عندهُم في عزِّ مَطلبهم ... سَاروا عَلى دَربهِمْ والموعِدُ الله
تَحدوهُمْ لِلمعالي هِمَةٌ سَمَقت ... ومَا يشاءونَ إلاَّ ما شاءهُ الله

إيمان الصوفية

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث.

في محيط النقل لا خارجه كان لكل من الفقهاء الأشاعرة والمحدثين الحنابلة والصوفية الذاكرين «تنقلات»، حسب تعبير عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، حسب ما عند كل من نبضات قلبية وقدرات عقلية. لم يكن أحد من المعترضين على الصوفية يعترض على أصل التصوف، بل كان الكل يعتبر الصوفية جزءا لا يتجزأ من أهل السنة والجماعة. ولا كان الحنابلة المحدثون يعدون الأشاعرة فرقة خارجة عن أهل السنة والجماعة كما يفعل بعض قراء ابن تيمية في زماننا. فرغم خلاف ابن تيمية الشديد للأشاعرة وجولاته معهم، كان يحصر الخلاف في ثلاث مسائل يعدهن أمهات الخلاف : وصف الله بالعلو على العرش، ومسألة القرآن، ومسألة تأويل الصفات. كان هو في مسألة الاستواء على العرش يشير إلى الجهة فيلزمه الخصوم باعتقاد التحيز الـمُلزم للتجسيم. ومسألة خلق القرآن كانت من الرواسب الاعتزالية، لا يقول بخلق القرآن أحد من الأشاعرة إلا إن دخل الجدل في اللفظ والكتابة. أما في تأويل الصفات فيحمل ابن تيمية حملاته الشعواء، ويحكي قول أعداء الأشاعرة فيهم، متبنيا مقالات السوء. قال: «يقولون إن المعتزلة مخانيث الفلاسفة، والأشاعرة مخانيث المعتزلة. وقال يحيى بن عمار: المعتزلة الجهمية الذكور، والأشاعرة الجهمية الإناث».[1]

كان له تفصيل ما بين «الأشاعرة الجهمية» الذين فيهم بقايا من التفكير الاعتزالي وبين الأشاعرة الأشاعرة الخُلص. هؤلاء عنده ناجون. يقول: «وأما من قال منهم

(1) الفتاوي، ج 6، ص: 359.

(الأشاعرة) بكتاب «الإبانة» الذي صنفه الأشعري في آخر عمره ولم يظهر مقالة تناقض ذلك، فهذا يعد من أهل السنة. لكن مجرد الانتساب إلى الأشعري بدعة».[1]

وهنا ندخل إلى إيمان الصوفية. من كان من العارفين المفتوح عليهم لا ينتمي إلى الأشعري ولا إلى غيره. ذلك يعلمه الله اقتضاء لوعده الكريم: ﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.[2] وعقيدة الشيخ عبد القادر قدس الله روحه كما كتبها في «الغنية» لم تلق عند ابن تيمية الحافظ إلا القَبول التام، كما لا تلقى عند الأشاعرة إلا القبول التام، لمّا تنزهت عن الألفاظ الفكرية الكلامية المفرقة الخصومية.

علماء أكابر آخرون، ممن لهم «قدر مشترك» مع الصوفية وتلمذة وصحبة لا يرون في صياغة الأشعري رحمه الله أي تناقض أو تباعد مع العقيدة السنية. يقول سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمه الله بعد أن كتب عقيدته محررة: «ولا يخرج عن هذا الاعتقاد مَلَك مقرب ولا نبي مرسل، ولا أحد من أهل الملل إلا من خذله الله فاتبع هواه وعصى مولاه. أولئك قوم قد غمرهم ذُلُّ الحجاب، وطردوا عن الباب، وبعُدوا عن ذلك الجناب. وحق لمن حجب في الدنيا عن إجلاله ومعرفته أن يحجب في الآخرة عن كرامة رؤيته:

ارْضَ لمن غاب عنك غيبته   فذاك ذنب عقابه فيه

ثم قال: «فهذا إجمالٌ من اعتقاد الأشعري رحمه الله تعالى واعتقاد السلف وأهل الطريقة والحقيقة، نِسْبَتُهُ إلى التفصيل الواضح كنسبة القطرة إلى البحر الطافح».

يعرفه الباحث من جنسه   وسائر الناس له منكر

انتهى كلامه.[3]

(1) الفتاوي، ج6، ص: 359.
(2) البقرة، 282.
(3) طبقات ابن السبكي، ج 5، ص: 87.

كتب عز الدين كلامه قبل أن تطلُع بارقة ابن تيمية، وقبل أن يشهر ابن تيمية سلاح «لكن مجرد الانتساب إلى الأشعري بدعة». سلطان العلماء في زمانه ارتكب هذه «البدعة» وشهد أن اعتقاد الأشعري هو اعتقاد أهل السنة واعتقاد أهل الطريقة. معناه أن الصوفية هم أهل سنة، وأهل السنة هم الأشاعرة والصوفية. خارج السياج الحنبلي، قبل ابن تيمية وبعده، كان الصوفية والمتكلمون من أهل السنة ومنهم الأشاعرة يُعتبرون هم أئمة التوحيد. قال البغدادي رحمه الله في أوائل القرن الخامس: «الجنيد شيخ الصوفية وإمام الموحدين له في التوحيد رسالة على شرط المتكلمين وعبارة الصوفية. ثم بعدهم شيخ النظر وإمام الآفاق في الجدل والتحقيق أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الذي صار شجاً في حلوق القدرية والنجارية والجهمية والجسمية والروافض والخوارج. وقد ملأت كتبه الدنيا. وما رُزق أحد من المتكلمين من التَّبَع ما قد رزق، لأن جميع أهل الحديث، وكل من لم يتمعزل من أهل الرأي على مذهبه».[1]

رحم الله البغدادي، لو استثنى من أهل الحديث الأئمة جماعة الأفاضل الحنابلة الذين كانوا قبل ابن تيمية أقلية متحركة غير ذات شأن. لو استثناهم! وأنى له أن يعرف أن الأشعري الذي كان شجاً في حلوق الطوائف الضالة سيصبح اسمه يوما رمزا للبدعة عند طائفة من المتوترين!

خاض الأستاذ القشيري رحمه الله الصوفي الأشعري معارك حامية دفاعا عن الاعتقاد الأشعري قبل ابن تيمية، معارك حمل فيها على صولجان الحاكم ومظاهرات الحنابلة بمسبحة المربي وخُطَبِ العالم الجليل من على منبره.

اعتقاد الصوفية العارفين وتلامذتهم هو التفويض، يُمضون ما أخبر الله به عن نفسِه ورسولُه كما جاء، لا يسألون ولا يؤولون. لكن إذا نبع مُعاند لجأ من كان منهم مبتلى بمعاشرة الخلق إلى أسلحة الأشعري الجدلية ليدافع عن الحق ويحرِّر عقائد العامة من المسلمين.

(1) أصول الدين، ص: 309.

عقيدتهم التفويضية عبَّر عنها واحد من أجلة السلف الإمام الشافعي حيث قال رَضي الله عنه: «آمنت بالله وبما جاء عن الله بمراد الله. وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ».

تعلم الإمام العظيم الشافعي من الصوفية أن لا يضيع الوقت فيما لا يعني، وتعلم منهم الاشتغال بالحق عن الباطل. قال رحمه الله: «صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين: سمعتهم يقولون: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل». قال شيخ الإسلام ابن القيم الحنبلي بعد أن أورد كلمة الشافعي: «يا لهما من كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته! ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم».[1]

العالم الظريف المتلطف ابن القيم تقرأ ما بين سطوره أسى عميقا على الوحشة التي أحدثها الاضطراب الحنبلي والقتال التيمي في صفوف أهل الحق من محدثين وصوفية وفقهاء أشاعرة. لا يألو جهداً في تقريب الشقة. واقرأ على هامش نصه هذا عن تمجيد الصوفية بواسطة شهادة الشافعي تعليق «محقق» الكتاب لترى كيف يحمل الوهابيون التيميون في عصرنا مشاعل الإحراق والفراق.

كان الصوفية على مذهب مالك رضي الله عنه حين سئل عن قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» كيف استوى؟ فأطرق مالك حتى علَته الرُّحَضاءُ، ثم قال: «الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». ثم أمر بطرد السائل. في زمانه رضي الله عنه كان السائلون هذه الأسئلة البدعية أفرادا، ومن بعده صارت الأسئلة البدعية الشاكة المشككة طوفانا. صارت طاعونا. صارت كلمة العصر ومقالته وهاجسَه. لهذا اجتمع أهل الحق على سفينة الأشعري ينقذون بها الأمة من الغرق، وأخذوا من صيدليته وطبه علاجا، ومن كلامه حجة.

كان الصوفية المتحررون من التقليد، العارفون، أكثر الناس تمسكا بالكتاب والسنة. ومنهم يتعلم التلامذة الإخلاص المطلق لله ورسوله، وصدقَ الاتباع لله

(1) مدارج السالكين، ج 3، ص: 129.

ورسوله. من زعم الانتساب إلى الطائفة فمعيار صدقه وإخلاصه وصوابه مقدار ما عنده من حرمة للقرآن والسنة. قال ذو النون المصري رحمه الله: «من علامة المحب لله متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره». وقال الجنيد: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ». وقال: «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأنَّ علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة». وقال: «مذهبنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ». وقال أبو عثمان الحيري: «الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم». وقال: «من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. قال الله تعالى ﴿**وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**﴾[1]».

كلام العارفين بالله في الاعتصام كثير. أولئك سجِّلوا في زمام الأولياء، وفتح الله أقفال نفوسهم وعين قلوبهم فعرفوا يقينا أنَّ ظاهر ما نطق به الكتاب ونطقت به السنة مطابق لما تكتشفه أنوار القلوب يوم ينورها الله فضلا يتفضل به على الذاكرين. أما من ركبه هواه، وأُوغِرَ صدره على العالمين، وتوترت علاقاته بالمسلمين لفساد علاقته بالله، فبأي عقل وبأي إرادة، وفي أيِّ إطار، وبأي عيار يبدع المسلمين ويتكلم في عقائد الأولياء؟

أنت الخبير بما تنزل الهمم وتهبط المدارك وتقسو القلوب من ترك ذكر الله. أنت الخبير إن كنت من الذاكرين. وإن لم تكن فاسمع عسى ينفعك الله بالسمع.

قال ابن حجر الهيثمي رحمه الله: «حاش لله ومعاذ الله أن يُظن بأحد من الصوفية المذكورين في رسالة القشيري وعوارف المعارف وغيرهما من كتب الأئمة الجامعين بين علمي الظاهر والباطن شيء مما يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة». [2]

وقال الشاطبي رحمه الله: «يُفهم شأن المنقطعين إلى الله فيما امتازوا به من نِحلتهم المعروفة (التصوف). فإن الذي يظهر لبادي الرأي منهم أنهم التزموا أمورا لا

(1) النور، 54.

(2) الفتاوي الحديثية، ص: 233.

توجد عند العامة، ولا هي مما يلزمهُم شرعا. فيظن الظان أنهم شددوا على أنفسهم، وتكلفوا ما لم يكلَّفوا، ودخلوا على غير مدخل أهل الشريعة. وحاش لله! ما كانوا ليفعلوا ذلك وقد بنوا نحلتهم على اتباع السنة. وهم باتفاق أهل السنة صفوة الله من الخليقة».(1)

الصوفية صفوة الله، أولياء الله، معهم جوهر الإسلام ولُب الإيمان، وطريقهم طريق العرفان. فبأي ظن التقطته من كتب الخلاف تأتي أنْتَ لتحكم ببدعة هؤلاء وأولئك! قم! لا ناقة لك ولا جَمل في هذا السوق! فضولك وتطفلك وسطحيتك وجُرأتك على حُرَم الله مُرْديات ستقضي عليك. ستعلم غدا يوم لاتَ حين مناص من قضى عمره في البطالة، ومن اشتغل بالباطل عن الحق، ومن أثث حياته بفراش الشك، وزينها بحُلِيِّ التهمة، وألبسها لباس الزور!

قال الإمام الشافعي رحمه الله ينزل السفيه منزلته:

ومنزلة السفيه من الفقيه   كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا   وهذا فيه أزهد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه   تقطع في مخالفة الفقيه

وقال يفوض الأمر لمن له الأمر سبحانه:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ   وما شئتُ إن لم تشأ لم يَكُنْ
خلقت العباد لما قد علمتَ   ففي العلم يجري الفتى والمُسِن
فمنهم شقي ومنهم سعيد   ومنهم قبيح ومنهم حَسَن
على ذا مَنَنْتَ وهذا خذلت   وذاك أعنت وذا لم تُعِن

وقال فقيه عارف غير سفيه:

عباد الله سادات كرام لهم   في الخير إن لاح انبعاثُ

(1) الموافقات ج 4 ص 158.

علا منهم نحول واصفرار وإخبات وأطمار رِثاث
فهم للناس في الدنيا أمانٌ من الأمر المخوف وهم غياث
أبانوا صحبة الدنيا وقالوا طلاقك في شريعتنا ثلاث

وقال فقيه يحذر السفهاء من لذة ساعة في نشوة الجدل:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مَغبَّتها لا خير في لذة من بعدها النار

وقلت:

أَتَزعمُ أنَّ قصدكَ مستقيمٌ وما يقوَى لِهمَّتك انبعاثُ
وَترفلُ في مظاهرَ كاذبات ودينُكَ ثوبُه مُزَقٌ رِثاثُ
وبيتُك في النِّفاق لهُ عِمادٌ وزُورُ الموبقاتِ لهُ أثاثُ

كرامات الأولياء

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. الله، الله ربي لا أشرك به شيئا.

المعجزة للنبي والكرامة للولي. المعجزة هي «كل أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين له، على وجه يبين صدق دعواه». هكذا عرفها علماؤنا. أما الكرامة فخارقة يظهرها الله على يد عبد مستقيم. أما إذا ظهرت الخارقة على يد كافر فاسق فهي ما يسمى بالاستدْراج.

روى الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة».

المعجزة آية صدق النبي، يصحب ظهورَها تحدي المنكرين وجُحودُهم للنبي، وتأتي المعجزة بِبيانها لتعضد مقالة النبي. وأعظم معجزات سيدنا محمد ﷺ القرآن، تحدَّى الله عز وجل العرب والعجم والجن والإنس أن يأتوا بعشر سور من مثله، بل بسورة واحدة فعجزوا. القرآن معجزة خالدة إلى يوم القيامة، شاهدة بصدق الدعوة المحمدية، متجددة بتجدد تلاوته وحلاوته وإخباره بالمغيبات والأكوان وأسرار النفس البشرية. وما أوتيه النبيون قبل البعثة المحمدية آيات خارقة تبهر الحاضرين فيؤمنون بالنبي ويصدقونه في زمانهم ثم تنتهي.

ولقد أوتي رسول الله ﷺ من الآيات الكونية الكثير، حتى عد العلماء نحو ألف معجزة مثل انشقاق القمر، والمعراج والإسراء، وتكثير الطعام، وتسبيح الحصى، وإبراء المرضى، ونبع الماء من بين الأصابع الكريمة، والإخبار بما كان وما يكون. وواجب المسلم أن يصدق بالمعجزات.

كما أن أصلا من أصول أهل السنة والجماعة التصديقُ بكرامة الأولياء، لا يكذب بالكرامة إلا جاحد معاند، أو جاهل بدينه. والكرامات أنواع منها المكاشفات، والقدرة والتأثير في الكون، وهو ما يسميه أهل الله التصريف، أو الفعل بالهمة.

وقد كان للصحابة رضي الله عنهم كرامات كثيرة روتها لنا الأخبار الصحيحة. منها تكثير طعام أضياف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومنها نزول الملائكة على أسيد بن حضير رضي الله عنه مثل السُّرُج عند قراءته سورة الكهف، ومنها تسليم الملائكة على عمران بن حصين ومصافحتُهم له، ومنها تسبيح الصحفة التي كان يأكل منها أبو الدرداء وسلمان رضي الله عنهما، ومنها السراج الذي ظهر وأنار طريق عباد بن بشر وأسيد بن حضير في ليلة مظلمة، ومنها إتيان خبيب بن عدي بالعنب من الغيب عندما كان أسيرا بمكة في يد المشركين. وغير هذا كثير.

وكان للتابعين رضي الله عنهم كرامات كثيرة. غير أن ظهور الكرامات في هذه الأمة تكاثر في العهود التالية حتى أصبح «مثل المطر» حسب تعبير ابن تيمية. ذلك أن المعجزة والكرامة مؤيدات من الله عز وجل لعباده تدفعهم إلى الإيمان وتقويهم. كان إيمان أهل القرون الفاضلة الأولى قويا فكانت الكرامات فيهم لا داعي لها، فلما ضعف إيمان الأجيال اللاحقة، وأظلمت القلوب، وعميت البصائر لِفُشُوِّ البدع والضلالات أظهر الله على يد أوليائه من الكرامات ما لا يعد ولا يحصى. الكرامة تأييد من الله عز وجل للعبد الصالح الذي ظهرت على يده وتأييد لمن شهده. أما الولي الراسخ الكامل فلا يحتاج إلى ظهور الخوارق ليزداد إيمانا.

سئل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما سبب قلة كرامات الصحابة بالإضافة إلى ما جاء بعدهم من الأولياء فأجاب بأن أولئك كان إيمانهم قويا فما احتاجوا إلى زيادة يقوى بها إيمانهم. وغيرهم ضعيف الإيمان في عصره فاحتيج إلى تقويته بإظهار الكرامة. ومثله قول الإمام السهروردي رحمه الله: «وخرق العادة إنما يكاشَف به لموضع ضَعْف يقين المكاشَف رحمة من الله تعالى لعباده العبّاد ثوابا معجلا، فوق هؤلاء قوم ارتفعت الحجب عن قلوبهم».

يتوق الطالب الضعيف إلى آية تظْهَر له ليتيقن من أمره، وقد يدعو ربه في ذلك فيبتلى بالإجابة أو بعدمها. يبتلى بالإجابة لأن الكرامة، وهي عطاء، قد تُلهي عن الـمُعطي فتكون سببا لتوقف السالك وحجابا له عن ربه. ويبتلى بعدم الإجابة ليعلم الله من يخافه بالغيب.

العبودية تقتضي من طالب الحق مريد وجه الله أن يعبد ربه ويتقرب إليه وهو في غاية الاعتراف بالضعف والتبري من الحول والقوة. طلب الكرامة يقدح في نية السالك، لأن ظهورها على يده يُكسبه سمعة وصولة، وقد تعجبه نفسه فيتهاون في الاستقامة التي هي الكرامة الكبرى.

كان رسول الله ﷺ يسأله المشركون الآيات والخوارق فيجيب بما يعلِّمه الله من آداب العبودية. ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[1]. ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾[2]. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾[3].

المعجزة والكرامة لحظة استثنائية في حياة النبي والولي، ما هي الأصل. الأصل إثبات الأسباب التي جعلها الله في الكون. ولو شاء الله لأنزل ملائكة رسلا، ولو شاء لأنزل من السماء آية فظلت أعناق البشر لها خاضعين. فالدعوة يبلغها نبي، أو يرعاها ويجددها ولي، مناطٌ للامتحان الإلهي الذي يميز به سبحانه الخبيث من الطيب. قاعدة الامتحان العادةُ لا خرقها. وقد جهّل الله سبحانه المشركين ووصفهم بالظلم، والظلم هو وضع الأشياء في غير مواضعها، لما قالوا: ﴿قَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ

(1) الأنعام، 50.

(2) الإسراء، 90 – 93.

(3) الأعراف، 187.

الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾.[1]

وقد خيِّر النبي ﷺ بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا فاختار أن يكون نبيا عبدا بقاء على أصل العبودية. وعرض عليه ملك الجبال، بأمر من الله تعالى، عند رجوعه من الطائف أن يطبق الأخشبين على مشركي مكة فامتنع. وكان عليه الصلاة والسلام مستجاب الدعوة، فلو شاء لقضيت حوائجه دون سبب ظاهر، لكنه ﷺ كان يشبع ويجوع، وينتصر جنوده تارة ويُهزمون أخرى، وينتظر اكتمال العناصر السببية ليبدأ حركته، ويدبر حسب مجاري العادة ليكون قدوة للمسلمين في التعبد بما وضعه الله من ناموس في الكون. لم يضعه سبحانه عبثا ليتخطاه الناس، ولا يرفعه لحظة من لحظات تاريخ البشر إلا ليكون استثناء الرفع تأكيدا لأصل الإثبات.

الأصل تكسُّب العباد، ومعاناتهم للحاجة والضرورة، وتحملهم لضروب الامتحان والبلاء والقهر المفروض على بني البشر أجمعين. لو كان خرق العادة قاعدة ولم يكن رخصة واستثناء لبطلت الرسالة وبطل العمل وبطل الجهاد وبطلت الحكمة التي من أجلها خلق الله الدنيا والآخرة، والسماء والأرض، والموت والحياة.

الكرامات التي تظهر على يد الأولياء أنواع. منها ما هو من قبيل العلم والمكاشفة «بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومناما. وتارة بأن يعلم ما لا يعلمه غيره وحيا وإلهاما، أو إنزالَ علم ضروري، أو فراسةً صادقة، ويُسمى كشفا ومكاشفة أي كشف له عنه».[2]

هذا كلام ابن تيمية رحمه الله، وله القدم الراسخ في هذه الأمور واطلاع واسع، ومشاركة فعلية، فقد كان من المكاشفين كما سنقرأ إن شاء الله في فصل مقبل. ومعذور ابن الجوزي الذي قال عن المكاشفة إنها «كلام فارغ». وهل يشهد الإنسان الزور إن لم يكن معه من التصديق ما يتلقى به الشهادات المتواترة؟

---

(1) الفرقان، 7 – 8.

(2) فتاوي ابن تيمية، ج 11، ص: 313.

ومن أنواع الكرامة ما هو من «باب القدرة» كما يقول ابن تيمية: «وهو التأثير، وقد يكون همة وصدقا ودعوة مستجابة. وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال، مثل هلاك عدوه بغير أثر منه كقوله: «من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة» و«إني لأثْأر لأوليائي كما يثأَر الليث الحرِبُ». ومثل تذليل النفوس له ومحبتها إياه».[1]

قال أبو علي الجوزجانيّ رحمه الله: «كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة. فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة».

قال الإمام السهروردي رحمه الله: «وهذا الذي ذكره الجوزجاني أصل كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب. وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسِيَر الصالحين المتقدمين وما مُنحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئا من ذلك. ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب، متهِما لنفسه في صحة عمله حيث لم يُكشف بشيء من ذلك. ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر فيه. فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك بابا. والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقينا فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا والخروج من دواعي الهوى. وقد يكون بعض عباده يكاشف بِصِرْفِ اليقين، ويُرفع عن قلبه الحجاب. ومن كوشف بصِرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خرق العادات، لأن المراد منها كان حصول اليقين، وقد حصل اليقين. فلو كوشف هذا المرزوق صِرف اليقين بشيء من ذلك ما ازداد يقينا».[2]

يخاف الكمل من الأولياء أن تظهر عليهم الخوارق غِيرةً على جناب الحق سبحانه أن تُنسَبَ القدرة إلى أحد غيره. الكمال في العبودية، ومظهرها ضعف العبد وفقره وانقهاره. إلا أن يكون لله عز وجل حكمة في إظهار الخوارق على يد الكامل من حيث لا يطلب، فذلك لا يقدح في رتبته.

(1) فتاوي ابن تيمية، ج 11، ص: 314.

(2) عوارف المعارف على هامش الإحياء، ج 1، ص: 241.

قال الإمام الرفاعي قدس الله روحه: «أيْ أخي! أخاف عليك من الفرح بالكرامة وإظهارها. الأولياء يستترون من الكرامة كاستتار المرأة من دم الحيض. أي أخي! الكرامة عزيزة بالنسبة إلى المُكرِم، ليست بشيء بالنسبة لنا. لأن هذا الإكرام لما ورد من باب الكريم عظُم وعزَّ، وتلقته القلوب بالإجلال. ولما تحول لفظ النسبة إلى العبد هان الأمر، واستتر الكامل من هذه النسبة التي تَحَوَّلَ أمرها من باب قديم إلى باب حادث خيفة استحسان النسبة الثانية، فإن قبولها سم قاتل. كلنا عار إلا من كساه، كلنا جائع إلا من أطعمه، كلنا ضال إلا من هداه، ليس للعاقل إلا قرع باب الكريم في الشدة والرخاء».[1]

قال مصدق بكرامات الرجال ومقاماتهم:

لا ينكر الخَرْق للمعتاد ذو بصر ... بالعقل والشرع للأبدال في البشر
والطيُّ للأرض معلوم تواتره ... والنص في ذاك في الفرقان والأثر
وعرش بلقيس برهان يدل به ... على سواه رجال الفكر والنظر
والطي قد جاء للدجال مشتهرا ... يطوي البسيطة في أشياعه الفُجُر
هذا وحالته كفر ومعصية ... فكيف حال رجال الفكر والحذر؟
فسلِّم الأمر تخفى عنك غايته ... من لم يَرِدْ ليْس يدري لذة الصدَرِ
إن لم تعاين مقامات سمعت بها ... فلا أقل من التصديق بالخبر

وقلت:

سَلامٌ على نُزْل الكرام أحبَّتي ... يُوَفُّون في البأساءِ والخوفُ جاثمُ
توعَّدهمْ بالفَتك جمعٌ مُجَمَّع ... وقالةُ سوءٍ حولهمْ تتعاظمُ
فزادهُمُ اللهُ اليقينَ كرامة ... وَباءَ بِما رجَّى عدوٌّ وَلائمُ

(1) البرهان المؤيد، ص: 33.

آيات الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. الله، الله ربنا لا نشرك به شيئا.

يعامل المولى القدير الحكيم عباده في هذه الدنيا بناموس الابتلاء، فيخضع العباد جميعا لنفس السببية. وفي حالات استثنائية تسبق رحمته سبحانه إلى عباده المضطرين فيعاملهم بالقدرة التي لا تتقيد. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾.[1] وقال عز من قائل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾.[2]

بذل أولياء الله بجنب رسول الله ﷺ الجُهد في إعداد ما استطاعوا من قوة، وصبروا واتقوا. لكن العدو جاء مفاجئا بعدده المتفوق، فالتفت الأحباب إلى الأسباب القائمة، وقارنوا عددهم القليل وعُدَدَهم بما جاء به العدو، فثبت الله أقدامهم بما شاهدوه من أعداد الملائكة، يبشرهم بنزولها الرسول الكريم، وتقاتل معهم، وتطير رؤوس المشركين بسيوف «الرجال البيض على الخيل البلق»، معجزة للنبي وكرامة لأولياء الله أصحاب رسول الله.

(1) آل عمران، 123 – 126.

(2) الأنفال، 9 – 10.

بشرهم رسول الله ﷺ قائلا: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة حربه» كما رواه البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنه. ورأى ابن عباس وسعد بن أبي وقاص وغيرهما رجالا عليهم ثياب بيض يقاتلون أشد القتال.

في زمان رسول الله ﷺ كان الجهاد نشاطا مستمرا، وكان النصر حليف جند الله في الجملة على وتيرة تتعاقب فيها «الحكمة» الإلهية المدبِّرة و «القدرة» الاستثنائية. كانت الكرامات والمعجزات ظواهر شائعة دون أن يؤدي شيوعها إلى إخلال بواجب إعداد القوة. كانت تثبيتا من الله وتذكيرا بأن النصر من عنده سبحانه وحده، بسبب أو بخرق السبب.

قُتل عامر بن فهيرة رضي الله عنه يوم بئر مَعونة فدعا الله قبل موته أن لا يتصرف المشركون في جسده بعد موته فحمته الدَّبر، وهي الزنابير، ولم يقدر عليه المشركون. وضل سفينة مولى رسول الله ﷺ طريقه فلقيه الأسد، فأخبره أنه خادم رسول الله ﷺ فصحبه الأسد وهداه الطريق. وكان البراء بن مالك مستجاب الدعوة، فأقسم على الله يوم القادسية أن ينصر الله المسلمين وأن يجعله أول شهيد، فكان ما طلب. وحاصر خالد بن الوليد حصنا، فشرطوا عليه أن يسلموا له الحصن إن شرب السم، فشربه ولم يضره. وأخرجوا أجساد شهداء أحد بعد أربعين سنة فوجدوها لم تَبْلَ. قال أبو هريرة: دعا العلاء بن الحضرمي فنزل المطر في الصحراء. ودعا فمشينا فوق الماء. ومات فدفناه، وبعد قليل فتحنا عليه فلم نجده في قبره. وقبض رجل من تراب سعد بن معاذ فوجده مسكا، فقال رسول الله ﷺ :سبحان الله، سبحان الله، حتى عُرف ذلك في وجهه. وقطع الجيش الإسلامي نهر دجلة أثناء فيضانه يحملهم الماء تخوضه خيلهم، فهرب الفرس ذُعراً.

كان جهادهم رضي الله عنهم قربة عظيمة زكاها الله عز وجل بظهور الكرامات على أيديهم. واقرأ كتاب «صفة الصفوة» ففيه الكثير من الأمثلة نقلها عالمنا ابن الجوزي الذي يؤمن ببعض الغيب وينكر المكاشفة رحمه الله.

فلما انحدر المسلمون في أودية الفتنة، وتطاول عليهم الأمد، تقلصت الكرامات وانزوت مع أولياء الله المعتزلين عن المجتمع، لتبقى تأكيدا إلهيا على أن هذا الدين حق، ولتكون ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ويشاء الله عز وجل في زماننا هذا أن يعود الجهاد إلى الظهور، وأن تعود معه الكرامات ظواهر شائعةً، ليثبت الله قلوب جنده السائرين عن اطلاع وثقة نحو الخلافة الثانية على منهاج النبوة. هذه هي كرامات المجاهدين أفغان بشرى لنا ولتطمئن قلوبنا أننا على الدرب الـمُنير سائرون.

كانت معجزات رسول الله ﷺ وكرامات أصحابه وأمته من بعده مصابيح مضيئة متألقة بالثقة واليقين انجلت بها قتامة الكفر الجاهلي وكآبة البشر الدابّين في الأرض بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. وها هي ذه كرامات المجاهدين في أفغانستان[1] تجلو عَن الأمة غَيمةً مظلمة كانت قد خيمت على العقول والقلوب، ألا وهي غيمة جحود الغيب، والتقليل من شأنه، وتأويل التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية والقرآن والحديث بما يماثل ويطابق التفسير الوضعي الفلسفي، «العلمي» في زعمه.

قبل نحو قرن من الزمان استقبل الاستكبار البريطاني في مصرِ الأزهرِ، مصرِ العلم والعلماء، الشيخَ محمداً عبده رحمه الله إثر عودته من فرنسا، وإثر عودته من ثورية الأفغاني رحمه الله. حمل الشيخ محمد عبده مسؤولية «إصلاح» الأزهر. وكان الأزهر ولا يزال محتاجا لإصلاح إسلامي. كان «إصلاح» عبده والمراغي وفريد وجدي الذي كان رئيس تحرير مجلة «نور الإسلام» الأزهرية إصلاحا يناسب نوايا الاستعمار، ويناسب عقولا أفرغت من نور الإيمان فولت وجهها شطر الحضارة الغالبة المادية «العلمية». كانت لكلمة «علم» صولة عاتية على تلك العقول. وما «العلم» عندها إلا ما قرره العقل الأوربي المعادي للدين المجادل في الوحي المكذب بيوم الدين. وهكذا فسر محمد عبده غفر الله لنا وله النبوءة بأنها فطرة يفطر عليها بعض الناس ليرشدوا غيرهم إلى الخير، أنزل الأنبياء عليهم السلام منزلة النمل

(1) يا حسرة على العباد ! ما فعلت القبلية بعد الكرامات الزكية! وتبقى للعبرة ذكرى الكرامات، وللاتعاظ آثار الفتنة. والله على كل شيء حسيب.

والنحل. وفسر الطير الأبابيل والحجارة من سجيل بأنها نوع من مرض الجذري، وفسر الجن بأنهم نوع من المكروبات. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

جاء تجديد الإمام البنا رضي الله عنه وثقافة إسلام العبقرية والقيادة والحضارة طاغية عاتية. لم تضمحل تلك الثقافة السطحية المسطحة الكافرة بالغيب، المحروم أهلها من الفلاح الذي لا يناله إلا المؤمنون بالغيب، كل الغيب. لم تضمحل ولم تغب، ولا تزال كتب عبده وكتب فريد وجدي وكتب محمد حسين هيكل يعاد طبعها. سرت هذه الثقافة الزنيمة في العقل المسلم سريان الأوبئة السرطانية. ومنذ عشرين سنة قررت إذاعة اليهود من تل أبيب إذاعة دروس من كتاب محمد حسين هيكل في السيرة النبوية، ذلك الكتاب الذي يفتخر فيه صاحبه بأنه لا يعتمد الحديث حتى وَلَوْ رواه البخاري تمشيا مع «الطريقة العلمية». ناهيك بكتاب يزكيه اليهود ويبثونه ويشجعونه!

جاءنا مدد الله وغياثه في آيات الرحمن في جهاد الأفغان. وهذا عنوان كتاب ألفه الدكتور عبد الله عزام، عزم الله له وجزاه أفضل المثوبة.

يقول عبد الله عزام عن القصص التي أوردها في كتابه: «أما الرجال الذين رَوَوْا معظم القصص فإني أظن والله أعلم، أن البخاري لو كان حيا لكانوا من أسانيده».[1]

ونحن نورد بعض كرامات الجهاد الأفغاني كما رواها العالم المجاهد المشارك في الخندق وفي كل الواجهات عبد الله عزام، سردا متتابعا.

قال حدثني عمر حنيف، وهو قائد عسكري مجاهد أنه لم ينظر شهيدا واحدا متغير الجسم أو منتن الرائحة. وأنه لم ير شهيداً واحداً نهشته الكلاب رغم أنها تأكل الشيوعيين. وأنه كشف عن اثني عشر قبرا بنفسه بعد سنتين أو ثلاث ولم يجد جسداً واحدا متغير الرائحة. وأنه رأى شهداء بعد أكثر من سنة جروحهم حية تنزف دما.

(1) آيات الرحمن في جهاد الأفغان، الطبعة الأولى، ص: 100.

وروى أمثلة كثيرة لشهداء أُخرجوا من قبورهم رائحتهم رائحة المسك. وروى قصة رجل اسمه «ابن جنة جل» استُشهِد، فجاء أبوه وقال: يا بني، إن كنت شهيدا فأرني آية! فإذا بالشهيد يرفع يده ويسلم على أبيه مصافحا والده مدة ربع ساعة.

وروى قصة الشهيد عمر يعقوب الذي بقي ماسكا رشاشته ولم يطلقها إلا بعد أن قالوا له: نحن إخوانك. وقصة مولوي أرسلان الذي يخافه الروس لشجاعته وبلائه. قال أرسلان: كانت معنا قذيفة واحدة مع مضاد واحد للدبابات. فصلينا ودعونا الله أن تصيبهم هذه القذيفة. وكان مقابلَنا مائة دبابة وآلية. فضربنا القذيفة، فإذا بها تصيب السيارة التي تحمل الذخيرة والمتفجرات، فتفجرت ودمرت خمسا وثمانين دبابة وناقلة وآلية. وقال أرسلان: نحن نعرف أن الطيارات ستهاجمنا قبل وصولها، وذلك عن طريق الطيور التي تأتي وتحوم فوق معسكرنا قبل وصول الطائرات. فعندما نراها نستعد لهجوم الطائرات. بل رأى أرسلان الطيور تدافع عن المجاهدين. ورآها غيره عدد من المجاهدين نقل المؤلف شهادتهم.

كان مع المجاهدين في أول الجهاد بنادق فردية عتيقة، كانت هي غاية ما استطاعوا إعداده من قوة. فأنزل الله قدرته على تلك النيات الصادقة المخلصة. قال أرسلان: كنا في مكان اسمه شاطري، عددُنا خمسة وعشرون مجاهدا. هاجَمَنا ألفان من العدو، ودارت بيننا معركة. وبعد أربع ساعات هُزِم الشيوعيون وقتل منهم سبعون أو ثمانون، وأسرنا ستة وعشرين شخصا. قلنا للأسرى لماذا هزمتم؟ فقالوا كانت المدافع والرشاشات الأمريكية تقصفنا من الجهات الأربع. قال أرسلان: ولم يكن معنا لا رشاش ولا مدفع، إنما هي بنادق فردية، وكنا في جهة واحدة.

قال أرسلان: في مكان اسمه «أرجون 23» هاجَمْنا الشيوعيين، فقتلنا خمسمائة وأسرنا ثلاثة وثمانين. فقلنا لهم ما سبب هزيمتكم ولم تقتلوا منا سوى شهيد واحد؟ قال الأسرى: «كنتم تركبون على الخيل، فعندما نطلق عليها تفر ولا تصاب». ولم يكن مع المجاهدين فرس واحد.

وأسرد الآن بعض العناوين: الذخيرة لا تنفد، الدبابة تمر على جسد مجاهد فيبقى حيا، العقارب مع المجاهدين، النور يصعد من جسد الشهيد، كل خيام المجاهدين تصاب إلا خيمة السلاح، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

دعا أخو الشهيد «مياجد» ربه أن يريه آية ليطمئن أن أخاه شهيد حقا، فسقطت إليه باقة ورد لا نظير لها في الدنيا، ثم اختفت في الصباح. وكان النُّعَاس يغشى المجاهدين أشد ما يكونون توتُّراً. وكذلك كان يغشى المجاهدين الأولين: قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.[1]

ويعد المؤلف كرامات كثيرة رواها الثقات بالتواتر عن حفظ الله للمجاهدين، وعن نبع الماء لهم في الأماكن الجرداء، وعن امتداد الضباب ليخفيهم عن الطيارات، وعن انفجار دبابات العدو دون أن يستعمل المجاهدون سلاحا مضادّاً.

هذه آيات الرحمن في جهاد الأفغان، جاء بها الله العزيز الحكيم ليكبِت اتجاها إلى المادية الكافرة بالغيب. وحدُّ ما بين الخرافية التي عاشت عليها أجيال من المسلمين في عصور الانحطاط وما بين الإيمان بالغيْب وظهور الخوارق أن الخرافية استرسال في الخيال والأحلام بينما تمثل الكرامة تظهر على يد الأتقياء حافزا على العمل، وبرهان صدق، وعربون صواب.

قال صادق يتقرب إلى الله بالأعمال لا بالتشبيه الكاذب بالرجال:

أوصاف أهل الصلاح واضحة ... فاحرِص عليها عساك تدركها
قوم لهم في الضلوع أفئدة ... أُوارُ نار الضلوع تسبِكُها
من كل مُستقدِم تعارضه ... أوهام أطماعه فيملكها
ومن يكن مثله فهِمَّتُه ... ترى المعالي وليس يتركها
مُنْصَلِتٌ زانه تنسكه ... في فئة زانها تنسكها

(1) الأنفال، 11.

يرسل في البر نفسه فإذا رامت سوى البر فهْوَ يمسكها
فهاك آثارَهم فإن لها مَآثرا بالتقى تَمسُّكها
يا طامع النفس في لَحاقهمُ وهمة النفس لا تُحركها
أعمالهم بالقبول صاعدة وأنت تهوِي فكيف تدركها

وقلت:

جهادُ أفغانستان شرَّفنا مَيزهُ اللهُ القادرُ المَلكُ
ليوثُ أفغانستانَ رافَقهُم نصرُ الكرامةِ أينما سلكُوا
مَن فاتهمْ قطُّ مِن عنايتهِ سُبحانهُ نفحةٌ فَقَدْ هلكُوا

الاستدراج

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.
لا إله إلا الله العظيم الحليم. لا إله إلا الله رب العرش العظيم.
لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم.

آصَف بن برخيا اسم الرجل الذي أحضر لسليمان عليه السلام عرش الملكة بلقيس. كان عبدا صالحا يعرف اسم الله الأعظم، استخدم بركته في خدمة نبي الله لغرض ديني فاستحق الثناء من الله عز وجل. وعبد آخر مخذول اسمه بَلَعَم بن باعوراء تعلم اسم الله الأكبر ودعا به على نبي الله موسى عليه السلام فأخزاه الله، وجعله مثلا سيئا يُتلى في القرآن. قال تعالى: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾**.[1] بعد بضع آيات يقول تعالى: **﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾**.[2] الإلحاد في أسمائه تعالى هو الميل بها والانحراف عنها، إما بتأويل الصفات الإلهية تأويلا معطلا، وإما بذكر الأسماء الحسنى ابتغاء قضاء حوائج دنيا.

الإلحاد في أسماء الله بالمعنيين انحراف وميل إلى السُّفل وإلى الدناءة والهَلَكة. وكما أن المعجزات والكرامات معالم ودلائل على مراقي الأنبياء والأولياء، فالاستدراج، وهو ظهور الخوارق على يد الملحدين في أسمائه تعالى أمثال بلعم، دليل على مقت الله. قال تعالى في إثر الحديث عن بلعم وعن الإلحاد في الأسماء الحسنى: **﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي**

(1) الأعراف، 175 – 176.

(2) الأعراف، 180.

مَتِينٌ﴾.[1] قال ابن كثير: «معناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووُجوهَ المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.[2]

البرخيون، أصحاب الكرامات يسخرونها بالحق في الحق، أولياء مهتدون، والبلعميون مخذولون مستدرجون، ابتلاهم الله بظهور الخوارق على يدهم فزلَّت أقدامهم وأبلسوا. وإن لله عز وجل أبواب فتح لأوليائه، تخرج إليهم الهداية من باب ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾، وله عز وجل أبواب فتح على المستدرجين، تخرج عليهم البلية من باب ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾. بين فتحنا لك وفتحنا عليهم تكمن حكمة الله البالغة التي يتقابل فيها النظراء في المظهر النقضاء في المخبر. مع المفتوح لهم من أهل النور الأولياء خوارق، ومع المفتوح عليهم من أهل الظلام خوارق. هؤلاء مُبعَدون ملعونون، وأولئك مقربون محبوبون.

قال الإمام الرفاعي قدس الله سره: «أي بني! اعلم أن الله تعالى ربما يزين أعداءه بلباس أصفيائه وأوليائه حتى إنهم يغترون بصفاء الأوقات، ويحسبون أنهم من أهل الولاية. فهذا من الله لهم استدراج».[3]

مخالفة الخوارق للشريعة في أهدافها وما ترمي إليه هي الدليل على أنَّها من قبيل الاستدراج. وهي عندئذ إما شيطانية من أعمال الجن، وإما نفسية من مظاهر الـمَلكات الخارقة التي تكتسب بالرياضة، أو يُظهرها الله فيمن شاء ابتداء وابتلاء بلا رياضة ولا تَعَمُّل. الكرامات إلهية ملكية قلبية، والاستدراجات شيطانية نفسية شهوانية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو يتكلم في الموضوع كلام خبير مجرب مطلع: «الخارق كشفا كان أو تأثيرا، إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها دينا وشرعا. إما واجب وإما مستحب. وإن حصل به أمر مباح

(1) الأعراف، 183.

(2) الأنعام، 44.

(3) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص: 145 – 146.

كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي الشكر. وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سببا للعذاب أو البغض، كقصة الذي أوتي الآيات فانسلخ منها: بلعم بن باعوراء. لكن قد يكون صاحبها معذورا لاجتهادٍ أو تقليد، أو نقص عقل أو علم، أو غَلَبَة حال، أو عجز أو ضرورة (...).

قال رحمه الله: «والنهي قد يعود إلى سبب الخارق، وقد يعود إلى مقصوده. فالأول مثل أن يدعوَ الله للظالم بالإعانة، ويعينَه بهمته كخفراء العدو وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال».(1)

من قوله: «خُفراء العدو وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال» يتبين لأهل هذا الفن ما عند الرجل من خبرة دقيقة بموضوعه. فإن من الذاكرين والمجاذيب وأصحاب الخوارق طائفة لا تتقيد في طلبها من الله بقيد. وقد يدعو أصحاب الأحوال بنصر العدو، وقد يقفون بهمتهم المتيقظة بجانب الظلمة ضد المُصلحين من أمثال ابن تيمية. وإن سألت أيها الأخ الكريم: لماذا؟ فجوابك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.(2)

ويغتر العامة ممن لا خبرة لهم بأن مَكر الله خيرٌ وكيده متين بالخوارق والتصرفات والتأثير بالهمة التي تظهر على من يكون شيطانيا محضا أو مستدرَجا بلعميا أو متريضا نفسيا. قال شيخ الإسلام: «وتجد كثيرا من هؤلاء (المغترين) عُمدتُهم في اعتقاد كونه وليا لله أنه قد صدر منه مكاشفة في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانا، أو يملأ إبريقا من الهواء، أو يُنفق بعض الأحيان من الغَيب، أو يختفي أحيانا عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه جاءه فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سُرق لهم، أو بحال غائب لهم أو مريض».(3)

إن الظواهر الخارقة، ما بين شيطانية جنية وما بين نفسية رياضية، تملأ حيزا واسعا من حياة الناس في عصرنا، وحيزا أوسع من اهتماماتهم وعقائدهم. فالمصابون

(1) الفتاوي، ج 11، ص: 319.
(2) الأعراف، 183.
(3) الفرقان، ص: 61.

بالجنون الذين اعتدى عليهم جني، يعمل في حرفته الإجرامية مفردا أو مع عصابة شيطانية منظمة، يُهرعون إلى العرافين والعرافات للاستشفاء، فيسقطون في الأحضان الشيطانية سقوطا كليا. وقد كان ابن تيمية رحمه الله خبيرا بصرع الجن وقهرهم، صرعُهم بالقرآن والذكر سنة وعمل صالح ودفاع عن المظلومين، والتفاوض معهم في ردهات العرافين بِدْعة وغواية وتورط فظيع، ولا يزداد الجن العادي إلا عدوانا.

منذ نحو مائة سنة ظهرت في أوربا حفلات ما يسمى باستحضار الأرواح. وشاعت هذه البدعة وذاعت، واشتغل بممارستها ودراستها هواة متخصصون وبحاثون. وما هي إلا لعبة عصرية من ألاعيب شياطين الجن، يوهم القرينُ الشيطاني ورثَة الميت «المستحضر» أنه هو روح ميتهم ويُدلي إليهم بما يعرفه من حال الميت من دقائق وأسرار فيقنعهم ببراهين واقعية أنه هو، حتى أنه ليكتب لهم خطا مثل خطه، أو ينشدهم شعرا مثل شعره كما وقع في مصر في سنة 1949 من تاريخ النصارى، حين أملى قرين جني على امرأة تسمى بديعة قصائد طنانة هي أشبه شيء بشعر شوقي رحمه الله. والمرأة لا ثقافة معها ولا معرفة بالشِّعر.

وجود القرين الجني الذي يعيش مع كل آدمي عمرَه، يلازمه ويطلع على كل أحواله ثم يموت الآدمي ويعيش الجني قرونا بعده، يفسر جانبا كبيرا من النشاط الشيطاني الذي يُقعد الناس في الشرق والغرْب إلى الموائد الدَّقاقة يستمعون إلى «الوسيط» وهو يترجم لهم كلام «الروح» المتسكعة، أو يحسبون النَّقرات ويجمعون الحروف ليتلقوا «برقية عالم الغيب» في إخراج مثير يتقنه الشياطين دائما.

قال رسول الله ﷺ يعلمنا ديننا: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي! ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق». رواه أحمد ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أخطرُ من لعب القرناء بالمستدرجين من كل صنف، وأخطر من الرهبنة النصرانية، دعوة «الروحانية» الهندية الهندوسية. عرفت هذه الهَوَسِية مدّا واسعا وشهرة عالمية بما يظهره رهبانها المتزهدون من خوارق عجيبةٍ، وبما يبعثونه في نفوس الغرب المادي

المتعطش للروحانية من آمالٍ في نعمة الهدوء النفسي والطمأنينة التي تصبو إليها الفطرة البشرية، والتي لا تحصل إلا بذكر الله بعد الدخول في الإسلام وتعلم الإيمان.

ظهر في القرن الماضي في الهند مجدد كبير لديانتهم الوثنية اسمه «راما كرشنا». قال عنه غاندي: «إنه مَثَلٌ للعقيدة الحية الساطعة التي تحمل في طياتها العَوْن والقوة لآلاف من الرجال والنساء لولاه لظلوا محرومين من النور الروحي».

يدعو راما كرشنا وغاندي في أثره وأشياعه من بعده إلى توحيد الأديان، لأن كل الأديان العظمى في زعمهم تنتهي، بواسطة طرق متباينة، إلى إله واحد.

هذه الدعوة الظلمانية فتح الله على أتباعها من يوكيين ومتزهدين أبواب كل شيء مما يحيِّر العقول ويبهر الناظرين. ومع بضاعة الاستدراج الخارقة يقدم دعاة راما كرشنا، الذي أصبح اسمه هُتافا عاليا في شوارع العواصم العالمية، طَبَقًا مسموما، هو طبق وحدة الوجود الوثنية. قال كرشنا: «اختر لنفسك أي اسم، واختر من صور الله وأشكاله وألوانه أية صورة وأي شكل وأي لون، واعبد الله فهو في كل شيء».

إلى جانب «الروحانية» الهندية، والحفلات القرينية، والزار، والسحر، والعرافة، يبدو وكأنَّهُ لعبُ أطفال ما وُلع به الغربيون في أمريكا وأوروبا، وما تخصص فيه الروس الملاحدة أنفسهم، من أبحاث في «الباراسيكولوجيا» و«التلباتي» و«التلكنزيا» وغيرها من الظواهر التي لا يحصيها العد نوعا ولا كما. يهتم الغرب، ويتسابق مع روسيا، لمعرفة الأسباب الخفية وراء انتقال الأشياء من مكان إلى آخر دون أن يَمَسَّها أحد، وانفتاح النوافذ، وانطفاء الأضواء، وظهور أشباح في أماكن معينة، وارتفاع أشخاص في الهواء، وقراءة بعض الناس بأصابع اليد بدل العين، وقراءة بعض الناس أفكار الآخرين، والتنويم المغناطيسي، ورؤية الخفايا، وسمع ما لا يمكن للإنسان العادي أن يسمعه، ورهافة الحواس حتى إنها لتدرك ما لا تدركه إلا الآلات الإلكترونية، والنبوغ المبكر الخارق عند أطفال يحسُبون أسرع من الحاسوبات الإلكترونية ويدخلون الجامعة في الخامسة من العمر، وتحدُّثُ بعض الناس بلغات ميتة أو حية دون سابق تعلم، والصحون الطائرة إلخ.

فتح الله أبواب كل شيء على الملحدين في أسمائه، المستدرجين إلى حيث يعلم هو وحده. العقلانية المخترعة المنظّمة تحاول أن تُحكم قبضتها على ما يستعصي قبضه ويستحيل. معاهد للبحث العلمي المتخصص، وجبال من المعطيات، وإحصائيات تتراكم، ومناهج تكتشف وتُصَوِّب. والقوم جادون كل الجد في أبحاثهم، ينفقون على مشاريع هذه العلوم، التي يستحدثون لتسميتها قاموسا جديدا، بسخاء، رجاء أن يسبقوا إلى سرّ يمكن استعماله، يعطي تفوقا استراتيجيا.

قال سام بهمته إلى منازل المكرمين مع أهل النور:

كم في البرية من سام بهمته إلى معالم أهل الفضل والدين
وفي البواطن أنوار تلوح لهم على الأسرَّة في كل الأحايين
هم الذين إذا عاينت ظاهرهم عاينت ظاهر أقوام مساكين
غرائب العلم تجنى من تقرُّبهم فيما تناقل أرباب الدّواوين
زَجَّوْا بفقرهم أنفاس عمرهم خيرُ المسير على خير القوانين
فلا المطاعمُ تُجنى في مساكنهم ولا الدرهمُ تُخْبَا في الهمايين
ويبعثون إذا قام العباد معا مع المسيح لتنويه وتعيين
لا يسألون وقد عفَّت أكفُّهم من القبور لدار الخُرَّدِ العين

وقلت:

أهلُ الولاية أهلُ السَّبق والقُرب حَباهمُ اللّه بالتخصيصِ والنَّسبِ
السابقونَ هُمُ والمفلحونَ هم فازوا بنيل عظيم القَصدِ والأربِ
تلوحُ أنوارُهمْ سيماءَ صِدقهم والأدعياءُ كِسافٌ سَافِلُو الرُّتَبِ

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾. الله، الله ربي لا أشرك به شيئا.

الكينونة مع الصادقين التي حرض عليها القرآن الكريم هي مُدخل الصدق إلى سكة السلوك. هي الطابع على جواز السفر بمداد التقوى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.[1] الله تعالى صادق في كلامه، صادق في وعده، صادق في أمره ونهيه، والمبلغون عنه من رسل وأمناء صادقون. ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾.[2] ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.[3] فما يمنعك من التماس الطريق إلى الله في معيّتهم لتعرف سابقتك عند الله إلا نُحُولُ الإيمان وضُمورُ التقوى وتقلُّص الهمة. إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ بتبليغ المؤمنين كافة بالبشرى العظيمة حيث قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[4]. ثم نوع لك أسلوب الخطاب والتشويق فوصف لك منزل الصادقين في قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.[5]

خطاب مفتوح مشرق، ما يمنعك من الاستجابة له والهبَّةِ على ندائه، واليقظة والإسراع والتلبية إلا وجودُ عوائق في نفسك، في عقلك، في معدنك، في سابقتك. وتسمع أولياء الله يسألونك: ما اسمك في عالم الملكوت؟ يلخصون لك التشويق

(1) التوبة، 119.

(2) آل عمران، 95.

(3) الزمر، 33.

(4) يونس، 2.

(5) القمر، 54 – 55.

القرآني والتبشير لعلك تفهم وتغضب وتغار من تبكيت الأمثال من بني البشر إن كان وعد الله وبشارة رسول الله لا يكفيان لإيقاظك وبعثك.

وقفنا في هذا الفصل عند العوائق المانعة الحاجزة المثقلة عن السير. وقفنا عند المحطة السفلى والانحطاط الأرذل: النفاق. وقرأنا أن الصحبة هي المفتاح للخروج من قفص الريبة إلى طمأنينة الصدق. ما دمت تصحب مرتابين في أنفسهم، شاكين في وعد ربهم وبشارة نبيهم فمن أين يأتيك هاجس طلب الله، ثم رائد إرادة الله، ثم باعث التوجه إلى الله، ثم دافع السير إلى الله؟ من أين يأتيك الإخلاص إن لم تعاشر مخلصين ؟ من أين تهب عليك نسائم القرب إن كانت تقصِفُ راياتِ إرادتك أوهام المترددين، وتصكُّ سمعَ فطرتك نياتهم الواهية، ومقالاتهم الخالية؟

الصدق هو المنزلة العظمى، ويستخلص الله عز وجل الصادقين من مهاوي الخطإ وسواحق الضلال، يشفع لهم صدقهم هنا كما يشفع لهم هناك في الدار الآخرة. ﴿**قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.[1]

إن كانت أرضية إيمانك متينة فحريٌّ أن يكون أساس بنائك وطيدا، وأن تعلوَ غُرُفاته آمنة شامخة. لا تدع خلاف المختلفين ينحط بك إلى دركات التنابز بالألقاب. تلطف للناس، ودع عنك الوسواس الخناس. تلق من الله عز وجل ومن رسوله بالرضى والقبول والتسليم ما جاءك من خبر الذات والأسماء، لا يتعثر عقلك في مطالب الاستدلال ولا تتنكر لفطرتك التي تسمع آيات الله فتخضع وتخشع. كن بقلبك مع ربك تذكُرُه، كن مع آياته فيك لا مع الأكوان ومن فيها. الإيمانَ الإيمانَ! الإحسانَ الإحسانَ! الإيقانَ ببرهان العقل في مجالات العقل، ينضوي العقل وبرهانه في نور الجَنان. واسأل الله أن يفتح لك لا عليك.

ركائز الإيمان في خصلة الصدق عددتها في تصنيفي لشعب الإيمان إحدى عشرة ركيزة: الإيمان بالله عز وجل وبغيبه، وهي تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله التي ينطق بها لسان المسلم وينعقد عليها قلب المؤمن فتكون هي قوَّتَه، منها طعامه وشرابه.

(1) المائدة، 119.

الإيمان بالغيب يتضمن الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر خيره وشره. ثم ركيزة الإيمان باليوم الآخر، ثم النية والإخلاص، ثم الصدق، ثم النصيحة، ثم الأمانة والوفاء بالعهد، ثم سلامة القلب، ثم الهجرة إلى الله ورسوله، ثم نصرتهما، ثم الشجاعة، ثم تصديق الرؤيا الصالحة وهي عاجل بشرى المؤمن ووَحي الله المنامي لعباده الصالحين كرامةً من أجلِّ الكرامات.

هذه الصفحات وصفت الصدق وركائزَه، وقد يكون العلم بما هو الصدق خطوةً فكرية. ولكن من أين لنا حال الصدق وحقيقته إن كان «نقد الوقت»، أي العملة الرائجة، هو مزيج من الإسلام السياسي والإسلام الثقافي والإسلام السطحي الذي يفكر ولا يتفكر؟

إن طبيعة الجماعات الإسلامية المنفتحة على كل وارد، القابلة للعابد وغير العابد، أن يجتمع في ثكناتها وأجهزتها مخزون فكري يحصل من مساهمة الكل، وأن ينصب على كل عضو ضغط إجْمالي هو حصيلة تضاغط الكل، وأن تتناصر الجهود أو تتخاذل أو تتناقض من جراء تفاوت المدارك، وتباين المشارب، وتباعد مرمى الهمم، ومأخذ هؤلاء وأولئك من النقل والعقل والإرادة. المفاهيم عائمة، لا سيما مفاهيم الصحبة والجماعة والذكر والصدق.

طلب الكمال، والطموح إلى الولاية، وإرادة القرب من الله، وصدق طلب وجه الله قضايا ضائعة، ضائع من له بها علم واطلاع، أو شوق وتوق. غطى على هذه المعاني النفيسة والمطالب الرئيسة الإسلام الثقافي النضالي الملتحم بالواقع التحاما يوميا، من محاضرة لمحاضرة، ومن جريدة لمجلة، ومن كتاب لكتاب. وأنت قد فرغت من تصنيف نفسك في المربَّع السلفي أو الإخواني أو صنفوك وعنفوك.

حجبت مدرسة المعرفة، وجماعة الانتماء، وإرادة القيادة ومهام التنظيم مطمَح الإيمان ومرتقى الإحسان. ضَغْطٌ موروث من خلافيات أمس، وضغط متوالد من أحمال اليوم. والنية التي هي رأس السهم، وبُراق الترقي لا تخلُص للهجرة إلى الله ورسوله والظن الحسن بالله، وتصديق الله، والصدق مع الله.

قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

هذا الحديث العظيم الذي يعدُّه العلماء ركنا من أركان الدين ينبغي أن نستَعْمله امتحانا لنياتنا وسط الجماعة. فإن تضافرت الأسئلة الصادقة المُلتهبة رغبة في الله من كل جانب في الجماعة، وتكاثرت، وأسمَعت، يوشك أن تتحول روح الجماعة، إن وجدت مصحوبا خليلا كاملا أو مصحوبين، من عدم الاكتراث بالكمال الروحي وطلبه، إلى سماع، إلى اهتمام، إلى إرادة، إلى عزم، إلى همة متلهفة يحيى بها وعليها أهل السابقة الذين يذكرون الله فيذكرهم الله، ويصدقونه فيصدقهم، ويحبونه فيحبهم، ويتقربون إليه بالفرض والنفل مع نية حاضرة، وَارِدَةٍ عليه سبحانه صادِرة. والهجرة إلى الله ورسوله سنة ماضية إلى يوم القيامة. انتهى عهد الهجرة من مكة الأوثان إلى مدينة القرآن، وبقي الجهاد والنية، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية».

هاك صفحة رائعة من صفحات العلم بالهجرة إلى الله ورسوله والوصف، يتضمن نداء صادقٍ وامق، بلغ الله هذا النداء آذانا واعية، وفِطرا إلى كمالها ساعية. قال الإمام عبد القادر رحمه الله: «المرائي ثوبه نظيف وقلبه نَجِس. يزهد في المباحات ويكسل عن الاكتساب، ويأكل بدينه ولا يتورع جملة. يأكل الحرام الصريح. يُخفي أمره على العوام ولا يخفى أمره على الخواص (أصحاب الكشف). كل زهده وطاعته على ظاهره. ظاهره عامر وباطنه خراب. ويلك! طاعة الله عز وجل بالقلب لا بالقالب وحده. كل هذه الأشياء تتعلق بالقلوب والأسرار والمعاني. تعرَّ مما أنت فيه حتى آخُذَ لك من الحق عز وجل كسوة لا تبلى. اخلع أنت حتى يكسُوَكَ هو. اخلع ثياب توانيك في حقوق الله عز وجل. اخلع ثياب وقوفك مع الخلق وشركك بهم. اخلع ثياب الشهوات والرعونات والعُجْب والنِّفاق، وحبِّك للقبول عند الخلق، وإقبالهم عليك، وعطاياهم لك. اخلع ثياب الدنيا والبس ثياب الآخرة. انخلع من حولك

وقوتك ووجودك، واستطرح بين يدي الحق عز وجل بلا حول ولا قوة ولا وقوف مع سبب، ولا شرك بشيء من المخلوقات.

«فإذا فعلت هذا رأيت ألطافه حواليك تأتيكَ، رحمتَه تجمعك، ونعمتَه ومنَّتَه تكسوك وتضمك إليها. اهرُبْ إليه، انقطع إليه عريانا بلا أنت ولا غيرك. سر إليه منقطعا منفصلا عن غيره. سر إليه متفرقا مفارقا حتى يجمعك ويوصلك بتقوى ظاهرك وباطنك (...).

«من أفنى الخلقَ بيد توحيده، وأفنى الدنيا بيد زهده، وأفنى ما سوى ربه بيد الرغبة فقد استكمل الصلاح والنجاح، وحظِيَ بخير الدنيا والآخرة. عليكم بإماتة نفوسكم وأهويتكم وشياطينكم قبل أن تموتوا. عليكم بالموت الخاص قبل الموت العام.

«يا قوم! أجيبوا، فإني داعي الله عز وجل، أدعوكم إلى بابه وطاعته، لا أدعوكم إلى نفسي. المنافق ليس يدعو الخلق إلى الله عز وجل. هو داع إلى نفسه. هو طالب الحظوظ والقَبول، طالب الدنيا.

«يا جاهل! تترك سماع هذا الكلام وتقعد في صومعتك مع نفسك وهواك! تحتاج أولا إلى صحبة الشيوخ وقتل النفس والطبع وما سوى المولى عز وجل. تلزم دُورَهم، أعني الشيوخ، ثم بعد ذلك تنفرد عنهم وتلزم صومعتك وحدك مع الحق عز وجل.

«فإذا تمَّ هذا لك صرت دواء للخلق، هاديا مهديا بإذن الحق عز وجل. أنت لسانك ورِع وقلبك فاجر! لسانك يحمد الله عز وجل وقلبك يعترض عليه! ظاهرك مسلم وباطنك كافر! ظاهرك موحد وباطنك مشرك! زهدُكَ على ظاهرك، دينك على ظاهرك، وباطنك خراب كبياض على بيْت الماء، وقفلٍ على مزبلة! إذا كنت هكذا خيم الشيطان على قلبك وجعله مسكنا له. المؤمن يبتدِئ بعمارة باطنه ثم يشتغل بعمارة ظاهره». (1)

كل كلامه رحمه الله يفسر «إنما الأعمال بالنيات».

---

(1) الفتح الرباني، ص: 44 - 45.

وقال الإمام الرفاعي رحمه الله: «أي سادة! إياكم والدجالية! إياكم والشيطانية! إياكم والطرق التي تقود إلى كلا الوصفين! أخجلوا الشيطان بخالص الإيمان! خربوا بِيَع الدجل بيد الصدق».[1]

قال ولي ورد ووصل فناداك من هناك وأدلى لك بشهادته:

للأولياء مناقب مشهورة ... فاشهد بها حق الشهادة واقطع
ورد الكتاب بها وسنة أحمد ... فاشدد يديك على الحسام الأقطع
خرق العوائد ممكن لا سيما ... في حق أصحاب المقام الأرفع
قوم فرائضهم ومندوباتهم ... منهم بمرأىً لا يغيب ومسمع
قطعوا الظلام تأملا وتململا ... وعيونهم تُجري عيون الأدمع
وتسارعوا نحو المدى ووراءهم ... مني ومنك كوادِنٌ لم تُسرع
وردوا بحار مواهب مختومة ... عن غيرهم وحُرِمْتَ رِيَّ المَشْرَع
لو كنت مثلهم لنلت منالهم ... لكن نزعت خلاف ذاك المنزع
أتقيس نفسك يا جبان بمقْدَم ... أتقيس نفسك يا عَصِيُّ بِمِطْوع؟!
ومن المحال مع التفاوت أن يُرى ... ماضي الجنان مع الجبان بموضع
لا تسموَنّ وفي الفعال مَحَطَّةٌ ... سبقوك أيام البطالة فارجع!
قسَمٌ يخص بها السريع إلى التُّقى ... لو كنت من أصحابهم لم تمنع
إن لم تُعاين في البطالة مفلحا ... فَأَصِخْ بقلبك قبل أذنك واسمع

وقلت:

أَتقيسُ نَفْسَك بالأُلَى نالوا المُنى ... عِند المَليك وأنتَ لاهٍ أقطعُ
لَبَّوْا نداءَ المُرسلينَ وصدَّقوا ... ببشائر الحُسنَى لهم وتسارعُوا
وعَبِثْتَ أيامَ البِطالة لاعبا ... مِن كُلِّ شيطانٍ غويٍّ تَسْمعُ

---

(1) البرهان المؤيد، ص: 58.

الفصل السادس

الـبـذل

- الذئبان الجائعان
- الزهد والورع
- التوكل
- الشكر والبذل
- البِــر
- العـدل
- التقلل والترف
- التواضع
- طلاق الدنيا والآخرة
- الفقر إلى الله عز وجل
- شعب الإيمان

الذئبان الجائعان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾.
حسبي الله. لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

في الفصول السابقة كنا نرمق طالب الحق من وجهة صلته بالله حين يذكره ويدعوه ويستغفره ويحبه ويتقرب إليه، وحين يصحب من يدله على الله ويتحبب إليه ويستمع إليه ليتعلم الإيمان قلبُه من قلبِه، وحين يصدق في نيته ويخلص ويخطو خطاه على سواء الصواب.

في هذا الفصل والفصول اللاحقة نعتبر طالب الحق وهو يصارع النوازع النفسية الاجتماعية التي تكدّر صفوه وتُعَوِّصُ سيره وتغلبه على وجهه، يريد هو الله وتريده الدنيا والنفس والشيطان لغير الله.

نعرف صدق السالك من بذله للدنيا، أي من إعطائه ما في يده من جاه ومال ابتذالا للدنيا واستهانة بها في جنب الآخرة ثم في جنب الله. نعرف صدقه من إخلاصه وتقواه ومجانبته المباهاة في طلب العلم. نعرف صدقه من إخلاص عمله بمقتضى علمه، نعرفه من سمته، من تؤدته، من اقتصاده، من جهاده.

في شوط البذل يطلع علينا وجهان من وجوه الشر يَتَلَمَّظانِ لسفك مروءة السالك وخلُقه ودينه. وجهان لغرائز مغروزة في بشريتنا تفتح طلعتُها المُخزية إلى السقوط هُوّاتٍ، وتتراءى مع مثيلاتها في الآخرين من حولنا، من صديق وعدو ومنافس، فيكوِّنُ تجاورُها وتحاوُرُها وتعاملها منظر النفاق الاجتماعي، والتحاسد، والشح، والرياء، والتظالم، والتسلط.

قال طبيب القلوب وحبيب علام الغيوب رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في زريبةِ غَنَم بأفسد لها من الحرص على المال والحسب في دين المسلم». رواه عن كعب بن مالك رضي الله عنه الإمام أحمد والترمذي وصححه وابن حبان في صحيحه.

غريزتا حب المال والحرص على جمعه وحب الجاه والرئاسة جماع الشرور الاجتماعية. من منْبَعهما في عمق جذور النفس البشرية الفردية تجري آفة الغِنَى الحرام والحُكم الحرام. والتمثيل النبوي، على نبينا الصلاة والسلام، لتكالب الوحشين على دين المسلم حين يستيقظان فيه ويعتُوان عليه يعطي صورة بالمواجهة والمقابلة لفتكهما بدنيا المحرومين والمظلومين والمحقورين. فمال المعدُوِّ عليهم من الناس وشرفُهم هما القيمة الدنيوية التي سطا عليها الذئب البشري ففسد دينه. فإن ساد في الناس التعامل بالمثل والتسارُع والتنافُس على المال والسلطان، وهو قمة الحسب والجاه، فسدت دنيا الجميع، وفسد دين الجميع، وخسر الجميع الدنيا والآخرة.

تجنَّب الزهاد من هذه الأمة والصوفية الصادقون الشراسة الذئبية باعتزال الغابة الاجتماعية السياسية وتركوها لضواري العدوان والسلطان العاض والجبري منذ سطو الفئة الباغية الأموية وانقلابها. ولم يَسْلَم عالم الزهاد والصوفية من ملاحقةِ ذئبيَّة الحرص على المال والحسب، بل سرعان ما تقمص الذئبان الجائعان الحيّان في نفوس البشر الزيَّ الصوفي، وتكلما بلغة الصلاح، واصطنعا السمعة والكرامة والحُرمة. وجمع قوم المال، وقعد قوم في صدور المجالس تحيط بهم هالة العظمة، أدعياءَ ذئابـاً.

في أفق الخلافة الثانية على المنهاج النبوي نستبصر التربية النبوية من زاوية طب القلوب. وإنك تستطيع أن تؤلف حزبا قويا، وتثور على الظلم باسم الإسلام، وتقتل التضامن الوحشي بين ذئبي المال والسلطان في غيرك، وتكسر صرحه. لكن إن تصديت للحكم، وسقطت الدولة بين يديك وما معك رجال قهروا ذئبيتهم النفسية، وهذبوها، وصعّدوها في أعمال بنّاءة، فلن تكون ثورتك الإسلامية، اسما ونية في أول المسار، إلا تجربة أخرى للصراع الدائم بين النفوس البشرية المائلة مع الهوى، المُلحدة المائلة عن الله.

إذا كان تهذيب النفس وترويضها على الزهد في الدنيا أصلا من أصول التربية الإيمانية الإحسانية وشرطا من شروطها في خاصة الفرد المؤمن الذي نفض يده من كل شيء ليتفرغ لطلب الله في رفقة محدودة بعيدا عن المجتمع، فإن مشروطيَّتها آكدُ، وتحقيقها أبعد منالا، في حق المؤمنين العاملين جماعة، القائمين جماعة، لإحقاق الحق وإظهار دين الله. إن لم يُبطل القائمون الباطل في نفوسهم فلن يستطيعوا إبطاله في غيرهم. وإنَّ بناء النفس وتحصين النفس وتزكية النفس بإخراج حب الدنيا جملة وتفصيلا من القلب لهو البناء. وما يزكيها إلا الله، وما يُفلح في استئصال الجرثومة الذئبية إلا من ذكر الله.

إذا كان الصحابة رضي الله عنهم غير منَزَّهين عن تسلط الهوى عليهم، وهم النموذجُ، فما تقول فيمن قنعوا من الدين بإسلام فكري أجوف؟ ما نزه رسول الله ﷺ أصحابه حين خوفهم إفساد الذئبين الجائعين، بل خصَّص وعيَّن وحذَّر فقال لهم يوما وقد جاءهم رزق غزير بعد طول انتظار: «والله ما الفقر أخشى عليكم. ولكني أخشى عليكم أن تُبْسَط الدنيا عليكم كما بُسِطَت على من كان قبلكم فتنافسوها (أي فتتنافسوها) كما تنافَسوها وتُهلككم كما أهلكتهم». رواه الشيخان والترمذي رحمهم الله عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

ولم يطلب المصطفى المجتبى الطاهر المطهَّر ﷺ المستحيل منا. لم يطلب القضاء الجذري على الذئبية فينا، إنما خاف تحوُّل القط الأليف المهذب الذي يجد في الحلال المشروع المضبوط المزموم مجاله الحيوي إلى نمر كاسر يَحْطِم الحدود ويكسر القيود. ثم إنه ﷺ أعطانا نعتا من نعوت الأنفس الزكية التي اقتحمت العقبة إلى أعلى ولم تنجرف مع السيل الهابط. نَعَتَ لنا مطلبا عاليا نوظف فيه حدتنا الحسدية وعنادنا الحرصيَّ. قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق». أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وأخرجا من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين. رجل آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار».

الحرص على الدين والعلم، والقرآن قوام الدين والعلم، ثم الحرص على المال والكسب، وهما القوام المادي الضروري للدين والعلم والقرآن جميعا، باعث مشروع معترف به موضوعةٌ له النعوت ليسير في ركاب المؤمن، وركاب جماعة المؤمنين، السائرين إلى ربهم من الدنيا إلى الآخرة، عَبْرَ الدنيا. ما في ديننا تعطيل ولا رهْبنة. وإن السلوك الجهادِيَّ الملائم لإعادة الخلافة الضائعة لا مكان فيه لزهادة متعفِّفةٍ هاربة. كيف والعالم من حولنا ضجة واحدة، عالية صاخبة، تعوي فيها ذئاب الرأسمالية ودبَبَةُ الاشتراكية!

خير الآخرة يفوتنا إن كانت الهمم الفردية والاهتمام الجماعي غاصت في مستنقع التنافس الرديء على الرئاسة الدنيوية. أما إن صعَّدنا التنافس إلى الآخرة فنِعِمَّا هي وهي خير. ومن سُبُل التنافس في الآخرة ونعيمها ومراتبها التسابق إلى إصلاح دنيا الأمة بكل جهد وبكل بذل. لا يحب الله العلو في الأرض لأنه فساد، ويحب العلو في الآخرة ويحث عليه. قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.[1] وقال الإمام الحسن البصري رضي الله عنه: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة». وقال وهيب رحمه الله: «إذا استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل». وقال محمد بن يوسف الأصبهاني العابد: «لو أن رجلا سمع برجل أو عرف رجلا أطوع لله منه كان ينبغي له أن يحزنه ذلك». وقال غيره: «لو أن رجلا سمع برجل أو عرف رجلا أطوع لله منه فانصدع قلبه لم يكن ذلك بعَجَب». قال رجل لمالك بن دينار رحمه الله: «رأيت في المنام مناديا ينادي: أيها الناس؟ الرحيلَ الرحيلَ! فما رأيت أحدا ارتحل إلا محمد بن واسع». فصاح مالك وغُشي عليه.

من سبقك في درجات الآخرة فاتك بدائم أبدي، فأي شيء من متاع الدنيا ومالها وحسبها تبيع به آخرتك أو تُسقِط به قَدرك هناك بعرةٌ لا قيمة لها.

قال الشيخ عبد القادر رحمه الله: «عليكم بالتوبة والاستغفار والحياء منه سبحانه. اخلعوا ثياب الوقاحة عليه، تجنبوا حرام الدنيا وشبهاتها، ثم تجنبوا مباحاتها بهوى وشهوة، لأن تناولكم بالهوى والشهوة يشغلكم عن الله. قال النبي ﷺ: «الدنيا سجن

(1) المطففين، 26.

المؤمن». كيف يفرح المسجون في سجنه؟ما يفرح! لكنه بِشْرُه في وجهه وحزنه في قلبه. بِشْرُهُ على ظاهره والآفات تقطعه من حيث باطنُه وخلوتُه ومعناه. جراحاته معصبَّة من تحت ثيابه، يُغطِّي جراحاته بقميص تبسُّمه. ولهذا يباهي به ربه الملائكة. شجاع في دولة دين الله عز وجل وسرِّه. مازالوا يصبرون مع الله عز وجل ويتجرعون مرارة أقداره حتى أحبهم».[1]

وقال الإمام الرفاعي رحمه الله: «يا ولدي! إن ملكت عقلا حقيقيا ما ملت إلى الدنيا وإن مالت لك، لأنها خائنة كذابة تضحك على أهلها. من مال عنها سلم منها، ومن مال إليها بُلِيَ فيها. وفي الحديث «حب الدنيا رأس كل خطيئة». فكما أن حبها رأس كل خطيئة فكذلك بُغضها والإعراض عنها رأس كل حسنة. هي كالحية، لَيِّنٌ لمسُها، قاتل سمها. لذاتها سريعة الزوال، وأيامها تمضي كالخيال. فاشغل نفسك فيها بتقوى الله، ولا تغفل عن ذكره تعالى ذرة واحدة. وإن طرقك طارق الغفلة فاستغفر الله، وارجع لباب الملاحظة، واذكر الله، واستح منه. راقبه في الخلوات والجلوات، واحمده واشكره على الفقر والغنى».[2]

حب الدنيا خطيئة كبرى في حق المؤمن، وبُغضها حسنة. وفي سلم القيم الدوابية الحضارية المادية حب الحياة علامة صحة وعافية.

اللهم إنا نسألك السلامة من كل بلية.

قال حكماء من هذه الأمة:

ومـن ينفـق الأيـام في جمـع مالـه مخافـة فقـر فالـذي فعـل الفَقْـر

*****

إذا كنت في الدنيا عن الخير عاجزا فما أنت في يوم القيامة صانع؟

*****

لا تغبطـنَّ أخـا حـرص علـى سَـعَة وانظـر إليـه بعيـن الماقـت القالـي

(1) الفتح الرباني، ص: 171.

(2) البرهان المؤيد.

إن الحريـص لمشـغول بثروتـه | عـن السرور بما يحوي من المال

*****

يـا جامعـا مانعـا والدهـر يرمقـه | مفكـرا أيَّ بـاب منـه يغلقـه
جمعت مالا ففكر هل جمعت لـه | يـا جامـع المـال أيامـا تفرقـه
المـال عنـدك مخـزون لوارثـه | مـا المـال مالـك إلا يـوم تُنفقـه
إن القناعـة مـن يحلـل بسـاحتها | لـم يلـق في ظلهـا همـا يؤرقـه

*****

أيهـا المُتعـب جهـدا نفسـه | يطلـب الدنيـا حريصـا جاهـدا
لا لـك الدَنيـا ولا أنـت لهـا | فاجعـل الهمَّيـن همـا واحـدا

*****

أمـران مفترقـان لسـت تراهمـا | يتشـوفان لخلطـة وتلاقـى
طلـب المعـاد مـع الرياسـة والعُلـى | فـدع الـذي يفنـى لمـا هـو باقـي

وقال عبد لله تحرر من رِبْقة العبودية لغيره فأصبح سيداً:

يـا ليتنـي صـرت شيئـا | مـن غيـر شـيء أُعَـدُّ
أصبحـت للكـل مولـى | لأننـي لـك عبـد
وفـي الفـؤاد أمـور | مـا تُستطـاع تُعَـد
لكـن كتمـان حالـي | أحـق بـي وأسَـدُّ

وقلت:

لقّنـوا الأجيـالَ آيـاتِ الجهـادْ | علِّموهـمْ سَـوْمَ بـذْلِ المُهَـجِ
داوِ دَاء الجُبـنِ مـن مَصْـلِ العنـادْ | واغتسـل مـن وَصْـمِ شُـح سَـمِجِ
مـا يُلقاهـا سِـوى الغُـرِّ الشِّـدادْ | هُـمْ مـلاذٌ في المَحَـجِّ الحَـرِجِ

الزهد والورع

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. أسألك بلا إله إلا أنت رب السماوات السبع ورب العرش الكريم. وأسألك بلا إله إلا أنت رب السماوات السبع ورب الأرضين السبع وما فيهن إنك على كل شيء قدير.

جاع ذئب الحرص على المال فافترس ذمة المؤمن ونشر الفقر في حظيرة الآمنين المستضعفين. وجاع ذئب حب الرئاسة فتظالم الناسُ وتحاكموا إلى الطاغوت. الظلم كفر والبؤس كاد أن يكون كفرا. واجتماعهما التاريخي وتحالفهما في مُرَكَّب الاستكبار الطبقي ظلمات بعضها فوق بعض. ولا يكون الزهد في مفهومه الفردي السلبي الكفِّي القناعي الأخلاقي كفُؤاً لقتال الاستكبار وجلاء ظلماته.

زهد المؤمن الذي يكف يده عن الحرام والشبهات ويتقلل من المباحات، وورع المؤمن الذي يغُضّ طرفه عن المحارم ويحتاط لدينه في دقائق الأمور أخلاقُ المؤمن الضعيف إن بقي هذا الزاهد الورِع بمعزل عما تفعله الذئاب الجائعة وتتآمر فيه وتتعاون عليه.

ويكون زهد الزاهد وورع الورع الذي يكبَح نفسه ويملكها ويُصعِّد نزواتها إيمانا قويا وقاعدة صلبة للجهاد إن تَمَتَّنَتْ روابطُ القوة الزهدية في أخلاقية جماعية حتى صارت معروفا يغير منكرا، ودعوة تُسند دولة، ودولة تقوِّض دعائم الباطل وتحق حق العدل والإحسان.

ومن قواعد امتلاك النفس وقهر الغرائز والعزوف القلبي عن الدنيا ينطلق طالب الحق وسط جند الله وحزبه من الجهاد الإيجابي لامتلاك وسائل الدنيا، ووسائل

القوة في الدنيا، ووسائل الكفاية في الدنيا، والعزة، والمَنَعة، والثروة، والسلاح، والاقتصاد المزدهر، والتكنولوجيا الصناعية، والزراعة المغذية، والسبق في المنافسة لدى الأسواق العالمية.

لم يكن زهد الصحابة عمادُ الدعوة النبوية والخلافة الأولى زهدَ دروشة وهروب. كان زُهدُهم عملا فعالا، كان جهادا متواصلا يبذلون النفس والنفيس في سبيل الله. عاشوا زهدهم يوم أسلموا لله عز وجل مع رسول الله ﷺ وصبروا معه لأذى قريش الشديد. عاشوه يوم هاجروا معه مخلفين وراءهم الأهل والولد والدار والمال، مخلفين العشيرة، وكانت العشيرةُ في المجتمع الجاهلي هي الأمن وهي الشرف وهي الحسب وهي ضمان الحياة. زهدوا في الدنيا كلها وهاجروا إلى الله ورسوله، مع الله ورسوله، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾.[1] عاشه الأنصار يوم آووا إخوانهم ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.[2] عاشوا زهدهم في الحياة الدنيا في بدر وأحد وفتح مكة وغزوة العسرة وسائر المشاهد الشريفة. عاشوه من بعد موت رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين قاتلوا أهل الردة على الزكاة وهي الحد الأدنى الواجب من البذل. عاشوه في خلافة عمر رضي الله عنه في القادسية واليرموك وسائر المواقف العفيفة المنيفة.

زهاد في الدنيا جميعا، بالجملة والتفصيل، مجاهدون وقّافون عند أمر الله تعالى ونهيه ووعده ونصيحته إذ يقول: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾.[3] وإذ يقول: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.[4] وإذ يضرب الأمثال الكثيرة للدنيا وزوالها، ويصف الآخرة ونعيمها، وينادي عباده للتقرب إليه وإيثاره وإيثار رسوله على أنفسهم. وإن أخلاقية القرآن التي رُبوا عليها كلُّها تزهيد في الدنيا وتحبيب لما عند الله ثم تحبيب لله ولحب الله ولقرب الله ولذكر الله. ولَذكر الله أكبر.

(1) التوبة، 40.

(2) الحشر، 9.

(3) النحل، 96.

(4) الأعلى، 16 – 17.

وأستغفر الله، ما عندي من الاستهانة بزهاد الأمة الذين جاءوا من بعد عهد الخلافة الأولى شيء، وما وصفت زهد القاعدين عن الجهاد بأنه إيمان ضعيف إلا مقارنة بالنموذج الكامل النبوي الصحابي الذي ينبغي أن يكون نُصب أعيننا، قريبا منا، لا تحجبنا عنه زهادة الهاربين بدينهم المتخفّين به. نريده لمستقبل الخلافة الثانية إن شاء الله زهداً ساكناً في الأعماق لا شقشقة طافحة على الأوراق تمجد «الدراسة الواعية للكون الكبير».

وما كان زهاد المسلمين الصادقون والصوفية الكرام أصحاب كلام وخصام. خاصموا الدنيا وعزفت نفوسهم عنها، أمسكَ الزهادَ شوقُهم إلى ما عند الله، وأمسكَ الصوفيةَ السالكين شوقُهم إلى الله عن التهافت على الدنيا، وضبَطَهم ذكرُ الله وصحبةُ أهل الله عن التهالك فيها، وأرسى قواعدَهم رسوخُ الإيمان بالغيب عن التطاوح في حَمأة الصراع الذئبي على المال والحسب. كانوا ورعين زاهدين، ازدهرت مواجيدهم الزهدية الورعية في باقات من طيِّب الكلام ومُخْلَصه وصائبه، ما أحرانا أن نتأمله تفصيلا لنتجاوزه من بعدُ جُملة مرتفعين إلى القمة النبوية القرآنية الصحابية.

وما يعقلها إلا العالمون، وما يستهين بمقامات الرجال إلا القلوب المتمزِّجة والنيات المتعوِّجة. وما يستطيع اللحاق بالرعيل الأول إلا من كان له بصحبة العارفين بالله شمل ملموم، وعن غير ذكر الله فمٌ مكْموم، وقلب مهموم، وهوىً في غير الله ورسوله مهزوم.

قال الإمام الجنيد: سمعت سريّاً يقول: «إن الله عز وجل سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب أهل وداده، لأنه لم يرضها لهم».

وقال الجنيد رضي الله عنه: «الزهد خلوُّ القلب عما ليس في اليد». وقال عبد الله بن المبارك المحدث المجاهد مؤلف كتاب «الزهد»: «الزهد هو الثقة بالله مع حب الفقر». ولنفهم كلمة شيخ مشايخ الحديث عبد الله بن المبارك هذه ينبغي أن نعلم أنه رضي الله عنه كان يتجر ويجمع المال الغزير، فيحج عاما ويحج معه طائفة من الفقراء على نفقته، ويغزو عاما.

سأل رُويم الصوفي شيخه الجنيد رحمهما الله عن الزهد فقال: «الزهد استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب».

وعن الورع قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «يا أبا هريرة! كن ورعـًا تكن أعبد الناس. وكن قَنِعـًا تكن أشكر الناس. وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا. وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما. وأقِلَّ الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب». رواه ابن ماجة عن أبي هريرة بإسناد حسن.

قال الأستاذ القشيري رحمه الله: «الورع ترك الشبهات». وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: «الورع على وجهين: ورع الظاهر وهو أن لا تتحرك إلا لله تعالى، وورع الباطن وهو أن لا يدخل قلبك سواه تعالى». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «جُلساء الله تعالى غداً أهل الورع والزهد».

كان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أزهد الناس. قال: «الزهد ثلاثة أوجه: الأول ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين».

كان إمام المحدثين أحمد بن حنبل رضي الله عنه مثالا حيا لزهد العارفين، انطوى في زهده العالي زهد العوام والخواص، واشتهر بالزهد حتى أصبح يُقصَد للفتوى في السلوك الزهدي العرفاني كما يقصد للفتوى في الفقه والحديث. سُئل مرة عن مسألة في الورع فقال: «أستغفر الله! لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد. لو كان بِشر صلح أن يجيبك عنه، فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد. مثل بِشر يصلح أن يتكلم في الورع».

رحم الله أحمد! زاد على العلم والتقوى والزهد والورع التواضع الجم. كان بشر الحافي رحمه الله صوفيا زاهدا يقول: «ما من أحد خالط لحمَه ودمَه ومُشاشَه (أي مخ عظامه) حبُّ رسول الله ﷺ فيرى النار». كان حب بشر لله ورسوله هذا الحب العميق المحيط الحاكم صارِفَه عن الالتفات إلى الدنيا، وازِعه عن الشبهات. وكان سواد العراق، وهو أرضها الفلاحية، لم يقسمها عمر أمير المؤمنين كما يقسم الفيء، فَبَقِيَتْ ملكا عاما للمسلمين يتورع أمثال بشر عن أكل طعامه لشبهة الحقوق العامة التي اغتالها الملوك الأمويون ثم العباسيون.

جاءت أخت بشر الورعة إلى الإمام أحمد تستفتيه، قالت: إنا نغزل على سطوح بيوتنا، فتمر بنا مشاعل الظاهرية، ويقع الشعاع علينا. أفيجوز لنا الغزل في شعاعها. فقال أحمد: من أنت عافاك الله تعالى؟ فقالت: أخت بشر. فبكى أحمد وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق، لا تغزلي في شعاعها. رحمهم الله، كان شعاع الظلمة المغتصبين الساطين أذىً يتجنبونه بعد أن عزَّ وجود حكامٍ مثل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي كان يُطفئ شمعة الإمارة حين يكلمه ًالوارد عليه في شأن خاص، وقبض على مشامِه لما جاءه مسك من الغنائم مخافة أن ينتفع بريحه من دون المسلمين.

قال الإمام الشيخ عبد القادر رحمه الله ورضي عنه: «يا غلام هذا الزهد ليس هو صنعة تتعلمها. ليس هو شيئا تأخذه بيدك وترميه. بل هو خَطَوات أولها النظر في وجه الدنيا، فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل وعند الأولياء والأبدال الذين لم يَخْلُ منهم زمان. إنما تصح رؤيتك لها باتباع من تقدم في الأقوال والأفعال. إذا تبعتهم رأيت ما رأوا. وإذا كنت على أثر القوم قولا وفعلا، خلوة وجَلوَة، علما وعملا، صورة ومعنى، تصوم كصيامهم، وتصلي كصلاتهم، وتأخذ كأخذهم، وتترك كتركهم، فحينئذ يعطيك الله نوراً ترى به نفسك وغيرك، يبيِّن لك عيوبك وعيوب الخلق، فتزهد في نَفْسِك وفي الخلق أجمع. فإذا صح لك ذلك جاءت أنوار القرب إلى قلبك، صِرْتَ مؤمنا موقنا عارفا عالما. فترى الأشياء على صوَرها ومعانيها. ترى الدنيا كما رآها من تقدم من الزاهدين المعرضين. تراها في صورة عجوز شوهاءَ قبيحة المنظر. فهي عند هؤلاء القوم على هذه الصفة، وعند الملوك كالعروس المَجْلِيَّة في أحسن صورة. هي عند القوم حقيرة ذليلة، يُحرقون شعرها ويَخرقون ثيابها، ويخمِشون وجهها ويأخذون أقسامهم في صحبة الآخرة. يا غلام! إذا صح لك الزهد في الدنيا فازهد في اختيارك وفي الخلقِ».[1]

وقال زاهد في الدنيا، ثاوٍ فيها ببَدنه، راحل عنها بقلبه:

أيها المعجب فَخْرا بمقاصير البيوت
إنما الدنيا محل لقيام وقنوت

(1) الفتح الرباني، ص 136.

وغــدا تــنــزل لــحــداً ضيقــا بعــد التخــوت
بيــن أقــوام ســكــوت نــاطقــات فــي الصمــوت
فــارْض فــي الدنيــا بثــوب ومــن العيــش بقــوت
واتخــذ بيتــا ضعيفــا مثــل بيــتِ العنكبــوتِ
ثــم قــل: يــا نفــس هــذا بيــت مثــواكِ فموتــي

وقال بشر الحافي رحمه الله إمام الورعين:

قَطْع الليالي مع الأيام في خَلَق والنوم تحت رُواق الهم والقَلَق
أحرى وأجدَرُ بي من أن يُقال غدا إني التمست الغِنى من كف مُختلِق
قالوا: رضيت بذا؟ قلت القنوع غنىً ليس الغنى كثرة الأموال والوَرِقِ
رضيت بالله في عُسري وفي يُسُري فلست أسلك إلا واضح الطرق

وقال رفيع الهمة، عاف الدنيا واستقذرها واستبشعها وخرق ثوبها وخمش وجهها:

إذا لــم أتــرك المــاء اتقــاء تركــت لكثــرة الشــركاء فيــه
إذا وقــع الذبــاب علــى طعــام رفعــت يــدي ونفســي تشــتهيه
وتجتنــبُ الأســودُ وُرودَ مــاء إذا كان الــكلاب وَلَغْــنَ فيــه

وقلت:

عِــشْ للأغانــــي والغَــزلْ عَبْــداً لِلَهــوكَ لَــمْ تــزلْ
عَيــشٌ خفيــضٌ نــاعــمٌ ومنــوَّعــات للــمَــلَــلْ
مــا أنــتَ مــن صِنــف الــر جــالِ تمــوتُ في ظــلِّ الأسَــلْ

التوكل

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾. لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب السماوات السبع ورب العرش العظيم. والحمد لله رب العالمين. إني أعوذ بك من شر عبادك.

يفتح معتزلة هذا الزمان وعقلانيوهم واشتراكيوهم محاكمة الغزالي لما جناه، في زعمهم، على العقل العربي الإسلامي لمّا دعا إلى التوكل وزرع بدعوته بذور الخمول الفكري والانحطاط. نرى أولا ما قال الغزالي عن التوكل بإيجاز ثم نرجع إلى الموضوع إن شاء الله.

تكلم الإمام الكبير أولا في فصل طويل في «الإحياء» عن التوكل من حيث كون التوحيد أصلا للتوكل. وتكلم عن توحيد النفاق وهو توحيد من يشهدون باللسان شهادة الحق وقلوبهم مطوية على ما يعلمه الله، وعن توحيد العامة من المسلمين، وعن توحيد الخاصة من المؤمنين، وعن توحيد خاصة الخاصة أهل الكشف والشهود الذين ينكشف لقلوبهم أن لا فاعل إلا الله فلا ينظرون إلى غير الله بل يكون خوفهم من الله، ورجاؤهم إليه، وثقتهم به، واتكالهم عليه. «فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرُون لا استقلال لهم».[1]

وتكلم بعد ذلك عن حال التوكل ودرجاته. فذكر أن الدرجة الأولى للمتوكل هي «أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل». والدرجة الثانية «أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه لا يعرف غيرها

(1) الإحياء، ج 4، ص: 213.

ولا يفزع إلى أحد سواها». والدرجة الثالثة «أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت ين يدي غاسله (...) يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية».[1]

قال القضاة المتَّهِمون: إن جناية الغزالي على العقل العربي الإسلامي جناية قاتلة لأنه شرع نبذ الأسباب ورفْض العمل وانتظار الرزق أن يجيء من السماء. وفي تيار هذه العقلانية القدَرِية المتمسحة بالفكر الاعتزالي، المجددة له، ينجرف بعض الكتاب الإسلاميين والمحسوبين على الإسلام ليسجلوا في سجل المحاكمة شهادتهم المتهِمة للغزالي والصوفية بأنهم جبرية يعطلون الأسباب، وبأن طوائف منهم كانوا يعيشون على الاسترزاق من صدقات الناس، وأنهم كانوا طفيليات في المجتمع، وبقي فكرهم كالحشرة الضارة في عقل الأمة.

لا أنفي أنه كان من «صوفية الأرزاق» أقوام دفعتهم الفاقة والحاجة إلى سكنى الخانقاهات والزوايا أكثر مما دفعهم حب الله. ولا حديث لي مع القدرية الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون لأصف لهم مقامات أهل التوكل من الصادقين الذين يتعاملون مع الله عز وجل باعتمادهم على التوكل والدعاء في جلب الرزق أكثر من اعتمادهم على أسباب الكسب المشروعة حتى إن بعضهم يقتحم الصحاري بلا زاد ولا ماء فيعامله ربه اللطيف الخبير بأن يخرق له العادة ويرزقه، وهو الرزاق لا غيره، من الغيب.

حديثي مع طالبي الإحسان والعدل لأحدثهم أن الله عز وجل يرزق من يشاء بأسباب ظاهرة وبغير أسباب. ومن عطل الأسباب الموضوعة في الكون فهو ناقص مغرور أو أشعث أغبر معذور. من آكد الأسباب وأجداها وأنفعها الدعاء والتوكل مقرونَيْن بالجُهد البشري المنظم المتتلمذ لنظام الكون، المستفيد من التجربة والخبرة واحترام نواميس الله الكونية كلها. التوكل والدعاء سببان قلبيان يُضافان إلى الأسباب العقلية الجوارحية الحركية فيعطيان لعملية الكسب البشري في حياة المؤمن وحياة الأمة بُعدها الإيماني الإحساني.

(1) الإحياء، ج 4، ص: 225.

قال الإمام سهل بن عبد الله، وهو عالم الصوفية: «ليس مع الإيمان أسباب، إنما الأسباب في الإسلام». يعني رحمه الله أن الإسلام، وهو ظاهر الدين، يقابل الأسباب الظاهرة، بينما يقابل الإيمان، وهو باطن الدين، التوكل وهو عمل القلب.

وقال أبو طالب المكي رحمه الله: «اعلم أن الله عز وجل ذو قدرة وحكمة، فأظهر أشياء عن وصف القُدرة، وأجْرى أشياء عن معاني الحكمة. فلا يُسقِط المتوكل ما أثبت من حكمته لأجل ما شهد هو من قدرته».[1]

التوكل على الله دينٌ من أعلى مقامات الدين، فإن أسقط بعض المنتسبين للتصوف الحكمة لما شهدوا في كشفهم عجائب القدرة، واستقلال القدرة الإلهية عن الأسباب، فقد هربوا من شرك الأسباب نُفورا ليستقروا في رُخصة المعذورين، وليسوا حجة ولا قدوة. القدوة رسول الله ﷺ الذي قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا». رواه الترمذي والحاكم رحمهما الله وصححاه من حديث عمر رضي الله عنه.

هو ﷺ كان سيد المتوكلين، وضرب مثلا برزق الطير. الطير تغدو وتروح، لولا غدوها ونشاطها في البحث والسعي والحركة حتى الرواح ما رُزقت. سعيها الدائب مثالٌ ضربه ﷺ، وضرب مثلا باحترامه هو للأسباب، تأتي المعجزة في لحظات استثنائية لتؤكد القاعدة لا لتبطلَها. كان ﷺ مع الحكمة الإلهية قولا وعملا وإقرارا ووصية وضرب مثل. ما كان في سلوكه الشريف رائحةُ دروشة ولا جبريةٌ قاعدةٌ.

من قمة الجهاد النبوي الصحابي الخلافي (نسبة إلى الخلافة لا إلى الخلاف) نزلت الأمة إلى الحضيض. وفي زماننا حركة، موفقة إن شاء الله، رجاءً ودعاءً وتوكلا، للصعود من حضيض الغثائية إلى الخلافة الثانية. لا نريد أن يكون إيمانُنا وإسلامنا الْتِقَاطِيّاً نَتَنَاوَلُه، بنقد أو بغير نقد، من يد الأشتات والشتات الذي آل إليه عقل المسلمين وقلبهم وكيانهم الاجتماعي والسياسي بعد أن انقسموا ثلاثا وسبعين فرقة.

(1) قوت القلوب، ج 2، ص: 19.

ليس الذنبُ ذنبَ العقل، ولا ذنب للغزالي الذي دافع عن العقيدة التوحيدية في وجه طوفان الفلسفة الإلحادية والزيغ القدري الذي وقف ضده من قبلُ إمام الحديث أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

الآفة الكلية، عقدة العقد وبؤرة الفساد والإفساد، هي طغيان السلطان وحاشية السلطان على القرآن وعلى أهل القرآن. انفرط عقد الأمة كما أخبر من قبل الصادق الأمين ﷺ حين قال: «لتُنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها. فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة». رواه الإمام أحمد والطبراني عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه. وحصدت سيوف بني أمية الباغِيَةُ خيرة الصحابة حين قتلوا الحسين رضي الله عنه سيد شباب أهل الجنة، وقتلوا علماء المدينة، وسفكوا دماء القائمين من أهل البيت، وسبوا الإمام عليا ستين سنة من على منابر المسلمين المقهورة. أخبر بذلك رسول الله ﷺ قبل وقوعه حين قال لعبد الله بن عمرو: «كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس مَرِجَتْ عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا» وشبك بين أصابعه الشريفة. قال عبد الله: فبمَ تأمرني؟ قال: «عليك بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك، وإياك وعوامَّهم». رواه الترمذي وصححه وأبو داود عن عبد الله بن عمرو.

قال القاضي عياض: «حثالة كل شيء رُذالته».

حكم المسلمين أرذال الناس، وتولتهم بعد السيوف العربية الأموية السيوف الخراسانية الفارسية العباسية، ثم السيوف الديلمية والتركية السلجوقية، ثم السيوف المملوكية وهلم جرا.

في ظل السيف ظهرت الفرق البدعية، وهي بدع جزئية ولدت ونشأت وترعرعت وازدهرت في رعاية البدعة الكبرى، بدعة فساد الحكم، وتشبث علماء المسلمين، ومنهم الغزالي رحمه الله، بما بقي من عُرى الإسلام، كلٌّ يدافع عن حوزة من حوزات الإسلام وعن حرمة من حرمه.

خيَّم مُناخ استبدادي على الأمة ولا يزال يخيم، وتداخل العقل المسلم بعضه في بعض وتقلص كما تداخل كيان المسلمين المعنوي بعضه في بعض رغم الانتشار السطحي الجغرافي للدولة – الشوكة الإسلامية.

حُثالة أمس واليوم، على وزن فُعالة بضم الفاء، والأمة العددية غثاء كغثاء السيل، فُعال بالصيغة المرضية، والمرض مرض قلبي عقلي سياسي اقتصادي كلي. لا بُرءَ له يُرجى إلا بالصعود الإيماني الإحساني إلى جنب القرآن بِتَمَثّل النموذج النبوي وطرحِ النماذج الهابطة لنجد العافيةَ من الحثالية والغثائية معا.

لا يزال بعض الإسلاميين، كثير منهم بكل أسف، يُشيدون بالنموذج العباسي الأموي. وذاك ارتكاس فكري يماثل في عصرنا ارتكاس مفهوم التوكل في تواكلية عاجزة بليدة.

اصطنع المعتصم العباسي، جلادُ الإمام أحمد، جيشا من الترك، حُثالة من العساكر المرتزقة ليتحرر استبداده من دالَّة الفرس المؤسسين لدولة آبائه ونفوذهم. ما لبث العساكر من بعده أن قتلوا خمسة «خلفاء» في خمس سنوات، كان آخرهم موتا المهتدي الذي حاول التخلص من الوُصفان الترك الذين كانوا يلعبون بالدولة الإسلامية، يقتلون ويسجنون ويشرِّدون ويأمرون وينهون. قال الشاعر يصف «الخلفاء» اللُّعَب الدُّمى:

خليفة في قفص ... بين وصيف وبُغا
يقول ما قالا له ... كما تقول البَبَّغا

وقال البحتري:

لله در عصابة تركية ... ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد ... وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطغوا فأصبح ملكنا متقسما ... وإمامنا فيه شبيه الضيف

جمع المهتدي بني هاشم وحدثهم بأنه ينوي قتل القائدين «وصيف» و«بغا» ليفعل كما فعل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ويحمل الناس على سيرة الرسول وأهل بيته والخلفاء الراشدين. قالوا له وهم أدرى بالحال: «إن الرسول كان مع قوم زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، كأبي بكر وعمر وعثمان (لاحظ أن عليا لم يذكر للمنافسة بين العلوية والعباسية)، وأنت إنما رجالك ما بين تركي وخزري وفرغاني ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم. لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم. وإنما غرضُهم ما استعجلوه من هذه الدنيا. فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة؟».[1]

حتى الطبقة الحاكمة العباسية كانت تعرف ما هي المؤهلات التي يجب أن تتوفر فيمن يريد حمل الناس على الواضحة. زهد الصحابة رضي الله عنهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة وحبهم لله وتوكلهم عليه هي المزايا الكلية المفقودة لا الكفاءة العقلية وحدها التي يُتهم الغزالي بتضييعها.

غرَّد السيفُ على رقاب المسلمين بعد ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ مصداقا لقوله: «الخلافة ثلاثون سنة ثم تكون ملكا». رواه أبو داود والترمذي وابن حبان والإمام أحمد وغيرهم بسند صحيح عن سفينة مولى رسول الله ﷺ. واضطرب تحت السيف ما في الصدور من نيات، وما في الرؤوس من أدمغة، وما في الأرض من أرزاق. واحتمى علماء الملّة، من محدثين وفقهاء وصوفية، في مواقف دفاعية، تخلّوا عن بعض المواقع ليتشبثوا بخنادقهم وسط الفتنة العارمة القاتلة التي عبر عن دائها الوبيل الملك بن الملك عبد الملك بن مروان حين خطب في المدينة سنة خمس وسبعين فقال: «إني لن أداوي أمراض هذه الأمة بغير السيف (...) والله لا يأمرني أحد بعد مَقامي هذا بتقوى الله إلا ضربت عنقه». حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال من لم تلهه الدنيا عن أجله:

إن يكن مني دَنا أجلي آه يا ذلي ويا خجلي
مُتُّ من ذل على قدمي مُطرقا بالرأس من زَللي

(1) المسعودي في مروج الذهب، ج 2، ص: 464.

لو بذلت الروح مجتهدا ونفيت النوم عن مُقَلي
كُنت بالتقصير معترفا خائفا من خيبة الأمل
إن يكن للعبد سابقة سبقت في الأعصر الأُوَلِ
لم يكن في النادمين غدا نافعي علمي ولا عملي

وقال ذاكر لربه بين غافلين:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

وقال ذاكر لله يريدون تغفيله لينتقل إليهم:

يُراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وقلت:

إنْ تَرُمْ يومـاً لِمكرُمَة تَرفَع الرَّأسَ بِلا وَجَلِ
فَاطَّرِحْ أعذارَ طائفة تَخِذُوا عِلماً بِلاَ عَمَلِ
وابْذُلِ الرُّوحَ بمُعتَرَكٍ دَاخِلَ الصَّفِّ ولا تَمِلِ

الشّكر والبَذل

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. الله أكبر الله أكبر، الله أعز من خلقه جميعا، الله أعز مما أخاف وأحذر. أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو الممسك السماوات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه. اللهم كن لي جارا من شرهم، جل ثناؤك وعز جارك وتبارك اسمك ولا إله غيرك.

ينتظر العالم الآن، والنموذج الغربي الجاهلي يفقد من غلوائه تنخُرُه أمراض الجاهلية، بروزَ مجتمع أخوي رفيق بالإنسان، صديق للإنسان، يرقى بالإنسان من وعيه المقطوع عن الله وعن اليوم الآخر إلى كرامته الآدمية. المجتمعات البشرية المتقدمة صناعة وحضارة القائمة اليوم مرتبطة برباط القانون الجاف، الضامن بمسطرته ومؤسساته، المرنة في الديمقراطيات الشديدة في الاستبداديات، استقرار التعايش على الحد الأدنى من تحمل الناس بعضهم بعضا. لم يبق إلا في المجتمعات البدائية والمتخلفة حضاريا بقايا من المحبة والعطف والرحمة. ونثراتٌ هنا وهناك في المجتمعات المصنعة من البذل والعطاء تتمثل في جمعيات الإحسان.

ما بعث الله الرسل لإصلاح دنيا الناس وانتهى الأمر، لكن بعَثَهم لدعوة الخلق إلى مأدبة الآخرة. وما أمر به الله على لسان رسله من إصلاح دنيا المجتمعات البشرية فالقصدُ منه إصلاح آخرة كل فرد فرد من المؤمنين والمؤمنات ساهم بإخلاص وصدق وعطاء وإحسان في إكرام خلق الله، وإطعام خلق الله، وإيثار خلق الله بذات اليد وذات النفس.

نُذَكِّرُ بهذا لكي لا نتيه مع إسلام البديل الحضاري الذي يعرف نفسه منقذا أرضيا للبشرية من مخالب الحضارة المادية، وكأنك حين تقرأ في كتب كثير من الإسلاميين

المنغمسين في معركة المواجهة تقرأ عن مذهب أرضي لا صلة له بالله إلا صلة قانونية مبدأها وغايتها «الحاكمية»، ولا صلة لها بالآخرة، ولا فرق فيه بين المسلمين وغيرهم إلا أن المسلمين يقرأون القرآن ويطيعون الله في حدود «تَدَيُّن» لا يُدرى له قَبْلٌ ولا بعدٌ.

يأتي المجتمع الأخوي الذي تنْشُدُه البشرية ويملك الإسلام سر إقامته، وقواعد بنائه، ومخطط نشره، ونصائح المحافظة عليه هديةً إلهية ثانوية تتفرع عن الهدية العظمى هدية الهداية والسعادة الأبدية في الدار الآخرة. تتفرع عنها وتكملها، بل تكون فضيلةُ المحسن إلى خلق الله في الدنيا قربة سعادية عظيمة في الأخرى.

يُفرَض في المجتمعات البشرية القانونية احترامُ الغير، وبذلُ الجهد في صالح المجموع، وأداء الضرائب، ومراعاة حرية الآخرين، فرضا إجباريا من خارج، بسلطان الإرادة الجماعية المتجسدة في صيغ قانونية. على الأساس القانوني والعلاقات القانونية تُشيَّدُ أركان المجتمع.

في المجتمع الإسلامي تكون القاعدة هي الرحمة والمحبة والأخوة والعطاء احتسابا لوجه الله، وتقديما مرجوَّ الفائدة، مضمونَها إن كان إخلاص وصدق، ليوم فِيه ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً**﴾.[1] ثم تأتي في المرتبة الثانية فرائضُ الشرع وضوابطه وحدوده لتنظم الفَيضَ الأخوي، وليزع وازع سلطان الشرع من سلوك الذين لم يوقوا شح أنفسهم ما لم يَزَعْهُ القرآن. هذه القلوب الإنسانية عليها أقفالها، لا تفتح تلك الأقفال إلا بالإسلام ومجالسة الإخوان وتعلم الإيمان وتدبر القرآن وصحبة الله ورسوله والمؤمنين العارجة إلى مقامات الإحسان. من انفَتحت له بهداية التوبة نافذة الإسلام انحلت عقدة من عقد قلبه، ثم يُفتح له باب الإيمان فيُشرف على طمأنينة الذكر والصدق فينحل قفل الحرص على المال والرئاسة، ويَشغلُه حب الله ورسوله والشوق إلى لقائه عن توافه الدنيا وشهواتها فيزهد ويتوكل ويبذل. ثم يُفتح له أُفُق الإحسان فيطلق الدنيا جميعا، يُفْرغُها من قلبه، فلا يفرح بعدها إلا بالله، ولا يعمل إلا لله، شكرا لله،

(1) آل عمران، 30.

وتقربا إلى الله، ويقينا أن مردَّنا إلى الله. شغلته بهجة الإحداق فيما كُشف له من عالم الملكوت عن زينة الحياة الدنيا، وهبت عليه أرواح الأشواق إلى الملك الوهاب فانفتح القفل الأخير، قفل شح النفس، فانبسطت يده بالعطاء وكان من المفلحين، نافذ التدبير، مُصيب التقدير، موفّقـاً مرزوقا.

ليس الكرم الأصيل، كرم ذوي المروءات، كالتكرم. وليس البذل المنبعث عن الإيمان والإحسان كعطاء الشحيح النفس الحديث النعمة. ترقى المؤمن المحسن في خدمة مولاه فحرَّرَهُ سيدهُ من رقِّ الدنيا ووعده هوادج الكرامة فهو لا يستميله الغنى والجاه. علم أن المنعم سبحانه رزاق في الدنيا والآخرة، وعلم أن الدنيا لا تساوي عند الكريم العلي الحكيم سبحانه جناح بعوضة، فهو لا يقيم لها وزنا إلا من حيث كون العمل فيها، والكسب، والبذل، والزكاة، والصدقة، والجهد والجهاد، والعبادة جَميعا واسطةٌ لنيل خير الآخرة ودرجات الوجوه الناضرة الناظرة.

في المجتمع الأخوي الإسلامي يتعايش المؤمنون المحسنون والمسلمون والناس أجمعون في ظل دين يقرر ويعلم ويربي على أن لا خير إلا خير الآخرة، وأن السعادة ليست الاستهلاكَ غَيْرَ المحدود، ونهب اللذات من حلٍّ وحرام، واقتناص الوسائل من عيون شبكة القانون لإرضاء الشهوات. يعلم ديننا ويلقن ويربي على أن النعمة الإلهية التي اختص الله الحليم الكريم بها من آمن به وصدق رسله وعمل في رحلة الدنيا الوجيزة صالحـاً نعمة جُلَّى هي نعمة الخلود في دار المقامة في رضى الله والنظر إلى الله. هذه النعمة العظمى تهونُ بالقياس إليها كلُّ قيم الأرض، ويتبارى أهل الإيمان والإحسان، ويتبعهم الناس طوعا بوازع القرآن أو كرها بوازع السلطان، في بذل ذات اليد شكرا لله، وتلك المرتبة العليا، أو تجارة مع الله الذي يجزي الحسنة عشر أمثالها، وهذا يقبله الله حلما وكرما ومنا. ويضاعف سبحانه لمن يشاء. أيُّ كرم أجل من كرمه تبارك اسمه، النعم منه إليه، خلقك وأعطاك ورزقك ثم استقرضك واشترى منك! ماذا عندك من كِفاءٍ لفضله إلا أن تصرف العمر شكرا! ومتى تقضي شكر نعمة الخلق ونعمة الهداية، ونعمة الإسلام، ونعمة الإيمان، ونعمة الإحسان، وسائر النعم التفصيلية!

المؤمنون المحسنون الشاكرون قليل من العباد. والعاملون الباذلون شكرا قليل. قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1]. ذلك أن صفوة الخلق وحدهم تتصف صلتهم بالله عز وجل بالشفافية الإحسانية فلا تَشوب معاملتَهم معه شوائبُ الشرك بالأسباب، ولا تكدرها رغائب حب الدنيا، ولا تحجبها ظلمات التوكل على غيره، واعتبار أي خير سوى خيره. وقد قال شيخ الإسلام أبو اسماعيل الهروي رحمه الله: «اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم أن التصوف هو الخُلُق. وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحِدٍ: هو بذل المعروف وكف الأذى».

قال الله عز وجل فيما رواه عنه رسوله سيدنا محمد ﷺ: «يا ابن آدم! أَنفقْ أُنفِقْ عليك!». الحديث رواه الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا الخطاب العُلْوِيُّ موجه للصفوة من العباد الأحرار من رق الأرض والأكوان عباد الرحمن. أما غيرهم من أهل الإسلام والإيمان فيُدعون إلى البذل من باب الوعد والوعيد. قال أبو ذر: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «هم الأخسرون وربِّ الكعبة!» قال فجئت حتى جلست، فلم أتَقارَّ أن قمت فقُلت: يا رسول الله! فداك أبي وأمي من هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا. من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله. وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها، وتطَؤُه بأظلافها. كلما نفِدَت أخراها عادت عليه أولاها حتى يُقضى بين الناس». رواه الشيخان عن أبي ذر رضي الله عنه.

وقد أمر رسول الله ﷺ أن نشكر من أحسن إلينا من الناس أدَباً وتأليفا للقلوب وتشجيعا لمن يحب المحمدة أن يسمعها، وعبادةً وتذكيراً بالمنعم الحقيقي سبحانه. قال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح.

ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما عند الناس وعن سؤال الناس، وأمر بالتكسب الشريف كيلا يكون ثمن الكفالة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الأخوي، مجتمع

(1) سبأ، 13.

العدل والإحسان، إِراقة ماء الوجه وذلَّ المسألة وهوانَ التطفل. قال ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حُزمةً على ظهره خير له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه». رواه الشيخان رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الإمام ابن عطاء الله رحمه الله في حكمه: «ما بَسَقت أغصان ذل إلا على بذر طمع». الطمع في الله كالشكر لله هو المحمود. قال راجي الله:

حرام على من وحد الله ربَّه وأفرده أن يَجْتَدي أحداً رِفْدا
ويا صاحبي قف بي مع الحق وقفة أموت بها وجدا وأحيى بها وَجْدا
وقل لملوك الأرض تَجْهَدُ جهدها فذا الملك ملك لا يُباع ولا يُهدى

هذا الطامع في ربه، الذي تخطت آماله البلاد والعباد ليحُط الرحال على باب الملك الكريم الجواد سبحانه، منحه الملك الوهاب مُلكًا لا مطمع فيه لملوك الأرض وكبراء الدنيا ولو جهدوا، مُلكًا ما هو من الدنيا، وما الآخرة إلا قاعدته الحسية، ملكًا هو القرب من الله، هو مقعد الصدق عند الله، هو النظر إلى الله، لا إله إلا الله.

قال الإمام الشيخ عبد القادر رفعه الله في مقعد الصدق: «يا غلام! خطوتان وقد وصلت! خطوة عن الدنيا وخطوة عن الآخرة. خطوة عن نفسك، وخطوة عن الخلق. اترك هذا الظاهر، وقد وصلت إلى الباطن. بداية ثم نهاية. ابتدئ أنت والتمام على الله عز وجل. منك البداية ومن الله عز وجل النهاية. خذ المِرَّ والزنبيل (أي الحبل والقفة كما يعمل العامل بالفأس في انتظار من يشغِّله) واقعد على باب العمل، حتى إذا طُلِبْتَ تكون قريبا من المستعمل. لا تقعد على فراشك وتحت لِحافك ومن وراء أغلاق، ثم تطلب العمل والاستعمال. أدْنِ قلبك من الذكر، وذكِّره يوم النشور، تفكر في القبور الدوارس، تفكر كيف يحشُر الحق عز وجل جميع الخلق ويقيمهم بين يديه. إذا دمت على هذا التفكر زالت قساوة قلبك، وصفا من كدره. إذا كان البناء على أساس ثبت ورسخ، وإذا لم يكن على أساس تعجَّل وقوعه. إذا بنيت حالك على أحكام الحكم الظاهر لا يقدر أحد من الخلق على نقضه. وإذا لم تبنه على ذلك

لا يثبت لك حال، ولا تصل إلى مقام. ولا تزال قلوب الصديقين تمقتك وتتمنّى أن لا تراك.

«ويحك يا جاهل! الدين لعب هو! تنميس هو! لا ولا كرامة لقَفاك يا مُتَنَمِّس! (...) يا جهال! خالطوا العلماء واخدموهم وتعلموا منهم. العلم يؤخذ من أفواه الرجال. جالسوا العلماء بحسن الأدب وترك الاعتراض عليهم، وطلب الفائدة منهم، لينالكم من علومهم، وتعود عليكم بركاتُهم، وتشملكم فوائدهم. جالسوا العارفين بالصمت، وجالسوا الزاهدين بالرغبة فيهم. العارف هو في كل ساعة أقرب إلى الله عز وجل مما كان في الساعة التي قبلها. في كل ساعة يتجدد خشوعه لربه عز وجل وذله له. يخشع من حاضر لا من غائب. زيادة خشوعه على قدر زيادة قربه من ربه عز وجل. زيادة خرَسِه على قدر زيادة مشاهدته».[1]

قال شاكر لربه، يُعدِّد آلاءه عليه ويرجو المزيد:

وكم رُمت أمراً خِرْتَ لي في انصرافه ... فقد كنت بي منّي أبرَّ وأرحما
عزمت على أن لا أحس بخاطري ... على القلب إلا كنت أنت المقدما
وأن لا تراني عندما قد نهيتني ... وإن كان في نفسي أثيرا مُقدَّما
وما كنت أدري كيف يصبر واحد ... ولا كيف يسلو بعدما قد تتيّما
فأنقذتني بالجود من غَمْرَة الردى ... وعلمت قلبي الصبر حتى تعلما
ولو لم تخلصني بجودك لم أجد ... إلى سلوة حتى القيامة سُلما

وقال سليم الفطرة مطبوع على الجود:

تعاتبني في الجود والجود شيمتي ... ومالي بإبدال الطباع زعيم
ولم أر مثل الجود، أمّا حديثه ... فحلو وأما حُبه فقديم
أرى الناس خلّان الجواد ولا أرى ... بخيلا له في العالمين حميم
ولا خير فيمن لا يُعاش بعيشه ... ولو أنه فوق السِّماك مُقيم

(1) الفتح الرباني، ص: 228 – 229.

ذريني فإن البخل عار بأهله   وما ضر مثلي أن يقال عديم
وكيف يخاف الفقر أو يُحْرَمَ الغنى   كريم ورب العالمين كريم!

وقلت:

مَازالَ باسْم العَدل يهتفُ مَعشرٌ   حَملوا شعاراتٍ لَهنَّ عَويلُ
من مَعهدِ الإلحاد غُذُّوا صبيَةً   وسُقوا شرابَ الكُفر وَهْو مُحيلُ
قُمْ للدَّعيِّ اطرُدهُ مِن ساحِ الوَغى   فلِنسْلِ جُند اللّه أنت سَليلُ

البِــرُّ

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾. اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم كن لنا جارا من شر عبادك وأحزابهم وأشياعهم من الجن والإنس أن يفرطوا علينا أو أن يطغَوْا. عز جارك، وجل ثناؤك ولا إله غَيرك.

نعرِّف البر بتعريف الله جل جلاله إذ يقول: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.[1]

ونعرف البر بتعريف رسول الله ﷺ في قوله: «البر حسن الخلق» الحديث رواه مسلم والترمذي رحمهما الله.

مجموع الفرقان والبيان يعطينا أن البرَ مخالقَة طوائف الناس من ذوي القربى والمحتاجين بأخلاق البذل والإكرام ببواعث الإيمان والإحسان وفضائل الصدق والتقوى. البر سلوك متماسك، أخلاقي ديني اقتصادي اجتماعي، في البأساء والضراء وحين البأس، باعثُهُ الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين. البر تخلص من الشح بإيتاء المال، رغم حب المال تلك المحبة الهامشية التي تبقى عالقة بجوانب نفس المؤمن، لا تتلاشى وتضمحل إلا في نفس المحسنين الذين سكن حب الله والتوكل على الله كيانهم حتى لم يعد فيها مكان لحب غَيره.

(1) البقرة، 177

من النبْع القلبي، نَبع البر العميق الشامل الجيَّاش، لا من ضوابط القانون، يُملي إيمان المؤمن على المؤمن وإحسان المحسن على المحسن فريضة العطاء في سبيل الله، من زكاة محدودة وصدقة سمحاء. وعلى أركان البر، لا على بنود القانون يتأسس التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي الأخوي، وفي تعامل المسلمين مع الناس أجمعين، إذ لا حدود للبر تحبِسهُ عن الوفاء بحق الضعيف والمحتاج من إنسان وطير ودابة.

هذا ذكر للمثال الإسلامي ووصفٌ لما يجب أن يكون، نتشوف لأخلاقية العدل والإحسان في دولة القرآن. أما واقعنا الحالي، واقع خصومة السلطان مع القرآن، فالبِر كلمة تقال ووعظ يسمع. ويتسلى المسلمون الغيورون بعرض المبادئ الإسلامية، المهجورة عمليا الغريبة، ليفاخروا العالم المتحضر الديمقراطي القانوني بأن الإسلام سبق إلى الفضائل العليا بكذا وكذا قرناً. في مقارنة الوحْي المنزَّل بقانون البشر بأْساءُ وضراء شديدان، وهجر المسلمين لدينهم، وغياب البر من بينهم، أشد. وهذاك من هذا.

الانبعاث الإسلامي والحمد لله في مراحل اليقظة، والاكتمال الإيماني والإحساني الذي يؤسس البر مشروع تربوي ترعاه عناية الله على يد الربانيين من الدعاة. وشؤون الأمة في قضايا العدل والبر، مثل شؤونها السياسية، يجب أن تتعهدها الدعوة منذ هذه المراحل الأولى بالتنظير والتطبيق وتهييء النماذج المتعددة حتى إذا تمكنت الدعوة من الدولة، ومكن الله للأبرارِ في الأرض، تركبت العلاقات في دولة القرآن على تركيبة لا تستوعب فيها الدولة الدعوة، ولا يستأثر فيها وازع السلطان بالأمر والنهي في جليل الأمر وحقيره.

كأن من طبع الدولة المركزية الحديثة أن تطغى السلطة القانونية، وإداراتها ومكاتبها وإحصاءاتها وأجهزتها المنتشرة، على الحياة كافة حتى تصل إلى النموذج المتقدم في هذا المضمار الاجتماعي، نموذج الدولة الكافلة في دُوَلِ اسكندنافيا. في مثل هذا المجتمع البالغ التنظيم المغرِق في القانونية تفقد المبادرة الفردية والمنظمات الاجتماعية الخاصة كل داع لوجودها. وكأن المجتمع القانوني الكفالي انقلب رأساً

على عقب فأصبحت الدولة هي القاعدة، وهي الأم، وهي الكل، والناس من تحتها أرقام في الحضانة، وتحت الرعاية الإدارية التي لا اسم لها ولا لون ولا وجه.

في دولة القرآن ينبغي لوازع السلطان، لا سيما في المراحل الانتقالية أثناء ترويض الأجهزة الموروثة، أن يتولى العلاقات الخارجية وكل شأن من شؤون الأمة يتطلب تخصصا دقيقا وتمويلا ضخما وأمنا عاما وقوة محشودة. ويُعهد للبر المنظم الفردي مسؤولية كفالة الإنسان في حاجاته الصحية، والتعليمية، والتربوية، والعاطفية الإحسانية، والمادية الطارئة، والاجتماعية، والترفيهية.

وبالتدريج يعاد الوضع بين الدعوة والدولة، وبين المجتمع والإدارة، وبين البر الإحساني والقهر السلطاني إلى نصابه، فيكون الناس الأحرار المنبعثون بالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين هم القاعدة، وهم الرقابة على الدولة المتحكمون فيها، لهم الوصاية على الدولة وليس للدولة عليهم الوصاية. وليس خنوع الناس تحت مطارق السلطان أهونَ ما نرث من تاريخ الحكم العاض والجبري الذي عالج أمراض الأمة طيلة أربعة عشر قرنا بالسيف.

نحمل معنا، معشر الأمة، جرثومة الخضوع الخائف للسطان ولو جار، لا ندري لِمَ صبر السلف الصالح على الجَوْر، ولِمَ استظهروا به وبشوكته المدافعة عن بيضة الإسلام ووحدته. ونتحمل بتقليد نظام الدولة الحديثة وِزراً جديداً هو وِزر مركزيتها وقانونيتها وأخطبوطيتها. عاملان، موروث ومحدث، كلاهما عدوٌّ للبر، قاتل للبر، قاطع لما أمر الله به أن يوصل من وشائج العدل والإحسان.

القانون، دولة القانون، سلطة القانون، حقوق الإنسان، التعايش السلمي، الحرية، حق الحياة، المساواة، العدالة، العمل، احترام الشخصية، حق المعارضة، حق اللجوء السياسي، حق التعليم، حق الملكية، تحديد الملكية، تأميم الملكية، الحرية الدينية، الصحة، الوقاية، الترفيه، العطلة، المرافق الاجتماعية، وحماية البيئة، والنضال من أجل السلام العالمي. هذه شعارات العصر ومطالب الإنسان، ومتعلقات القانون، ومسؤولية الدولة، ورهان السياسة، وشغل المؤسسات المحلية والدولية العالمية.

يتصدّى الأبرار المحسنون لبناء دولة القرآن، وتوحيد الأمة تحت راية الخلافة الثانية، في عالم انجرفت تربة المروءة والعطف والحنان من بين عناصر مجتماعته، فما هي إلا كالصخور والأحجار العارية تتقعقع اصطداما ونزاعا. بقايا قليلة من الكرم الإنساني والتضامن الأُسَرِي في العالم المتخلف صناعيا، وبقايا من البر الإيماني والمكارمة والتذمم بين المسلمين، وبقايا نداء الفطرة في العالم المصنع يتمثل في التجمعات غير الحكومية وفي النداء بحقوق الإنسان. أصبح شعار «حقوق الإنسان» آخر غصن أخضر حي يانع تتشبت به الإنسانية الغارقة في أوحال الكفر والجحود والنفاق والحضارة المادية الاستهلاكية.

هذه الحضارة المتآكلةُ من أحشائها، المستظهرةُ بقوة العلوم والصناعة والتنظيم تعلمت الحكمة من التاريخ ونوائبه، فكيانها الاجتماعي السياسي الاقتصادي الدولي مستمسك بالقانون يتقي به الكارثة النووية، ويتقي به الاضطرابات، ويتقي به أيضا، خُبثاً ومكرا، الاستجابةَ لمطالب المستضعفين في الأرض وحقوقهم في الإنصاف، وفي الكرامة و والاستقلال، والاستمتاع بخيرات الأرض، وبضمان نظام اقتصادي عالمي عادل لا تميل كفته في صالح الأغنياء الأقوياء ذئاب الأرض المستكبِرين فيها.

واجب الأبرار الأحرار أن يلبوا نداء المحتاج والمستضعف والصادق أينما كان، وأن يغرسوا في تربة المسلمين ثم في تربة الناس أجمعين شجرة البر الباسقة ليستمسك بها كل ملهوف، وأن يمدوا يد التعاون والتعاطف والتنافس في خير الإنسانية للحُشاشة الفاضلة من المروآت والشهامة المنادية بحقوق الإنسان وحقوق المستضعفين، إلى أن يطوَّق أخطبوط الاستكبار وتُكْسَر بيضة القانون المجحف. واجب الأبرار أن يشمل برهم، وهم في طريق الخلافة الثانية، كل بَرٍّ وفاجر في حدود قوله تعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾.[1]

حق الله وحق أنفسنا أولا ثم يعم برنا العالمين. فإنه «من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن يسر على معسر يسر

(1) الممتحنة، 8.

الله عليه في الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» الحديث رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة.

الله يحب المقسطين العادلين مع الخلق أجمع، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، درجة فوق درجة: أعلى العون عون المؤمن ثم عون المسلم، ثم عون كل محتاج وإغاثة كل ملهوف ونصرة كل مظلوم.

والبر المنزلُ به الكتاب والسنة أبواب: بر الوالدين، بر الأولاد والأقرباء، بر اليتيم، بر الزوجة، السعي على الأرملة والمسكين، بر الشيوخ والعجائز، بر العطية الكبيرة والهدية الرمزية، بر البشاشة، بر حسن الخلق، بر إماطة الأذى عن الطريق. وإنه على كل سُلامى من الناس صدقة، العدل بين اثنين صدقة، وتُعين الرجل في شأن خاص صدقة، وترفع معه متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، كما جاء في الصحيح. هذه آفاق البر الفسيحة وذُراه العالية. والسلام على من اتبع الهدى.

قال الإمام الشيخ عبد القادر: «الدنيا حجاب عن الآخرة والآخرة حجاب عن رب الدنيا والآخرة. كل مخلوق حجاب عن الخالق عز وجل (...). لا تلتفت إلى الخلق ولا إلى الدنيا ولا إلى ما سوى الحق عز وجل حتى تأتي إلى باب الحق عز وجل بأقدام سِرِّك وصحة زهدك فيما سواه، عُريانا عن الكل، متحيرا فيه، مستغيثا إليه، مستعينا به، ناظراً إلى سابقته وعلمه. فإذا تحقق وصول قلبك وسرك، ودخلا عليه، وقرَّبك وأدناك وحياك، وولاك على القلوب وأمَّرك عليها، وجعلك طبيبا، فحينئذ (...) تأكل أقسامك من الدنيا والآخرة وأنت على بابه وهما قائمتان خادمتان. لا تأكل قَسْمَك من الدنيا وهي قاعدة وأنت قائم، بل كلْها على باب الملك وأنت قاعد وهي قائمة، والطبق على رأسها تخدُم من هو واقف على باب الحق عز وجل، وتُذِل من هو واقف ببابها». [1]

ما في كلام الإمام تناقض يا عباد الله مع السعي للرزق وضرورة التكسب، والاسترزاق من باب الأسباب، وهو باب من أبواب الملك، باب شريف عفيف، إن

(1) الفتح الرباني، ص: 97 – 98.

لم تكن الدنيا أكبر هم الواقف وغاية رغبته ومنتهى علمه وساكن فؤاده. الزهد الحق كفُّ القلب عن حب الدنيا، والبر عطاء ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾[1] لا إله إلا الله.

قال من قدم من عاجلته لآجلته:

خذ من حياتك للممات الآتي ... وبَدَارِ ما دام الزمان مُواتي
لا تغترر فهي السراب بقيعة ... قد خودِع الماضي به والآتي
يا من يؤمل واعظا ومذكرا ... يوما ليوقظه من الغفلات
هلا اعتبرت ويالها من عبرة! ... بمدافن الآباء والأمّاتِ!
قف بالبقيع وناد في عرصاته ... فَلَكَمْ به من جيرة وَلِداتِ
درجوا ولست بخالد من بعدهم ... متميزا عنهم بوصف حياة
والله ما اسْتَهْلَلْتَ حيّا صارخا ... إلا وأنت تُعد في الأموات
لا فوتَ عن دَرْك الحمام لهارب ... والناس صرعى مَعْرَك الآفات
كيف الحياة لدارج متكلف ... سِنَةَ الكَرَى بمدارج الحيّات!
أسفا علينا معشر الأموات لا ... ننفك عن شغل بهاك وهات
ويغرنا لَمْع السراب فنغتدي ... في غفلة عن هاذم اللذات
والله ما نصح امرأ من غشه ... والحق ليس بخافت المشكاة

وقلت:

احملْ لواءَ العدل وانشرْ صَوتهُ ... في صفِّ أهلِ العدلِ والإحسانِ
كُنْ رحمَةً للخلقِ واصنعْ للوَرى ... خَيرَ الصَّنائعِ، والضَّعيفُ العَاني
قَاتلْ لِتُنصِفَهُ أثيراً ظَالمَاً ... إنْ لا تقمْ كنتَ الأثيمَ الجانِي

(1) الإنسان، 9.

العدل

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾. اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك.

في قراءة الحديث القدسي في التظالم وفي تعداد مِنن الوهاب سبحانه على عباده كان العلماء الأتقياء يجثون على الركب إجلالا لما يتلون ويسمعون. عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما روى عن الله تبارك وتعالى: «يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضَري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، إنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أدْخِل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه!» هذه رواية لمسلم رحمه الله والحديث رواه أيضا الترمذي رحمه الله بنحوه.

هذا الخطاب الجليل تخضع له هامات الأحرار الأبرار إكباراً وشكرا وامتثالا. ويكمِّل النهيَ الإلهي الكريم المتلطف عن التظالم الزجرُ القارع الموجه لكافة

المؤمنين في شأن القعود عن نصرة المظلومين في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّه وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّه وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾.[1]

إن مناخ العبودية لغير الله عز وجل خيَّم على جمهور الأمة منذ علت سيوف الحكم الجائر الرقاب منذ عهد بني أمية. وإن إطلاق سراح المسلمين من هذه الربقة الرذيلة مطلب من أول مطالب جند الله، وأمر يجب أن يسبق إلى تنفيذه أحباب الله. وإن الله لا يحب الظالمين، ولا يهدي كيد الخائنين، ويحب المحسنين، ومن أوثق عرى الإحسان العدل. والعدل عكس الظلم والجَوْر والحكم الجبري.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّه يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.[2] العدل يسير مع الإحسان ومع البر، وعكسه، وهو الظلم، يسير في ركابه الفحشاء والمنكر والبغي. وكلُّ هذه الآفات الاجتماعية السياسية الأخلاقية أُمِرْنا أن نقاتل. قال المفسرون في معنى العدل والإحسان: العدل لا إله إلا الله والإحسان أداء الفرائض. وقيل العدل الفرض والإحسان النافلة. وقيل العدل استواء العلانية والسريرة والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية. وقيل العدل الإنصاف والإحسان التفضل.

كان السادة الصوفية يسمون حكام الجَوْر ظَلَمة، لا يسمّونهم غير ذلك، ثم ينصرفون إلى أورادهم. ويجتهد السادة المفسرون في كشف أوجه المعاني يودِعونها بطون الكتب، والقلوبُ كمِدَةٌ من إفلات الواقع وتفسخه وانتقاضه. في يوم الصحوة هذا، وغد الخلافة الثانية، القضية قضية العدل بمعنى طرد الظلمة الحاكمين بغير رضى الأمة، وبمعنى جعل الأمر شورى بين المسلمين الأحرار الأبرار، وبمعنى

(1) النساء، 74.

(2) النحل، 90.

القضاء على الأَثَرَة والطبقية والذئبية الجشعة التي تسود مجتمعاتنا فتسمح لأولياء الشيطان، سراق السلطان، وأعوانهم باحتجان أموال المسلمين واللعب بها وترك سواد الأمة المستضعفة تخوض غمرات الفقر والذل والتحقير. هذا مطلب إحساني إيماني يريد جهادا على كل الواجهات. ويؤتي الله، إن شاء الله، من تصدى له بالنية والإخلاص والإرادة والهمة والذكر ودوام الطلب و«الوقوف على باب الملك» ما آتى الأولين من فضله. أورادُنا ذكر ودعاؤنا الليل وأطراف النهار، فالذكر والدعاء سَبَبُنا السماوي. وسَبَبُنا الأرضي، في السلوك الجهادي، وِرْدُ إعداد القوة، وورد تقويض خيمة الباطل، وورد إقامة دولة القرآن، ودولة العدل والإحسان.

إن البر عطاء طَوْعي، وإيتاء للمال والخدمة لوجه الله، وفتوَّة وإيثار، وأخلاق كبار. ولا شك أن في الأمة مروآت عالية، وقلوبا بالتقوى صافية، يكون باعث البر مُحركَها للمشاركة في حمل هموم المستضعفين، ويدفعها حب الله إلى جانب الحق والعدل لتقاتل أولياء الشياطين. لكن العدل المفروض بقوة السلطان هو لغة الواقع الذي تفهمه وتُصيخُ إليه الآذان الصماء عن الدعوة الإحسانية. هو لغة الشرع، لغة القرآن، تصير فصيحة وضيحة يوم يَحمِل السيفَ أهل القرآن.

معاذ الله أن يكون قصدُنا استبدال جَوْر بجوْر، وظلم بظلم، وإكراه بإكراه! الأمة لن تحيى حياة الكرامة الآدمية ما لم يكن أمرها شورى بينها، بحرية يلزم أن تتعلم حسنَ استعمالها بحضور جند الله جماعة موحدة أو جماعات متعاونة، وأن تتعلم إدارتها، وأن تتعلم حرفَها ومعناها ونحوها وصرفها.

الحرية التي تتحلب لها أفواه المستضعفين المحرومين في الأرض والعدل المشهود المفقود تمثله في خيالهم الجائع النماذج الديمقراطية والاشتراكية في العالم. «كاد الفقر أن يكون كفراً» كما قال الإمام علي كرم الله وجهه، والفقر والظلم كفران، يكادان، يعاني منهما المستضعفون في الأرض، وجمهورُهم من المسلمين، ويرزَحون تحت نيرِهما، ويحِنّون إلى التحرر منهما. هات لي حرية، أية حرية عملية، لا تطعمني آمالا ومبادئ مثالية! هات لي عدل الخبز اليومي، عدل العمل، عدل

الأجر على العمل، وعدلا ينقذ طفلي المريض، وعدلا يعطيني سكنا أخرج من كوخ البؤس! هات لي حرية الكرامة وعدل الكفاية! ثم اسألني بعد ذلك ما شئت.

إنه لتَحَدٍّ كبير، ملح حالٌّ غيرُ مؤجّل، يطلقه في وجه العاملين للإسلام واقع الأمة البئيس بقدر ما هو واجب فرضه الله رب العزة رب العباد الذي لا يحب الظالمين ويأمر بأنه ﴿**لا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾.[1]

المال والسلطان، السلطان والمال، في تعاطف وتآلف، في تضامن شيطاني يُسمِّن الطغاة، ويأكل لحوم الضعاف، ويمتص دماء العجاف. ظاهرة الملإ المستكبر ظاهرة شيطانية جاهلية ما لبثت بعد ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ أن عادت للظهور، وهي الآن في ديار الإسلام أكثر ما تكون شراسة. قلعها من أصولها هدفٌ يلتقي عليه الإسلاميون وكل ذي غيرة من المسلمين، فإلى صف الجهاد في سبيل الله والمستضعفين ندعو ذوي الغيرة والنصرة لإسقاط الظلم وقتله ودفنه، ثم بناء القاعدة المادية للعدل، وهي الرخاء بالجهد، والقسمة بالإنصاف، والتنمية بالمشاركة، والحكم بالشورى، والإدارة بالكفاءة، والعزة بالله عز وجل لا بغيره، والكل بالإسلام والإيمان والعدل والإحسان.

كان الصوفية الأخيار، والعلماء الأبرار، يأخذون قبلنا برخصة الانعزال وخيارِ مُزايَلَة الفتنة ومنابذتها حفاظا على وحدة المسلمين وتطبيقا للأحاديث النبوية الكثيرة الموصية بطاعة السلطان ولو جار. تلك أمة قد خلت، وسنة الله تعالى جارية إلى الخلافة الثانية، والأخذ بعزائم الجهاد لدحض حجج الصادّين عن سبيل الله وتقويض بنيانهم هو نقد الوقت وكلمة الساعة.

قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلُف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم

(1) البقرة، 193.

بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». رواه مسلم رحمه الله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وخطب أبو بكر، حواريُّ رسول الله ونصيره وخليفته، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «يا أيها الناس! إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1]. وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يَدَيْه أوشك أن يعمهم الله بعقاب». رواه الترمذي وأبو داود بإسناد جيد عن قيس بن أبي حازم رحمه الله.

وقال رسول الله ﷺ يَفتح باب العدل في القسمة بلا حدود: «من كان معه فضل ظهر (أي دابة زائدة عن حاجته) فَلْيَعُد به على من لا ظهر له. ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له». قال الراوي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: وذكر من أصناف المال ما ذكره، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه.

وهكذا رأي خليفة رسول الله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث قال: «والله الذي لا إله إلا هو ما أحد إلا وله في هذا المال (مال المسلمين) حق، أُعْطِيَهُ أو مُنِعَه. وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك. وما أنا فيه إلا كأحدكم. ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ. فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته في الإسلام. والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يُحَمَّرَ وجهه (أي خجلا من ذل المسألة)».

ورأى عمر صواب أمرِ رسول الله ﷺ ببذل الفضول من كل أصناف المال، بذلا واجبا بوازع السلطان، موافقا لفهم أبي سعيد والصحابة رضي الله عنهم حيث قال وهو خليفة في آخر عهده رضي الله عنه: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء».

(1) المائدة، 107.

ورأى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه صواب القسمة العادلة حيث قال: «إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر يكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عَرَوْا وجَهِدوا فيمنع من الأغنياء».

إن الجهاد لاسترداد السلطان من يد الغاصبين إخوان الشياطين فريضة، وبواسطة السلطان الشوري، وهو عدل الحكم، يفرض عدل القسمة لنصل الخلافة الثانية بالأولى، على فهم واسع لصواب الأمر النبوي، وفهم رأي الصحابة الأخيار، وفهم عمل الحواريين الخلفاء الراشدين واجتهادهم.

قال أبو العتاهية الشاعر رحمه الله بعد أن تاب وتزهد:

خانك الطرف الطموح — أيها القلب الجموح
لدواعي الخير والشـ — ـر دُنُوٌّ ونُزوح
هل لمطلوب بذنب — توبة منه نصوح
كيف إصلاح قلوب — إنما هن قُروح
أحسن الله بنا — أن الخطايا لا تفوح
فإذا المشهور منا — بين ثوبيه فضوح
رأينا من عزيز — طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل — طائر الدهر الصدوح
موت بعض الناس فى الأرض — على بعض فتوح
سيصير المرء يوما — جسدا ما فيه روح
بَيْنَ عَيْنَي كل حي — علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والمو — تُ يغدو ويروح
لبني الدنيا من الدنـ — ـيا غُبوق وصُبوح
رُحن فى الوشي وأصبحـ — ـنَ عليهن المسوح
كل نطاح من الدهْـ — ـرِ له يوما نطوح

نُـح علـى نفسـك يـا مسْـ ـكيـن إن كـنت تنـوح
لتنوحـن ولـو عُـمِّـرْ تَ مـا عُـمـر نـــوح

وقُلت:

للّـه قُمنـا بالقسـط قُمنـا قُمنـا شـهوداً بِالعـدل جِينَـا
القسـط عـدلٌ والعـدْلُ ديـن والعـدْلُ أمـرُ الإلـه فينَـا
العَـدلُ والإحسـانُ دِيـنٌ نحـنُ نُلبِّـي إذا نُودينَـا

التَّقلُّل والتَّرف

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من البخل والجبن، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال.

الترف هو «التوسع في النعمة» كما قال الراغب الأصفهاني رحمه الله. وأضيف بأنه التوسع في النعمة المُفضي إلى الفسق والفساد والإفساد. المترفون فِئَةٌ مغضوب عليها في القرآن. قال الله عز وجل: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾.[1] أمرناها بالأمر القدَري لا بالأمر الشرعي، لأن الترف المُدَمِّر فحشاء، والله لا يأمر بالفحشاء.

المترفون إخوان المستكبرين وحلفاؤهم، وغالبا ما يجتمع الاستكبار والترف في عشيرة، أو عصبية، أو طغمة عسكرية، أو أسرة مالكة، أو حزب وحيد. في عصرنا ما تشاء من نماذج الفسق الترفي والظلم الاستكباري، بل هما مضافان إلى الكفر والردة والخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين.

كلمة «تقلل» أستعملها لتقابل كلمة «ترف» القرآنية كما يقابل الإسلام الكفر، وكما يقابل العدل الظلم، والإحسان الطغيان والشورى الملأ.

نطرُق باب الجود الإلهي ليَفتَح لنا سِكة الدولة الإسلامية وسنة الخلافة النبوية الثانية في وقت فتح الله على الحضارة المادية أبواب كل شيء. في وقت صُبَّ فيه البلاء بالأشياء صبا على البشرية: وفرةٌ لا حدود لها من جانب وفقر مدقع هو حظ

(1) الإسراء، 16.

المستضعفين في الأرض. تنمية بلا حدود. نهبٌ أهوَجُ لخيرات الأرض ومواردها وتبذير لما لا يُعوَّض منها، وكلها لا تعوض، في دوامة الإنتاج والاستهلاك، الاستهلاك للإنتاج. لا تدور عجلة المعامل ومختبرات الاختراع، ومالية الدولة، وتوازن الاقتصاد العالمي، وموازين المدفوعات والمبادلات، وحساب التجارة، وعافية النقد، واستقرار العالم إلا على وتيرة الإنتاج والاستهلاك في دورة محمومة حُداؤُها الشيطاني الإشهار والدعاية بالكلمة والصورة، بالكذب والصدق. ﴿**فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[1]. هكذا مَكْرُ ربك! هكذا أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد! أخذتهم قدرتُه بَسرّاء الحضارة المصنَّعة المفتوحة الأبواب صبّا بلائيا وافراً، وأخذتنا، في جملة المستضعفين في الأرض، بضراء التخلف والعجز والفقر والتبعية في ضروريات الغذاء، وضروريات التمويل، وضروريات العلوم، وضروريات التكنولوجيا، وضروريات الخبرة، وضروريات السوق لمنتجاتنا الهزيلة، وضروريات المساعدة الفنية، وضروريات الوحدة اللازمة ليكون لنا حجم في العالم، واستقلال، ووزن، ومال وحضارة.

قدرُ الله وبلاؤُه. العالم كله في قبضته، والبأسُ بأسُه، والأخذ أخذه. ثم تظالم العباد وقد دعوا دعوة الرفق والهداية أن لا يتظالموا، وزجروا عن الظلم وعن الترف. مستكبروهم ومستكبرونا، مترفوهم ومترفونا، تحالف أولئك مع هؤلاء هو السبب في تنحيتنا على هامش مجتمع الوفرة والإنتاج والرفاهية والوَجد والغنى والقوة.

لا نقصد بوصف الترف وعاهته، وإخلاله بتوازن العالم، وتهديده للسلام العالمي، وسحقه للشطر الأكبر من الإنسانية إلا مساهمة في «ذم الدنيا» كما عقد الغزالي رحمه الله في إحيائه فصلا طويلا لذم الدنيا من وجهة نظر السالك إلى الله الفردِ في القرن الخامس الذي كان الفتح الإلهي فيه للناس وعلى الناس غير ما هو الآن.

بل أقصد، بعد الذم، التأكيد على ضرورة محاربة الظلم والترف وما يعشش في ثنايا المجتمع المحقور المذل المفقر من بلايا تهدد السلام في العالم و السلام

(1) الأنعام، 44 – 45.

الاجتماعي في كل قطر قطر. نذم الترف و«الدنيا» لا لنهرب من «الدنيا»، بل لنخوض غمرات الجهاد ليقوم في الأرض العدل، والكفاية، والأخوة بين الناس، يشمل برنا كل ذي كبد رطبة في الأرض.

ثم أقول مستعينا بالله العلي القدير: إنها لُجَّة لا بد من خوضها، وامتحان لا مفر منه، ورجولة لا عوض عنها. ضرورة حيوية الموتُ المحقق لأمتنا من دونها، أن نتحرر من رِبقة الحكم الجائر، وأن نَبنيَ القاعدة المادية للعدل والبر بالتصنيع، والإنتاج، ودخول السوق العالمية، وامتلاك زمام العلوم والتكنولوجيا، والسبق إليها، والتسلح الدفاعي على أعلى مستوى. كل ذلك ضروري لحياتنا المادية، وبقائنا كأمة، ووحدتنا، وقوتنا على حمل رسالة الله إلى العالم المفتون أيّا ما كان بلاء الله لنا وعليه.

هرب السادة الصوفية بدينهم من فتنة الدنيا بالعزلة، وكانوا في موقف ضرورة، ففاتهم البر وفاتهم الجهاد. قال الأستاذ القشيري رحمه الله: «كل مريد بقي في قلبه لشيء من الدنيا مقدار وخطر فاسم الإرادة له مجاز (...)، لأن قصد المريد في حذف العلائق الخروج منها (من الدنيا) لا السعي في أعمال البر».[1] وقال الإمام عبد القادر قدس الله سره: «ينبغي للفقير أن تكون شفقتُه على فقره كشفقة الغني على غناه. فكما أن الغني يفعل كل شيء ويجتهد حتى لا يزول غناه، فكذلك ينبغي للفقير أن يفعل مثل ذلك حتى لا يزول فقرُه، فلا يسأل الله عز وجل زوال فقره إلى غناه».[2]

إذا كنت وحدك في خلوة همُّك نفسك ومصيرُك ومقامُك عند الله فلا تُبالِ. أما إذا كان هم مصيرك ومقامك لا ينفك عن هم الأمة ومصيرها فما في المسلك الصوفي بهذا الصدد لك من أسوة. هم رضي الله عنهم خاضوا بلاء العزلة والصمت ودوام الصوم والمراقبة والذكر، ونحن معشر السالكين على محجة الجهاد، بلاؤنا بإطعام الجائع ودعوة الغافل، ورفع الصوت غضبا لله، ومخالطة الناس، وتنظيمهم في صف الجهاد، مع دوام ذكر الله، والاستمساك بحبل الله، والاعتصام به لتوحيد الأمة بعد

(1) الرسالة، ص: 184.

(2) الغنية، ج 2، ص: 172.

طرد المستكبرين والمترفين من سدة السلطان. وبلاء الحاجة والفاقة والتخلف، فإننا كالأيتام في مأدبة اللئام الحضارية الوفرية، باعث مادي مضايق مُلح قابض على الحلقوم يجرنا بسلاسل الضرورة للوحدة وما تقتضيه ونقتضيه من التصنيع والفاعلية في الأرض.

على المدَى البعيد يجب أن يكون لنا أفق إسلامي، وهدف إسلامي، للحفظ العام من آفة الترف. التحفظ الفردي والزهد والورع روح المسألة لا ريب، وكم من دروس وفِيَّة، وأحوال سنية للسادة الصوفية في هذا المضمار. لكن الحفظ العام للأمة من آفة الترف وما تهدد به رَجعته من عودة الاستكبار، والانتكاس والارتكاس، لا يضمنه إلا التقلل المنهاجي المبرمج، المدْرَج في منهاج التربية، ومنهاج الاقتصاد، ومنهاج الدولة، ومنهاج الأخذ والعطاء، ومنهاج النفقة اليومية، ومنهاج السوق، ومنهاج الحياة الدنيا جميعا. نفعل ذلك متى قدرنا، متى أقدرنا من له القدرة سبحانه، فإنه لا حول ولا قوة إلا به. وإنَّ للتكنولوجيا لجِماحا، هي القائدة السائقة الحاكمة. وإن لدورة الإنتاج والاستهلاك لمنطقا متلاحقا، وإن لبلاء الله وقدره لَحَتمية لأمر هو بالغه سبحانه.

التقلل تحكّم إرادي في الاقتصاد ومصارف الأموال وموارد الدولة. التقلل انضباط لا تخضع له إلا مقهورةً أغلبيةُ النفوس البشرية النهمة بِنَهَم البطن ونهم الفرج ونهم الفَخفخة ونهم التكاثر في زينة الحياة الدنيا.

التقلل زينة الله والطيبات من الرزق نتناولها من يد المنة الإلهية بالشكر والورع في حدود الحلال والحرام والمباح والمكروه.

التقلل غير القلة. إذ القلة فقدٌ يلهي عن الله. القلة فقر هو أخو الكفر. وقد تعوذ رسول الله ﷺ من القلة فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلَّة والذلَّة. وأعوذ بك من أن أظلم أو أُظلم». رواه أبو داود والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة بإسناد حسن.

التقلل سنة. قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا». أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه. والقوت ما يكفي دون زيادة.

التقلل إمساك على زمام النفس لكيلا تجتلبها المغريات. وكان رسول الله ﷺ سيد هذه المنزلة، أوصى بالتقلل حتى يكتفي المؤمن في خاصة نفسه بمثل زاد الراكب، فكان صحابته رضي الله عنهم مثالا للزهد والتعفف والبَذَاذَةِ التي هي من الإيمان كما جاء في الحديث. البذاذة عكس الترفه في الزينة.

التقلل تضييق إرادي على النفس في الكماليات لا في الضروريات، ليوفر العبد من ماله ومن نفقته، ما به يصل الرحم ويحمل الكَلَّ ويعين على نوائب الحق ويصطنع عند الله عوائدَ البِر.

وإن التوفير والاقتصاد في النفقة لواجب جهادي على كل مؤمن و مؤمنة في ظل دولة القرآن لجمع رأس المال الضخم الذي تحتاجه الأمة للتصنيع.

التقلل غير الشح، هو خلق محمود، وتعبير عن الهمة العالية، همة العابرين لمنازل الدنيا يحدوهم الشوق إلى ما عند الله. التقلل عدل وبر واعتدال وعطاء من النفس بواسطة العطاء من النفقة. هو اقتصاد قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً**﴾[1]. هو نظام قوله تعالى: ﴿**وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[2]. ويدمِّر سبحانه وتعالى الفاسقين المترفين.

التقلل إيثار للمحتاج بالفضل مما عندك، فإن لم يكن لك فضل فاعمل واتعب واكسب لتعود ببرك وإيثارك على من لا قدرة له على الكسب. حبُّ المساكين كان دعوةَ رسول الله ﷺ، وهو حب لا معنى له إن كان حبا عذريّا، لا معنى له إلا بالبذل من الفضل، لا معنى له إلا بالبر والمواساة.

قال واعظ وقد سأله سائل: كيف أُخرج حب الدنيا من قلبي؟ فقال:

لمن طَلل أُسائله مُعطَّلَةٌ منازلُه
غداة رأيته تنعِي أعاليَه أسافلُه

(1) الإسراء، 29.
(2) الأعراف، 31.

وكنت أراه مأهولا ... ولكن باد آهلُه
وكل لاعتساف الدهر ... مُعْرَضَةٌ مَقاتِلُه
وما من مَسْلَك إلا ... وريب الدهر شامله
فيصرع من يُصارعه ... وينضُل من يناضلُه
ينازل من يَهُم به ... وأحيانا يُخاتلُه
وأحيانا يؤخره ... وتارات يعاجله
كفاك به إذا نزلَتْ ... على قوم كَلاكِلُه
يخاف الناس صولته ... ويُرجَى منه نائلُه
ويثني عطفَه مرحا ... وتُعجبه شمائله
فلما أنَ أتاه الحق ... ولّى عنه باطلُه
فغمض عينه للموت ... واسترخت مفاصلُه

وقلت:

صَريعٌ في سَبيل الله ... أدَّى حقَّه ومَضى
وَغِرٌّ شبَّ في ترف ... وفي شَهَواته رَكَضا
فمَنْ تَبْغي أخَا الإسلام ... أنْ تُضحِي لهُ عِوَضاً؟

التواضع

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير. تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب. رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما. تعطي منهما ما تشاء وتمنع من تشاء. ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة سواك.

إن بذل النفس في ساحة القتال، دفعة واحدة، بِحال صدق في ساعة صدق، قربة يبلغ الله بها المجاهد في سبيله درجة الشهادة، وهي درجة عظيمة عند العظيم الكريم. أعظم منها درجة الصديقية التي تقتضي بذلا للنفس في عمر طويل. بذلها بتهذيبها، وصقلها، وكفها عن محارم الله، وزجرها عن حماه، وقمعها، وردعها، وتوبيخها في جنب الله، وحملها على طاعته، وخضوعها لجلاله، وخشوعها لهيبته، وتَضَعُّفها أمام قوته، وتواضعها لقدرته، ورضاها بقضائه وقدره، وصبرها على بلائه، وخوفها من بطشه، ورجائها في عفوه، وشوقها للقائه، ورقتها لخلقه، وذلتها على المؤمنين، وعزتها على الكافرين، وعدائها للشياطين وإخوان الشياطين.

كل أولئك مظاهرُ لتزكيتها التزكية المحمودة المندوب إليها في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾.[1] مظاهر لكسرها وثَنْيِها من غُلُوائها وكبريائها لكيلا تكون من الذين يزكون أنفسهم بالرياء ولا من المستكبرين الذين لا يحبهم الله.

أبناء الدنيا يبذلون دينهم، مع حقارتهم، ليتزلفوا لمستكبري الأرض المزاحمين للألوهية في تفردها بالعظمة والكبرياء. أولئك مَقْصومٌ ظهرهم جميعا، سواء في

(1) الأعلى، 13 – 14.

ذلك المتذلل للجبارين والجبارون أنفسهم. قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري. فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار». رواه أبو داود عن أبي هريرة. ولفظ مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته».

أبناء الدنيا الذين اتخذوا إلههم هواهم وعبدوا أنفسهم ونصبوها للعبادة كالأصنام، وتكبروا على خلق الله، وظلموا وأترفوا فيما أترفوا فيه هم حطب جهنم. قال رسول الله ﷺ. «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر». الحديث رواه مسلم وأبو داود والترمذي رحمهم الله عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أهل الجنة اللينون الذين يحبهم الله. اللينون لا عن مهانة وذلة نعوذ بالله، فإن الله عز وجل أخبرنا بأنه ضرب الذلة والمسكنة على بني إسرائيل، ورسوله ﷺ كان يستعيذ بالله من الذلة والقلة. لكن الموطأون أكنافا الذين قال الله تعالى عنهم: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**.[1]

لاحظ قوله تعالى: «أذلة على المؤمنين». على حرف استعلاء، فالمؤمن حين يلين لإخوانه ويتواضع لهم يعطي من ذات نفسه عن طوع لا عن إكراه ولا عن خوف.

وإن الجمع في شخصية المؤمن بين طرفي الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين لمن أهم بواطن التربية وأدقها. لأن المؤمن الضعيف يميل به ضَعفه إلى طبع الاستكانة والسكون بينما يصول المستكبر ويَجول. رحم الله عمر بن الخطاب حين خفق بالدرة رجلا رآه منكوس الرأس مُتماوِتا، قال له: «أماتك الله! أَمَتَّ علينا ديننا!».

أهل الجنة «كل ضعيف متضعِّف لو أقسم على الله لأبرّه» كما جاء في الحديث النبوي الذي أخرجاه في الصحيحين عن حارثة بن وهب رضي الله عنه. المُحَبُّون

(1) المائدة، 54.

عند الله هم المتواضعون لله، يرفعهم الله كما قال رسول الله ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله». أخرجه الحافظ أبو نعيم رحمه الله في الحلية بإسناد حسن. ولا يدخل الجنة «الجوَّاظ ولا الجَعْظَرِيُّ» كما روى أبو داود رحمه الله عن نفس حارثة مرفوعا بإسناد صحيح. وانظر حكمة استعمال رسول الله ﷺ لهذين اللفظين المنفرين العاتيين: الجواظ هو المَنوعُ للخير السمين المختال، والجعظري الفظ الغليظ.

كان رسول الله ﷺ لينا على المؤمنين، لينا لهم برحمة من الله الرحمن الرحيم. لم يكن فظا غليظ القلب. وقد من الله عليه بهذا الخلق العظيم في قوله: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾[1]. كان رسول الله ﷺ مهيبا، وكانت هيبته تنخلع لها قلوب الجاحدين وتتطامنُ لها قلوب المؤمنين. ذات مرة غلبت رجلا هذه الهيبة التي خلعها رب العزة والكبرياء سبحانه على عبده حُلَّة ربانية، فتلعثم الرجل، فقال الرؤوف الرحيم صلى الله عليه سلم: «إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد». رواه الحاكم من حديث جرير رضي الله عنه وصححه. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: سمعت عمر بن الخطاب يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُطروني كما أطْرَتْ النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله». أخرجه البخاري.

وكان رسول الله ﷺ ينهى أصحابه عن إطْراء بعضِهم بعضا في وجهه ويقول: «ويحك قطعت عنق صاحبك!» ذكره مسلم رحمه الله وغيره. لأن الإطراء إذا ألِفَته النفس ومالت إليه تعاظم عندها شأن ذاتها. والمقصود من الشرع تزكيتها عن الغرور لا التغرير بها.

لهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رحم الله امرَأً أهدى إلي عيوبي». ولهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ يَحْثون التراب فِعلاً في وجوه المداحين والمتملقين كما جاء الأمر بذلك في الحديث النبوي.

من تواضع أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخوفه من ربه عز وجل أنه قال: «وددت أن أكون خضراء تأكلني الدواب». ومن تواضع عمر رضي الله عنه وبذاذته أنه، وهو

(1) آل عمران، 159.

أمير المؤمنين، كان يلبس ثوبا عليه اثنتا عشرة رقعة. ومن تواضعه وسياسته لنفسه وإلجامه إيّاها أنه جمع الناس في المسجد فخطب يقول: «أيها الناس! لقد رأيتُني وأنا أرعى على خالات لي من بني مخزوم. فكنت أستعذِبُ لهن الماء، فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب». ثم نزل فسأله عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: ويحك يا ابن عوف! خلوت بنفسي فقالت لي أنت أمير المؤمنين! وليس بينك وبين الله أحد! فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعَرِّفها قدرها. ولما قدم الشام بعد فتحها عرضت له مَخَاضَةٌ في النهر، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه فأمسكها بيده، وخاض الماء ومعه بعيره. فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنيعا عظيما عند أهل الأرض! يعني أن أهل الشام ألفوا عجرفة الروم وأُبَّهتهم، فهم لا يتوقعون من رئيس دولة أن يتصرف بهذه البساطة. فما كان من عمر إلا أن صَكَّ في صدر أبي عبيدة قائد جيش المسلمين وقال: أوه. لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس وأقل الناس. فأعزكم الله بالإسلام. فمهما تطلبوا العزة بغيره يُذِلّكم الله.

كان هذا حالَ الصحابة المجاهدين رضيَ الله عنهم. أما السادة العارفون بالله من الصوفية فقد كان تواضع الكثيرين منهم مضربَ الأمثال. بعض المنتسبين للتصوف انزلقوا في الدروشة والمسكنة، وبعض النصابين باسم التصوف لبَّسوا على الناس بتواضع كاذب، هو الرياء أقبح الرياء.

قال الإمام أحمد الرفاعي عن نفسه: «المخلوق ضَعف، عجز، فقر، حاجة، عدم محض».[1] ومن كشف الله له حقيقة نفسه يرها معدن النقص كله والعجز والضعف. قال رحمه الله: «أي سادة! تفرقت الطوائف شِيَعا، وحُمَيْد (تصغير أحمد يعني نفسه) بقي مع أهل الذل والانكسار، والمسكنة والاضطرار».[2]

وقال رحمه الله: «أي سادة! أنا لست بشيخ! لستُ بمقدم على هذا الجمع! لست بواعظ! لست بمعلم! حُشِرتُ مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد من

(1) البرهان المؤيد، ص: 33.

(2) نفس المصدر، ص: 34.

خلق الله، إلا أن يتغمدني الله برحمته فأكون كآحاد المسلمين»[1]. وقال لرجل سأله الدعاء: «اقتد بالقرآن، اتبع آثار السلف! إيش أنا حتى أدعو لك. ما مَثلي إلا كمثَل ناموسة على الحائط لا قدر لها».[2] وقال: «بَذَلت نفسي، ولم أترك طريقا إلا سلكته، وعرفت صحته بصدق النية والمجاهدة، فلم أجد أقرب وأوضح وأحب من العمل بالسنة المحمدية، والتخلق بخلق أهل الذل والانكسار، والحيرة والافتقار».[3]

ومن سنة رسول الله ﷺ الإشارة إلى فضل الله عليه في مثل قوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر». الحديث رواه الترمذي عن أبي سعيد بإسناد حسن.

وكذلك قال الرفاعي: «عليكم بنا! صحبتنا ترياق مجرب، والبعد عنا سم قاتل».[4] وقال: «خُذ مني علم الذَّوق! خذ مني علم الشوق! أين أنت مني يا أخا الحجاب. كشف لي عن قلبك!».[5] وقال الشيخ عبد القادر: «إني صبرت ورأيت عاقبة الصبر محمودة. مُتُّ، ثم أحياني، ثم أماتني. وغبت ثم أوجدني من غيبتي. هلكتُ معه، ملكتُ معه. جاهدت نفسي في ترك الاختيار والإرادة حتى حصل لي ذلك، فصار القدر يقودني، والمنة تنصرني، والفعل يحركني، والغيرة تعصمني، والإرادة تطيعني، والسابقة تقدمني، والله عز وجل يرفعني»[6]. وقال: «يا غلام! مرادي أنت لا أنا! أن تتغير أنت لا أنا! أنا عَبَرْتُ وإنما وَدَدْتُني لأجلك كي تتعلق بي حتى تَعْبُرَ بالعجلة».[7]

وقبل الشيخين الإمامين رحمهما الله كتب حجة الإسلام أبو حامد الغزالي يدل على نفسه ويشير إليها في رسالة وجهها إلى شهاب الإسلام الوزير يرشده إلى معالجة القلوب وطبها. قال رحمه الله: «يمكن له (مريض القلب) أن يدخل في حماية طبيب

(1) البرهان المؤيد، ص: 32.

(2) نفس المصدر، ص: 59.

(3) نفس المصدر، ص:62 – 63.

(4) نفس المصدر، ص: 43.

(5) نفس المصدر، ص: 42.

(6) الفتح الرباني، ص: 176.

(7) نفس المصدر، ص: 40.

يعرف علاج القلب ولا يكون مريضا. وطبيب كهذا عَزَّ وجودُه في هذا العصر. وفلان (يعني نفسه) من جملة أطباء القلب وأرباب القلوب».[1]

كان شيخ الإسلام ابن تيمية، في حالات هدوئه، غاية في التواضع. قال ابن القيم رحمه الله: «ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك (أي من الخشوع والانكسار) أمرا لم أشاهده من غيره. وكان يقول: ما لي شيء! وما منّي شيء! ولا فِيَّ شيء! وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكَدِّى وابن المُكدي وهكذا كان أبي وجَدّي

(المكدي: المتسول).

قال: وكان إذا أُثْنِي عليه في وجهه يقول: والله إنّي إلى الآن أجدّد إسلامي كل وقت. وما أسلمت بعد إسلاما جيدا! وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

إني الفقير إلى رب البريات أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي والخير إن ياتنا من عنده يَاتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ولا عن النفس لي دفعَ المضرات
وليس لي دونه مولىً يدبِّرني ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات
ولست أملك شيئا دونه أبدا ولا شريكٌ أنا في بعض ذرات
ولا ظهير له كي يستعين به كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلبا من غير خالقه فهو الظلوم الجهول المشرك العاتي

(1) رسائل حجة الإسلام، ص: 888.

والحمـد لله مـلء الكـون أجمعـه ما كان منه وما من بعدُ قد ياتي[1]

لعل شيخ الإسلام كتب الأبيات في السجن الذي مات فيه، فهي وصية تواضع وذلة وخضوع، أرجو أن يقرأها قراءة القلب أفاضل يُكبرون مثلما نُكبر الرجل الكبير.

وأنشد التلميذُ المجيد شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله المؤرخ الصفدِيَّ من نظمه يلوم نفسه، اسم ابن القيم محمد بن أبي بكر. قال:

بنَيُّ أبـي بكـر كثيـر ذنوبـه فليس على من نال من عِرضه إثم
بنـي أبـي بكـر جهـول بنفسـه جهول بأمر الله أنَّى له العلم!
بنـي أبـي بكـر غـدا متصَـدِّرا يُعلم علما وهو ليس له علم
بنـي أبـي بكـر عـدا متمنيـا وِصال المعالي والذنوب له هم
بنـي أبـي بكـر يـروم ترقيـا إلى جنة المأوى وليس له عزم
بني أبي بكـر يرى الغُنـمَ في الـذي يزول ويفنى والذي تركه الغُنم
بنـي أبـي بكـر لقـد خـاب سـعيُه إذا لم يكن في الصالحات له سهم
بنـي أبـي بكـر كمـا قـال ربـه هَلوع كنود وصفه الجهل والظلم
بنـي أبـي بكـر وأمثالـه غـدوا بفتواهمُ هـذي الخليقـة تَأْتَمُّ
وليس لهـم في العلـم بـاع ولا التقى ولا الزهد والدنيا لديهم هي الهم
فـوالله لـو أن الصحابـة شـاهدوا أفاضِلَهم قالوا: هُمُ الصم والبكم![2]

وقلت:

لَـكَ الصَّـوْلاتُ والجَـوْلاتُ فـي صنـع الأباطِيـل
وَتَـرتـاحُ إذا تُـمسـي بِـرفْقـةِ رُتَّـعٍ مِيـلِ
فَـهـلَّا صِـرتَ مِنّـا فَـي عِـدادِ خِيـرةِ الجيـلِ!

---

(1) مدارج السالكين، ص: 524 – 525.

(2) فوات الوفيات، ج 3، ص: 693.

طَلاقُ الدُّنيا والآخِرة

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾. اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أبقيتني، وارحمني أن أتكلف ما لا يعنيني، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني.

تلا المؤمن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1]، فزاده القرآن إيمانا وزادته الآية توكلا. وتلا قوله عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾،[2] فازداد خوفا من بطش ربه. وتلا قوله سبحانه: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾،[3] فازداد رجاؤه فيما عند الله. وتلا قوله جلت حكمته: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾،[4] فطلق الدنيا الفانية إيثارا لما يبقى على ما يفنى. ثم سمع بالسمع القلبي سمع الفطرة قول العزيز الحكيم: ﴿وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾،[5] فطلق الدنيا والآخرة جميعا شوقا إلى ربه وإيثارا للخالق الرزاق رب الدنيا والآخرة على ما سواه.

عبارةٌ يكثر أن نقرأها في كلام الأكابر مثل الشيخ عبد القادر يتحدث فيها عن طلاق الدنيا والآخرة يجب أن نَقْدُرها قدرها لكيلا يتوهم متوهم أن بالقوم رضي الله عنهم استخفافا بأمر الآخرة. كيف والله عز وجل خوفنا من عذابها وجمَّل لنا ثوابها ونعيمها! نَفس المؤمن والمحسن تخاف أشد الخوف مما خوف منه الله تعالى، وترجو ما رجّى فيه. نفس العارف تخاف النار وتحب النعيم كأشد ما يكون الخوف

(1) طه، 131.

(2) طه، 127.

(3) القصص، 60.

(4) الأعلى، 17.

(5) طه، 73.

والحب، فهو عبد لله. لكن قلبه لا يلتفت إلى الدار دون الجار، لا يحلو له نعيم في الدنيا والآخرة مع مجرّد فكرة أن يحجب عن الله عز وجل. هو في الدنيا والآخرة جسم ونفس وقلب وروح، وسر وخفِيٌّ وأخفى، حسب اصطلاح العارفين، ولكل من أكوانه لذتها ونعيمُها وأشواقها دنيا وأخرى. وقد يغلب الحال بعض الصوفية أحيانا فيترجم لسانه عن القلب والروح والسر بما يوهم المقطوع مع نفسه من المحجوبين أن الناطق لا يكترث بشيء مما عظمه الله من عمل الدنيا وقُرَبها وجزاء الآخرة ونعيمها وعقابها، كما قالت رابعة:

ليس لي في الجنان والنار رأي   أنا لا أبتغي بحبي بديلا

قال الإمام عبد القادر قدس الله روحه: «الدنيا سوق عن قريب ينغلق. أغلقوا أبواب رؤية الخلق وافتحوا أبواب رؤية الحق عز وجل. أغلقوا أبواب الاكتساب والأسباب في حال صفاء القلوب وقرب السر فيما يخصكم لا فيما يعم غيركم من الأهل والأتباع. فليكن الكسب لغيركم، والنفع لغيركم، والتحصيل لغيركم. واطلبوا ما يخصكم من لطيف فضله، وأقعدوا أنفسكم مع الدنيا، وقلوبكم مع الأخرى، وأسراركم مع المولى. إنك تعلم ما نريد».(1)

وقال: «الزاهدون يأكلون في الجنة، والعارفون يأكلون عنده وهم في الدنيا. والمحِبون لا يأكلون في الدنيا ولا في الآخرة. طعامُهُم وشرابهم أُنسهم وقربُهم من ربهم عز وجل ونظرهم إليه. باعوا الدنيا بالآخرة، ثم باعوا الآخرة بربهم عز وجل رب الدنيا والآخرة. الصادقون في محبته باعوا الدنيا والآخرة بوجهه، وأرادوه دون غيره. فلما تمَّ البيع والشراء غلب الكرم فرد عليهم الدنيا والآخرة موهبةً، وأمرهم بتناولهما. فأخذوهما بمجرد الأمر، مع الشِّبع، بل مع التخمة والغنى عنهما. فعلوا ذلك موافقة للقدر، وحسن أدب مع القَدر. قبلوا وأخذوا وهم يقولون: «وإنك لتعلم ما نريد». تعلم أن قد رضينا بك دون غيرك. ورضينا بالجوع والعطش والعُرْي والذل والمهانة، وأن نكون على بابك مطروحين. لمّا رضوا بذلك، وقرّروا مع نفوسهم

(1) الفتح الرباني ص 185.

الطمأنينة عليه نظر إليهم نظرَ الرحمة، فأعزّهم بعد ذلهم، وأغناهم بعد فقرهم، ومنحهم وقرَّبهم منه دنيا وآخرة. المؤمن يزهد في الدنيا فيزيل الزهدُ وسخ باطنه ودَرَنَه وكَدَرَه. فتأتي الآخرةُ فتسكُن قلبه، ثم تأتي يد الغيرة فتزيلها عن قلبه، وتعلمه أنها حجاب عن قرب الحق عز وجل. فحينئذ يترك الاشتغال بالخلق في الجملة، ويمتثل أوامر الشرع، ويحفظ حدوده المشتركة بينه وبين العوام. تنفتح عينا بصيرته، فيبصر عيوب نفسه وعيوب المخلوقات، فلا يسكن إلا إلى ربه عز وجل، ولا يسمع من غيره، ولا يعقِل عن غيره، ولا يسكُن إلى غير وعده، ولا يخاف من غير وعيده. يترك الشغل بغيره ويشتغل به. فإذا تم هذا فهو فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».[1]

الانقلاع عن الدنيا وعن شهواتها، والزهد في متاعها المادي من أموال وزينة، والترفع عن طلب الرئاسات، والتواضع، والتقلل، والتوكل، مقامات يبلغها السالك الصوفي بالمجاهدة والذكر، ويبلغها السالك المجاهد بالثبات في الصف مع كثرة الذكر، ويدركها الاثنان بصحبة من تخطى الدنيا ولم يقف مع الآخرة إلا نفسُه الفرحةُ بما عند الله، والروح في أشواقها إلى الله، والسر في مناجاته مع الله.

قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: «طلقت الدنيا ثلاثا بتّاً لا رجعة لي فيها. وصرت إلى ربي وحدي. وناديته بالاستعانة. إلهي أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك. فلما عرف صدق الدعاء من قلبي واليأْس من نفسي كان أولُ ما ورد علي من إجابة هذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية، ونصب الخلائق بين يدَيَّ مع إعراضي عنهم». ولما كثر على أبي يزيد الزُّوار يتبركون به ويقتدون، قال:

يا ليتني صرت شيئا ... من غير شيء أُعَدُّ
أصبحت للكل مولى ... لأنني لك عبد
وفي الفؤاد أمور ... ما تُستطاع تُعَد
لكن كتمان حالي ... أحقُّ بي وأسَدُّ

(1) الفتح الرباني ص 185.

رحم الله العارفين من السادة الصوفية، هربوا من الدنيا بأجسامهم ونفوسهم وقلوبهم وأرواحهم جميعا. والسادة السادة الأنبياء والرسل وكبار الصحابة أعطوا لكل مقام حقه. قدمُهم في الدنيا راسخة ثابتة لأنها دار عمل وجهاد، وقدمهم في الآخرة راسخة لأنها دار المعاد، وأرواحهم وأسرارهم مع الله عز وجل هنا وهناك. سبقوا الزاهدين الهاربين بالثبات في المواقف، ولم يسبقهم أحد، وسبحان الله، في القرب من الله. العذر الذي تذرع به الزاهدون الصوفية للهروب من الفتنة لا يقوم أبدا كفاءً للموقف الإيجابي، موقف من واجهوا الجاهلية، وقاتلوا الفتنة. صدقُ طلب السادة الصوفية، وسابقة كلٍّ عند الله الملك الوهاب، بلغهم المقامات العليا، وزاد الغنيُّ الكريمُ الرسلَ والأصحاب والحواريين والإخوان في آخر الزمان مع الصدق توفيقا أعلى. لستُ أقصد بالإخوان كل من هب ودب والتحى وقال «أنا»، بل أقصد إخوان الرسول ﷺ الذين اشتاق إلى رؤيتهم كما جاء في الصحيح.

عند الموت يكون العبد لا في الدنيا ولا في الآخرة. عند الموت يُكشف غطاء المحتضر فينكمش الكافر على نفسه ويقول: ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ**﴾[1]، ويفرح المؤمن بما وُعد، ويطير العارف إلى مُراده، وتظهر ميزةُ الكُمَّل من الرُسل والحواريين، لا تشغلهم دار عن دار، ولا ينقص من شغلهم الروحي السري بالله شغلهم القلبي بالآخرة التي فيها معادهم، ولا شغلهم بالدنيا التي منها زادهم من العمل الصالح والجهاد.

رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال لرفيق له: أين تذهب؟ قال: أذهب إلى السوق. قال أبو هريرة: إن استطعت أن تشتري لي الموت فافعل، فإنه طال شوقي إلى ربي، وإن الموت أحب إلي من شرب الماء البارد للعطشان. ولما حضر بلالاً رضي الله عنه الموت قال: «واطرباه! غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه». ولما حضرت معاذا رضي الله عنه الوفاة قال: «اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظَمإ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر».

(1) المؤمنون، 100.

ولما احتضر سلمان بكى وقال: «ما أبكي جزعا على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بُلغةُ أحَدنا من الدنيا كزاد راكب». فلما نظروا في تَرِكة سلمان رضي الله عنه وجدوا قيمة ما ترك لا تعدو بضعة عشر درهما.

هذه لحظات انتقال عامة الصحابة رضي الله عنهم: فراق للدنيا بلا جزع، بل باطمئنان وفرح.

أما الأسوة العظمى رسول الله ﷺ فكان آخرُ أيام حياته في الدنيا الاشتغال بتجهيز الجيش مع أسامة رضي الله عنه إلى الشام، فلما اشتد به المرض وعالجته سكرات الموت، وكانت شديدة عليه لتتأسى به أمته، اشتغل بتنصيب أبي بكر إماما للصلاة، يتفقد هل نُفِّذ أمره بهذا الصدد كلما أفاق من غشياته. وكان آخرَ وصاياهُ ﷺ بالصلاة وبالنساء ومِلْكِ اليمين. وكان آخر كلامه ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى»، وقوله تعالى: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ﴾.[1]

كانت لحظاتِ ثباتٍ، واهتمام بأمر الأمة، وجهاد، وتعليم. ثم طلبَ الرفيق الأعلى من أحباب الله انتظاراً ليوم الشفاعة ولواء الحمد.

ولما احتُضر الصديق رضي الله عنه كان آخر شُغله في الدنيا وصيتُه بالخلافة من بعده لعمر بعد عهد حافل بجهاد أهل الردة. وكان مما قاله قبل موته فيما رواه سعيد بن المسيب: «اللهم إنك دَبَّرْتَ الأمور وجعلت مصيرَها إليك، فأحيني بعد الموت حياة طيبة، وقربني إليك زُلْفَى. اللهم من أصبح وأمسى ثقتُه ورجاؤه غيرُك فأنت ثقتي ورجائي. ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ولما طُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشتغل بتدبير الشورى من بعده، لم يشغله ما كان يعانيه من الجراح عن دنيا الأمة، ولا شغلته هموم الآخرة عن هم الأمة، ولا شغله كل ذلك عن هم الله. كمال في كمال. عن ابن عباس أن عليا رضي الله عنه لما توفي عمر ترحم عليه وخاطبه قائلا: «ما خلَّفتَ أحدا أحب إلي أن ألقى الله بعمله منك. وايْمُ الله! إن كنت لأظن ليجعلك الله مع صاحبيك! وذلك أني كنت كثيراً ما

(1) النساء، 69.

أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر. فإني كنت لأرجو أن يجعلك الله معهما».

ولما طعن أمير المؤمنين عثمان كان آخر كلامه: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. اللهم إني أستعديك عليهم، وأستعينك على جميع أموري، وأسألك الصبر على ما ابتليتني».

ولما طعن الإمام علي كرم الله وجهه قال:

«فزت وربِّ الكعبة!» ولم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض. وقال قبيل الرحيل: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.[1]

ودخل الإمام الحسين بن علي على أخيه الإمام الحسن رضي الله عنهم عند الاحتضار فقال له: «مالك تجزع. إنك تَقْدَم على رسول الله ﷺ وعلى علي بن أبي طالب وهما أبواك، وعلى خديجة وفاطمة وهما أماك، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك». فقال: «يا أخي. أَقْدَمُ على أمر لم أقدم على مثله».

وخطب الإمام الحسين رضي الله عنه لما نزل به البلاء في كربلاء فكان من خطبته قوله: «ألا ترون الحق لا يُعمل به، والباطل لا يُتناهى عنه. ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى. وإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرُما».[2]

أما الصوفية العارفون فلم تكن لهم علائق مع الدنيا، فطاروا مع نَسمة الموت خافقين. حضرت الوفاة الإمام حسنا البصري رضي الله عنه فكانوا يلقنونه الشهادة، ففتح عينيه وقال: «إلى متى تدعونني إليه. وأنا محترق به منذ عشرين سنة؟». وبكت رابعة العدوية عند الموت وضحكت، فسألوها عن بكائها وضحكها فقالت: «أما بكائي فمن مفارقتي الذكر آناء ليلي ونهاري. وأما ضحكي فمن سروري بلقائه».
وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله عند الوفاة:

(1) الصافات، 61.

(2) استفدت هذه النقول من كتاب «الإحياء»، ج 4، ص: 405 – 408.

حنيـن قلـوب العارفيـن إلـى الذكـر وتَذْكارهـم وقـت المناجـاة للسـرِّ
أُديـرَت كـؤوس للمنايـا عليهـم فأغفَـوْا عـن الدنيـا كإغفـاء ذي سُـكر
هـمُ مـا هـمُ جوّالـة بمُعَسـكَر بـه أهـل ودِّ الله كالأنجـم الزُّهـر
فأجسـامهم في الأرض قتلـى بحبـه وأرواحهم في الحُجْبِ نحو العلا تسري
فمـا عرَّسـوا إلا بقـرب حبيبهـم ومـا عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله يذم الذين ماتت قلوبهم من سموم جيفة الحياة الدنيا، وباعوا نفوسهم بيعَ خسارة:

رأيـت الذنـوب تُميـت القلـوب وقـد يـورث الـذلَّ إدمانُهـا
وترك الذنوب حياة القلوب وخيـرٌ لنفسـك عصيانُهـا
وهـل أفسـد الديـنَ إلاّ الملـوكُ وأحبـار سـوء ورهبانهـا
وباعـوا النفـوس ولـم يربحـوا ولـم يَغْـلُ في البيـع أثمانهـا
فقـد رتـع القـوم في جيفـة يَبيـنُ لـذي اللـب خسـرانها

وقال الإمام الشافعي رحمه الله يخبر عن طَعْم الدنيا:

ومـن يـذق الدنيـا فـإني طعمتهـا وسـيق إلينـا عذبُهـا وعذابُهـا
فلـم أرهـا إلا غـروراً وباطـلا كمـا لاح في ظهـر الفـلاة سـرابُها
ومـا هـي إلا جيفـة مسـتحيلة عليهـا كلابٌ همُّهُـنَّ اجتذابهـا
فـإن تجتنبهـا كنـت سـلما لأهلهـا وإن تجتذبهـا نازعتـك كلابهـا
فطوبـى لنفـس أولعـت قَعْـرَ دارهـا مغلَّقـة الأبـواب مرخـىً حجابهـا

وقال متحدثا عن أسلوبه في حفظ دينه وصون نفسه من منازعة كلاب الدنيا، الذئاب الجائعة حرصا على المال والسلطان:

أمـتُّ مطامعـي فأرحْـتُ نفسـي فـإن النفـس مـا طمِعـت تَهـونُ
وأحييـت القُنـوعَ وكان مَيْتـا ففـي إحيائـه عِـرضٌ مصـون

إذا طَمَعٌ يحُل بقلب عبد عَلَتْه مهانة وعلاه هونُ

وقال:

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفِتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجَّةً واتخذوا صالح الأعمال فيها سفُنا

وقال وهو على فراش الموت:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سُلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوُك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

وقلت:

إن أوْهى النَّسج نَسجُ العنكبُوت تَخِذَتْ مَسكَنها بَين البيُوتْ
وكذاكَ الظُّلمُ فيمَا بَيننا يَتلاشى إنْ نهضْنا لِنموتْ
أوْ نُقيمَ العَدلَ في دَولَتهِ رَافعينَ الصَّوتَ في وسْطِ الصُّمُوتْ

الفقر إلى الله عز وجل

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾. اللهم بديع السماوات والأرض ذَا الجلال والإكرام والعزة التي لا تُرام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني أن أتلُوَه على النحو الذي يرضيك عني.

من سنة الله عز وجل مع أحبائه أن يبتليهم بالشدة ويمتحنهم بالأزمان حتى يحصل لهم من مقامات الصبر واللَّجإ إليه عز وجل والافتقار ما لا يحصل في الرخاء. قال عز من قائل لحبيبه محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾.(1) وقال عز وجل مخاطبا الأمة من أصحاب رسول الله ﷺ وهم في المحنة بمكة: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ﴾.(2) وقال جل وعلا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.(3) بلاؤه عز وجل بالبأساء لحزبه جماعة ولأحبائه أفرادا الهدف منه أن ينحازوا إليه ويقفوا على بابه، بعد أن قطع عنهم الأسباب، بالافتقار والذلة. وقد ابتلى الله سبحانه قوم موسى بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، لكنهم لم يتضرعوا فأصابهم الله بعذاب بِيسٍ بما كانوا يفسقون.

(1) الأنعام، 34.

(2) النمل، 62.

(3) البقرة، 155 – 157.

ابتلاء الأحباب ضَمٌّ بيد الحكمة إلى جناب الرحمة، وقبضة العذاب على الكافرين شدة عادلة جزاءً بما كسبت أيدي الناس. ويظهر فرق ما بين أولئك وهؤلاء في أن الأحباب يتضرعون ويَلْجَأون بالدعاء ويزداد افتقارهم لمولاهم صابرين على أذى من آذاهم حتى يأتيهم نصر الله، بينما أعداء الله تأخذهم الصاعقة وهم ينظرون، فلا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم من عذاب الله يُصْحبون، بعد عنادهم وعتوهم ورفضهم طاعة الله وطاعة من والاه.

وإنَّ الأشعثَ الأغبرَ ذا الطمرين الذي لو أقسم على الله لأبره نموذج للولي الظاهرِ فقرُ قلبه إلى ربه على ثوبه وقُوتِه. مظهر الفقر والمرقعة والزي صناعة ونفاق وشَرَك للصيد إن لم يكن في القلب نية، وإن لم يكن عزوف حقيقي عن الدنيا، وزهد فيها، وطلاق إرادي لها. على أن التقلل من الدنيا سنة نبوية المقصود منها أن يتخفف العباد من أثقالها ليُسارعوا إلى ربهم خفافا. ومن أبطأت به إرادته فما استطاع أن يرقى من سلبية الفقر من الدنيا والتقلل إلى إيجابية الفقر إلى الله والصعود في عقبة السلوك إليه اقتحاما، فليس حظّه هينا إن عصمه الله بالفَقْرِ المادي الاضطراري من ارتكاب المعاصي ومن الترف والتوسع في النِّعم.

الافتقار القلبي إلى الله عز وجل، مثلَ محبته ودوام ذكره، أشرف منازل الطريق عند السادة الصوفية، «وأعلاها وأرفعها. بل هي روح كل منزلة وسرّها ولبها وغايتها». (1)

الافتقار إليه سبحانه بصادق الرغبة، وصادق النفور من الدنيا ودناءتها، وصادق الشعور بالإفلاس في الحياة إن لم يعرف العبد غاية وجوده، منزلة شامخة يقود الله عز وجل إليها بمقادات الاضطرار من شاء بما شاء. يقود إلى الشهادة في سبيله رجالا غضبوا لله لحظة فما وجدوا غير بذل النفس جملة. ويقود إلى الشهادة وإلى الصديقية رجالا نذروا حياتهم لله ولم يلتفتوا إلى غير الله حتى لقوا مصرعهم وهم في ساحة القتال أو في ساحة تدبير الجهاد وإصلاح شأن الأمة. وحبَس حابس الفقر والعُدْم والفتنة آخرين فتشبهوا بالكرام ولحقوا بمقامات الصديقية عن طريق الصحبة والذكر والصدق والمجاهدة. هؤلاء هم السادة الصوفية فقهاءُ القلوب وأطباؤها، ولكل من

(1) ابن القيم في «مدارج السالكين»، ج 2، ص: 438.

رشف من شرابهم نصيبٌ إن لم يرتفع بهم إلى حقيقة العبودية وذروة الجهاد فقد خرجوا من الدنيا إلى الآخرة بعد أن أطلق عليهم في الملكوت نعتُ الافتقار إلى الله لحظة. يا لها من غنيمة للضعفاء والعجزة الذين لا يجدون ما ينفقون من رصيد السابقة ورصيد الرجولة ورصيد البذل مثلما بذله السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، سادة هذه المنزلة وكل منزلة.

قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله يلخص لنا بأسلوبه الأخاذ أوصاف الفقير إلى الله وصفا جامعا: «جملة نعت الفقير حقا أنه المتخلي عن الدنيا تظرُّفا، والمتجافي عنها تعفُّفا. لا يستغني بها تكثّرا ولا يستكثر منها تملُّكا. وإن كان مالكا لها بهذا الشرط لم تضرَّهُ، بل هو فقيرٌ غناه في فقره، وغنى فقره في غناه. ومن نعته أن يكون فقيرا من حاله[1]، وهو خروجه عن الحال تبرِّيا، وترك الالتفات إليه تسلِّيا، وترك مساكنة الأحوال، والرجوع عن موافقتها. فلا يستغني بها اعتمادا عليها، ولا يفتقر إليها مساكنة لها.

«ومن نعته أنه يعمل على موافقة الله في الصبر والرضى والتوكل والإنابة. فهو عامل على مراد الله منه لا على موافقة هواه، وهو تحصيل مراده من الله. فالفقير خالصٌ بكليته لله سبحانه، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظ ونصيب، بل عملُه بقيام شاهد الحق، وفناء شاهد نفسه. قد غيبه شاهد الحق عن شاهد نفسه. فهو يريد الله بمراد الله. فَمُعَوّلُه على الله وهمته لا تقف على شيء سواه. قد فَنِيَ بحبه عن حب ما سواه، وبأمره عن هواه، وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه. فهو في واد والناس في واد. خاضِعٌ متواضع، سليم القلب، سلسُ القياد للحق، سريع القلب إلى ذكر الله، بريء من الدعاوي، لا يدعي بلسانه ولا بقلبه ولابحاله، زاهد في كل ما سوى الله، راغب في كل ما يقرب إلى الله، قريب من الناس، أبعد شيء منهم، يأنس بما يستوحشون منه، ويستوحش مما يأنسون به، منفرد في طريق طلبه، لا تقيده الرسوم، ولا تملكه الفوائد، ولا يفرح بموجود، ولا يأسف على مفقود. من جالسه قرَّت عينه به، ومن رآه ذكَّرته رؤيته بالله سبحانه. قد حمل كلَّه ومؤنته عن الناس،

(1) الأحوال: المواجيد العابرة والكرامات.

واحتمل أذاهم، وكف أذاه عنهم، وبذل لهم نصيحته، وسبَّل لهم عِرضَه ونفسه، لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز. لا يدخل فيما لا يعنيه، ولا يبخل بما لا ينقصه. وصفُه الصدقُ والعفةُ والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال. لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عِوَضا ولا مِدْحَةً. لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب، ولا يرى له على أحد حقا، ولا يرى له على أحد فضلا. مُقبلٌ على شأنه، مكرم لإخوانه، بَخِيلٌ بزمانه، حافظ للسانه، مسافر في ليله ونهاره، ويقظته ومنامه. لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه. قد رُفع له عَلَمُ الحب، فشمَّر إليه، وناداه على الاشتياق فأقبل بكليته عليه. أجاب منادي المحبة إذ دعاه: حي على الفلاح، وواصل السُّرى في بيداء الطلب فحمد عند الوصول مسراه. وإنما يحمد القوم السُّرى عند الصباح».[1]

لله دره من رباني فقيه، جمع في هذه الصفحة الفريدة، وكم له من فرائد رحمه الله، من العلم بدقائق الحقائق ورقائق العلائق ما ينبئ عن سلوك حقيقي وهمة سامقة، لا كما يَتَحَذْلَقُها الأدعياء.

ثم إننا عندما نقرأ مُعجَبين ببلاغة القوم وكلماتهم الجامعة ينبغي أن لا تُلفتنا رقة مواجيدهم رضي الله عنهم عن قوة بلاغ القرآن، ولا يشَوِّشنا تفقرهم وتزهدهم وتشعُّثهم في الفلوات والخلوات عن اخشيشان الصحابة ذلك الاخشيشان الرجولي اللائق بمن كانوا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، أشداءَ على الكفار رحماءَ بينهم. نقرأ فقه السادة الطيبي الأنفاس، ونتصفح حياتهم وأساليبهم التربوية، مارين إلى المناظر النواضر، لنُقارب الجهاد الصحابي، والنداء القرآني، والهدي النبوي. وهم لنا على كل حال فَرَطٌ على طريق الفقر إلى الله، وحبلٌ واصل بالصحبة من أداني عصرنا إلى أعالي العصر الأول، وأصلٌ بحول الله إلى مستقبل الخلافة الثانية.

قال الإمام الرفاعي رضي الله عنه: «من حقيقة الافتقار الاستكفاء بالكافي، وطرح النفس السقيمة بين يدي المُعَافي. وأيضا حقيقته انتظار السبب مع المسبِّبِ مع رؤية

(1) طريق الهجرتين، ص: 60 – 61.

السبب، والاشتغال بالمسبب مع نسيان السبب. وأيضا من حقيقته دوام التبَصْبُصِ والاعتذار، بلسان صدق الافتقار، مع غاية الانكسار. ومن حقيقته تخليص الأسرار من رؤية الأعمال، وترك الاعتماد على حسن الحال. ومن حقيقته أن لا ينصرف العبد عنه بخَلْقِه ولا بمُلْكه (...)

«ويقال: الافتقار فَرَاغَة في رِعاية، ورعاية في ولاية، وولاية في عناية، وعناية في هداية. فمن لا فراغة له لا رعاية له، ومن لا رعاية له لا ولاية له، ومن لا ولاية له لا عناية له، ومن لا عناية له لا هداية له (...).

«واعلم أن الافتقار أجل مراتب المحبين، وأرفعُ منازل المنيبين، وأزلف حالات المريدين، وأعظم آلات الأوابين، وأجل مقامات التائبين، وأعلى وسائل المقربين. وهو أصل العبودية، وصدر الإخلاص، ورأس التقوى، ومخّ الصدق، وأساس الهدى. فمن أراد أن يدخل في عُصبة أهل الافتقار فينبغي أن لا يهتم بأمر نفسه وعياله (قلت: هذا عين الهروب والعجز غفر الله لنا ولكم. ويسعنا ويسعكم الشكر والعذر)، وأن يتملق بين يدي الله تعالى، وأن يكون آيِسا مما سوى الله، مع الافتقار إلى الله».[1]

كيف لا يَنفِر من الصوفية وكلامهم وأخبارهم من ملأت الدنيا بهوسها أركان حياته، وملأ نفسه الغرورُ وحب الجاه، وطمس عقله أحكامٌ مُسَبَّقَةٌ، وضحالة في العلم، وسطحية في التفكير، وقعد به عن كل مكرُمة خساسةُ الهمة، ووضاعة الإرادة! كيف يجلو نفائس النفائس من رُكام الدعوى والاحتراف والدس والإبليسية وملابسات الاِنزواء وظروف الفتنة! مساكين مساكين. ذهنيات، أنانيات، عادات!

قال الإمام عبد القادر قدس الله روحه: «يا غلام! ما دام حب الدنيا في قلبك لا ترى شيئا من أحوال الصالحين. ما دمت مُكَدِّيا (متسولا) من الخلق، مشركا بهم، لا تنفتح عينا قلبك. لا كلامَ حتى تزهد في الدنيا والخلق. كن مجتهدا تر ما لا يراه غيرُك، تُخرَقُ لك العادة. إذا تركت ما هو في حسابك جاءك ما هو في غير حسابك.

(1) حالة أهل الحقيقة مع الله، ص: 185 – 187.

إذا اعتمدت على الحق عز وجل واتقيته خَلْوَةً وجَلْوَةً رزقَك من حيث لا تحتسب. اترك أنت يُعطِك هو. ازهد أنت يُرَغِّبْكَ هو. في البداية الترك وفي النهاية الأخذ. في بدء الأمر تكليف القلب بترك الشهوات والدنيا، وفي آخره تناوُلُها. الأول للمتقين، والثاني للأبدال الواصلين إلى طاعة الله عز وجل.

«يا مرائي! يا منافق! يا مشرك! لا تزاحمهم فيما تترك! هم معدودون! لا تطلب أحوالهم فيما يقع بيدك! هم خرقوا العادات وأنت حفِظتها. فلا جَرَمَ خُرِقت لهم العادات ولم تخرق لك! قاموا عند نومك! صاموا عند إفطارك! خافوا عند أمنك! أمنوا عند خوفك! بذلوا عند إمساكك! عملوا للحق عز وجل وعملت أنت لغيره! أرادوه وأردت أنت غيره! سلموا الأمر إليه وجَاذَبْتَه أنت وحاربته! رضوا بقضائه وقطعوا ألسنتهم عن الشكوى إلى الخلق ولم تفعل أنت! كذلك صبروا على المرارة فانقلبت في حقهم حلاوة. سكاكين القدر تقطع لحومهم ولا يُبالون ولا يتألمون. وذلك لرؤيتهم المؤلم ودهشتهم به (...). يواصلون الحق عز وجل بالطاعة، والخلقَ بحسن العشرة، والأهل بالصلة. هم في نعيمهم دنيا وأخرى. في الدنيا نعيم القرب، وفي الآخرة نعيم الجنة ورؤية الله عز وجل». (1)

قال أبو العتاهية رحمه الله للمائت اللاهي عن الآخرة:

فما لبث السياق به ... إلى أن جاء غاسله
فجهزه إلى جدَث ... سيكثر فيه خاذله
ويصبح شاحطَ المثوى ... مُفَجَّعَةً ثواكله
مخمَّشَةً نَوادبُه ... مُسَلَّبَةً حَلائلُه
وكم قد طال من أمل ... فلم يُدركه آمله
رأيت الحق لا يخفى ... ولا تخفى شواكله
ألا فانظر لنفسك ... أي زادٍ أنت حامله

(1) الفتح الرباني، ص: 131.

لمنــــزل وحـــدة بيـــن الْـ ـمقابـــر أنـــت نـــازلـــه
قصيـر السَّـمْك قـد رُضِمَـتْ علـيـك بـــه جنادلـــه
بعيــدُ تـــزاور الجِيـــ ـران ضـيـقـة مـداخـلــه
أأيتهـــا المقابـــر فيـــ ـكِ مـن كنـا نـنـازلــه
ومـــن كـنـــا نعاشـــره ومـــن كـنـــا نـعـامـلـــه

وقلت:

ألاَ مــن مُـسْعـف حَولــي عَلـى أمـــرٍ أحَـاوِلُـــهُ؟
تَيَتَّــم بَينَنَــا العَـــدل ً وكُـــلُّ النَّـــاس خَـاذِلُـــهُ
هَلُمُّــوا نُنْكــرُ الظُّلمَـــا نُـنَـازلُـــهُ نُقـاتِـلُــهُ

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾. اللهم بديع السماوات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنور بكتابك بصري، وأن تطلق به لساني، وأن تشرح به صدري، وأن تغسل به ذنبي، فإنه لا يعينني على الحق غيرُك، ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

منزلة «الصحبة والجماعة» عالجت لقاء المؤمنين في مرحلة عقد معاهدة الأخوة في الله تهيّؤا للمسيرة التربوية الجهادية. وعالجت منزلة «الذكر» توطيد العبد الطالب للحق علاقاته القلبية بمولاه من خلال الأوراد وحلق الذكر وسائر العبادات. وفي منزلة «الصدق» عالجنا النيات وفضائل الإخلاص لله والاعتماد على الله. في منزلة «البذل» التي ننتهي إن شاء الله من النظر فيها في هذه الفقرة نظرنا علائق العبد مع الدنيا الممسكة بخناق النفس البشرية تعوقها عن التحرر من عبوديات الحاجة والضرورة والشهوة ونزعات الأَثَرة والاستعلاء والاستكبار والظلم والترف.

وقد صنفت في خصلة «البذل» خمس شعب من شعب الإيمان جعلتها للنظر في الجانب المادي للحياة وفهم التربية اللازمة لكيلا يستوعب الجانب المادي رغبات المسلم في المجتمع الإسلامي، ولكيلا يُظلم في الأرض مستضعَف في رزقه، ولكي لا يؤول فقر الفقير به إلى الكفر، ولكيلا يُطغيَ الغنى الأغنياءَ، فيُترفوا في النِّعم ويعيثوا في الأرض فسادا.

هذه الشعب الخمس هي القيم المحورية التي عليها يدور نظام الحياة المادية الاجتماعية في الإسلام. هي قوام المسألة الاجتماعية كلها، الكفيلة إن طبقت في النَّسَقِ الإسلامي الإيماني المتكامل بحل المشكل الاجتماعي السياسي من حيث

تتحدانا الأنظمة الأرضية من ديمقراطية واشتراكية تحديا مباشرا بنجاحها نجاحا نحن أكثر الناس قصورا عن مثله منذ ابتعدنا عن ديننا.

هذه الشعب الإيمانية الخمس هي: الزكاة والصدقة، ثم الكرم والنفقة في سبيل الله، ثم إيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين، ثم إطعام الطعام، ثم قسمة المال.

قلت إن مجموعها يشكل نظاما إسلاميا لحل المشكل الاجتماعي السياسي مشكل الظلم الاجتماعي والفقر وسوء القسمة. وفي استعمالي لكلمة «نظام» ما يحدث سوء تفاهم لأننا ألفنا، منذ وقعنا تحت طائلة الحضارة المادية المستكبرة في الأرض ومنذ انضبعنا بها وانصبغنا بها، أن نكتب بحروف عربية وكلمات عربية معاني ليست من القرآن ولا من السنة، فهي بعيدة الروح والمعنى عن الإسلام بقدر بعد اللفظ عن اللفظ، وبقدر تلوث المدلولات القرآنية في أذهاننا بالدّوالِّ الأرضية. لكن تبليغ المثال الإسلامي الإيماني، وتفكيرَه وتقديرَه، في زمان مكتظ بأشياء حضارة يمسك بزمامها غيرُنا لا بد أن يمر من امتحان التعبير المتداخل، إلى أن يأذن الله ببروز النموذج الإسلامي المستقل، لتعود مرجعيتنا كما كانت وكما يريدها الله عز وجل منا إرادة تكليف قرآنية سنية لا غير.

تكوِّن هذه الشعب الخمس نظاما لا بمعنى النظام القانوني الملزم ولا بمعنى الإحسان الخيري، ولا بمعنى الأخلاق والمروآت، ولا بمعنى التكافل الاجتماعي، ولا بمعنى نزع الملكية الثوري. لكن بكل تلك المعاني ومثلُها معها في نسيج وحيد النوع لُحمته سلطان الإسلام العادل وسداه وازع القرآن وداعي القرآن في قلوب أهل الإيمان والإحسان.

أَنِفَ السادة الصوفية من قبلنا، وهم كانوا المحسنين، من الحِسِّ، وزهدوا في الدنيا، وبذلوا النفس والخير، ومارسوا فضائل الجود والفُتُوَّة وإطعام الطعام وقسمةِ المال في دائرة مُغلقة منحسرة. أما في زماننا وما بعده فالحسُّ يغزو المسلمين غزوا منكرا، يغزوهم بوجد غيرهم وفقدِهمْ هُمْ، يغزوهم بنماذجه المتحدية، وأفكاره، وإديولوجياته، وبضائعه، وعدوانه، وأسلحته، ومكره، وسطوته، وإغرائه ودعايته.

الدنيا العدوة ضَرَّة الآخرة أعرض عنها من قبلنا من الصالحين إعراضا فعليا بالخروج من الأوطان والديار، والتخفف من الأهل والعيال، والتشعث والتزهد. والدنيا الصالحة للرجل الصالح التي منها زاده للآخرة ومتاعه إلى حين اكتفى منها الصالحون قبلنا بالكفاف والعفاف والغنى عن الناس.

وكان ذلك سلوكا اختياريا اضطراريا لا يعْنينا هنا نقدُه. الذي يعْنينا هو كون حضارة الحواس المعاصرة مسيطرة على الأرزاق، وعلى الأسماع والأبصار، وعلى مصائر الشعوب، بحيث استكبرت في الأرض بغير الحق وأفسدت، والله لا يحب المستكبرين ولا يحب الفساد. الذي يعنينا، ونحن ننظر في سلوك إلى الله على طريق الجهاد، هو أن التظالم بين ظَهْرانَيْنا أفضى إلى تركيبة طبقية استكبارية تَرَفية هي مظهر الداء وبؤرة الفساد. الذي يعنينا هو أن المستقبل الجهادي الذي وُعدت به الأجيال المتأخرة من الأمة هو مستقبل الخلافة الثانية التي يعمُرُ بها الله تبارك وتعالى الأرض ويرضى عنها سَاكن الأرض وساكن السماء ويباركها ويجعلها رحمة في العالمين. ولن يتحقق شيء من هذه المسائل التي تعنينا بالانتظار البليد، ولا بتبني الحلول الحسية الجاهزة الواردة طوعا وكرها من بَر الجاهلية وبحرها، ولا بتخطي المشاكل الحسية، السياسية الاجتماعية الاقتصادية، المحلية منها والقطرية والعالمية.

تتحقق المطالب التي تعنينا، معشر الأمة، معشر أهل الإحسان والإيمان، بالعمل الإيجابي لرفض الظلم وقتاله وقتال الترف في أنفسنا وفي العالم، صفا متضامنا مع المستضعفين في الأرض، متناغما مع النداء الإنساني المحترم شرعا وطبعا لضمان حقوق الإنسان والدفاع عن المظلومين والمحرومين. فنحن المأمورون أن نبرَّ الإنسانية ونُقسِط إلى من أقسط إلينا.

جعلت مفهوم «البر» في هذا الفصل بمثابة المحور الذي تدور عليه حياة المجتمع الأخويِّ. وإنَّ مما يرغِّب الإنسانية في الإسلام أن ترى يوما مجتمعا أخويا قام بالإسلام فاضمحل فيه الظلم وتلاشت الطبقية وحوصرت أسبابها. خطابنا فيما بيننا، معشرَ الإسلاميين، وخطابنا للناس يوهم أن الإسلام بحلوله «البديل» وعدٌ برأسمالية جديدة تحقق ما عجزت عنه الرأسمالية اللبرالية، ووعد بالنَّصَفَة الاجتماعية وكأن

«الحل الإسلامي» اشتراكية منقحة عبقرية. هذا خلط فظيع، وذبيحة حرام لم يذكر اسم الله عليها.

إذا قامت الدولة الإسلامية العادلة، وقيامها مطلب أساسي شرطي، وإذا حبَّبَ ما فيها من عدلِ الحكم ونَصَفَةِ القسمة ورخاءِ العيش الحسيِّ من شاء الله من بني الإنسان فما عملية التحبيب هذه في ميزان الإسلام إلا تأليف للقلوب على الدين، ودعوة بالرفْق والإنعام والإحسان للمؤلفة قلوبهم إلى الله جلت عظمته.

إن الحضارة الحواسية الهائمة بلا هدف غير هدف «السعادة» الدوابِّية في طريق مسدود رغم ما فتح الله عليها من أبواب كل شيء ابتلاء. إنها في طريق مسدود رغم فرحها بما أوتِيَتْ. وليس الإسلام مفتاحا ماديا زائدا يبشر بتنمية أسْرَعَ، وبمستوى معيشة أرفع، وبمرافق للاستمتاع والاسترواح أوسع. بل الإسلام، في عنايته القصوى بالجانب الحسي إذ جعل الزكاة ركنا رَكينا، إنما مهد بتوطئة الدنيا لساكنيها طريق الآخرة، وإنما دعا إلى البر والإحسان والتراحم ليكسب العباد بإسعاد بعضهم بعضا في الدنيا سعادة الأبد، وندد بالظلم والترف والاستكبار في الأرض لأن الظلم ونتائجه عوائق مانعة تصُد بهمومها ومتاعبها الأرضية الناس عن طلب ما عند الله وعن التجرد لله، وندد بالفقر والقلة والذلة والمسكنة لأنها جميعا أضداد لشرف الاستخلاف في الأرض وإعمارها، ومن ثم أضدادٌ لكمال إيمان المؤمن وإحسان المحسن.

إن صدأ الحضارة الحسية المتقاطر علينا لا بد أن يُمسَح من العقول والقلوب بتربية إيمانية إحسانية تُلجِئ الذئبين الجائعين في قلوب البشر إلى وِجَارِ النفاق الضعيف، وتُعلي من شأن الزهد ليصبح تقللا إراديا لكي لا نكون أمة من المبذرين إخوان الشياطين، وتعلم التوكل على الله والدعاء والتضرع بوصفها أسبابا من أهم الأسباب وأشرفها لا تتنافى مع الأسباب الكونية المجعولة، وتؤسس فضائل البذل والعطاء والسخاء والكرم وإغاثة اللهفان وإطعام الجائع وكفالة المحتاج على أسس البِر، وتجعل من العدل في الحكم والقسمة هدفا يلتقي عنده وازعا القرآن والسلطان.

ذلك لكي ينصرف المؤمن إلى عبادة ربه في الكسب والسعي على العيال والتمتع بالطيبات من الرزق كعبادته في الصلاة والزكاة والذكر، غيرَ مشغول البال، غيرَ مفتقر

ذلك الفقر الكافِرَ، منصرفا بكليته إلى ربه متقربا، الدنيا في يده لا في قلبه و قد طلقها وطردها من المكان الأقدس في كيانه.

قال مولانا عبد القادر الجيلاني رحمه الله: «القوم شغلهم البذل وإيجاد الراحة للخلق. نَهَّابون وَهَّابون. ينهبون من فضل الله عز وجل ورحمته، ويهبونه الفقراء والمساكين المضيَّق عليهم. يقضون الديون عن المدينين العاجزين عن قضائه. هم الملوك لا ملوكُ الدنيا، فإنهم ينهبون ولا يهبون. القوم يؤثرون بالموجود، وينتظرون المفقود. يأخذون من يد الحق عز وجل لا من أيدي الخلق. اكتساب جوارحهم للخلق، واكتساب قلوبهم لهم. ينفقون لله عز وجل لا للهوى وأغراض النفس، لا للحمد والثناء.

«دع عنك التكبر على الحَق عز وجل وعلى الخلق، فإنه من صفات الجبابرة الذين يكبهم الله على وجوههم في نار الجحيم. إذا أغضبت الحقَّ عز وجل فقد تكبرت عليه. إذا أذن المؤذن فلم تجبه بقيامك إلى الصلاة فقد تكبرت عليه. إذا ظلمت أحدا من خلقه فقد تكبرت عليه. تُب إليه وأخلص في توبتك قبل أن يُهلكك بأضعف خَلْقِه كما أهلك نُمْروذ وغيره من الملوك لما تكبروا عليه. أذلَّهم بعد العز، أفقرهم بعد الغنى، عذَّبهم بعد النعيم، أماتهم بعد الحياة.

«كونوا من المتقين. الشِّرك في الظاهر والباطن. الظاهر عبادة الأصنام، والباطن الاتكال على الخلق ورؤيتهم في الضرِّ وفي النفع. وفي الناس من تكون الدنيا في يده ولا يحبها، يملكها ولا تملِكه، تحبه ولا يحبها، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها، يستخدمها ولا تستخدمه، يفرقها ولا تفرقه. قد صلح قلبه لله عز وجل ولا تقدر الدنيا تُفسدُه. فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح». وقال «لا خير في الدنيا إلا لمن قال هكذا وهكذا»، وأشار إلى أنه يفرقها بيديه في وجوه البر والصلاح.

«اتركوا الدنيا في أيديكم لمصالح عيال الحق عز وجل، وأخرجوها من قلوبكم. فلا جَرَمَ لا يضركم ولا يغركم نعيمها وزينتها. فعن قريب تذهبون وتذهب معكم.

يا غلام! لا تستغن عني برأيك، من استغنى برأيه ضل وذل وزل. إذا استغنيت برأيك حرمت الهداية والحماية».[1]

لأبي العتاهية رحمه الله رأيٌ صوابٌ في ذهاب الدنيا وأهلها حيث قال:

أأيتها المقابر فيـ ـك من كنا ننازله
ومن كنا نشاربه ومن كنا نواكله
ومن كنا نفاخره ومن كنا نُطاوله
ومن كنا نرافقه ومن كنا نُنَاوِله
ومن كنا نكارمه ومن كنا نجامله
ومن كنا له إلفا قليلا ما نزايِله
ومن كنا له بالأمـ ـس خلاّنا نواصله
فحَلَّ مَحَلَّة من حلَّـ ـها صرمت حبائله
أَلا إن المنية مَنْـ ـهَلٌ والخلق ناهلُه
أواخرُ من نرى يفنى كما فنيت أوائله
لعمرك ما استوى في الأمـ ـرِ عالمه وجاهله
ليعلمْ كل ذي عمل بأن الله سائله
فأسرع، فائزٌ بالخيـ ـرِ قائله وفاعله

وقلت:

أفيكمْ يا جُنُودَ الحَقِّ يَا قَابِضي الجَمْرِ
فَتى يَبْتاعُ أخْراهُ بِبَذل زينَةِ العُمْرِ
يَقُومُ لِنَنصُرَ العَدْلا ونُنصِفَهُ مِن الجَوْرِ

---

(1) الفتح الرباني، ص: 143 - 144.

الفهرس

الفصل الأول: الرجال

الفصل الثاني: عقبة واقتحام

الفصل الثالث: الصحبة والجماعة

الفصل الرابع: الذكر

الفصل الخامس: الصدق

الفصل السادس: البذل